جدة... وأُمّنا حواء

عبق المكان وعمق الزمان
قراءة متجددة

جدة... وأُمّنا حواء

عبق المكان وعمق الزمان
قراءة متجددة

د. محمد أنور مسلم نويلاتي

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

الكتاب: **جدة وأُمّنا حواء... عبق المكان وعمق الزمان «قراءة متجددة»**
المؤلف: **د. محمد أنور مسلم نويلاتي**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٦٤٢٨
ردمك: ٥-٦-٩١٥٣٦-٦٠٣-٩٧٨
رقم الفسح: ٥٧١٨٠٣٢٠٢١٠٣٠٨

تصميم الغلاف: هزار صالح بوقري

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التوزيع: **جداول** للنشر والترجمة والتوزيع
بيروت ـ لبنان / نيسان 2021
الحمرا ـ شارع كاراكاس ـ بناية البركة ـ الطابق الأول
هاتف: 746638 1 00961 - فاكس: 746637 1 00961
ص.ب. 13/5558 شوران ـ بيروت ـ لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net
الطباعة: جداول للنشر والترجمة والتوزيع

جداول Jadawel

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾

[سورة النحل : ٣-٥]

■ ■ ■

"بالعلم يُطاع الله ويُعبد

وبالعلم يُعرف الله ويُوحّد

وبالعلم توصل الأرحام

العلم إمام العقل، والعقل تابعه

يلهمه الله السعداء ويحرمه الأشقياء"

[الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه]

إهداء

إلى الحفيدات في سنواتهن الأولى
ليلى وسما وآية
وأمهاتهن أروى وأمل ورهاف

المحتويات

المقدمة

منهج الكتاب ١٥

المبتدى

البداية ٣٥

- هدم مقام حواء ٣٧
- هوية المكان ٣٩
- ما وراء السور ٤٣
- شعائر المقام ٤٧
- أهم الساخرين من المقام ٥١
- من روحانيات جدة ٥٣

الباب الأول
حواء بين أسطورة التكوين وحقيقة الخلق

١ قصة الخلق في الأساطير والملل والأديان ٦١

ما هي الأسطورة ٦١

قصة الخلق في الأساطير ٦٦
قصةُ الخلق في الأديان ٧٤
٢ حواء في التوراة وزوجة آدم في القرآن ٧٩
أولًا : خلقُ حواءَ وقضيةُ الضلع ٧٩
ثانيًا : اسمها ووصفها ٨٣
ثالثًا : عمرُها ووفاتُها ٩٠
رابعًا : مكانُ دفنِ حواءَ ٩٣
٣ الأنثى . . . بين الخطيئة والكمال ٩٥
الخطيئة في اليهودية ٩٥
الخطيئة في المسيحية ٩٧
الذنب في الإسلام ١٠٠
كمالُ المرأة ١٠٣

الباب الثاني
الأنثى بين الألوهية والقداسة

١ ألوهية الأنثى ١١١
٢ بنات الله عند العرب ١١٩
عشتار في جزيرة العرب ١١٩
الآلهة الأنثى عند العرب ١٢٨
بنات الله ١٣٢
الآلهة والأصنام المرتبطة بالنجوم والكواكب عند العرب ١٤٠

الباب الثالث
التصوف ورؤيتهم للأنثى

١ منشأ التصوف وفلسفته وتطوره عند المسلمين ١٥٣

مدخل ١٥٣
تعريف التصوف ١٥٤
أصل التصوف ١٥٦
مصادر التصوف ١٥٧
مفهوم التصوف ١٥٩
أدب المتصوفة ١٦٢
مكانة المرأة في التصوف ١٦٣
قيمة الرمزية في التصوف ١٦٥
الرأي الآخر في التصوف ١٦٦

٢ حكاية التصوف بمدينة جدة ١٦٩

الباب الرابع
حواء في جدة

١ فضل جدة ١٨١

الموقع ١٨١
بداية الاستيطان ١٨٢
خاصية التطهر الروحي ١٨٤
أرض الرباط ١٨٥

- الهجوم البرتغالي ١٨٧
- الهجوم الإنجليزي ١٩١

فتنة جدة ١٩٣

٢ مراحل تركيب الأسطورة ١٩٧

المرحلةُ الأولى : تهيئةُ البنيةِ الثقافية ١٩٧

الزرادشتية ١٩٧

النصرانية ١٩٨

الحنيفية ١٩٩

اليهودية ٢٠٢

كتب اليهود ٢٠٩

حدثوا عن بني إسرائيل ٢١١

الإسرائيليات وقصة الخلق ٢١٨

نماذج للأحاديث الموضوعة ٢١٩

المرحلةُ الثانية : نشوء الأساطير الإسلامية ٢٢٤

المرحلةُ الثالثة : قصة الخلق في الثقافة الإسلامية ٢٢٧

قصةُ الخلق في التفاسيرِ الأولية ٢٢٩

قصة الخلق في المنظار الصوفي ٢٣٧

قصة الخلق في المذهب الشيعي ٢٤٠

حكاية هبوط آدم وحواء إلى الأرض ٢٤٣

- ابنُ قتيبةَ وكتابهُ (المعارف) ٢٤٣
- الطبريُّ ٢٤٤

المسعودي ٢٤٧
المرحلة الرابعة : تحديد المكان وتأصيله في المخيال الشعبي ٢٤٩
إهباط إبليس وحواء والحية ٢٤٩
الخيال الذهني ٢٥٦
المرحلة الخامسةُ : تحولُّ المقام إلى قبر ٢٦٠
الدولة الفاطمية ومشهد المقام ٢٦١
مشهد رؤيا ٢٦٣
تأثير الفاطميين على الحجاز ٢٦٤
تأثير المماليك على الحجاز ٢٦٤
المرحلة السادسة : العثمانيون وتكريس الأسطورة ٢٦٩
المرحلة السابعة : مقام حواء عبر التاريخ ٢٧٢
المرحلة الثامنة : عولمة الأسطورة ٢٧٥

الباب الخامس
للعلم كلمة

١ علوم الحفريات والإنسان ٢٨٥
مدخل ٢٨٥
ما قبل التاريخ ٢٨٧
علوم الحفريات ٢٨٨
٢ الجينوم وحواء الميتكوندرين ٢٩٥
الجينوم ٢٩٥

حواء الميتكوندرين ٢٩٦
آدم الكروموزومات ٢٩٨
الصدام بين العلم وبعض الأديان ٣٠٠
٣ وجهة نظر حول المقام ٣٠٥

الخاتمة

الخاتمة ٣١٥

المراجع والمصادر

المواقع العربية ٣٢٧
المراجع الإنجليزية ٣٣٨
الصحف والمواقع الإلكترونية ٣٤٠

الملاحق

صور الوثائق حول البناء في المرحلتين ٣٤٧
صور الوثائق حول الصوفية في جدة (بما في ذلك أوراق الموسوعة الإسلامية التركية) ٣٦١
صور المقام في مراحل تاريخية مختلفة ٣٧٦

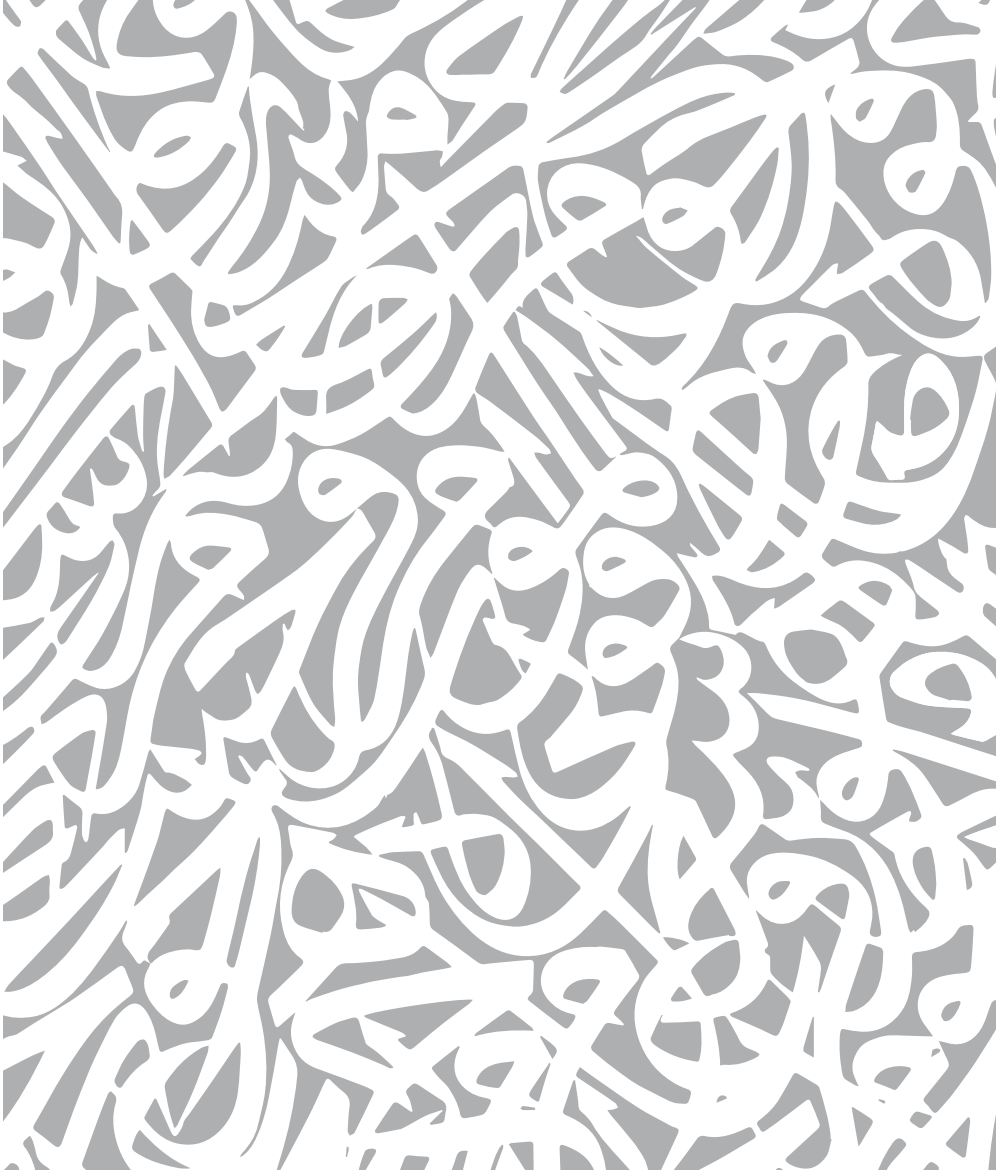

المقدمة

منهج الكتاب

مع مطلع القرن العشرين المنصرم عمل عدد من الدول العظمى في حينه على إعادة تشكيل منطقة العالم القديم بنحت مسمى جديد له وهو مسمى «الشرق الأوسط»، ورسم خارطة جغرافية تحدد حدوده التي تبتدئ من مصر غربًا إلى إيران شرقًا، ومن تركيا شمالًا إلى بحر العرب جنوبًا، فجمعت الخارطة بمسماها الجديد أعراقًا مختلفة، وحضارات متنوعة، وكان أن أريد لها أن تكون ساحة خصبة للصراعات العسكرية والحروب الدامية، وهو ما أثّر سلبًا على أهالي المنطقة بجملتهم، الذين عاش عديد منهم ظروفًا صعبة جرّاء استلاب خيراتهم واستغلال مواردهم وقيمة موقعهم الاستراتيجي.

ومع مطلع الألفية الجديدة استأنفت تلك القوى الغربية دورها في استغلال ثروات المنطقة عبر اتّباع سياسة القوة الناعمة، مستفيدة من أدواتها الثقافية ومختلف الطروحات الدينية لتكثيف تأثيرها على المجتمعات العربية ودفعها لولوج عالم التغيير بشكل هادئ سلس، حتى إذا لم يتحقق المراد أمكنها استخدام سياسة القوة لتحقيق الشرعية التي تريد، ورسم خارطتها من جديد[1].

(1) Joseph Nye (Soft Power: The Means of Success in World Politics), Public Affairs, 2004, New York.

وللأسف فقد ساعدت الاختلالات في البنية الاجتماعية والسياسية في العالم العربي ولا سيما في سنوات الربيع العربي، على خلق بيئة مناسبة لقيام دول إقليم الشرق الأوسط غير العربية في تنفيذ خططها الرامية إلى التلاعب بالأساطير، وإعادة صياغة التاريخ واستدعاء ثاراته وتفسيرها بما يساعدها في تحقيق أطماعها، معتمدة على سياسة القوة الناعمة في ترويج صورة معدلة لمختلف الأساطير وأحداث التاريخ التي تستهدف من ورائها إلى الترويج لواقع سياسي ولوجستي جديد.

وفي هذا السياق، ليس بمقدور الباحث أن يغفل رصد الدور السلبي الذي قامت وتقوم به الدولة الصهيونية بوجه خاص، تلك التي اعتمدت في نشوئها وبقائها على ثقافة توسيع رقعة أساطيرها التوراتية وترويج تاريخها القديم باعتباره حقًا ثابتًا مع محاولة إسقاطه على الواقع الجغرافي لأرض فلسطين وما جاورها.

ثم أضيف إليها بحسب تحديد الأمين العام لجامعة الدول العربية في قمة تونس عام ٢٠١٩ المشروعان التركي والإيراني باعتبارهما مشروعين توسعيين على حساب منظومة الدول العربية في الإقليم.

هكذا بات لكل دولة غير عربية في منظومة الشرق الأوسط مشروعها الثقافي الخاص، الذي تهدف من خلاله إلى إعادة رواية التاريخ وتفسيره، وترتكز هذه المشاريعُ الثقافية على أساطيرَ وأحداث تاريخية كانت السببَ وراء قيام بعض هذه الدول كدولة إسرائيل نموذجًا.

وحتمًا فإن المملكة العربية السعودية بعمق تاريخها وموقعها الجغرافي المتميز على رأس قائمة المواقع المستهدفة ولا سيما أنها قد تشرفت باحتضان الحرمين الشريفين وكثير من المواقع التاريخية والآثارية القديمة على صعيد التاريخ القديم والإسلامي.

وبالتالي فليس أمام أمتنا العربية إجمالًا، والمملكة العربية السعودية بخاصة، لمواجهة ما يستهدفها من مشاريع خارجية، سوى تدعيمِ بنيتها الثقافية بصورة

صحيحة، فهو خطُّها الدِّفاعي الأول، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تجديدِ المفاهيم وإعادة إحياء التراث وفق رؤية علمية سليمة، مع التمسكِ بالنص القرآني وصحيح السنة، وَرَفْضِ ما تسلل في تراثنا من إسرائيليات وغيبيَّات، كان تأثيرها سلبيًا علينا من جهة، وباتت حجة لضعاف النفوس ومن يحركهم لاستهداف أمننا الوطني.

ولا حرج أو ضير في الاعتراف بأي خطيئة في أي معلومة تاريخية تم تمريرها سهوًا ضمن موروثنا الثقافي، فالأفكار بطبيعتها قابلة للتغيير والتجديد، والعبرة بسلامة المنهج وصحة طريقه في قبول أي معلومة والتأكد منها، وليس في تواتر ترديدها بشكل غير موثق. ومن هنا كان التمرد ومناقشة مختلف الأفكار والمعلومات ضرورة صحية لمواجهة أي خطأ أو زلل تسلل من دون وعي عبر موروثنا المعرفي، واختلط مع توالي العهود بكثير من الأهواءِ المذهبية والعرقية والمصالحِ السياسية والعلومِ الدينية وغير الدينية[1].

وانطلاقًا من ذلك كان هدفنا في هذا الكتاب، الذي آمل أن يكون في مساره الصحيح، راجيًا من خلاله تعميق سمة التَّواضع المعرفي من جهة، وتعزيز قيمة التريث في إصدار الأحكام التاريخية، ولا سيما في بعض الموضوعات الشائكة التي تتداخل فيها الحقيقة بالأسطورة.

وحتمًا يأتي على رأس تلك الموضوعات حكاية أمّ كل حيّ (أمّنا حوّاءُ) التي توسع في ذكرها بيقينية مفرطة عديد من المهتمين، ومن دون التنبه إلى حيرة جمهرة من العلماء إزاءها، وهو ما دفعني إلى الكتابة عنها في هذا السفر بشيء من التريث العلمي كما أزعم، ومن دون اندفاع وتَبن لموقفِ معين ورأي تاريخي حول مكان حياتها ومماتها، وبخاصة أنه لم يثبت من ذلك شيء في النصوص المقدسة، مع الإشارة إلى أن التّزمُتَ لفكرة معينة من دونَ دليل علمي واضح في

(١) جريدة الشرق الأوسط، أهداف مؤتمر (التحرر من أخطاء التراث)، (الرباط: ٢٦ فبراير ٢٠١٩م).

ما يُعرف اصطلاحًا بـ«الدوغماطيقية» قد بات سمةً غالبة في التفكير لدى كثرة من العامة والمتعلمة وبخاصة حين الحديث عن وجود أمنا حواءَ في مدينة جُدة[١].

وللأسف فهذه السِّمةُ الاستبداديةُ في الفكر والنقاش، لا تتماشى مع قيم ومبادئ قرآننا الكريم الذي حث على أهمية التدبر والنظر العقلي في مختلف الأشياء والأفكار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

لقد عانت سيرةُ أمنا حواءَ من التَّشويه والتَّوجيه في مختلف الشرائع وبعض الديانات؛ لكونها واقعة في قلب قصةِ الخلق البشري، وعلاقةِ المخلوق بالخالق، ومسؤوليتهِ عن أفعاله، ولذلك يجنحُ الكثيرُ إلى تبسيط هذه السيرة، وروايتِها على شكل «حدّوتةٍ» طريفة، حدثَتْ منذ سنين وقرون سالفة في تبسيطٍ مقيت وجاهل، ليأخذَ من خلاله التاريخُ البشريُّ في المنحنى الذي يريد أن يأخذَه إليه، ويصل به إلى نتائجَ محددة سلفًا، مستشهدًا بنصوصٍ هنا وهناك من تراث مشكوك في صحته، هادفًا التمترس خلفها حال ممارسته تعصبه في دعم ما آمن به من توجه.

---

(١) الدوغماطيقية: هي وهم امتلاك الحقيقة المؤدي إلى حالة التعصب المطلق لكل ما يؤمن به الفرد أو الجماعة. ودوغماطيقي هو شخص غير عقلاني يعتقد اعتقادًا حازمًا أنه على صواب تام والآخرين على خطأ تام.

اللاعقلانية: هي عدم استخدام العقل أو استخدامه بطريقة خاطئة، وهي ليست تيارًا فلسفيًا أو دينيًا وإنما هي سمة تتسم بها كل جماعة تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة، وتقطع أن ما تحوزه من معارف ومعتقدات لا يقبل النقاش ولا التغيير.

وهذا النمط يقود إلى التعصب وكما يقول فولتير: "إن الحق في التعصب حق عبثي وهمجي، إنه حق النمور وإن فاقه بشاعة، النمور لا تمزق بأنيابها إلا لتأكل، أما نحن فقد أفنينا بعضنا بعضًا من أجل مقاطع وردت في هذا النص أو ذاك". وهو ما يعتري البعض عند حديثهم عن دفن حواء بجدة. انظر: ناجية الوريمي، التسامح في الثقافة العربية، مجلد١، (بيروت: مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ٢٠١٨م)، ص ١٥٣.

وفي هذا السياق فليس لي وأنا أخوض غمار البحث والتحقيق في حكاية وجود أمنا حواء بمدينة جدة، إلا أن أستشهد بمضمون مقالة عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين حال تأليفه لكتابه المثير للجدل «في الشعر الجاهلي» حين قال: "ولستُ أزعم أنّي من العلماء... ولستُ أتمدح بأني أحب أن أتعرضَ للأذى، وربما كان الحقُّ أني أحب الحياةَ الهادئة المطمئنة، وأريد أنْ أتذوقَ لذّاتِ العيش في دعةٍ ورضا. ولكنْ مع ذلك، أحب أن أفكر، وأحب أن أبحث، وأحب أن أُعلنَ إلى الناس ما أنتهي إليه من البحث والتفكير، ولا أكرهُ أن آخذ نصيبًا من رضا الناس أو سخطهم عليّ، وأعتمدُ على الله لأحدثَك بما أحب أن أحدّثَك، في صراحةٍ وأمانةٍ وصدق"[١].

حقًا هي الصراحة والأمانة والصدق التي دفعتني إلى خوض غمار بحث حكاية مثيرة للجدل تمتد بجذورها إلى عمق الزمن كحكاية «أمنا حواء»، وهي الصراحة والصدق والأمانة والمحبةِ لوطني ومدينتي جدة، وبخاصة أننا نعيش حراكًا ثقافيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وفكريًّا كبيرًا وبصبغة وجودية، يهدف لأن يكونَ هذا الوطنُ جزءًا فاعلًا في مستقبل البشرية، وليس عالةً عليه. وحتى يكون حَرَاكُنا متنًا وليس هامشًا، فلا بدَّ من هدم مختلف الحواجز الفكرية التي بنيت حولَ ثقافتنا وتراثنا، واستعادة خطابنا الثقافي والتراثي الذي سمحنا - بحسن ظن منا - لِقُوًى موجَّهةٍ من الخارج أن تختطفَه فترة من الزمن.

ومن أهم معالم هذا الحراك أن المملكة وانطلاقًا من مسؤولياتها الروحية وقيادتها للعالم الإسلامي، فقد أنشأت مع الفاتيكان ودول أخرى مركزًا للحوار بين الأديان والثقافات العالمية بالعاصمة النمساوية فيينا، وقد أطلق عليه اسم مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز للحوار بين الأديان والثقافات (كايسيد)، وذلك في عام ٢٠١٢م، وكان ذلك بهدف دفع وإعلاء قيم الحوار والتفاهم بين الأديان والثقافات المتعددة، وإبراز القيمة الحضارية للتنوع البشري انطلاقًا من

(١) طه حسين، في الشعر الجاهلي الكتاب والقضية، (القاهرة: رؤية للنشر، ٢٠٠٧م)، ص٧٠.

الاعتراف بالاختلاف والتنوع في الرؤى والمفاهيم، وإيمانًا باحترام قيم ومفاهيم الآخر المختلف، الأمر الذي يساعد على بناء مقاومة المجتمعات للتعصب، ويسهم في تعزيز السلم والقضاء على الصراعات بين الشعوب[١].

وعليه فإن أي حوار حقيقي وصادق يجب أن يكون وفق رؤية عادلة كما ينص على ذلك المفكر أصغر علي بقوله: "إن الحوار الحقيقي لا ينطوي على مصالح سرية ولا يهدف إلى تغيير دين الآخر أو مذهبه، ولكن يهدف إلى فهم الآخر. ويتطلب أن يكون المشارك في الحوار على يقين وإلمام تام بتعاليم دينه ومذهبه هو. وفي نفس الوقت يجب أن يكون على استعداد للاستماع إلى معتقدات الآخرين واحترام حقهم في اعتقاد ما يريدون وبهذا يكون الحوار أساسيًا لمكافحة التعصب وتقدير العناصر المشتركة بين الأديان والمذاهب المختلفة مثل القيم الأخلاقية الأساسية التي يمكن أن تشكل الأساس للجهود المشتركة للعمل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والسلام"[٢].

واتفاقًا مع ذلك فنحن جميعًا مطالبون بدعم قيم الحوار في هذا الحراك الذي ترعاه بلادنا على الأصعدة كافة. ومطالبون بإعادة النظر في قضايا التراث بنظرةٍ علميةٍ فاحصة، وعدمُ أخذه على عِلاَّته بكل رواياته التراثية (ويرتاب البعض من محاولات تجديد التراث جاعلين من هذا التراث كتلة واحدة يختلط فيها النص الديني بمحاولات فهم النص، فلا فرق بين الوحي المنزل وما كتبه العلماء الأوائل حوله، كله له قداسة الدين فكل محاولة للتجديد هي محاولة للتحريف وهي رؤى غير مرتبطة بدين أو عصر بل فعل متكرر في كل الثقافات عبر العصور)[٣]، ونحتاج إلى العودةِ لمنابع هذا الدِّين من: قرآن كريم، وسنة نبوية مطهَّرة صحيحة، وتاريخ مجيد موثَّق.

---

(1) www.kaiciid.org.

(2) Ashki.M.S.[Islamic Approaches And Principles of Dialogue] Sterling VA: Salam Institute For Peace And Justice, 2006. P6.

(٣) هيكل، عبد الباسط (المسكوت عنه من مقالات تجديد الخطاب الديني)، نيوبوك للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢٠م، صفحة ١٨.

والبحثُ في قصة مقام حوّاءَ وعلاقة حواء بجدة يأتي في هذا الإطار، وهو إطار العلم الصحيح الذي تسودُ وتتقدم به الأمم، كما قال جبران خليل جبران[١]:

بالعلم يُدرَكُ أقصى المجد مِن أممٍ ولا رُقِيَّ بغير العلم للأُمَمِ
لم يُرهِقِ الشرق إلا عيشةٌ ردحًا والجهلُ راعيةُ الأقوامِ كالنَّعم

وحتى يكون حديثنا علميًا غير إنشائي، فلا بد من سبر أغوار عروس البحر الأحمر مدينة جُدةَ، هذه العروس التي تعرضت إلى مؤثراتٍ ثقافية وديموغرافية واقتصادية في الألفية الجديدة، كانت لها نتائج عميقة الأثر، ولا بدَّ من وضعِها في سياقها الصحيح تحليلًا واستنتاجًا.

ثقافيًا:

على الصعيد الثقافي كانت مدينة جُدة تُمثِّل مجتمعًا تقليديًّا، يعتمد على أنماطٍ تقليديةٍ معينة، في التفكير والتفاعل، اصطدم مع التأثير الثقافي للعولمة، وأخذت أمواجُ الحداثة بأشكالها ووسائلها كافة، تضرب في أنماط هذا المجتمع التقليدي، سواءً من الثورة المعلوماتية، والوسائل الرقمية في التعامل المصرفي والاقتصادي، أو الاعتمادِ على اقتصاد المعرفة، والتواصل عبر الحدود في الفنون والآداب مع الشعوب الأخرى، وكان أن تغيرت تركيبه الأسرة من الأسرة الممتدة الجامعة بين عدة أجيال وتسكن في بيت واحد، إلى أسرة نووية صغيرة مستقلة، يعمل أفرادها في منظمات كبيرة أهلية أو حكومية، تتحكم في أنشطة المجتمع الإنتاجية، مما أدى إلى ارتداد الثقافة وأنماط الحياة القديمة ورموزها وإعادة إنتاج مجتمعها وتفصيلاته، والفرار إلى الماضي باعتباره حاميًا لما ترسخ في الذاكرة والوجدان من هوية ثقافية، حتى لا تذوب وتتلاشى أمام تفاقم أسئلة الحداثة وأدواتها. تلك التي ظهرت بطبيعتها الطاغية على النفوس والأجساد، تحمل في

(١) أحمد قبش، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ط٣، (دمشق: دار الرشيد، ١٩٨٥م)، ص٢٤٧.

مكنونها مفهومًا شموليًا وكونيًا وقدرة على تشكيل الأفكار والعقول والأذواق، لهذا يجد البعض الهروب إلى الماضي ضرورة وجودية، آخذة عدةَ أشكال منها: إنتاجُ عدد كبير من الكتب المحلية التي تُطبَع وتُوزَّع في جُدةَ والمواقع الإلكترونية وبعض الجمعياتِ الأهلية وتقدم تاريخَ جُدةَ على أنَّه التاريخُ الشعبي والفولكلوري في القرن العشرين فقط[١].

وبهذا تَمَّ مسخُ تاريخ هذه المدينة العريقة التي يعود تاريخها إلى قرابة ثلاثة آلاف سنة سابقة، وحصره في جانب بسيط منها وهو تاريخ الحواري والحوانيت والأكلات الشعبية، مع إهمال التاريخ والمكانة التي أنزلها إيَّاها الإسلامُ وأهلُه، باعتبارها مدينةَ الربّاط درعَ مكةَ من ناحية، ومدينةُ التطهير الروحي قبلَ الصعود إلى مكةَ من جانب آخر، حيث اختلط فيها المسلمون بجميع مذاهبهم عبر التاريخ بتسامح وأخوه، وجاورهم فيها بعض من أهل الكتاب.

وللأسف فقد أهمل بعض هذه الكتبِ والمواقع الإلكترونية التاريخَ النِّضالي لجدة وأهلها في التَّصدي للغزو الصليبي البرتغالي، ومواجهة قصفِها من بوارج الإنجليز، ودفاعها التاريخي عن مكة، واكتفتْ بتكرار قصص الفَوَّالينَ وباعةِ الخبز والأكلات الشعبية، ومَن هي الأُسَر التي سكنتْ داخلَ السور، ومنْ سكنَ خارجَه، وتوارت مع هذا السياق تلك الكتبُ الجادة المحدودةُ في أساسها، التي تم الاتكاء على عدد محدود منها في ذكر بعضِ جوانبِ تاريخ جُدةَ، وما تبقى كلامٌ مرسَلٌ يصل إلى أن يكتبَ البعضُ تُرَّهاتٍ وخُزَعْبلاتٍ وأهازيجَ شعبيةً وتاريخ أسرهم وأقاربهم على أنها تاريخُ جُدةَ؛ لأن هذا هو أسهلُ الطرق في التمسك بالماضي مع المتغيَّرات الثقافية وإظهار صادق الحب لهذه المدينة وتراثها حتى لو أخذ شكلًا سطحيًا[٢].

---

(١) التاريخ الفولكلوري جزء بسيط من تاريخ كل مدينة ومجتمع؛ ولكن لا يجوز حصر التاريخ كله في هذا الشكل، هذا إجحاف لتاريخ المدينة لأنه يمثل مدخلًا بسيطًا وجزءًا متواضعًا من تاريخ مدينة عريقة مثل جدة.

(٢) الكتابة عن الأسر التي سكنت داخل السور عمل ثقافي محمود، وللأسف فقد أخذه =

اقتصاديًا:

تعرضَتْ جُدةُ لمتغيراتٍ كبيرةٍ أهمها ازديادُ اعتمادِ الاقتصاد السعودي على صناعة البترول والبتروكيماويات، وبالتالي فمن الطبيعي أن ينتقلَ الثقل الاقتصادي شرقًا، نحوَ مناطقِ هذه الصناعات، بدلًا من تركُّزه في جُدةَ كما كان سابقًا، كما تغيرت الأنظمة واللوائح والقوانين الدولية التي تحكمُ التجارةَ والوكالاتِ التجارية وكذلك المحلية، وبالتالي تبعثرتِ التجارةُ بين مُدن متنوعة في منطقةِ دولِ مجلسِ التعاون الخليجي، وأصبح الوكيلُ التجاري الخليجي يُغطِّي التجارةَ داخلَ المملكة، ولم تعد جُدةُ المركزَ التجاري، ونقطةَ الاستيراد الرئيسة في البلاد. وصاحبَ هذا انهيارٌ للإمبراطوريات الاقتصادية، المبنيةِ على أُسَرٍ معينة؛ عندما دبَّ الخلافُ بين أبناء وأحفاد مؤسسي هذه الشركات الأسرية العملاقة، والبنوكِ التي تعود إلى أُسَرٍ معينة، وأخرج كثيرٌ من أبناء وأحفاد مُلّاكِ هذه الشركات ثرواتِهم إلى خارج البلاد للاستثمار الدولي[1].

ديموغرافيًا:

تعرضت جدة في تاريخها الحديث لتحولات جذرية ديموغرافيًا، حيث يذكر أول توثيق لعدد السكان في القرن العاشر الهجري أنها كانت قرية ضئيلة الشأن

= البعض بعد ذلك على منحى إقصائي لفئات اجتماعية بشكل أساء لجدة وأهلها، كما اختلفت القوائم لهذه الأسر على مر السنين.

(١) في دراسة لشركة (كي بي إم جي) للاستشارات والمراجعة بحسب موقع مال الإلكتروني ٢٠١٨/٤/٢٥، وُجِدَ أن نصف الشركات العائلية السعودية لا تصل إلى الجيل الثالث، وتتجاوز استثمارات هذه الشركات ما مقداره ٧٠٪ من استثمارات القطاع الخاص.٥٠٪ من الشركات العائلية السعودية لا تصل إلى الجيل الثالث: www.maal.com، قامت مجلة فوربس العالمية بوضع ترتيب للشركات العائلية السعودية من حيث الأهمية الاقتصادية والحجم المالي. أقوى ١٠ شركات عائلية بالسعودية: www.khaberni.com ٢٠٢٠/٦/٢٨.

لا يبلغ عدد الرجال الذكور فيها أربعين رجلًا، ولذلك فقد كان من عادة إمام المسجد الجامع أن يعدَّ الحاضرين وقت صلاة الجمعة فإذا بلغ عددهم أربعين رجلًا خطب فيهم وصلى جمعة، وإن لم يبلغوا النصاب صلى بهم ظهرًا. وحتمًا فقد ساهم عمل بعض الرجال في البحر وتغيبهم عن المسجد في هذه الظاهرة أيضًا[١].

كما وثّق الرحالة (بوركهارت) عدد السكان في عام ١٨١٤م بين اثني عشر ألفًا إلى خمسة عشر ألفًا، وأشار الرحالة (تاميزييه) في العام ١٨٣٤م إلى أن عدد السكان قد بلغ عشرة آلاف نسمة، كما ذكر الرحالة (مالتزون) في عام ١٨٦٠م أن عدد سكان مدينة جدة قد بلغ خمسة عشر ألف نسمة، وزادهم السنوسي في العام ١٨٨٢م إلى ثمانية عشر ألف نسمة، وأثبت الإحصاء الرسمي في عام ١٨٨٨م وفقًا لما ورد في السالنامة التركية أن عددهم قد بلغ خمسة وعشرين ألف نسمة، ومع مطلع القرن العشرين عام ١٩٠١م بلغ عددهم ثلاثين ألف نسمة، وعند هدم السور وصلوا إلى قرابة خمسة وثلاثين ألف نسمة[٢].

وكانت دائرة المعارف البريطانية قد قدرت السكان في عام ١٣٣٠هـ بعشرين ألفًا، وقدرت دائرة المعارف الإسلامية عددهم في عام ١٣٣١هـ بثلاثين ألفًا من العرب المختلطين بالتكارين بحسب وصفهم، وفي عام ١٣٧٥هـ ذكرت دائرة المعارف البريطانية أن عددهم قد بلغ مائة وستين ألف نسمة، وفي عام ١٣٧٩هـ قدر عددهم بثلاثمائة وخمسين ألفًا إلى نصف مليون، وقدرهم الأديب الراحل عبد الله عبد الجبار بأربعمائة ألف نسمة[٣].

---

(١) عبد القدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط ٤، (جدة، دار المنهل، ١٤٣٩)، ص ١٦١.

(٢) عبد الله زاهر الثقفي، العمارة بمدينة جدة في العصر العثماني، المجلد الأول، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ٢٠١٥م) ص٢٣٢ – ٢٣٥.

(٣) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة، ج٢، (جدة، ١٩٨٠م) ص ٢٢٨.

تجدر الإشارة إلى أن بداية التغيير السكاني قد تمثلت مع خطة التنمية الأولى بين عامي ١٩٧٠ – ١٩٧٥م، حيث كان الصرف الحكومي محدودًا وكذلك الأعداد، كما استوعبت جدة ثقافيًا واجتماعيًا الهجرات الداخلية من مختلف قبائل ومدن الحجاز الذين انصهروا في بوتقة اجتماعية وثقافية واحدة. ثم مع خطة التنمية الثانية بين عامي ١٩٧٥ – ١٩٨٠م أخذ الأمر في التغير التدريجي، جراء حالة الإنفاق الحكومي الكبير على البنية الأساسية والصحة والتعليم، وهو ما سمح بتدفق سيل من العمالة والموظفين من جنوب شرق آسيا وشبه القارة الهندية والدول العربية خاصة اليمن ومصر وبلاد الشام للمشاركة في البناء والتجارة، ولحجمهم الواسع لم يتمكن المجتمع المحلي لمدينة جدة تحقيق خاصية الاندماج معهم، فكان أن بدأت المدينة بالتوسع، وأخذت الأحياء الجديدة الراقية في الظهور تاركة وراءها الأحياء القديمة، التي سكنها الوافدون الجدد ذوو الدخل المحدود سواء كانوا من داخل الوطن أو خارجه.

وكان من جراء ذلك أن لجأت كل مجموعة إلى التمترس خلف ثقافات فرعية وجيوب عرقية (إثنية) على شكل جزر منفصلة بثقافتها عن الأخرى، وهو ما أدى إلى بروز حالة من التمايز الاقتصادي بين تلك المجتمعات المعزولة، ونتج عن ذلك ظهور عدد من الأحياء الفقيرة والعشوائيات المتناثرة هنا وهناك ضمن مدينة صارت في سنين معدودة مليونية من حيث عدد ساكنيها.

ومع حلول عقد التسعينيات الميلادي ازدادت فرص التجارة والتعلم والمعرفة بجدة وصاحب ذلك توسع في الهجرة الداخلية إليها سواء من قرى ومدن الجنوب الغربي للمملكة العربية السعودية أو من مختلف قرى وبلدات الحجاز الساحلية، مع توسع للهجرة من شبه القارة الهندية ومصر، وأصبحت الهويات الثقافية بذلك ملجأ لكل مجموعة مع وضوح حالة التمايز في الفروق الاقتصادية والاجتماعية وطبيعة الهويات المختلفة.

وشكّل كل جيب ثقافي جماعات للدعم الاقتصادي والاجتماعي لاستقبال مهاجرين جدد إلى جدة من الداخل والخارج. ومع الألفية الجديدة تحولت الهجرة إلى طوفان بشري يتعدى الأربعة ملايين نسمة يسكن ثلثهم تقريبًا في ستين حيًا عشوائيًا، وعند إعداد الكتاب صرّح أمين مدينة جدة عن النية في إعادة تخطيط هذه الأحياء العشوائية التي تضم أكثر من مليون شخص مع إعادة تسكين قاطنيها بشكل أفضل[١].

الغريب في الأمر أن عديدًا من تلك الجيوب المجتمعية المتنوعة عرقًا وثقافة أخذت تقدم نقسها بأنها المجموعة الأساس في مدينة جدة، وأنهم أصحاب جدة الأصليين، وانعكس الصراع العالمي للهويات والثقافات في عصر العولمة على جدة، وازداد تمسك كل فئة بثقافتها مع ازدياد الفروق الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية والعرقية (الإثنية).

حكوميًا:

اعتمدت الدولة منذ الابتداء وصولًا إلى عقد الثمانينيات الميلادي على أبناء مدينة جدة ومكة المكرمة بوجه خاص، جراء سبقهم في التعليم الحديث، فساهموا بقوة في تأسيس أجهزةِ الدولة وقطاعاتها المتنوعة، وفي إنشاء وإدارة هذه الأجهزة. وكان وجودهم لافتًا في بعض القطاعات كالقطاع المصرفي، وقطاع الطيران بشقَّيْه المدني والعسكري، ووزارة الخارجية، وأجهزةِ الاستخبارات، وغيرها.

ونتيجةً لزيادة مساحة التعليمِ الرسمي والتوسع في خريطة الابتعاث ليشمل أبناء مختلف المناطق، فقد ساهم ذلك في زيادة فرص التوظيف لهم، وبحكم قانونِ الكثافة العددية فقد غلب عددهم في الوقت الذي انخفضَتْ فيه نسبة مشاركة أبناءِ مدن الحجاز في الجهاز الحكومي، مقارنةً مع أبناء المناطق الأخرى، وتزامَنَ هذا أيضًا معَ نقلِ الأجهزة الحكومية من مدينة جُدةَ إلى العاصمة الرياض.

(١) جريدة المدينة، الأربعاء ٢٠١٩/٣/٢٧.

هذه العواملُ مجتمعة وغيرها أَوْجَدتْ نوعًا من الضغوط الاقتصادية والثقافية، وساهمت في أن يكتبَ البعضُ عن جُدةَ بصيغة الماضي، وكأنه ينظر في المرآة الخلفية، لسيّارةٍ منطلقة إلى الأمام، وهو ما يفسر تركيز العديد ممن كتب على ماضي المدينة وحسب سواء اقتصاديًا أو اجتماعيًا وثقافيًا، ولا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين، ذاكرين تجّارها وروّادها الاقتصاديين، إضافة إلى مختلف أنشطة المدينة الفولكلورية القديمة وما عرفوه من عادات وتقاليد، كما أخذوا يتوسعون في ذكر أحياء المدينة العتيقة وأزقتها وأهلها، مختصرين تاريخ عريق لمدينة ممتدة في عمق الزمن في معلومات بسيطة لا تعدو أن تلامس سطح التاريخ وجوهره.

لأجل ذلك وإيمانًا مني بالدور الكبير الذي قامت به المدينة جاء هذا الكتابُ لإنصاف جُدةَ: تاريخها وحاضرها ومستقبلها المشرق، الذي وإنْ تغيّر شكلُه عن الماضي، فإنَّ روحَ هذه المدينة الوثّابة، وقُدراتِها الخلّاقةَ الكامنةَ في أهلها، يجعلُها في مقدمة الصفوف لتحقيق رؤية الدولة، في جعلها كما تستحق أن تكون، زينةَ حواضرِ العرب ثقافيًّا واقتصاديًّا ومصرفيًّا، ومن أفضل ١٠٠مدينةٍ في العالم بحلول العام ٢٠٣٠م.

منهج الكتاب

وبحكم أني لست مؤرخًا أكاديميًا متخصصًا يوثق ويبحث في المعلومة التاريخية وفق أحد المنهجين كما يقول العروي وهما: منهج المؤرخ الشاهد، حيث يكون محايدًا تجاه الحدث الذي يسجله، دقيقًا في وصفه بصورة مطلقة؛ ومنهج المؤرخ الباحث الذي أشبه ما يكون بذلك القاضي الواقف خارج الحدث بمسافة زمنية تقيه مغبة التحيز، ليتمكن من التعامل مع شهادات مات أصحابها بحيدة، فيفحصها متبعًا منهج البحث التاريخي، ويصل إلى نتائج وأحكام من خلال بحثه وتحليله[١].

(١) عبد الله العروى، مفهوم التاريخ، (الدار البيضاء وبيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م) ص٨٤ – ٩٨.

بحكم أني لست من أولئك المتخصصين، فقد أردت أن يكون كتابي هذا معرفيًا بعيدًا عن قواعد المنهج الصارم في أدوات البحث التاريخي، عابرًا به في سياحة ثقافية عبر مختلف القرون، ومن خلال عديد من الموضوعات التي جميعها تترابط وتتمحور زمنًا وموضوعًا حول حكاية من عمق الزمن وهي حكاية أمنا حواء.

أردت أن أكون ضمن إطار مفهوم الباحث المثقف، ذلك الذي يمثل نتاج ما يعرف بنظرية المعرفة (الأبستمولوجيا)[١]، انطلاقًا من أن الكتابة التاريخية هي محط تفاعل وتكامل بين مختلف العلوم الفاعلة في إنتاج الظاهرة التاريخية، حيث يوجد تفاعل بنيوي بين العلوم الثلاثة (العلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية)، وبالتالي فالباحث المثقف[٢] هو ذلك الشخص القادر على التفكير العميق، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، للوصول إلى الرؤى والتصورات الشاملة، مع قدرته على عرض هذه الرؤى والتصورات بأسلوب يجعل الآخرين يقتنعون بحجته أو يجعلها ممكنة التبني والتنفيذ[٣].

وفي هذا السياق، ليس خافيًا أن من أهم سمات المثقف الحقيقي أن يكون شجاعًا في طرحه الفكري، وألا يقع تحت سلطة المسلمات التي يحذر المؤرخ الأكاديمي المتخصص من اقتحامها، لأنه يفكر خارج الصندوق، ولا يُسلم بكل ما يسمع، ولا يكتفي بالأفكار الجاهزة، وليس لديه ما يُقيده من قواعد صارمة كحال المتخصص الأكاديمي.

---

(١) نظرية في المعرفة تأخذ جذورها من الفلسفة والعلوم الإنسانية، وصاغ المصطلح (جيمس فيردريك فيرير) الذي قسّم الفلسفة إلى قسمين أنطولوجي وأبستمولوجي.

(٢) أوجد مصطلح «الباحث المثقف» الفرنسي كريستوف شارل الذي راهن على انتهاء عصر المؤرخ الخالص وأن القرن الواحد والعشرين هو قرن الباحث المثقف، قرن التداخل بين التخصصات والعلوم.

(٣) فضيلة سيساوي، محاولة لتحديد مفهوم المثقف، في المجلة الاجتماعية، (القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية، ٢٠١٠م)، مجلد ٥٢ عدد ٢، ص ١١٥ – ١١٨.

أشير إلى أن التاريخ لم يعد معرفة علمية بالماضي الإنساني في مجال بحث الظاهرة التاريخية في العصر الحديث، أي أنه لم يعد مجرد ترسيمات أكاديمية حول المجتمع والثقافة، بل صار علمًا متشعبًا يفرض على المؤرخ ربط العلمي بالاجتماعي، والنقدي بالسياسي، وبالتالي الدمج بين القضية التاريخية والمسائل الاجتماعية والسياسية[1].

هذا الكتاب إذًا يُقدّم سياحة ثقافية حول «حواء» من منظار الباحث المثقف، ويتجوّل في ظاهرة عمق عبادة الربة الكبرى لدى المجتمعات في حركة التطور الإنساني وترسيخ عبادة الأنثى لدى عرب الجزيرة في الجاهلية، وبالمقابل يبين مدى الجهد الذي بذله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصعوبة جهاده في مقاومة هذه العقيدة المترسبة العميقة، التي أخرجت الأنثى عن سياقها الطبيعي الذي أراده الله، فكانت الدعوة النبوية مصححة لتلك المفاهيم الخاطئة، حيث أعلى من مقام الأنثى مجتمعيًا، وأظهر سماحته في تعامله مع الأنثى ووصفها بالكمال وفخره بها كما قال يوم أحد: "أنا ابن العواتك أنا ابن الفواطم"، ووصف البنات أنهن المؤنسات الغاليات.

كما تفرض سياحتنا الثقافية في هذا الكتاب أن نتطرق إلى تأثير الدول الإسلامية المتعاقبة في مصر ثقافيًا على منطقة الحجاز، كما سنحاول التطرق بنظرة أعمق في عمق تلك المفاهيم الثقافية التي تعززت مع الدولة العثمانية، وبيان مدى تأثيرها على الحجاز عبر دعم ممارسات معينة.

أخيرًا وليس آخرًا، لا بدّ من أن أشير إلى عمق ارتباطي الوجداني بموضوع الكتاب حيث قضيت طفولتي وسنوات الصبا مجاورًا لمقبرة «أمنا حواء» بحي العمارية بجدة، ولذلك فلا ريب أن يأتي هذا الكتاب باحثًا مفصلًا، ومقدمًا لتحية عطرة لأم البشر عليها سلام الله ولذكراها العطرة.

---

(١) محمد عبد الرحمن صادق، شبكة الألوكة في ٢٠١٨/١٢/٢٨. (ثقافة، معرفة، فكر).
www.alukah.net

لقد أخذتْني رحلةُ إعداد هذا الكتاب، إلى زياراتٍ حولَ عدد من مدن العالم، منها: إسطنبولُ التي حصلتُ منها على وثائقَ من الأرشيف العثماني، توثقُ بناءَ السورِ والمقامِ على مرحلتَيْنِ بينهما مئتا عام، ووثائقَ عن المتصوفة في الحجاز وارتباطِهم بالعثمانيين، وساعدني مركز فيمير للترجمة كثيرًا.

كذلك ذهبت في رحلة بحث إلى واشنطن وولاياتِ الساحل الشرقية في الولايات المتحدة، حيث قمتُ بزيارة مكتبة الكونغرس، وعددٍ من المراكز الأكاديمية المختصة بالدراسات الدينية، وإلى لندنَ وباريسَ وبعضِ العواصم العربية وعلى رأسها القاهرة، حيث حصلتُ على عدد من الكتب التراثية المهمة، كما حصلتُ من بيروتَ على بعض كتب المذهب الشيعي.

أشير إلى أني قد حرصت على إعادة النظر في جانب من مضمون كتابي هذا الصادر عن دار رؤية بالقاهرة باسم «أسطورة جدة أمنا حواء بين الأساطير والأديان والعلم»، الذي حظي بمساحة مرضية من النقاش المباشر الموسع مع أكاديميين في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وملاحظات دارسي الدراسات العليا، وجامعة الملك عبد العزيز وغيرهم، أو غير المباشر عبر ما كتب في الصحف والمواقع الإلكترونية الخارجية من مقالات في جريدة الأهرام المصرية، أو المحلية كجريدة المدينة، وجريدة عكاظ، وجريدة الوطن، إضافة إلى ما تمت مناقشته بعدئذ في البرنامج الإذاعي مدارات ثقافية مع الدكتور زيد الفضيل عبر إذاعة جدة، وما صدر في ثنايا مراسلات متنوعة مع مثقفين ومؤرخين من أهل جدة، ومع مراكز أبحاث، فضلًا عما أبرزته نخبة من مثقفي أهل جدة في ندوة ثقافية خاصة عقدت بغرض عرض الكتاب ومناقشة محتواه معهم.

وعليه تأتي هذه القراءة الجديدة لنفس الموضوع، وقد حرصت على توخي الجانب العلمي بدرجة أكبر في طرح القضايا، كما تمت مراعاة التوثيق والضبط الأكاديمي بدرجة كبيرة؛ حيث تم استبعاد بعض ما اختلف المؤرخون حوله،

واستبعاد كثير من الاستطراد والموضوعات الجانبية. مع التوسع في ذكر وتوثيق التاريخ المحلي للمقام، بما في ذلك ما كان يقال عنده، وهوية الفئات التي قدّست المقام وتلك التي سخرت منه، كما تم تحديث الآراء التي قيلت في الجزء الخاص ببنات الله، مع التوسع في ذكر الأسباب العميقة لهذه العبادات، وتم التفصيل كذلك في الجزء المتعلق بصوفية الحجاز وعلاقتهم بفكرة المقام وخاتمة مختلفة للكتاب.

يتكون الكتاب من أربعة أبواب رئيسة، ينظر الباب الأول في قصة حواء من منظار الأديان والأساطير، فيما يتحدث الباب الثاني عن طبيعة عبادة الأنثى وبنات الله عند العرب، إضافة إلى تقديس الصوفية للأنثوية على اعتبار أن المقام الموجود في جدة قد يكون مرتبطًا بمفاهيم تقديس الأنثى عند الصوفية، ويتناول الباب الثالث حكاية «حواء» ذاتها في مدينة جدة، كيف نشأت؟ وما العلاقة الرابطة بين المدينة والشخصية؟ ويلقي الباب الرابع الضوء على مكانة الإنسان في العلم الحديث سواء كان ذلك في علوم التاريخ أو الحفريات أو الأحياء والجينوم.

أخيرًا، أتقدمُ بالشكر لكثير ممن قدّم لي يد المساعدة حال إعداد هذا الكتاب، وأوّلُهم: ابنُ عمي الشيخ غسان بن مظهر نويلاتي ولفريق عملِ المكتبة المكية، الذين دعموا إخراجَ هذا الكتاب، كما أتقدم بالشكر لعديد من الباحثين المهتمين الذين أكرموني بقراءتهم لنص الكتاب وبملاحظاتهم وتعليقاتهم عليه وهم: الأستاذ الدكتور سعود بن عبد العزيز الدعجان وزملاؤه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. كذلك الدكتور منير علي عبد الدايم، والدكتور عبد الله بن هاشم البار، والدكتور زيد بن علي الفضيل، والأستاذ خالد بن صلاح أبو الجدايل الذي تناقشت معه في كثير من تفاصيل تاريخ جدة الاجتماعي، والأستاذ محمد يوسف طرابلسي، والأستاذ أحمد محمد باديب، والمهندس رائد العقيلي. كما أتقدم بالشكر لمكتب الدكتور طلال أدهم الهندسي، وللمهندس مصبح عساف لخرائط مقبرة حواء المقدمة منهم.

وفي الختام، يُقدّم الكتاب وجهة نظر حول مقام أمنا حواء في مدينة جدة، وأرجو أن تتبعها خطوات من باحثين جادين. وأعرف يقينًا أن من أكرموني بقراءة أفكاري وعملي لا يوافقوني جملة في كل ما ورد من آراء، لذا من الطبيعي أن أعلن تحملي وحدي مسؤولية ما جاء فيه من معلومات وآراء تُعبّر عن وجهة نظري التي تكونت بعد بحث واستقصاء، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. محمد أنور نويلاتي

جدة

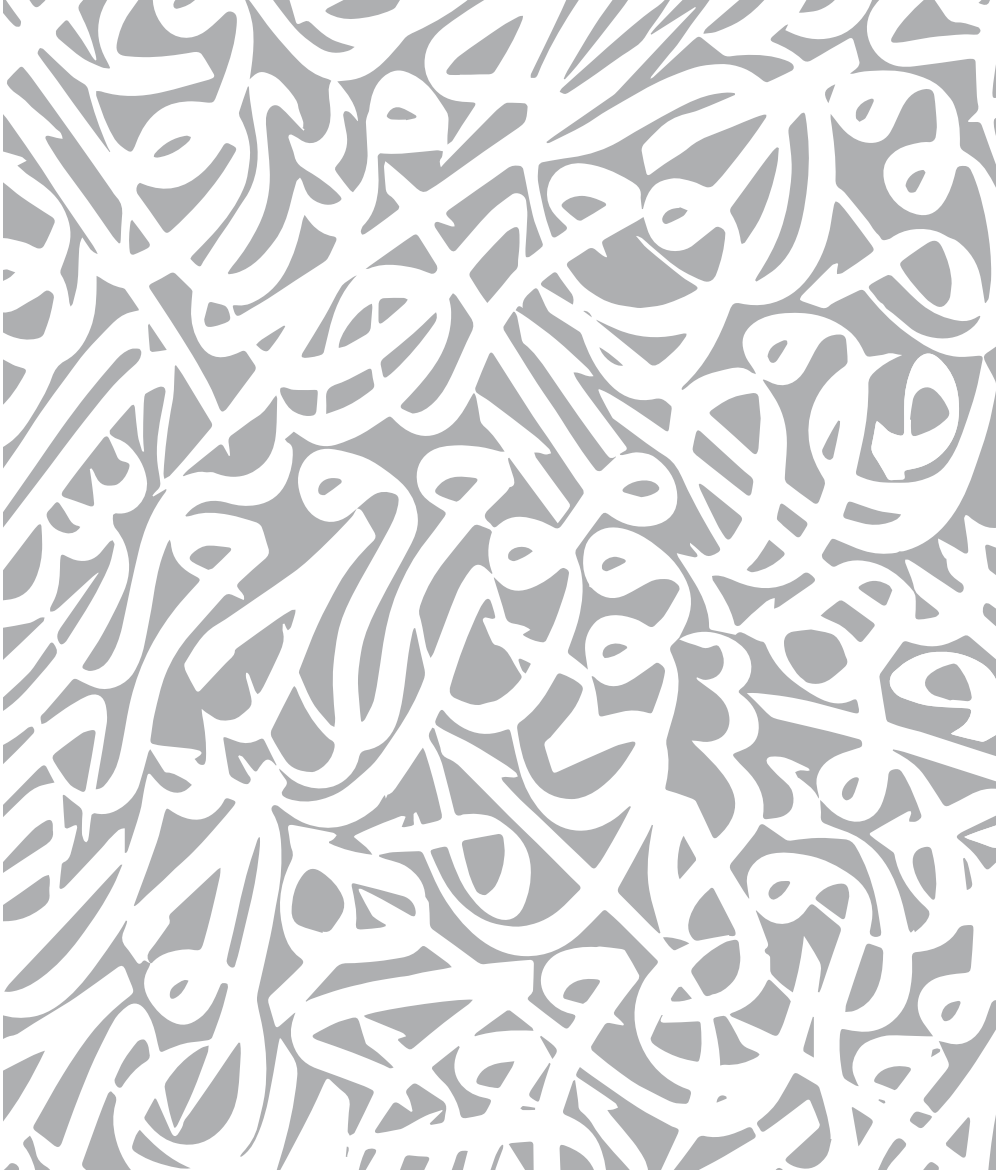

المبتدى

كـم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينُـــه أبـــدًا لأول منـــزل

أبو تمام

■ ■ ■

تحـــن الكـــرام لأوطانهـــا
حنيـــن الطيـــور لأوكارهـــا

محيي الدين الخطيب

البداية

على مدى البصرِ كان الفراغُ كبيرًا واسعًا صامتًا هائلًا، يليه بحرُ الأربعين، ثم الأفقُ إلى ما لا نهاية، هذا هو المنظرُ الذي شَكَّل وجدانَ الفتى منذ أبصر النور بحي العمارية، وكان يكفيه أن يصعدَ إلى الطَّابق الثاني أو الثالث من منزلهم، لمشاهدة الأفق بلا عوائق، والاستمتاع في فصولٍ معينةٍ من السنة، بالهواء العليل القادم من البحر، محمَّلًا برائحة الموج، عابرًا هذا الفراغَ الهائل المَهِيب.

مقبرةُ أمّنا حواءَ شكَّلت هذا الفراغَ الكبير المجاورَ لمنزل الفتى، ولم يفصلْها سوى أمتارٍ معدودة عنه، وتصادفَ أن السنةَ التي وُلِد فيها، كانت السنةَ التي انتهى فيها والدُه من بناء بيت بطراز حديث مبني بالخرَسانةِ المسلحة.

إذا أخذنا خطًا تخيليًا من هذا المنزل، واتجهنا به غربًا، فسوف يصادف المقام الذي هُدم في عام ١٩٢٦م، ويستمر هذا الخطُّ التخيُّلي، حتى يصلَ إلى البوابة الغربية، المغلقةِ منذُ سنواتٍ طويلة، والقريبةِ من القشلة.

تظهر القشلةُ في منظر الأفق، وهي الحاميةُ العسكرية التي بناها محمد علي باشا عام١٨٤٠م لحماية جُدَّةَ من الاعتداءات الخارجية بشتَّى أشكالها، وفي الشمال الغربي يوجد بحرُ الأربعينَ، الذي أجمع المؤرِّخون أنه البحر الذي استحمَّ فيه الخليفة عثمانُ بن عفان رضي الله عنه، وقال عنه: إنه بحرٌ مبارك، وطلب من الصحابة الاستحمامَ فيه، واعتمده الميناءَ الرسميَّ لمكةَ المكرمةِ،

وبدأ بهذا تاريخُ جُدةَ الإسلامي، وبدايةِ تبوّئها لمكانةٍ مميزة، أعطاها دورَها الإسلامي المتميز بعد ذلك.

وعلى شواطئ ذلك البحر المبارك اعتادت السُّلطاتُ في فترة طفولة الفتى أن تضع مدفعَ الإفطار الرمضاني، ليعلم الناس بموعد وقت الإفطار، وموعد وقتِ السحور، ووقتِ الإمساك عن الطعام والشراب، وعندَ بدايةِ دخول الشهر، ومع إعلان العيد يُطْلَق المدفع عددًا من الطلقات استبشارًا وفرحًا، وكان الفتى وإخوانُه يصعدون إلى الطابق الأعلى من منزلهم، ليشاهدوا الشُّعلةَ النارية، التي تخرجُ من المدفع أولًا، ثم يليها الصوتُ الذي يَصُمُّ الآذانَ ويهزُّ المبانيَ الشعبيةَ من قوَّته.

كان ولا يزال الاسم الدَّارِجُ لمقبرة أمّنا حواء، هو نُطْقُها بكلمةٍ واحدةٍ بدون الهمزة (حَوَّا)، كما ألف الناس قديمًا وحديثًا ذكر اسمها مقرونًا بلفظة (أمنا)، فهي في العرف التاريخي أم البشر، كما هو حال زوجها أبو البشر سيدنا (آدم). وكانت المقبرةُ في الستينيات الميلادية، تختلف تمامًا عن وصفها حاليًا؛ حيث أخذت الطَّابعَ الصحراوي، غيرَ متساوية الارتفاعات، وفيها رمالٌ صحراوية، وتخضرُّ إذا أصابها الغيثُ، وتَنبُتُ الشُّجيراتُ الشوكية فيها، ودفنُ الموتى يتركز في منطقة الوسط، وقليلٌ باتجاه الشمال، وأجزاءٌ بسيطةٌ باتجاه الجنوب، أما الشرقُ والغربُ فلم يكن يتمُّ فيهما الدفنُ، وكانت صحراويةً وعشوائية، وفيها نباتاتٌ شوكية بأشكال مختلفة.

أما اليومَ، فإن المقبرةَ مرصوفة بالكامل، وأرضيَّتها مستوية، وبها ١٤٠٠ قبر بموجب إفادة الإدارة المختصة بالأمانة، وكلُّ القبور مبنيَّة على نظام صحيٍّ معين وضعَتْه البلدية، ويتساوَى معَ شكل ومواصفاتِ القبور الموجودة في المقابر الأخرى في مدينة جُدةَ، وبصورةٍ خاصة مع مقبرةِ الأسد القديمةِ جدًا، وقد تم توحيدُ التعامل مع القبور حاليًا في مدينة جُدةَ، بموجب مواصفات الأمانة، بشكلٍ لا يقبل الاجتهادَ والتَّحريف.

هدم مقام حواء:

كانت بداية النهاية لمقام أمنا حواء في يناير ١٩٢٦م حيث منعت السلطات الجديدة الحاكمة لمدينة جدة بقيادة الملك عبد العزيز آل سعود الزوار والحجاج من دخول المقام وزيارته، ثم في شهر أبريل ١٩٢٦م تم هدم المقام كما أبرق بذلك القنصل البريطاني، ومُنع الناس من ممارسة أي شعائر بالقرب منه.

أما مشاهدات القنصل الهولندي فقد أوضحت أن بعض الزوار من النساء بصورة خاصة استمروا في الحضور إلى الموقع المهدم للمقام وممارسة شعائر الزيارة، فكان أن قررت الدولة نقل حجارة المقام ومكوناته المهدمة إلى خارج المقبرة بعيدًا عن الناس.

وفي حينه وبحسب ما ورد في جريدة «أم القرى» السعودية الصادرة من مكة، التي كانت ولا تزال الجريدة الرسمية للدولة، طلب الملك عبد العزيز من الأزهر الشريف بمصر عبر القنوات الرسمية معرفة رأيهم الشرعي في جواز التمسح بالقبور والطواف حولها، وحكم شرب الدخان والغناء والموسيقى، وفي ذلك فقد نشرت جريدة «أم القرى» تحت عنوان: («فتوى علماء مصر: جاء الحق» في العدد ٧٣ الصادر يوم الجمعة ١٦ ذو القعدة ١٣٤٤ الموافق ٢٨ مايو ١٩٢٦م) جواب الأزهر الشريف الذي أفاد بتحريم الطواف بالقبور، والسلام بالتقبيل والمس، مع جواز الاكتفاء بالدعاء الشرعي، أما رأيهم بشرب الدخان فقد أوضحوا كراهيته، مشددين على عدم الإصرار على تعاطيه، فالإصرار على الصغائر معصية وفق الرأي الشرعي، كما أوضحوا كراهية الموسيقى واللهو. وهو ما أكد صحة فعل الملك عبد العزيز بمقام «حواء»[1].

استمر حضور الزوار إلى المقبرة حتى العام ١٩٣٠م كما أوضحت تقارير القنصلية البريطانية التي كانت ترعى مواطني شبه القارة الهندية لممارسة شعائر

(١) أم القرى، عدد ٧٣ في ١٦/ ١٢/ ١٣٤٤هـ.

العدد ٧٣ السنة الثانية

ويح الرجال من النساء • بما اذا نافرت القلوب
لا الرأي يرأب صدعها • ولا التغلي الطبيب
والدهر يأتي بالشقاق • والمودة يستريب
يستعذب التقريق بين • الى المتين ويستطيب
فلربما اخلف اليقين • وربما عجز الحبيب
تاه الرجال اذا السلطة • فاقهم سبع وذيب
واحد وأخلاء الرجا • ل أولئك أسرع عجيب
الباقين اذا دنوت • القاذفين اذا تنيب

ليتني

الا ليتني حول الغمام حمامة • يرفرف بين الروضتين جناحي
اروح واغدو حيث شاء الهوى • فلا يتهددني فتى دون راحي
ابيت قرير العين أنعم بالكرى • مسالمي نفسا وصبا حي
ازف قراحي ما تقاسمها • وأوشفها من ماء زمزم راحي
وآمن لا دهر يروع بطلعه • ولا اهله يغشوني بسلاحي

ديوان الخبر الدين

﴿ وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر ﴾
﴿ ام القرى ومن حولها ﴾

أم القرى

يوم الجمعة ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٤ — مكة المكرمة — ٢٨ مايو سنة ١٩٢٦

فتوى علماء مصر

زيارة القبور ، الدخان ، الموسيقى ،

حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الداخلية

تلو ما جاء بخطاب سعادتكم رقم ٠٠ مايو سنة ١٩٢٦ نمرة ٨١٨ ادارة الزقازيق له صورة من التقرير المرسل من حضرة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد لحضرة صاحب الدولة وزير الداخلية بمصر للطالب ... الادعية عما تضمن به التعريفة للقراء فيما اشتملت عليه سورة التقرير من الموضوعات والاناشيد ايضاً مما يتبع في اقامة الحج اولا في هذا العام مع ما ذكره حضرة صاحب الجلالة الملك بن السعود

وبالنظر فيه وجدنا ان ما يصلح موضوعاً للاستفتاء هو ما جاء بالوجهين السادس والسابع مما يتعلق بزيارة القبور والموسيقى والدخان على الوجه المذكور بتلك الصورة

فاما ما يتعلق بزيارة القبور فقد ثبت لنا انها مندوب اليها بحرمتها بقوله صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فزوروها) وكان صلى الله عليه وسلم زور قبور المسلمين يعلمهم اذا قصدوها ويقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون أسأل الله لي ولكم العافية وكان يزور شهداء أحد على رأس كل حول ويقول السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقال عكرمة امداد الفتاح عن التهتساني ما نصه قال لي الاحياء والمستحب في زيارة القبور ان يقف مستدبر القبلة مستقبلا وجه الميت وان يسلم (ولا يمسح القبر ولا يقبله ولا يمسه) وبين القصد جلية مما ذكره من زيارة القبور ثم اجازة ذلك لهم ايضاً (وكذا كل ما لم يعهد من غير فعل السنة) وهي قاعدة كلية ينبني عليها كل مكروهة نحرمها ولم يستثن من ذلك الا ضرب الدف في الاعراس والاعياد الدينية والملاعبة الرجل زوجه وتأديبه اهله وحاضنته بقوله

هذا وترى ان نأخذ حكم متنا السنية حرسها الله تعالى بتبديل امر الحج على المسلمين وسلام عليكم ورحمة الله

٧ مايو سنة ١٩٢٦ ٢٩ شوال سنة ١٣٤٤
نمرة ٣٩ فتاوى وجه ١٠ جزء ٢٨

مفتي الديار المصرية شيخ الجامع الازهر امضاء (محمد الرحمن فرغلي) امضاء (محمد ابو الفضل)

وقد جاء الحق..

نحمد الله الذي اوجد هذه القرية لينشر كبار علماء الاسلام ما يعتقدونه الحق في بعض المسائل التي جعلها الناس سبباً للطعن في نجد وأهلها والتي لا تبقى على سبب موجب مزرية بنا عليها ودعوة الناس ليعيدوا التأسي بخالف الشريعة من الاعمال التي نأتيها حتى نحوز ونرجع فيها الى القدح والذم لا لشيء الا لانا لم نتبع أهواء الناس ولسنا في حال من الاحوال ولا في ساعة من الساعات يتبعون اهواءهم وغايتهم في أمر الدين ومتى الناس امم غضبوا ومتى كان الاحتكام الى كتاب الله وسنة رسوله مدعاة الاضطراب وسوء الحال

قامت ضجة حول الاشاعة التي انتشرت بعيد الفجر المصري وان جلالة الملك لا يسمح بعزف الموسيقى ولا زيارة القبور الزيارة التي يحرمها الاسلام ولا باستعمال الشجرة الخبيثة (الدخان) في ديار يتبنى ان يحرم فيها العود والعود والمسك وكانت هذه الامور من الاشياء التي اشتهر منعها في نجد ومن الاشياء التي يرى الناس اهل نجد بالتعصب لتحريمها ولما جد الجد في أمرها ونزل جلالة الملك في حكمها لما أمره به الشريعة المطهرة لم نجد الحكومة المصرية غير الاقتباع بقرار علماء الدين فلستفت مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر وما كان لها أن يتركا ما يعلمانه من الدين وبتبعها

الليت والدعاء له في زيارة القبور لا تجوز) وان نجدا وعلماء نجد لا يقولون غير هذا ولا يطلبون غيره وان القاعدة الكلية تركك ما لم يعهد من فعل السنة وبهذا انقطعت حجة القبوريين الذين يطلبون تشييد القباب والاضرحة للمسجى بها ودعاء اصحابها . ومتى كان الناس من الطواف بالقبور والمسح بها لم يسكن بدعة ايدعنا ما يدل انها من الاسلام وان الاسلام لا يجيز غير الزيارة والدعاء للميت وقد أفتى بذلك علماء مصر والقوانين على فتاواهم حكومتهم ولم ينفرد بذلك علماء نجد وحدهم

وكذلك الدخان فقد اخذ الناس على التشديد فيه منه مع أن قريباً من الثلثين يتعاطونه وقد فصل علماء مصر الأمر كما يرى القارىء في الفتوى

وليس معنا الدخان اثبتنا على الدين ولكن المصلحة الشرعية اقتضت بحثه وقول الاكثر حتى في ذلك كما جاء في الفتوى

وكذلك الموسيقى فليس معنا فيها فيتوى في نفوسنا ولو استرسلنا وراء اهوائنا لحرمنا الدخان من لذة النفس أن نترك العزف والغناء ولكنه الترفع عن العبث واللعب وعلى الاخص في هذه

جريدة «أم القرى» العدد ٧٣
الصادر يوم الجمعة ١٦ ذو القعدة ١٣٤٤ الموافق ٢٨ مايو ١٩٢٦م

مكان المقام مما اضطر الدولة في ذلك العام إلى البناء حوله وإغلاقه تمامًا. ومع السنين استمرت الزيارة للمقبرة والمقام من دون تحديد[١].

وفي هذا السياق فقد وصف الرحالة اليابانيون عام ١٩٣٩م الموقع موضحين بأنهم لم يعثروا على أثر لقبر حواء، مبينين أن المكان قد تعرض لتقلبات الزمان، وتغير فيه كل شيء وسط هذه المنطقة الصحراوية، مشيرين إلى صعوبة تصديقهم بأن هذه المنطقة كانت من أكثر مناطق العالم ازدحامًا بالسكان وتقدمًا في العصر الجليدي الرابع[٢].

أشير إلى أن مقام أمنا حواء كان في مكانٍ قصي خارجَ سور مدينة جُدةَ، فكان بعيدًا عن الكثافة السكانية، والتجمع العمراني، وكان المقام محاطًا بجبانةٍ لدفن الموتى، لا تُعرَفُ حدودُها بالضبط ولا تاريخُها، وظلَّتْ كذلك حتى قرَّر العثمانيون أن يضربوا حولَها سورًا، وإعادةَ بناء المقام كما سيأتي ذكرُه.

هوية المكان:

اشتهرت منطقةُ (العمارية) التي يتواجد فيها المقام في القرن التاسعَ عشرَ الميلادي، بأنها كانت منطقةَ صهاريجَ لتخزينِ المياه المتشكِّلة من الأمطار، وفيها بساتينُ تسمى في ذلك الوقت (المربعة) أو الاستراحة، ومن أشهر البساتين آنذاك: بستانُ إبراهيم عارف، الذي انتقلت ملكيته إلى علي العماري صاحب القصر الأخضر، وهو من أخذتِ المنطقةُ اسمَها من لقبه، وتورِدُ بعضُ المصادر التاريخية، أن أجزاءً متفرقة من هذا الحي، كانت لها أسماء أخرى، مثل الياقوتيةِ وغيرِها.

(1) Ulrike Freitag (A History of Jeddah: the Gate of Mecca in The Nineteenth and Twentieth Centuries) Cambridge University Press, U.K 2020, 199 – 200.

(٢) إيجيرو ناكانو، الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية، ترجمة: سارة تاكاهاشي، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٩م) ص١٩.

ويعتبر جدي لأمي بكر بن محمد بانافع رحمه الله من أوائل مَن سكن هذا الحيَّ في الثلاثينيات الميلادية من القرن العشرين، منتقلًا من حارةِ الشام طلبًا للهواء العليل الذي تتمتعُ به هذه الضَّاحيةُ، ولا سيما أنه كان يعاني من مرض الرَّبو المزمن في حينه.

بدأت النهضةُ الحقيقية لحي العمارية مع بداية الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي، تزامنًا مع ابتداء برنامج تحديث الدولة، وبناءِ الأجهزة الحديثة لها، وتوسَّط هذا الحيَّ كثيرٌ من هذه الأجهزة والوزارات والإدارات بعضها كان في الأحياء الملاصقة مثل الكندرة والبغدادية ومنها على سبيل المثال: قطاعُ الطيران المدني بجميع فروعه الذي كان مقرَّه في المطار القديم، والإذاعةُ في طريق المطار، وكذلك إدارةُ الجوازات، وفي الناحية الأخرى كانت وزارةُ الخارجية والحاميةُ العسكرية. وكان العاملون في قطاع الطيران المدني والعسكري يسكنون هذا الحيَّ بكثافة[1].

وفي مرحلةٍ لاحقة تواجدت الصحفُ الوطنية المهمة مثل جريدة البلاد، وجريدةِ المدينة، إضافة إلى مطبعة الأصفهاني. وكان أن استوطن الموظفون والفنِّيون لهذه الأجهزة محلَّةَ العمارية، لقربها وسهولة الانتقال سيرًا إلى أماكنِ العمل المختلفة، فضلًا عن استخدامُ وسائط النقل الجماعي التي كانت تُوَفِّرها الجهاتُ الحكومية.

وكان من هؤلاء الموظفين الرواد - إن جاز التعبير - والدي وإخوانه، حيث كان والدي وأخيه الأكبر علي من أوائل مَن عملوا في خدمات اللَّاسلكي، ثم كانوا من الأوائل في إدارة اللَّاسلكي بالخطوط الجوية السعودية حال شرائها لأولِ طائرات مدنية وذلك بعدَ انتهاء الحرب العالمية الثانية، كما كان عمي محمود من أوائل الذين عملوا في الأرصاد الجوية برتبةٍ عسكرية، عندما كانت تابعةً للقوات

(١) في مراسلات خاصة مع الصديق خالد صلاح أبو الجدايل، ومن منشوراته على وسائل التواصل الاجتماعي، ويعتبر مَرْجِعًا في تاريخ العمارية بصورة خاصة وتاريخ جُدةَ.

الجوية، وأيضًا يُعدُّ عمي رشاد المتخرج في جامعة فؤاد الأول بمصر، من الرعيل الأول الذين عَمِلوا في السلك الدبلوماسي السعودي وممن تعين بمرتبة سفير للمملكة، وكذلك الحال مع عمي فؤاد الذي كان من أوائل مَن تم تعيينهم في وظيفة قنصل عام للمملكة العربية السعودية، و كان عمي مظهر مِن أوائل من عمل في صيانة كهرباءِ المطار، ثم انتقل إلى العمل في قسم مبرقات المطار، ولاحقًا عمل عمي عبدُ البديع في السلك الدبلوماسي رحمهم الله جميعًا.

كما استقطبتِ العماريةُ أبناءَ الجالية الحضرمية العاملين في التجارة بمنطقة وسط البلد وباب مكةَ، وهم من يطلقُ عليهم طبقة البرجوازيةُ الصغيرة؛ كما وفي مرحلة لاحقة، تأسَّست شركةُ بن لادن العملاقةُ في عمق الحي من الناحية الشرقية منه، وكان ملحقًا بالشركة حوشٌ ضخم فيه مدرسة دينية، ويسمى حوشَ الخشب، وبه كانت توضع الأخشابُ ومُعدَّاتُ التعمير.

وعندما توفي المعلمُ محمد بن لادن في حادث طائرة عام ١٩٦٩م تقريبًا، أحضرت الشركة حطامَ الطائرة إلى هذا الحوش، ويوجد كذلك حوشٌ ضخم آخرُ يسمى المسبكَ، وهو مكانُ محطةِ البنزين الموجودة اليومَ على شارع الستين.

تجدر الإشارة إلى أن بن لادن قد عمّر أهمَّ مسجد في العمارية باسمه، وهو المسجدُ الذي يُصلَّى فيه على الجنائز، وتُحمَلُ سيرًا إلى المقبرة، وفي هذا المسجد تعلمت صلاةَ الجماعة، وحضورَ صلاة الجمعة، والصلاةَ على الأموات.

وكان أولُ عمل قمتُ به مع شركة بن لادن خلال عطلة الإجازة الصيفية، حيث جرَى العرفُ أن الأهلَ يرسلون أولادهم، إما إلى مدارس التقوية في الصيف، أو للأعمال البسيطة، وأذكر أني عملتُ في قسم المحاسبة، وكنتُ كثيرَ «التزويغ»، غير أن مجاملة أصحاب الشركة لجدي قد منعت فصلي من العمل فصبروا عليّ شهرًا واحدًا، ثم انتهى عملي معهم بالتراضي، وعدت إلى ممارسة لعبتي المفضلة كغيري من الأقران وهي كرة القدم، التي استمتعت بها حتى انتهاء العطلةِ الصيفيةِ.

كذلك فقد استقطب الحي مجموعة متجانسة ثانية للسكن فيه وهم أبناء قبائل سراة الحجاز غير المتزوجين، الذين يعملونَ في الدواوين الحكومية بمراتب بسيطة، فكانوا يتشاركونَ السكنَ، كلُّ مجموعة منهم في بيتٍ وحدَهم، وفي حالات أخرى، إذا كان الأخُ الأكبر أو العمُّ متزوجًا، فإنه يخصص جزءًا منعزلًا من منزله، لأقاربه العزَّاب لمتابعة أعمالهم، وكانوا يَحرِصون على تأدية الواجباتِ الاجتماعية مع أهل الحي، ويَنتهزون فرصَ الإجازات للعودة إلى قراهم وديرتهم بحسب قولهم.

واستقطب الحي مجموعة ثالثة متجانسة وهم العمال المصريون الذين كانوا يعملون في البناء، ولسببٍ أجهلُه كانت العماريةُ أكثرَ منطقة تستقطب العمالةَ المصرية، وكانت قهوةُ غرابٍ القريبةُ من باب مكةَ هي مكانُ تجمعِهم وسَمَرِهم، بل كانت هي عنوانهم الرسمي، وعندَ المرور بجانبها يمكن سماعُ صياح العمال مع لعبة الطاولة أو النرد، وآخرينَ متحلِّقينَ على لعبة الدومينو، وآخرينَ يتحدثون في الأعمال ويتحاسبون، وللحظة تحسب نفسك وكأنك في حي من أحياء مصر لكنها في قلب حارة العمارية بجدة.

وأخيرًا في هذا السياق يمكن القول أيضًا بأن الحي قد استقطب مجموعة رابعة وهم الفقراء والكادحين، الذين يسعَون إلى رزق يومهم، من مختلف الأصول والأعمار، يجمعُهم الحرصُ على الرزق الحلال والسعي له.

وعلى كل، فقد تميزت مختلف المجموعات السالفة بتمازجها في بوتقةِ واحدة، حيث يبدأ نشاطهم الفاعل من بعد صلاة الفجر، فينطلق الموظفُ إلى وظيفته، والعاملُ إلى عمله، والطالبُ إلى مدرسته في نظام وتناغُم، وتحكم الجميعَ قوانينُ الضبط الاجتماعي، والاحترامُ المتبادَلُ، والترابطُ والتكافلُ بين الجميع، وهكذا في عمل جاد، وحركة دؤوبة حتى إذا حل المساء تناقصت حركتهم وأخذت في التوقف في وقت مبكر، استعدادًا ليوم جديد، ونشاط فاعل

متجدد. وأذكر أنه عندما بدأ الإرسالُ التلفزيوني بشكل بسيط في حينه خلال عقد الستينيات الميلادية، كانت ترتفعُ أصواتُ أجهزة التلفزيون من المقاهي الشعبية، وبعد نهاية البث يخيمُ الصمتُ الرهيب على الحي قبلَ منتصفِ الليل بكثير.

ما وراء السور:

في تلك الحقبة المبكرة من عمري قررت تعلُّمَ قيادةِ الدراجة الهوائية، ولم يتسن لي ذلك إلا بعد أن أخذتْ أسرتي مني المواثيقَ والعهود بألا أقود دراجتي في شارع العمارية الرئيس، وأن أكتفي بالشارع الصغير، الذي يفصلُ بين منازلنا وسورِ مقبرة أمنا حواء، فتم ذلك، وبدأت التجهيز لهذه التجربة الجديدة والمثيرة لي في وقته، حيث قمت بداية بإصلاح دراجة أخي الأكبر وإعادتِها للخدمة بعد فترة من إهمالها.

أخذت أتعلم قيادة الدراجة بالاتكاء على السور، وكلما سقطت أعاود النهوضَ، لأقود الدراجةَ عدة أمتار، ويدي مسنودةٌ إلى ذلك السور المهيب، وهكذا دواليك حتى تمكنت مِن قيادة الدراجة بنجاح، والفضل في ذلك يعود إلى سورِ المقبرة الذي عرفت بعد ذلك بسنين طويلة أنه قد بني على مرحلتين: كانت الأولى إبانَ عهد الدولة العثمانية بين عامي ١٦٩٣ - ١٦٩٥م، في حين تمت الثانية بين عامي ١٨٨٧ - ١٨٨٩م وقبلَ ذلك كانت جبانةً في الخلاء، وكان المقامُ في أطرافها.

جدير بالذكر أن والدة السلطان سليمان الثاني هي أول مَن فكّر في بناء سور المقبرة، كما اهتمت ببناء مقام أمنا حواء بشكل لائق، انطلاقًا من منظار ديني يهدف إلى التقرب لله، وكان أن كلفت بذلك المسؤولين في الحجاز لإجراء الكشف والتقييم على أرض الواقع، والرفع لها بتكلفه بناء مقام لائق مع سور المقبرة، وبعد ذلك بسنتين أرسلت التكاليف كاملة إلى أحمد باشا والي جدة، وكلفته بترؤس لجنة شرعية من أصحاب الخبرة للتأكد من البيانات الهندسية التي سبق إرسالها والشروع في التنفيذ.

بعد قرابة مائتي عام تهدم المقام وساءت حالته، كذلك سور المقبرة، وكثرت الشكاوى والتماسات الأهالي إلى الدولة العثمانية بإعادة الترميم وتقويم البناء، فكلف السلطان عبد الحميد الثاني وزارة الحربية بمتابعة الأمر، التي رفعت بدورها تقريرًا إلى مجلس شورى الدولة يوصي ببناء المقام والسور بتكلفة إجمالية قدرها مائة وتسعة عشر ألف قرش، فاعتمد المبلغ في المحضر رقم ١٤٥١ مع تقارير هندسية تفصيلية لذلك وجرى إعادة الترميم بين عامي١٨٨٧ - ١٨٨٩م[1].

لقد شَكَّلَ هذا السورُ التاريخي أهميةً كبيرة للفتى وأصدقائه وأقرانه خلال سنوات الطفولة والمراهقة، وكان شريكًا لهم حين ممارستهم لرياضة كرة القدم وتأسيسهم لفريقِهم الرياضي الذي أطلقوا عليه اسم «شبابِ حواء»، وقاموا بإعلانه كتابة بواسطة الفحم وبصورة بدائية على جانب السور الشرقي للمقبرة، الذي يمثل الضلعُ الغربي لملعبنا الممتد من الشمال إلى الجنوب، وهو ذاته الشارع الذي تسير فيه المواكبُ الحزينة يوميًا بعد صلاة العصر، قادمةً من عمق العمارية، ومتجهة نحوَ البوابة الجنوبية الرئيسة للمقبرة.

وبمجرد ما يظهر الموكبُ الحزين، يتسمَّر الصبيةُ في مكانهم مع رفع إصبع السبابة اليمنى تعبيرًا عن النطق بالشهادة، وبمجرد ما يتعدى الجزءُ الأكبر من الموكبِ الجانبَ الجنوبي من الملعب، ينطلق الجميعُ لمواصلة مباراتهم لا يلوون على شيء، وفي أحيان قليلة تجنحُ الكرةُ إلى مسار الموكب الحزين، وتختفي بين أقدام حاملي الجنازةِ، وهنا كان يتسمّر الجميعُ فعلًا حتى تمشي الجنازةُ وتظهر الكرةُ من دون سعي من أحد.

ومن متابعة هذه المواكب الحزينة بشكل مستمر، تعلم الصبيةُ بعد فترة التمييزَ بين نعشِ الأنثى، والنعشِ الذي يحمل الرجلَ؛ حيث إن نعشَ الأنثى عليه صندوقٌ خشبي، تعود فكرتُه إلى ما كان سائدًا في الحبشة وفق مشاهدة الصحابيةُ

(١) يمكن النظر إلى ترجمة الوثائق المودعة في الأرشيف العثماني والمرفقة في الملاحق.

أسماءُ بنت عميس رضي الله عنها حال هجرتها مع زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الحبشة، فكان أن ارتأت السيدة فاطمةَ الزهراء رضي الله عنها وضعه عليها حال وفاتها حتى لا يظهرَ شيء من تفصيلاتِ جسدِها وهي محمولة واستمرت هذه البدعةُ الحسنةُ إلى اليوم.

بما أن السورَ الشرقيَّ هو في نفس الوقت ضلعُ الملعب وجزءٌ منه، لذا فقد كان من الطبيعي أن تجنحَ الكرةُ من فوق السور إلى داخل المقبرة أكثرَ من مرة، وكان اللاعبونَ الكبار في السن يتقافزون فوقَ السور والنزولِ إلى داخل المقبرة لاستعادة الكرة، ومع الزمن تفتقَ ذهنُ اللاعبين على بناء سُلَّمٍ بدائي يسهلُ إخفاؤه، يكون داخلَ المقبرة، ويُستعملُ لإخراج الشخص الذي قفز فوقَ السور لإحضار الكرة؛ لأن الخروجَ كان أصعب من الدخول لانخفاض أرضِ المقبرة عن أرضية الشارع في بعض المواقع. ساعدَ على ذلك أنَّ الجانبَ الشرقي للمقبرة كان مغمورًا بالرمال الصحراوية، وتنبتُ فيه نباتات شوكية وصحراوية ولا توجدُ فيه قبور، وقد قام الفتى بدورِه على مَرِّ السنينَ بالقفزِ من على السورِ لإحضارِ الكرة.

تجهيزاتُ الفريق لا تشبه الموجودَ اليوم لهذه اللعبة، فالكرةُ نفسها كانت من جلدٍ بُنّي اللون غليظٍ بداخلها بالونٌ يُنفخُ، ثم تتمُّ خياطةُ الجزء العلوي وإغلاقُها بصورة محكمة، واستمر ذلك لغاية ذهاب أحد فرق كرة القدم من جُدةَ لحضور نهائيات كأس العالم في إنجلترا عام ١٩٦٦م، وعاد الفريقُ بالكورة بشكلها الحديث، التي انتشرَتْ في جُدةَ، ولذلك كان السؤالُ قبل المباريات: "هل الكورةُ للمباراة خياطةٌ وإلا كورةُ ماكينة؟".

أما الأحذيةُ فإن اللاعبين في فِرَقِ الحواري كانوا حُفاةً، لكن كان يوجد لدى بعضهم حذاء خاص بلعبة كرة القدم يُسمَّى (كديسة) وكان غالي الثمن وفي أرضيته مسامير مثل أحذيةِ رياضةِ الغولف تقريبًا، وإذا حضر لاعب مرتديًا الكديسةَ فحتمًا سيكون مصدرًا لإصابات الفريق المضاد، لذا يتم إضافةُ لاعبٍ في الفرقةِ المقابلةِ تعويضًا لهم، على أن لبس الحذاء (الكديسة) كان مقتصرًا على المباريات المهمة أو في الملاعب الكبيرة.

ومن الطريف أن ولدي الصغير بعد عشرات السنين أوصاني أن أُحضرَ له حذاء كرة قدم من لندن عليه توقيعُ لاعب برازيلي، وعندما انتهى البائعُ الإنجليزي في المتجر الفاخر من إجراءات البيع قال: تهانيَّ يا سيدي لقد اشتريتَ أغلى حذاء كرة قدم في إنجلترا، تبسمتُ في حينه وتذكرتُ فريقَ «شباب حَواءَ» وقلة الإمكانات التي كنا نعاني منها.

تجدر الإشارة إلى أنه وبالرغم من عدم حصول فريقَ «شباب حَواءَ» على كأس بطولةٍ أو ميدالية ذهبية، إلا أن جلَّ أفراد الفريق قد انتهوا مهندسينَ، ومستشارينَ قانونيين، وموظفينَ محترمينَ، وفنيينَ صيانة طائرات، وأحدُهم حصل على الدكتوراه في الفيزياء، وآخر عمل قنصلاً عامًا، والبعضُ قد ابتلعتْهم دوامةُ الدنيا ولا نعلمُ عنهم شيئًا.

كذلك فقد عكس التقافزُ إلى داخل المقبرة ومشاهدةُ الجنائز حقيقةَ انتفاء ظاهرة الخوف أو الرهبة في نفوس أولئك الفتية سواء من الموتِ أو من وحشة المقبرةِ، وكان لديهم إحساسٌ بالقبول والاستسلام لفكرة أنَّ هذه المواكبَ الحزينة ذاهبةٌ بحمولتها إلى ذمة الله الرحيم، وفي جوار الأم الحنون، وهم موقنون بأن التوسدَ قربَ الأم - أيًا كانت - هو مبعث للطمأنينة والراحة والسكون.

هؤلاء الفتيةُ تعرفوا على أهمِّ حقائقِ الكون، وأهمِّ أفكارِ الحياة المركزية من دون عُقَدٍ أو مخاوفَ، ولم ينظروا إلى الموت نَظْرَتَهم إلى وحشٍ كاسرٍ، كما وصفه شاعرُ العراق الكبير الجواهري حين قال:

ذئـبٌ ترصَّدَنـي وفـوقَ نُيوبِه دمُ إخوتي وأقاربي وصِحابي

كانت نظرتُهم إلى الموت أقربَ إلى الرضا والتسليم منها إلى أي شعور حزين أو عنيف، وساعد السكونُ والهدوءُ في مسار الجنازات، في ترسيخِ احترامِ هيبةِ الموت من دون خوفٍ ولا وجَلٍ.

وللمقبرة توقيتُها، فلم تكن الأوقاتُ والمواسمُ سواسية، ولكنَّ النشاطاتِ تختلفُ باختلاف ساعاتِ الليل والنهار، وكذلك باختلاف الأشهر والمواسم على مدار العام. وكان الدفنُ في المقبرة أكثرَ ما يتمُّ بعدَ صلاة العصر، وأقلَّها بعد صلاة العشاء؛ للظلام الدامس في المنطقة، ومحدودية الإضاءة المنبعثة من الشوارع المحيطة المُسْرَجة بإنارةِ الأتاريك التي تعمل بالقاز. كذلك الحال بعدَ صلاة المغرب، كما اعتاد المشيِّعونَ إحضار أتاريك معهم، وينطبق ذلك أيضًا في الدفن بعد صلاة الفجر، والأمر كذلك بعد صلاة الظهر أثناء أشهر فصل الصيف الحار.

في يومُ الجمعة تَدبُّ الحركةُ متأخرةً بعض الشيء لتبتدئ مع وقت الضحى، وتنطلقُ من أجهزة الراديو تلاوة للشيخ سعيد محمد نور لسورة مريم، ثم خطبةُ الجمعة من المسجد الحرام للشيخ عبد الله خياط، ونذهبُ إلى الصلاة في مسجد الحي، وعادةً تكون هناك جنازةٌ أو أكثرُ بعد صلاة الجمعة، ويخرج المصلّون في إثرها بأعداد كبيرة.

شعائر المقام:

أشهرُ العمرة والحج هي الوقتُ الذي تشهدُ فيه المقبرةُ حَراكًا كبيرًا؛ حيث يتوافدُ المعتمرون من كل جنس ولون، ويُمَثِّلون صورةً مصغرةً من الذاهبينَ إلى عرفاتٍ من عرب وعجم، وشعوبٍ صفراءَ وسوداءَ، وكلُّ مجموعة تصل إلى المقبرة وتزورُ بشكل أو بآخر.

على سبيل المثال، حجاجُ البر الذين يصلون بالحافلات إلى جُدةَ ثم مكةَ، وهم من أهل الشام والأتراك، كانت تقف حافلاتُهم عند بحر الأربعين، ويَحضُرون لقراءة الفاتحة مشيًا على الأقدام رجالًا ونساءً، أما العجمُ فكانوا يحضُرون بالحافلات الضخمة إلى قرب السور، والحافلاتُ مجهزةٌ بنزع سقفِ الحافلة، والحجاجُ تحتَ شمس جُدةَ القويةِ، وهم صابرون لغرض قراءةِ الفاتحة.

وأكثرُ الزوار جَلَبَةً هم الأفارقةُ والإندونيسيون الذين يرمونَ النقود، ويتصدقونَ على الحُرّاس الذين لا يعدَمون الحيلَ في استجلاب ذلك منهم، وكان مألوفًا أن يدخل البعضُ لجلب شيءٍ من ترابِ المقبرة للبركة، أو التيمُّمِ بها، ولولا يقظة أهلِ الحي والسلطاتِ لتمادى بعضُ الزوار في هذه الممارسات.

هذه الممارسات لها تاريخ قديم، وكانت أكثر تنظيمًا ومنهجية، وتختلف من مرحلة تاريخية إلى أخرى، ونورد على سبيل المثال ما جاء في ممارسات القرن العاشر الهجري حيث روى عبد القادر الشافعي: «إن المراكب الواصلة من أرض الهند كل عام إذا تأخر بعضها ولم يظهر لها خبر يأخذون رجلًا من البحرية ويزفونه بالطبول والزمور من داخل البلد إلى داخل القبر، فإذا وصلوا سقط الرجل مغشيًا عليه فيسأل عن خبر أي مركب متأخر فيذكر حاله الذي هو فيه وفي أي محل وهل هو سالم أم عاطب ثم يظهر لهم صدق مقاله بإذن الله ويأتيه الزوار والنذور من جميع الجهات»[١].

وأوضح الأديب والمؤرخ الشيخ محمد علي مغربي أنه ومنذ بداية القرن العشرين كانت أسر معينة تشرف على ترتيب زيارة المقام، ومنهم أسرة القاضي التي تخصصت في تزوير الحجاج وإطلاق البخور في المقام وتلقينهم الدعاء للزيارة، وفي ختام الزيارة يمنح هؤلاء الزوار المُزوِّر من أسرة القاضي نقودًا كمكافأة له. ويصف المغربي تفصيل الزيارة بشيء لا يقره العقل ولا التاريخ ولا الشرع الحنيف، حيث يمشي الحجاج في ممر طويل داخل المقبرة حتى يصلوا إلى منتصفها ثم تتم الزيارة في الحجرة التي تعلوها قبة، ويدعي أهل المقام أن هذه القبة فوق سُرَّة أمنا حواء، وتزدان الحجرة بالستائر الكثيفة، وتطلق فيها البخور، وبعد انتهاء الزيارة يمشي الزوار في الجزء الثاني من الممر الطويل الذي من المفترض أن يُمثّلَ جسدها[٢].

---

(١) عبد القادر أحمد الشافعي، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، تحقيق: علي عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٧م) ص٤٧.

(٢) مغربي، أعلام الحجاز، مرجع سابق، ص ١٣٨، ١٣٩.

وكانت بعض بعثات الحج تضفي على المقام تشبيهات ذات طبيعة دينية عميقة كما وقع من قبل الشيوخ المصاحبين للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين في أواخر القرن التاسع عشر، وورد ذلك في ملاحق كتابه الرحلة السرية للعقيد الروسي، حيث كتب الملا ميرزا عليم: «بعد يوم دخلنا مدينة جدة المقدسة. وفي مدينة جدة المقدسة قمنا بالحج إلى ضريح صاحبة العظمة أمنا حواء» وكما يلاحظ استخدامه للفظ الحج حال زيارته للمقام، وهو من الغلو المكروه.

ووصف الحاج عيشانف الذي زار المقام في عام ١٨٩٥م، ووردت مشاهداته في ملاحق الرحلة السرية للعقيد الروسي، قبر حواء «بأنه وسط مقبرة كبيرة، ويبلغ طول مدفنها نحو ٦٠ أرشينًا، وفي مقدمة القبر صفيحة من المرمر عليها كتابات عربية، وفي وسط المدفن يوجد بناءان تحت سقف واحد (يقصد تحت القبة) أحدهما يعتبرونه مسجدًا، والثاني مدفن يتوافد إليه الحجاج ويلثمونه. وقرب مدخل الضريح يوجد خزان محفور في صخرة كبيرة يشبه الجرن، وفي الخزان يصبون الماء ويعتبرونه زمزم حواء»[1].

وقد أعطانا الأديب عمر عبد ربه صورة أكثر تفصيلًا ووضوحًا عن كيفية إتمام الزيارة للمقام في مطلع القرن العشرين، حيث روى أنه كان خارج أسوار جدة، ولفت نظره قدوم فوج من الحجاج الذين وصلوا بالبحر وهم متجهون بإحرامهم إلى قبر حواء، فقرر أن يتبعهم، وكان يقود فوج الحجاج قاضٍ في محكمة جدة اسمه الشيخ عبد الوهاب، حاملًا في يده عصا فاخرة، ويلبس جبة بنية اللون تفوح منها رائحة العود الهندي، وأخذ يُزوِّر الفوج قائلًا:

> "السلام عليكم يا أهل الدار من المؤمنين والمسلمين، نسأل الله لكم ولنا ولوالدينا العافية، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله لاحقون ورحم

(١) عبد العزيز دولنشين، الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولنشين إلى الحجاز ١٨٩٨ – ١٨٩٩م، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨م) ص ٣٣٦ – ٣٧٢.

الله السابقين منكم واللاحقين منا. السلام عليكم يا أمنا حواء، السلام عليكم يا أم البشر، السلام عليك وعلى زوجك آدم، السلام عليكما يا والدا بني الإنسان كافة، السلام عليك يا أم العرب والعجم والفرنجة والصينيين وشعوب الأرض كافة. رضي الله عنك وعن زوجك أبينا آدم عليه السلام وجزاكما خيرًا عنا وعن أهالينا وأسلافنا أجمعين. والله يهدي ذريتكما كافة من الأمم غير المسلمة إلى الإسلام بدين الإسلام وتصديق سيدنا ولد عدنان محمد النبي الأمي خاتم النبيين صلى الله عليه وعليكما وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وسلم تسليمًا كثيرًا. آمين الفاتحة".

يذكر الأستاذ عمر عبد ربه أنه وبعد انتهاء الزيارة أخرج كثير من الحجاج المال ونفحوه للمزور، وكان معه ربع قرش فلما مد يده بها رفض المزور أن يقبلها وقال له: أنت ولد جدة. ثم قابل الأديب أحمد قنديل وأخبره أنه زار قبر أمنا حواء متسائلًا بتعجب واستفهام قائلًا لأحمد قنديل: هل تعرف بماذا ختم القاضي زيارته؟ ثم أردف قائلًا: إن القاضي الذي يزور الناس ويرددون وراءه، قال بصوت يشبه الهمس بعد انتهائه من قراءة الفاتحة: «السلام عليكم يا أماه حيثما كنت في أرض الله». وهنا علّق الأستاذ أحمد قنديل بقوله: «إن القاضي معه حق لأنه ليس لدينا يقين ولا دليل بأنها قد دفنت في هذا الموقع»، وهو ما يصب في تأييد رؤية وتوجه القاضي الذي قاد الناس في الدعاء لها[1].

وواقع الحال فإن هذا الحوار يدلُ على أن ظاهرة التشكيك في وجود حواء في القبر، لم يكن غائبًا عن وعي وخطاب النخبة المتعلمة في مدينة جدة جملة، وأن زيارة بعضهم لها لم يكن بدافع الإيمان القطعي، وإنما بدافع الاستحباب للدعاء ولا سيما مع وجود المقام من قبلهم. وهو ما يعطي الفرصة لغيرهم للمضي في التحقق من الظاهرة ووجودها بشكل علمي، على أن الساخرين والمشككين

(١) محمد علي الجفري، عمر عبد ربه حياة وسيرة، (جدة: مطابع سحر، ١٤٣٨هـ) ص ٥٧، ٥٨.

من وجود حواء في القبر لم يكونوا ممن سبقوا وحسب، بل وُجد غيرهم، ومنهم كما تذكر المصادر:

أهم الساخرين من المقام:

- حاكم مكة الشريف عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون (١٢٩٩هـ/١٨٨٢م إلى ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م)، الذي أطلق حملة لهدم القباب على القبور في الحجاز استجابة لنصيحة الشيخ أحمد بن عيسى، ويذكر الرحالة المصري محمد لبيب البتنوني بأنه بقيت ثلاث قباب في الحجاز، واحدة على قبر السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في مكة، وقبة على قبر حواء بجدة، وقبة على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة المنورة[١].
- ويشير أمين الريحاني إلى أن بعض قناصل الدول الغربية قد خشي أن تُهدم قبة مقام حواء في ظل حالة الانفلات التي صاحبت عهد الشريف عون الرفيق، فأرسلوا إليه بأن حواء ليست حصرًا على المسلمين فقط لكونها أم البشر جميعًا، فما كان من الشريف عون إلا أن رد عليهم قائلًا: وهل تعتقدون أن أمنا حواء بهذا الحجم؟ إذا كان الغباء سمة عالمية فاحتفظوا بالقبر[٢].
- كما كتبت السيدة سدرة إقبال علي شاه عن زيارتها إلى المقام في مطلع القرن العشرين وأظهرت سخريتها من حجم القبر ومقولة إن القبة فوق السرة، وكتبت أنها علمت أن حجم القبر كان ثمانية أمتار ولكن تمدد مع الزمن، وهذا يرجع إلى أن المسلمين يحبون المرأة الضخمة، ويدعون

(١) محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلبي، ط٢، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م) ص ٧٨.

(2) Ameen Rihani (Around The Coasts of Arabia) London 1930, P. 74.

أن كبر حجم القبر هو من قبيل التكريم والتفخيم لها. وأضافت بأن الزائر إذا دفع مبلغًا محترمًا فإنه يحصل على نبوءة مكتوبة عن مستقبله من الجدَّة المدفونة، تصله عبر خادم القبر، وكلما ازداد المبلغ شلن أو اثنين تكون النبوءة أكثر جمالًا وتفصيلًا. وقد أعربت لاحقًا عن سعادتها عندما علمت بهدم القبر بعد دخول الملك عبد العزيز إلى الحجاز لارتباطه بالممارسات الخاطئة[١].

- ومن الساخرين المشككين أيضًا الأديب المصري يحيى حقي الذي عمل في مطلع القرن العشرين في القنصلية المصرية بجدة، حيث كتب وصفًا لحياته بالمدينة خلال فترة تواجده بها، مبينًا بأنه إذا حل المساء يخرج من باب الكوشان في سور جدة لينفذ إلى الصحراء، بحثًا عن نسمة تائهة من الهواء بحسب وصفه، ثم يصف قبر حواء الذي يبلغ طوله ستين مترًا ساخرًا بقوله: لا أدري ماذا كان سيفعل سيدنا آدم إذا طلبت منه زوجته حواء أن يشتري لها قماشًا؟ ولماذا لها من دونه قبر في العالم؟ ويقول لم أجد عند أحد جوابًا[٢].

- وكذلك تي إي برادلي في القرن التاسع عشر الذي وبعد أن وصف الموقع العام لمقبرة حواء، ذكر بأن العرب يدعون أن حواء مدفونة هنا، ويدعون أن طولها قرابة مئتي قدم، ومع ذلك فإن مقاسات المقام لا تتناسب مع ذلك لأن العربي لم يعرف عنه دقة قياس المسافات، ويخافون من قول الحقيقة!! ويستطرد أن المقام ممتلئ بشواهد القبور للشيوخ والشخصيات الإسلامية، وذكر أنه استمع إلى عدد من القصص والأساطير حول القبر، ووجد أنها هراء ولا تستحق الكتابة عنها، كما كتب بأن حراس المقام الذين

(1) Sirdar, Ikbal Ali Shah (Westward to Mecca), London 1928, P. 218.

(٢) يحيي حقي، كناسة الدكان، مراجعة: فؤاد دوارة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م) ص١٠٣.

يلبسون زيًا كاملاً دائمًا ما يطلبون بقشيشًا، وكذلك الحال مع المشردين[١]. أشير إلى أن كتابته تظهر حالة التعالي التي يكنها ضد العرب والمسلمين، كما لعل تسفيهه لوجود مقام حواء في مدينة جدة راجع إلى تأثره بالروايات والأساطير اليهودية التي تذكر بأن حواء مدفونة في مقبرة بمستوطنة كريات أربع في ضواحي القدس كما سيأتي بيانه في الكتاب لاحقًا.

من روحانيات جدة:

من جانب آخر فقد شكلت زيارة المقابر والمقامات أحد أبرز الملامح الأساسية للحياة الاجتماعية في مدينة جدة، حيث وُجدت حتى مطلع القرن العشرين الميلادي سبعة مزارات رئيسة وهي: مقام الشيخ العلوي في حارة اليمن، ومقام الشيخ أبو سرير في حارة الشام، ومقام الشيخ أبو عنبه في حارة الشام، ومقام الشيخ المظلوم في حارة المظلوم، ومقام الشيخ الأربعين، ومقام الشيخ العقيلي، ومقام الشيخ أبو العيون، وجميعها مزارات رئيسة داخل جدة يزورها الأهالي والحجاج، وقد هدمها حاكم مكة الشريف عون الرفيق باشا في مطلع القرن العشرين كما أشير إلى ذلك سابقًا[٢]. هذا بالإضافة إلى الزوايا والتكايا والمساجد ذات الأهمية الروحية.

وبعد دخول الملك عبد العزيز إلى الحجاز تم هدم آخر المقامات وهو مقام أمنا حواء، وغيرها من القباب على قبور كبار الصوفية في جدة، وبذلك انتهت عادة زيارة المقامات بصورة منتظمة. وهي وإن كانت قد بنيت بهدف الاحترام والتبجيل، إلا أن العامة قد حوّلوها إلى مكان للتبرك وصارت موطنًا للبدع المنهية في ديننا.

---

(1) T.I. Bradly (The Lamp) Vol xxviii, Whitefriars, London, 1885,P. 171.
انظر نص المؤلف: مجلة The Graphie, May 19, 1877

(٢) الأهرام القاهرية، عدد ٢، يناير ١٩٠٢م.

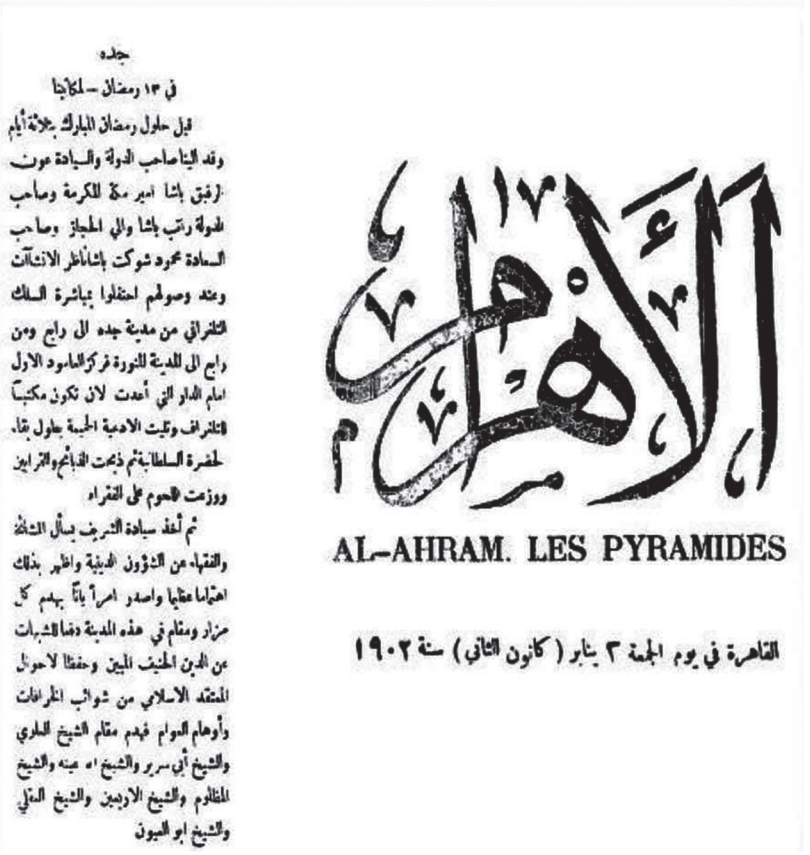

جدة

في ١٣ رمضان – لمكاتبنا

قبل حلول رمضان المبارك بثلاثة أيام وفد الينا صاحب الدولة والسيادة عوف رفيق باشا امير مكة المكرمة وصاحب الدولة راتب باشا والي الحجاز وصاحب السعادة محمود شوكت باشا ناظر الانشاآت وعند وصولهم استقلوا بباخرة السلك التلغرافي من مدينة جدة الى رابغ ومن رابغ الى المدينة المنورة فركب الباشا الاول امام الدار التي أعدت لان تكون مكتباً للتلغراف وبقيت الاعمية الحبشة بحلول بقاء حضرة السلطانية ثم ذبحت الذبائح والقرابين ووزعت اللحوم على الفقراء

ثم أخذ سيادة الشريف يسأل المشائخ والفقهاء عن الشؤون الدينية واظهر بذلك اهتماما عظيما واصدر امراً باتاً بهدم كل مزار ومقام في هذه المدينة دفعا للشبهات عن الدين الحنيف المبين وحفظا لاصول المعتقد الاسلامي من شوائب الخرافات وأوهام العوام فهدم مقام الشيخ العلوي والشيخ أبي سرير والشيخ ام عينه والشيخ المظلوم والشيخ الاربعين والشيخ العقلي والشيخ ابو العيون

١٧ الأهرام

AL-AHRAM. LES PYRAMIDES

القاهرة في يوم الجمعة ٣ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٢

جريدة «الأهرام المصرية» العدد ٢ يناير ١٩٠٢م

وبالعودة إلى مقبرة حواء في الستينيات الميلادية كما عايشناها فقد كان الحرَّاسُ يتفتقُ ذهنُهم عن حِيَلٍ ماكرةٍ لاستجلاب النقود من الزوار، حتى إنهم ابتدعوا مصطلحًا اقتصاديًا أسموه (ريال أمنا حواء)، حيث يقوم الحراس بصرف الريال الورقي بأقلَّ من قيمته للحاج، على شكل قروش معدنية، ويقومُ الآخرُ برمي هذه القروشِ من البوابة الرئيسة، على ملاءة موضوعةٍ لهذا الغرض. وعندما يقِل عدد الزوار، أو لا يرمون النقودَ، يعمد أحدُ الحرَّاس إلى لبس هذه القطعة من القماش، ويتحرك أمامَ الزوار ثم يختفي، وفي الغالب يقوم بذلك أمامَ الأفارقة وهم أكثر المتعلّقين بالمقبرة، ليتوجه بعد ذلك الحراس بالقول: هذا هو خادمُ قبر

حواءَ، فيصدق البسطاء ذلك ويهرعون إلى تقديم النذور ورمي النقود إلى غير ذلك من الخُزعبلاتِ التي ما أنزل الله بها من سلطان.

على أن ذلك ما كان يرضي الأخيارُ من أهل الحي ومنهم جدي لأمي، الذين كان لهم موقفٌ حازم معَ هؤلاء الحرَّاس بهدف إيقافِ هذه المهازل، واستغلالِ جهل الزوارِ وغربتِهم، ويصل الأمر إلى التهديدِ باستدعاء السلطات، وترتفع وَتيرةُ تلك الخناقاتِ مع اقتراب موسم الحج في كلِّ سنة، وازديادِ الزوار، على أن بعضُهم كان يحضرُ إلى جدي في المساء ويعتذر، ليتوقفُ العبثُ عدةَ أيام فقط، ثم يعودُ الحالُ كما هو عليه، وتمضي الشهورُ أحيانًا من دون زوارٍ ولا معتمرين ولا حجاج، فيعم الهدوءُ المطبِقُ الذي يلفُّ المقبرةَ وما حولها.

في تلك الفترة لم يكن مسموحًا على الإطلاق للفتى أو أقرانِه بالدخول إلى المقبرة مع المشيِّعين، أو الاقترابِ من منطقة القبور نفسها في وسط المقبرة، أو حضور الدفن تحتَ أي ظرفٍ من الظروف، وكنا بسبب ذلك نكتفي بمشاهدة الجنائز مع رفع السبابة، والتشهدِ من بعيد، أو مشاهدةِ المشيِّعينَ من المنزل الكبير، ومن قبيل مراعاةِ مشاعر المشيعين لا نفتحُ النوافذَ، ولا نقفُ وراءَها أثناءَ الدفن، وإذا فعلنا نتعرض للعقاب من جدتي رحمها الله.

وكان الغالبُ والأعم أن يشيعَ الجنازةَ إلى المقبرة بضعُ عشرات، وأكثرُهم من المصلين في المسجد ابتغاءَ الثواب؛ ولكن شهدنا في الستينيات الميلاديةِ عددًا من الجنائز، امتلأت فيها المقبرةُ بالآلاف من المشيعين، أذكر منها أحدَ الوجهاء واسمه محمد الطويل؛ حيث اكتستِ المقبرةُ باللون الأبيض من كثرة المشيعين.

ومرةً أخرى شهدت جنازة عسكرية، حيث تم إحضار الجثامين على عربةِ مدفعٍ معها عدد كبير من الجنود والضباط، وكانوا من شهداء الواجب، أو في حوادثِ السياراتِ والحرائق، التي يقع ضحيتَها عددٌ من الموتى، وكان المشيعون بالآلاف.

ومع حلول عام ١٩٧٢م كانت الإرادة الإلهية أن يرتحل الفتى من جوار المقبرة بحي العمارية إلى مدينة القاهرة لطلب العلم، ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية، كما ارتحلتِ الأسرةُ مع من ارتحل إلى شمال جُدةَ، وتم بيعُ المنازلِ الواحدِ تلوَ الآخرِ في فترة السبعينيات الميلادية، وتحولت العماريةُ تدريجيًا إلى حي عشوائي تمامًا، وقامت أمانةُ مدينةِ جُدةَ بهدمِ السور التاريخي، كما طمست السلطات في عام ١٩٧٥م أي أثر لمقام حواء بالإسمنت بعد أن قام حجاج إندونيسيون ببعض الممارسات الخاطئة، وتم إدخالُ تعديلاتٍ في أطوال السور من الشمال والغرب، وأخيرًا أثناء إعدادِ هذا الكتاب تمَّ بناءُ بوابةٍ غريبة كبيرة تشمل البوابة التي كانت المدخل إلى المقام قديمًا.

والآن وقد أدرك الفتى أنَّ وقفَ الدخولِ من البوابة الرئيسة لأمنا حَواءَ قد اقترب، لا يزالُ عدمُ الخوف من الموت متأصلًا في النفس، رسّخته أسبابٌ وقناعات قوامها أنَّ رحمةَ الله وسعت كلَّ شيء، وقد أَعدَّ للرحلة الأبدية حبُّ الله ورسوله، ونقولُ مع محمود درويش:

ويا موتُ انتظرْ يا موت
حتى أستعيدَ صفاءَ ذهني في الربيع وصحتي
لتكنْ صيادًا شريفًا لا يصيدُ الظبيَ قربَ النبع
ولتكنِ العلاقةُ بيننا وديةً وصريحة
لكَ أنتَ مالك مِن حياتي حين أملؤها
ولي منكَ التأملُ في الكواكب
لم يمت أحدٌ تمامًا
تلك أرواحٌ تغير شكلُها ومقامُها

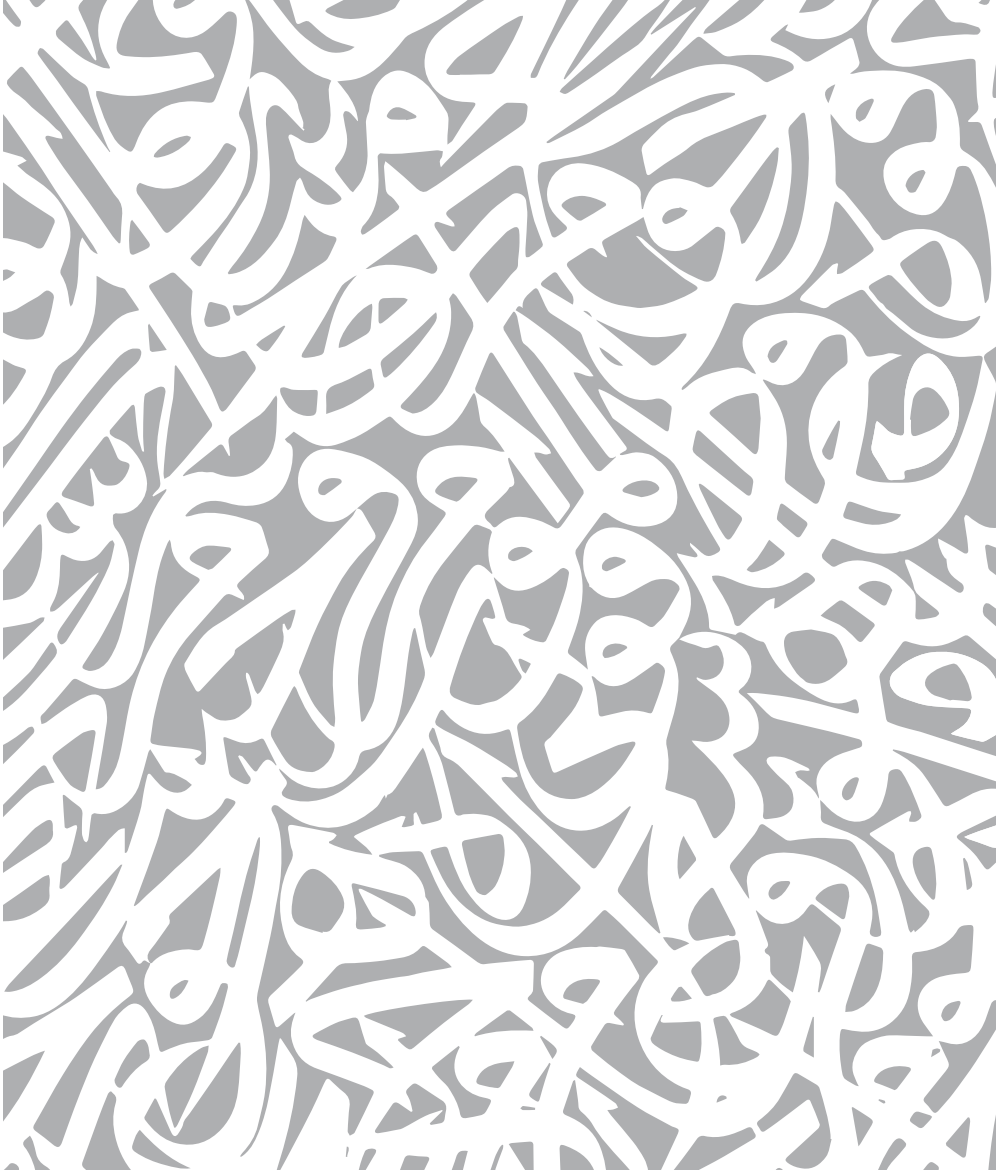

الباب الأول

حواءُ بين أسطورة التكوين وحقيقة الخلق

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[سورة البقرة : آية ٣٥]

■■■

«ودعا آدم اسمَ امرأته حَواءَ؛ لأنها أم كلِّ حي»

[سفر التكوين، الإصحاح الثالث : ٢٠]

■■■

"فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة"

[ابن عربي، فصوص الحكم ١/٤٩]

■■■

"أعتق الله الملائكة بالمعرفة وحرر العجماوات بالجهل وأنزل ابن آدم بين المنزلتين ليكابد"

[ابن الرومي]

إضاءة:

- تؤرق المجتمعات منذ ظهور الإنسان التساؤلات عن عملية خلق الإنسان والكون، وكان أن تولت الأساطير الإجابة عن هذه الأسئلة، في هذا الباب نسعى للولوج إلى عالم الأساطير تعريفًا وتبويبًا، ولا سيما أنها قد قدمت أكثر من مائة وعشر أساطير في محضر إجابتها عن سؤال قصة الخلق الوجودية.
- ظهرت قصة آدم وحواء في سفر التكوين وهو أول أسفار التوراة المعتمد في كتاب الإنجيل أيضًا، مما وحّد تفاصيل قصة الخلق في اليهودية والنصرانية، ثم جاء القرآن الكريم حاويًا بين دفتيه قصة آدم وزوجه وفق نسق مختلف عما تم طرحه في التوراة والإنجيل؛ في هذا الباب نهدف إلى توضيح مجمل الاختلافات الرئيسة بين الأديان السماوية الثلاثة حول قصة الخلق، وما حمله كل دين من موروث يحكي طبيعة العلاقة الوجودية بين آدم وحواء، خاصة وأن مكانة المرأة في الأديان السماوية قد تأثرت بموقع حواء من قصة الخلق وما يليها، وتأرجحت بين تحميلها وزر الخطيئة أو وصفها بالكمال.

■■■

١

قصة الخلق في الأساطير والملل والأديان

ما هي الأسطورة:

منذُ فجرِ التاريخ عُنيَ الإنسانُ بالإجابة عن الأسئلة المركزية للكون، من قبيل كيفية نشأة الكون؟ وكيف ظهر الإنسانُ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الوجودية التي حاول الإنسان من خلال تفاعله مع البيئة الطبيعية أن يجد أجوبة لها، وأن يصيغ علاقته بمختلف الظواهر الطبيعية رغبة في السيطرة عليها، والاستفادة منها بعد ذلك، وهو ما ساعد على إنتاج بداياتِ الأساطير حول الخلق.

لقد جاءت الأساطير تجسيدًا للإبداع الفكري والإنساني للجماعات، وظهرتْ على شكلِ ما رواهُ حكيمُ الجماعة، وحظيت القوةُ وتوزيعُ السلطة السياسية والكهنوتية بدور فاعل في تشكيل تلك الأساطير، التي مثلت المحاولة الأولى في حَلِّ طلاسم الكونِ والحياة، وشكلت إجاباتها بوجه عام أنيسًا لذلك الإنسان في وحدته وهو يواجه أسرار الوجود وأسئلة المآلات والمصير. وغالبًا ما تحظى الرواية الأسطورية بشيء من القداسة التي يؤمن بها الأولون، وتتميز بعمقها الفلسفي، وتكون شخوصُها من الآلهة أو أنصاف الإله.

وَرَدَ أن الأسطورةَ هي: «القصةُ الشعرية المصفوفة زجلًا وشعرًا، التي تحوي موضوعًا دينيًا يتعلق بالقُوى العلويةِ والخفيةِ، وتُعبِّر عن معارفِ الإنسان الأول وأخلاقه، ومستوياتِ علومه وتأملاتهِ، وهي موضوعةٌ في قالَبٍ ذي إيقاع شعري

موسيقي، يتضمن الحدثَ المراد تأريخُه، سواء كان من صنع الإنسانِ أو الطبيعةِ أو الرب، لأجل أنْ يُتلى ويُتَداوَلَ ويؤدي دورَه في تثقيفِ العقول وتحريك المشاعر»[١].

وقد تعددت تعريفات الأسطورة بشكل مطرد، ورغبة من الباحث في تغطية جوانب الموضوع بشكل دقيق، فقد آثر أن يورد عددًا من التعريفات في محاولة لفهم الظاهرة الأسطورية، والتفريق بينها وبين ظاهرة الخرافة التي انتشرت ملامحها اصطلاحًا ضمن أدوات الذهن العربي قبل الإسلام بوجه عام.

وفي هذا يقول بول ريكور بأن الأسطورة هي: «حكايةٌ تقليديةٌ تَروي وقائعَ حدثَتْ في بداية الزمان، وتهدفُ إلى تأسيس أعمالِ البشرِ الطقوسية حاضرًا، وبصفةٍ عامةٍ إلى تأسيس جميعِ أشكالِ الفعل والفكر، التي بواسطتها يحدد الإنسانُ موقعَه من العالم».

وينص الفيلسوف مالينوفسكي على أهميتها في تكوين البعد المعنوي لأي حضارة بقوله: «الأسطورةُ ركنٌ أساسي من أركان الحضارة الإنسانية تُنَظِّم المعتقداتِ وتعززُها، وتصونُ المبادئَ الأخلاقية وتُقوِّمُها، وتضمنُ فعاليةَ الشعائر، وتَنطوي على قوانينَ لحماية الإنسان»، ويؤكد بأن الأساطير: «تنبعث من حاجةٍ دينية عميقة، وتوقٍ أخلاقي، وانضباطٍ وتحدٍ يظهر في صفة اجتماعية، ومتطلباتٍ عملية، وتلعب الأساطير دورًا ضروريًا في الحضارات القديمة البدائية، إذ إنها تُعَبِّر عن المعتقدات، وهي تشريعٌ حقيقي للديانةِ البدائية وللحكمةِ العلمية»[٢].

وفي السياق ذاته يرى كارل غوستاف يونغ بأنَّ: «الأسطورةَ تُنير جوانبَ النفس الإنسانية، وأن المجتمعَ الذي يفقد أساطيرَه، بدائيًا كان أم متحضرًا، يُعَاني كارثةً أخلاقية تُعَادل فقدانَ الإنسان لروحه».

---

(١) جمعية التجديد الثقافية والاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، (دمشق: دار كيوان للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م) ص ٢٣.

(٢) محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها، ط٢، (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٥م) ص٧٤.

وهو ما يقوله أرنست كاسيرر حيث ينص على أن: «الأسطورةُ تمثل قوةً أساسية في تطور الحضارةِ الإنسانية عبرَ الإنسان، من خلال رموزِها عن اهتماماتهِ وتطلعاته، وقد وجد أنها تكونُ مع اللغةِ والفنِّ والدينِ صورًا حضارية تُبدعها طاقةُ الإنسان الرمزية». وهكذا تقدم الأسطورةُ تفسيرًا للجوانبَ الغيبية (الميتافزيقية)، إضافة إلى تفسير الجوانبَ العامة، وهو ما يبرر اهتمام المفكرين والفلاسفة بالأسطورة من حيث كيفيتها وطبيعة نشأتها والإجابات التي يمكن أن تقدمها للإنسان[١].

وعليه فقد لخّص فراس السواح تعريف الأسطورةِ بأنها: «حكايةٌ مقدسة ذاتُ مضمون عميق، يشِفُّ عن معانٍ ذاتِ صلةٍ بالكون وحياةِ الإنسان»، كما حدد سماتِ النص الأسطوري وطبيعته في ست نقاط وهي[٢]:

- مِن حيث الشكل هي قصةٌ بما تحويه من حبكةٍ وعقدة، وشخصياتٍ مصاغة في قالَب شعري يساعدُ على سرعة تداولِها وحفظِها وأثرِها العاطفي.
- يحافظ النصُّ الأسطوري على ثباته عبرَ فترة طويلةٍ من الزمن، وتتناقله الأجيالُ طالما حافظَ على طاقته الإيمائيةِ بالنسبة إلى الجماعة، من دون أن يعني ذلك الجمودَ؛ فالفكرُ الأسطوري يجددُ نفسَه بتعديل الأساطيرِ وخلقِ أخرى جديدةٍ.
- تتميز موضوعاتُ الأساطير بالجدية والشمولية مثلُ: مواضيع التكوين، والموتِ والعالمِ الآخر، ومعنى الحياة، وسرِّ الوجود وتلجأُ إلى الخيال والعاطفة.

---

(١) عبد الباسط سيدا، من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري، ط١، (دمشق: دار الحصاد للنشر، ١٩٩٥م) ص١٩.

(٢) فراس السواح، الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، (دمشق: دار علاء الدين، ٢٠١٢م) ص١٤.

- الأسطورةُ سرمديةٌ خالدة، تنطقُ مِن وراء تقلبات الزمن الإنساني، ولا يحدُّها زمانٌ، وغيرُ مرتبطة بفترة زمنية.
- ترتبطُ الأساطيرُ ارتباطًا وثيقًا بنظام ديني معين، وتعملُ على توضيح معتقداته، وتدخلُ في صُلب شعائره، ومن دون النظامِ الدينيِّ لا تكونُ أسطورةٌ.
- تتمتعُ الأساطيرُ بقدسية، وسلطةٍ عظيمةٍ على عقولِ الناس ونفوسِهم.

تجدر الإشارة إلى أن الخرافة وهي بمعنى Legand في المصطلح الإنجليزي قد برزت في مقابل الأسطورة التي أطلق عليها في المصطلح الإنجليزي اسم Myth، مع إدراك المتحدث والمستمع بكينونة الفوارق بينهما، إذ يرسخ في ذهن الراوي والمستمع بأن الخرافة تقصُّ أحداثًا لا تُلزِمُ أحدًا بتصديقها أو الإيمان برسالتها، وعادة ما تنسجُ لأغراض الترفيه والتسلية، ودعم التوجهات الأخلاقية وأخذِ العبر منها، ولا يوجد أصلٌ واقعي لها[1].

وواقع الحال فقد امتلأ التراثُ العربي بقِصصِ ألفِ ليلة وليلة، وحكاياتِ كليلة ودُمنة، وهي من القِصص التي تَرويها الجداتُ للأحفاد، من قبيل التسليةِ وتثبيتِ قِيَم الخير في نفوس الأجيالِ الجديدة. كما قلل العرب من تأثير ودور الأسطورة التي جاءت على وزن أُفعولة مثل أُكذوبة، أُلعوبة، أُحدوثة، كما ماثلتها من حيث المستوى الدلالي مفردات أربع وهي: أساطير، ترهات، خرافات، خزعبلات، ويُقصد بها جميعها الكلام غير الصادق، وتخرج عن ذلك قلة من اللغويين والمفسرين الذين ينظرون إلى الأساطير بشكل مختلف.

مع الإشارة إلى أن الممانعين لدعوة توحيد الله قد وجدوا في الأساطير حاجتهم لإبراز ممانعتهم، وكانت حجةُ صناديد قريش في معارضتهم لدعوة التوحيد النبوية أنها شكلٌ من أشكال الأساطير المرددة، ولذلك فقد حَرَصَ الهديُ القرآني على وضع الأساطير في الجهة المقابلة للقضايا المركزية في الدين، الداعية إلى إفراد الله

(١) السواح، الأسطورة والمعنى، مرجع سابق، ص١٥.

بالعبادة، وتأكيد تحققُّ الثوابِ والعقاب في الآخرة. ومن أجل ذلك لم تتعرض منظومة الأساطير التي أفرزَتْها الثقافةُ الإسلامية ابتداءً من القرن الثاني الهجري، لموضوعات التوحيدِ، والعودةِ إلى الله، والثوابِ والعقاب، وصحيحِ الدين، كما لم تتدخل في صميم العبادة، بل جاءت في سياق قصة الخلق وبداية الكون وتفسير ما لم يورد في ذكره نص صريح. ولا سيما أن ديننا الإسلامي قد أخذ موقفًا مبدئيًا مضادًا لمعنى ودلالات الأساطير، وهو ما عكسته الآيات الكريمات كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣١ - ٣٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ۝ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤ - ٦]. وقوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٦ - ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤ - ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٠ - ١٣].

قصة الخلق في الأساطير:

توجد أكثرُ من مائة وعشر أساطير لخلق الكونِ والإنسان لا تذكر آدم وحواء، بخلافِ ما أوردَتْه الأديانُ السماوية، وهذه الأساطير متفرقةٌ جغرافيًا على القارات الخمس، وتمتد بعمقها الزمني عبرَ التاريخ، وبعضُها قد وُجِدَ بعدَ ظهور الأديان السماوية بكثير. ويمكن تقسيم تلك الأساطيرِ المتعلقة بالخلق إلى خمسةِ أقسام على النحو التالي[١]:

أولًا: أساطيرُ الخلقِ من الفوضى (Chaos):

تشملُ شعوبًا مختلفة كالشعبِ الكوري، وشعبِ السرار في السنغال، وغربِ أفريقيا، وبعضِ الشعوب الفنلندية، وشعوبِ الإنكا، وغيرها. هذه الشعوبُ على سبيل المثال لا الحصر، تؤمن بأسطورة الخلقِ من العدَم؛ أي أن الكون تخلق من العدم، بعد مروره بحالة كبيرة من الفوضى من حيث الشكلِ والمضمون، وانعدام الأبعاد. ويمكن تلخيص وجهة نظر كل أسطورة منها وفقًا لذهنية وطبيعة الشعب الحاضن لها في ما يلي[٢]:

- الأسطورةُ الكوريةُ تقول: إن الأرضَ والسماء كانتا متصلتين، وفي يوم وُجِدَ فراغٌ بين الاثنتين، وتشكَّلت نقطةُ ماءٍ زرقاءَ من الندى منبعثة من السماء، ونقطة ماء سوداء أخرى منبعثة من الأرض، فاختلطتِ النقطتانِ، ومنها خُلق الإنسانُ والآلهةُ ما عدا الشمسَ والقمرَ والنجوم. وفي ثقافتهم فقد استيقظ يومًا كبيرُ الآلهة لديهم ويدعى تشينغوانغ على صياحِ ثلاثة ديوك، الديكُ الأول إمبراطورُ السماء، والديكُ الثاني إمبراطورُ الأرض، والديكُ

(1) (Encyclopedia of Creation) Leeming David, and Leeming Margaret 1994.

(2) Britannica Encyclopedia.

الثالث إمبراطورُ البشر، وكانوا يَصيحون لعدم وجودِ الشمس، فخَلَق لهم تشينغوانغ شمسينِ وقمرينِ لإرضاء الديوكِ الثلاثة، وأصبحت تُشرقُ عليهم الشمسُ وتظهر الأقمارُ مساء.

- أما أسطورةُ الخلق عندَ شعب السرار في غربِ أفريقيا بالسنغال وغامبيا فتقول: إن الخلق قد تم بواسطة الإله الأكبر رووج Roog أو في اللهجات المحلية Koox. وابتدأ الخلق في الشجرة الأولى التي زرعَها رووج قربَ المستنقعات، حيث تشكلت الأرضُ منها، ثم خلق رووج عالمَ المياه تحتَ سطح الماء، وعالمَ الهواء ويشملُ الشمسَ والقمرَ والنجومَ، وتوجد بيضةٌ مقدسةٌ في عملية خلقِ هذه العوالم.

- وتشير أسطورةُ الخلق عندَ شعوب تيجوسيك في سيبيريا Tungusic إلى أن بداية الخلق كانت في محيط هائل، حيث أشعل بوغا Buga النارَ في المحيط، وبعد انتهاء الحريقِ ظهرتِ اليابسةُ، وخلق بوغا الضوءَ ليتمكنَ من النزول إلى الأرض، ليواجه الشيطانَ بونينكا Buninka وبعد أن انتصر عليه تفرَّغَ لصنع الإنسان، ليجمع من أجل إتمام ذلك من الشرق الحديدَ، ومن الجنوب النار، ومن الغرب الماءَ، ومن الشرق الأرضَ، فكان أن خَلَق العظمَ واللحمَ من الأرض، وصنع القلب من الحديد، وأوجد الدم من الماء، وبث الحيوية من النار، فكان بعد ذلك أن اكتمل خلق الرجل والمرأةِ.

- وعند شعوب الإنكا في منطقة الإنديس بأميركا الجنوبية Inca myth قامت أسطورة الخلق على عاتق الإله فايروكوتشا Viracocha الذي خلق الكونَ، ثم أمر الشمسَ أن تكون فوقَ السُّحُب، وعبدته الشعوبُ على أنه إلهُ الشمس والعواصف، والشمسُ هي التاجُ الذي يلبسه. وقد ظهر هذا الإلهُ من بحيرة تيتي كاكا TiTi CaCa في فترة الظلام، فعمِلَ الشمسَ والقمرَ والنجومَ ثم نفخَ في الصخور، وبهذا خلَقَ الإنسانَ، ولكنه كان كبيرًا في

الحجم وصغيرًا في عقله فلم يرضَ عنهم، وسمَحَ للطوفان أن يكتسحَهم جميعًا، وخلق قومًا آخرينَ من صخور أصغرَ حجمًا، وبعد ذلك ذهبَ إلى المحيط الباسفيكي ولم يظهرْ منه. وتستمر الأسطورةُ فتقول: إن له ابنًا اسمُه آنتي Inti وابنتينِ، وبعد أن دمّر البشرَ غمر بحيرةَ تيتي كاكا بالفيضان لمدةِ ستينَ يومًا وستينَ ليلة متصلةً، ثم تكاثر الخلقُ الجديدُ من أحفادِ هذا الإله.

- أما أسطورةُ بانغو Pangu الصينية فتعد من أقدم الأساطير المسجَّلة، إذ تذكر أن سمة ابتداء الكون كانت في الفوضى وانعدام الشكل، ثم دخل الكونُ إلى البيضة الكونية لمدة ثمانيةَ عشرَ ألف سنةٍ، ومعهم الإله بانغو، حيث تم توازنُ عُنصُري الكون yen و yan الين واليان، ليخرج بعدها وهو عملاقٌ ذو شعر كثيفٍ على جسده، وله قرنٌ وحيدٌ، ويلبس الفراءَ فوقَ شعرِه الكثيف، فكان أول عمل له أن فصلَ الين عن اليان المشكلين لعناصرَ الكون، ثم خلقَ الأرضَ والسماء، وظلَّ يرفعُ السماءَ حتى لا تقع، بمقدار عشرةَ أقدام للأعلى في اليوم، والأرضُ تزداد سماكةً بمقدار عشرةَ أقدام، ويزداد في الوقت نفسه طولُ الإله بانغو بمقدار عشرة أقدام كلَّ يوم، واستمر هذا الحالُ لمدة ثمانيةَ عشرَ ألفَ سنةٍ أخرى ثم مات هذا الإله، من بعد أن تَشَكَّلتْ عناصرُ الكون من جسده، حيث تشكل الريح من أنفاسِه، ومن صوتِه الرعدُ، ومن العينِ اليسرى خُلقتِ الشمسُ، ومن العينِ اليمنى خُلق القمرُ، ومن رأسِه الجبالُ، ومن دمائِه الأنهارُ، ومن عضلاتِه سمادُ الأرض، ومن شعرِ وجهِه النجومُ، ومن الفراءِ الأحراشُ، ومن عظامِه المعادنُ الثمينة، ومن مُخِّ العظام الألماسُ، ومن عَرَقِه الأمطارُ، أما الحشراتُ داخلَ الفراء فقد أصبحتِ الحيواناتِ على الأرض.

ثانيًا: أساطير الغواصين للأعماق Eartn Diver :

تنتشر هذه الأساطير بين عدد من القبائل والشعوب ومنهم الهنود الحُمرِ في

الولاياتِ المتحدة وسيبيريا، وتتمحور حولَ أن الإلهَ يرسلُ طائرًا أو حيوانًا إلى المحيط المائي للكون، لتجميع الرمالِ أو الطين الذي يخلقُ منه البشرَ في ما بعد، مع التركيز على خلق اليابسة التي ستكونُ عليها الحياةُ، وتنجح المحاولاتُ بعد عدة محاولاتٍ فاشلة. وتختلف الأسطورة في تفاصيلها من قبيلة وشعب إلى آخر، على النحو التالي:

- قبائل الشيروكي Cherokee: عندهم أن الأرضَ كانت جزيرةً طافية صغيرة، ومحاطةً بالمياه من كل جانب، ومعلَّقةً بخيوطٍ إلى السماء من أربعِ نقاط. ثم هبطتِ الخنفساءُ إلى أعماق البحار لترى ماذا يوجدُ تحت الماء، فأحضرت معها طينةً ناعمة، ومنها صارت هذه الرمالُ الطينية تتوسعُ في كل اتجاه، حتى أصبحتِ الأرضُ على ما هي عليه. كما أرسلت الحيواناتُ في السماء طائرًا اسمُه بازارد Buzzard ليتأكدَ أن الأرضَ أصبحتْ جافةً، ثم نزلتْ ومعها الشمسُ، وبعد تجارِبٍ وجدوا أنه من الأنسب أن تُشرِقَ الشمس من الشرق وتَغرُبَ من الغرب، وللبعد المناسب بينهما تفاصيلُ كثيرةٌ قام بها الخالقُ الأكبر The great spirit الذي هو صانعُ كلِّ شيء، والأرضُ تُغذِّي أبناءَه، وليس له شبيهه بالإنسان، لا بالشكل ولا بالصفات.

- أسطورة أينيو Ainu اليابانية: وتقومُ على فكرة أن الخالقَ الإله أرسل إلى الأرض طائرًا صغيرًا يُسَمَّى Water Wagtail يهز ريشَه وذنبَه لإيجاد مكانٍ جافٍّ في وسط المحيطات، وأخذ يحملُ الترابَ والمياهَ على جناحَيْهِ، ومن هذا تَشكَّلتِ الجزرُ في المحيطات، وهناك عاشَ في ما بعد أينيو، وهناك تفريعاتٌ أخرى لهذه الأسطورة.

- أساطير أفريقية: مثلُ ديانة يوروبا الموجودة حاليًا في جنوبِ غرب نيجيريا، ودولةِ بينين ودولةِ توغو: وهي مجموعةٌ من المعتقدات المتداخلة حولَ العقائد وأساطيرِ خلق الأرض، وأن الآلهة أثناء عملهم لخلق أطرافِ الأرض علِقتْ بثيابهم الرمالُ ومنها خُلِقَتِ الأرضُ.

ثالثًا: أساطير الانبثاق Emergence :

ترتكز فكرة هذه الأسطورة على أن الحياة الإنسانية تنبثق من عالَمٍ آخرَ مسكونٍ بالحياة غيرِ العالم الأرضي، ويُعَدُّ العالَمُ السابقُ المسكون بمنزلة الرَّحِم للأرض الأم، والانبثاقُ هنا يشبه عمليةَ الولادة أو التخليص، ومَنْ يشرفُ عليها يكون أنثى مقدسةً مثلَ المرأة العنكبوت، أو أشخاصٍ متصلينَ بالإله الأكبر. وهي منتشرةٌ في شعوب أميركا الشمالية الأصلية بكثرة. ومن ذلك مثلًا:

- أسطورةُ الخلق زيني (Zuni): في هذا النموذج الأسطوري المنتشر لدَى شعوب البيبلو Pueblo بمنطقة نيو مكسيكو في جنوب الولايات المتحدة، يتواجد البشرُ في مكان مظلمٍ للغاية بأعماقِ الأرض يُسمَّى الأرضَ الرابعة، وبعد أن يُشفِقَ عليهم الخالقُ، يرسلُ اثنين من أبنائه، الذين هم على هيئة بشر، لقيادة الناس إلى ضوء النهار. وتَحكي الأسطورةُ تفاصيلَ كثيرةً عن خروجهم بمساعدة أربعة قِسِّيسينَ، وتعرّفهم على نباتاتِ الأرض وزراعةِ المحاصيل، ولما لم يستطيعوا الأكلَ لعدم وجود أفواه، قام أحد القسيسين عند نومهم بشقِّ الوجوهِ لإيجاد أفواهٍ للأكل. وقد تمكن من ذلك بصورة تدريجية كما تم تزويدهم بالحواس مع كل مرحلة بشكل تدريجي.
- أسطورةُ هوبي للخلق Hopi: تتمحور عمليةُ الخلق حولَ روح الشمس (تاوا) Tawa وهو الذي خلق العالَمَ الأولَ من الفضاء اللانهائي، ومَنْ يسكن ذلك العالم أيضًا، وخلق المرأةَ العنكبوتَ بمنزلة رسولٍ بين الإله والناس، وفي روايات شفهية لها دَورٌ أكبرُ في عملية الخلق. وفي الأسطورة أن الأرضَ الخالية: هي الأرضُ الرابعة التي تسكنها مخلوقاتُ (تاوا)، وفي كل مرحلة يقتلُ العصاةَ ويُبقي على المطيعين الذين تُرَحِّلُهم المرأةُ العنكبوتُ إلى مستوى أعلى بصفاتٍ أنقى للأشخاص والبيئة. وتوجد روايات أخرى مختلفة داخلَ هذه الأساطير تشير إلى أن (تاوا) دَمَّرَ العالَمَ الثالثَ بفيضانٍ

كبير، وقبل حدوث الفيضان أنقذتِ المرأةُ العنكبوتُ الأشخاصَ المطيعين بأشكال مختلفة.

رابعًا: أساطيرُ الخلق من العدم Ex nihilo:

تقترب هذه الأساطير في مفهومها من فكرة ابتداء الخلق من العدم، وقد يكون الخالق فيها ظاهرًا أو غير ظاهر للعيان، وأنَّ الخلقَ امتدادٌ لفكرةٍ من خلال حديث أو حلم أو نفس... إلخ. وتحمل أهمُّ الحضارات القديمة في موروثها أساطيرَ من هذا النوع. ومن ذلك:

- أسطورةُ الخلق عندَ المصريين: التي تأخذ أشكالًا متعددة، لكنَّ أهمَّها وأكثرَها انتشارًا ما يُسَمَّى مذهب هليوبوليس أو عين الشمس، المعتمدُ على ترنيمات مكتوبة تُسَمَّى متونَ الأهرام. في هذا المذهب، العدمُ يسبقُ ظهورَ الإله كما ورد في النص: «لم تكن السماء خُلِقت بعدُ، ولم تتشكَّلِ الأرضُ بعدُ، ولم توجدِ الإنسانيةُ بعدُ، ولم تُولد الآلهةُ بعدُ، ولم يحدثُ الموت بعدُ». في هذا العدم أُطلِقَ على المياه (نون)، ويقولُ: «أنا الإله العظيم الذي أوجد نفسه بنفسه». خُلق الإله آتون، ومن آتون خُلق اثنان من الآلهة، قيل بالاستمناء، وقيل بالبصق التوأم وهما (تشو) وتعني الهواءَ، و(تفنوت) وتعني آلهةَ الندى، وفُصل بين هذينِ التوأمينِ. وبعدهم جاء التوأمانِ (جب) الأرض، والأنثى (نوت) السماء، ومِنْ تكاثرِهم خرج الكونُ إلى الوجود. وتستمر تفصيلاتُ الأسطورة.

- أسطورة الخلق عند شعوب كيوبا Kuba في وسط أفريقيا المعروفة بأسطورة مبومبو Mbo Mbo: حيث تذكر الأسطورة أن مبومبو كان عملاقًا أبيض اللون، وكان وحيدًا والمياه تغمر الأرضَ، وشعر بألم شديدٍ في معدته، فاستفرغ الشمسَ والقمرَ والنجومَ وحرارةَ الشمس وضوءها، ثم تبخرتِ المياهُ، وظهرتِ الأرضُ والتلالُ. كما استفرغ مرةً أخرى، فخرجتْ من

معدته تسعةُ حيوانات مختلفة، ومن هذه الحيواناتِ خُلقت كلُّ الخلائقِ في الأرض. وبعدَ انتهاء الخلق الذي ساعدَه فيه أبناؤه، عاد مبومبو إلى الخلود، وترك الأرضَ للإنسان.

- أسطورة عجلة بارتون (السومرية): وقد وُجدتْ مكتوبةً على عجلة من الطين تُسمَّى علميًا عجلةَ بارتون: وهو العالمُ الذي ترجمَ ونشر النصَّ مطلعَ القرنِ العشرينَ، وتعود العجلةُ إلى عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد. وتشير الأسطورة إلى أن العالم كان فارغًا إلا من المياه الأزلية، التي خرجت منها الآلهةُ (نمو) إلهةُ الماء، وكذلك (آن) ربُّ السماء، و(كي) ربةُ الأرض، اللتان أنجبتا بعد زواجهما (إنليل) ربَّ الهواء وهو من قام بالتفريق بين أبويه. على أن الظلام لم يستمر طويلًا، حيث أنجب (إنليل) ابنَه (نانا) ليصبحَ القمرَ، وهو من أنجب الإلهَ (أوتو) ليصبح الشمسَ، وهكذا تستمرُّ الأسطورة السومرية في التوالي، مع الإشارة إلى مدى تأثيرها في حكاية ابتداء الخلق في المخيال اليهودي وبخاصة أثناء السبي البابلي وإعادة كتابة التوراة في تلك المرحلة وفق ما تذكره الدراسات الحديثة.

خامسًا: أساطير آباء العالم world parent:

توجد صيغتانِ لأساطير آباء العالم، الصيغةُ الأولى: تقوم على فكرة وجودُ الكائنِ الإلهي من جزأين متحدينِ، والخلقُ يتم عندَ فصلِ هذينِ المكوِّنين عن بعضهما البعض، وعادةً يكونا مثلَ السماء والأرض؛ والصيغةُ الأخرى: تنطلق مِنْ تفكيكِ أعضاء الكائن الإلهي، مثلَ العظام أو الدم أو الشعر... إلخ، والتضحيةُ بها لخلقِ السماء أو الأرض أو الحياةِ الفطرية... إلخ. وتنوعت هذه الأسطورة بين الشعوب على النحو التالي:

- أسطورة الخلق الإغريقية: يوجد عديدُ من المدارس والأساطير حولَ أسطورة الخلق في الثقافة الإغريقية، وتتفق أهمُّها في أن الخلق قد ابتدأ

من العدم، ومنه ظهرتْ أعدادٌ من الآلهة، التي كان أولُها الإله (جايا) أو إله الأرضِ، ثم إله الليل (نيكوس)، وإله الهواء (الإيروس)، وتذكر أيضًا أن الإله (جايا) قد أولد إلهة السماء (أورانس) وغطتها بالشفق الأحمر، ثم أصبح زوجًا لها. وهذا أولُ زواج في الكون حيث أنجبا العمالقةَ (التيتانَ) و(السيكلوب)، وخافت أورانس من كونهم مسوخًا لهم عينٌ واحدةٌ، فخبأتهم في باطنِ الأرض، فغضب جايا، فاستغلَّتْ أحدَ أبنائها لقتلِ زوجِها، وتستمرُّ الأحداثُ في قصة الخلقِ الإغريقية حتى تمتلئ الأرضْ بالبشر.

- أسطورة خلق رانجي أندبابا Rangi and papa: تقول هذه الأسطورة إن الزوجين رانجوي وبابا هما الأبوانِ الأوليانِ، السماءُ وهو الأب، والأرضُ وهي الأم المرتبطَيْن بِسوار محكم، وجميعُ أطفالهم الكُثُر من الذكور، ويعيشون في الظلام وفي مكان ضيق. وتشاور الأبناءُ عن أفضل طريقِ ليبصروا النور، فاقترح أحدُهم قتلَ الأب؛ ولكن الابنَ الآخر وجَد أن من الأنسب إبعادَ الأب خاصةً وأنه السماءُ البعيدة. وعلى الرغم مِن تعاونِ جميع الأبناءِ لفك الارتباطِ بين الأب والأم إلا أنهم لم يُفلِحوا، وفي النهاية لجأ إلهُ الغاباتِ والطيورِ إلى الحيلة، ونجح في فكِّ الارتباط بين الأب والأم. وكان هذا بدءَ حروبٍ بين الآلهة؛ لأن بعضَهم رفض سماعَ بكاءِ الأبوينِ، وبدأت تفاصيلُ قصةِ الخلق. يؤمنَ بهذه الأساطير شعوبُ الجُزُرِ الجنوبية في البحرِ الكاريبي.

- أسطورة كواتلكيو Coatlicue: حسبَ أسطورةِ الأزتيك أنه وبينما كانت الأم تنظف المعبد بواسطة كرة من الريش، قامت إحدى بناتها بتجنيد أربعمائة من أخواتها لقتل أمهم وتقطيع أطرافها، فكان أن وُلد الإله هيتزلوبوتش Huitzilopochtli وخرج من رحم أمه وهو بكامل عَتادِهِ العسكري ومستعدًا للحرب، فقتلَ الكثيرَ من إخوانه وأخواته، وقام بقطع رؤوسهم، ثم رُميَ أحدُ هذه الرؤوس فتحوَّل إلى القمر. وهكذا تستمر تفاصيلُ الأسطورة في

خلق بقية الكون[١].

قصةُ الخلق في الأديان:

تقع قصةُ الخلق في جميع الديانات بمكان مركزي عال، لأنه ومِن خلالها وبسببها تتشكلُ الكثيرُ من تفاصيل البناء الداخلي لكل دين، ومنظومةُ المعتقدات الداخلية، وعلاقةُ الفرد بخالق الكون.

ويُقصد بالدين هنا الخضوع والتسليم بأشكال العبادات والتكاليف وأصول العقائد، التي من خلالها يحدّدُ ثواب المؤمنين المطيعين، وعقاب العصاة والمخالفين، كلُّ هذه المنظومة تُسَمَّى دينًا.

أشير إلى أن لفظة الدين مطلقًا ومن دون تحديد اسم مصاحب قد حُصرت في المنظور الإسلامي بمفهوم الدين الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأحكامه ومتطلباته، وفي ذلك يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، وبخلاف ذلك يتم إطلاق لفظة (ملة) أو ربط الدين باسم كأن نقول: الدينُ الفلاني.

وفي ذلك فقد وُصِفَتْ أديانُ أهل الكتاب في القرآن بالملّة في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ

(١) كما تقدم، جميع المعلومات الواردة عن أساطير الخلق في هذا الجزء مصدرها:

1- Encyclopedia Britannica.

2- (Encyclopedia of Creation) David and Leeming Margaret.

أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]. مع الإشارة إلى أن القرآنَ الكريم قد قسم الأديانَ إلى ثلاثة أقسام وهي: أديان لها كتبٌ مقدسة، وأديان لها شبهُ كتاب، وأديان لا تملكُ كتبًا مقدسة[١].

وأشير أيضًا إلى أن الأديانُ منذُ فجرِ التاريخ قد بنيت على معتقداتِ توحيديةٍ نقية، وهي نظريةِ التوحيد الأولى التي تقوم على الإيمان بوجودِ إلهٍ واحدٍ لا شريكَ له، وهو دينُ الفطرة الذي لا يزال قائمًا إلى يومنا هذا عند بعض القبائل البدائية المعزولة بشكله الأولي[٢].

ويُرجع البعضُ أن ميلادَ عقيدة الألوهية يَرجعُ إلى فكرة السببية في التفكير الإنساني، والاعتقادِ أن لكل صنعةٍ صانعًا ولا بدَّ لهذا الكونِ من خالق له قدراتٌ تتجاوزُ القدراتِ الإنسانية؛ وهو ما يدل على أن قصةَ الخلق هي جوهرُ عقيدة التوحيد[٣].

ومع تطور العلوم وتخصصها، والتأثيرِ العميق للأديان على الإنسان، ظهر ما يُسمَّى بعلم الأديان، والذي يُعنى بدراسة الأديان، والحوارِ بين أصحاب الأديان المختلفة، وتصنيفِ الأديان وفق معايير معتمدة، مثلًا دياناتٌ علمية وغيرُ علمية، أو تُصنف الأديانُ على المعايير الجغرافية، أو تُصنفُ على المعايير التاريخية، أو هل هي أديان حية، أم أديان ميتة لا يوجدُ لها معتنقون؟ وفي هذا السياق سنعرض لأحد تلك المعايير وهو المعيارُ الديني الموضوعي، الذي استخدمه أحدُ الباحثين في تقسيم أديان العالم اليوم إلى خمسِ منظومات رئيسة تشملُ ديانات الشرق الأقصى الأخلاقيةُ والفلسفيةُ وهي:

---

(١) محمد خليفة حسن، تاريخ الأديان: دراسة وصفية مقارنة، (القاهرة: دار رؤية، ٢٠١٦م) ص٢٨.

(٢) محمود محمد شاكر، أباطيل وأسحار، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٥م) ص ٤٢٨ – ٤٣٢.

(٣) عمرو شريف، الوجود رسالة توحيد، ط٢، (القاهرة: نيوبوك، ٢٠١٥م) ص٣١ – ٣٣.

١ـ الدياناتُ الهندية ومنها[١]:
- الديانةُ الهندوسية.
- الديانةُ البوذية.
- الديانةُ الجينية.

٢ـ الدياناتُ الصينية ومنها:
- الديانةُ الكونفوشيوسية.
- الديانةُ التاوية.

٣ـ الدياناتُ اليابانية ومنها:
- الديانةُ الشنتوية الأصلية.
- الشنتويةُ الموحدة وعبادةُ الإمبراطور.

٤ـ الدياناتُ الفارسية وتشملُ:
- الديانةَ الزرداشتية.
- الدياناتِ الزرفانية والمنثرية والمانوية.

٥ـ الدياناتُ التوحيدية:
- اليهودية.
- المسيحية.
- الإسلام.

الجدير بالذكر فإن الإسلام لا يعترف بتعدد الأديان كمفهوم، انطلاقًا من الإيمان بأن الدينَ الإلهيّ واحدٌ وهو قائم على عقيدة التوحيد؛ ولكنه يؤمن بالتعايش معها باعتبارها واقعًا بشريًا، ويطلق عليها تسمية «أديان وضعية» كونها من صنع البشر وتفكيرهم.

(١) ديانة السيخ لم تُذكر في هذا التصنيف على أهميتها وهي موجودة من القرن الخامس عشر في الهند.

وفي حديث عياض المجاشعي عن رسول الله: إن الله نظر في أهل الأرض فمقتَهم، عربَهم وعجمَهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال الله لرسوله: إنما بعثتُك لأبتليَك وابتليَ بك، وأنزلتُ عليكَ كتابًا لا يغسلُه الماءُ تقرأه نائمًا ويقظان[١]. بعبارةٍ أخرى توجدُ وحدةٌ دينية واحدة لكل البشر، منذُ بدايتِها وحتى الآن، ومضمونُ دعوات الأنبياء والرسل واحدةٌ، وهي الدعوةُ للتوحيد وطاعة الله.

لهذا يوصَفُ الإسلامُ بأنه أقدمُ الأديان وآخرُها في الوقت نفسه، لأن الإسلامَ كمعتقدٍ اصطلاحي مرتكز على التوحيد قد تأسس منذ فجر البشرية، واكتمل بناءه مع دعوة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فكان النسخة الصحيحة والمتممة لكل الأديان السماوية السابقة[٢] مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. وجاء في الحديث: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال الأنبياءُ إخوةٌ من علّات (العلّاتُ هم الإخوة لأبٍ واحدٍ وأمهاتٍ شتى)، وأمهاتُهم شتى، دينُهم واحد، فليس بيننا نبي»[٣]، ولذلك فقد اعتبر المفسرون معجزةَ الإسلام وهي القرآنُ الكريم، أمينًا على الكتب التي قبله، ومصدقًا على كل شيء أنزله الله. وفي هذا يذكرُ ابنُ كثير: إن القرآن أمينٌ وشاهدٌ وحكَمٌ على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتابَ الذي أنزله آخرَ الكتب وخاتمَها وأشملَها وأعظمَها، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا، وتكفَّلَ تعالى بحفظِه بنفسِه الكريمة[٤]. على أن

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ج٤، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٢٨٦٥)، ص ٢١٩٧.

(٢) توجد دراسة وصفية من الناحية الشرعية لتعريف معنى الدين الإسلامي في كتاب: أباطيل وأسحار، مرجع سابق، ص ٤٢٦ – ٤٤٠.

(٣) صحيح مسلم، باب فضائل عيسى بن مريم عليه السلام، ج٤، حديث رقم (٢٣٦٥)، ص١٨٣٧.

(٤) إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر) ج٢، ص٧٧، سنة ٢٠٠٨.

القرآن الكريم لا ينتقص بقية الكتب السماوية ولذلك فقد حث في آياته على تقديم واجب الاحترام لها مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

أشير إلى أن مفهومَ الهيمنة القرآنية على الكتب الأخرى يعني الاحتواءَ، حيث عبّر القرآن الكريم عن اعتقاداتها ومفاهيمها الصحيحة، فكان النص القرآني أمينًا وحفيظًا وشاهدًا ومصدقًا ورقيبًا على كل ما يتوافقُ مع التوحيد الخالص. وهو ما يوحي بصفات الهيمنة الدينية، من دونَ فرضِ سيطرة أو ممارسة سيادة[1] مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، كما أوضح القرآن بأن إبراهيم كان حنيفًا مسلمًا في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

(١) محمد خليفة حسن، تاريخ الأديان، مرجع سابق، ص٣٩٠.

٢

حواء في التوراة وزوجة آدم في القرآن

تختلف النصوص المقدسة في الأديان الإبراهيمية التي أوردت قصة أمنا حواء في مضمونها عن بعضها البعض، بل ويمتد الاختلاف في تفسير هذه النصوص داخل الدين الواحد كالإسلام مثلاً، ويصل الأمر أكثر ليمتد الخلاف في التفسير بين أصحاب المذهب الواحد حول كيفية خلق أم البشر عليها السلام.

أولًا: خلقُ حواءَ وقضيةُ الضلع:

تنص الديانة اليهودية بصريح العبارة على أن خلق (حواء) قد تم من الضلع، حيث ورد في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: «(٢١) فأوقع الربُّ الإله سباتًا على آدمَ فنام، (٢٢) وبنى الربُّ الإله الضلعَ التي أخذَها من آدم امرأةً، وأحضرَها إلى آدمَ».

وتتفق النصرانية مع ذلك كليًا لكونها تعتمد نص سفر التكوين في كتابها المقدس، وبذلك تتفق اليهودية والنصرانية على أن خلق حواء كان من ضلع آدم القصيرِ وأن ذلك قد تم وهو نائم، وفقًا لما وردَ في سِفر التكوين.

أما خلق حواء في القرآن الكريم فقد جاء بشكل مختلف حيث ورد في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، وفي سورة الأعراف بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ

فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وفي سورة الزمر بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَاجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦]، وفي سورة النساء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

بذلك يمكن القول بأن القرآن الكريم لم ينص صراحة على أن خلق حواء كان من ضلع آدم، ومع ذلك فقد اختلف المفسرون داخل رواق الإسلام سنّة وشيعة في تفسير كيفية خلق حواءَ من نفسٍ واحدة، وذلك على النحو التالي:

- أخذ غالبيةُ أهلِ العلم من السنّة بالرواية التوراتية، استنادًا إلى ما قاله ابنُ إسحاق: أنه في ما بلغنا من أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، أنه أخذ ضِلْعًا من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأَمَ مكانَه لحمًا وآدمُ عليه السلام نائمٌ، ولما أفاق رآها إلى جانبه، فقال لحمي ودمي وزوجتي، وأضاف مجاهد أن آدمَ قال (اثا) بالنبطية، وهذه الرواياتُ أوردَها الطبريُّ، والروايةُ كاملةَ أوردَها السدّيُّ وأيضًا الثعلبيُّ.

ويتفق مع الرواية التوراتية ابنُ عباس والنيسابوريُّ وابنُ عاشور وابنُ الجوزي وابنُ كثير والزمخشريُّ وعددٌ كبير من علماء السنة[1]. وكذلك فتوى اللجنةِ الدائمة للبحوث في السعودية، حيث قال العلماءُ: "ثبتَ في القرآن والسنة ما يدلُّ على خلق آدمَ من تراب، وخلق زوجِه حواءَ منه"، انتهى. (المجلد الأول/١٥). وليس بالضرورة التوافق مع الرواية التوراتية أنهم أخذوا بالحيثيات التوراتية. لا، التوافق في نفس الرأي يكون بالاعتماد على

(١) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، ط١، (القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر، ٢٠٠١م) ج٧، ص٥١٥.

مصادر أخرى، وهذا موضح في فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٧٠ و ٢/ ٤٣٧ و ٩ – ١٠).

- على أن فريقًا من أهل السنة قد اعتمد على التفسير البياني لكلمة زوج في الآية الكريمة، ففسرها بمعنى (شطر)، وبالتالي فآدمُ وحواءُ قد خُلقا من نفس واحدة، وهذه النفسُ تتكون من زوجينِ أو شطرينِ، أحدُهما آدمُ، والآخرُ حواءُ، ويُمثِّل هذا الرأيَ، على سبيل المثال الغزالي حرب وهو من علماء الأزهر[١].

- فريقٌ ثالث من أهل السنة يقول: المقصودُ أنها خُلقت من جنس زوجها، وأن الله مثلَما خلق آدمَ ابتداءً، فقد خلقَ حواءَ ابتداء، والإشارةُ إلى الشيء تكون بحسب نوعه، ولغويًا المقصود الفرد بل النوع، أي أن (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فسَّرها أبو مسلم من جنسها، وتكونُ من التراب؛ لأن الجنسَ إلى الجنس أسكن[٢].

أشير في هذا السياق إلى أن الدافعَ الأساسي لرفض بعض أهل السنة تفسيرَ أنَّ حواءَ قد خُلقت من ضلعِ آدمَ، لكون ذلك لم يُذكر صراحة في النص الشرعي، وحتى الحديثانِ اللذانِ رواهما أبو هريرة، وذكر فيهما الضلعَ لم يذكر فيهما آدمَ وحواءَ على الإطلاق. والرسولُ عليه الصلاة والسلام قد أُعطيَ جوامعَ الكلم، ويعرف كيف يُطوِّع اللغةَ؛ فإذا كان المقصودُ بذكر الضلع آدمَ وحواءَ في حديثه لكان ذلك واضحًا، ولكن نزّهه الله عن الدخول في هذه التفاصيل، وفقًا لوجهةِ نظرِ هذا الفريقِ من أهل السنة.

إضافة إلى ذلك فقد أشار المحدث الألباني إلى أن ورودَ الضلع في الحديثينِ قد كان بغرض التشبيه، حيث قال: قال الشيخُ القاري (في شرح المشكاة): أي

(١) الغزالي حرب، استقلال المرأة في الإسلام، (القاهرة: دار العين، ٢٠١٧م) ص١٢٤.

(٢) ابن عطية، عبد الحق بن غالب (المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، بيروت، لبنان.

خُلِقْنَ خلقًا فيه اعوجاجٌ، فكأنهنَّ خُلقنَ من الأضلاع وهو عظمٌ مِعْوَجٌّ، واستعارة المِعْوَجِّ صورة أو معنى، أي استعارةٌ على التشبيه لا على الحقيقة[١].

وفي هذا فقد روى أبو هريرة أن رسول الله قال: المرأةُ كالضلعِ إن أقمتَها كسرتَها، وإن استمتعتَ بها استمتعت بها وفيها عِوَجٌ، أخرجه البخاري[٢]، وروى أنه قال: مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَه، واستوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهُنَّ خُلِقْنَ من ضلع، وإن أعوجَ شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمُه كسرتَه، وإن تركتَه لم يزل أعوجَ فاستوصوا بالنساء خيرًا، أخرجه البخاري[٣].

وانقسم في هذا السياق أتباع المذهبُ الشيعي، حيث قال بعض منهم بمقالة الراوندي[٤] وهو أن (حواء) قد خُلقت ملتصقةً بآدم، حتى تكون تبعًا له، ولم يتفكروا كثيرًا في المادة التي خلقت منه. في حين آمن غالبيتهم بأن (حواءَ) قد خُلقت من طين الجنة الذي تبقى من خلق آدم، ويحتجون بحديث مروي عن أبي جعفر الذي أجاب حين سئل: من أي شيء خُلقت حواءُ؟ فقال: أخبرني أبي عن آبائه، قال رسول الله: إن الله تبارك وتعالى قبضَ قبضةً من طين فخلطَها بيمينه، وكلتا يديه يمينٌ، فخلقَ منها آدمَ، وفضلَتْ فضلةٌ من الطين فخلق منها حواءَ[٥].

---

(١) الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٢.

(٢) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، (الرياض: دار السلام، ١٤١٩هـ)، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، حديث رقم (٣٣٣١)، ص٣٨٨.

(٣) المرجع السابق، باب الوصاية بالنساء، حديث رقم (٥١٨٦).

(٤) قطب الدين سعيد الراوندي، قصص الأنبياء، تحقيق: غلام رضا عرفانيان، موقع شبكة رافد للتنمية الثقافية الإلكترونية، ص٣٥. www.rafed.net

(٥) محمد مسعود العياشي، تفسير العياشي، (المكتبة العلمية الإسلامية، بيروت) ج١. ص٢١٦.

على أن هناك من يشير إلى إمكانية الخلق من ضلع آدم حيث يرى العلامة الفيض كيشاني بأن حواء قد خُلقتْ من الطينة التي فضلتْ من طينة ضلع آدمَ الأيسر[١].

وهكذا ومع غياب النصوصِ الدينية الواضحةِ لتفاصيل عمليةِ الخلق، فقد تعددت الآراء والتفسيرات التي قدمها العلماء في موضوع قصة خلق حواء، وإن كان واضحًا أن الروايةَ التوراتية التي تنص على خلق حواء من ضلع آدم قد غلبت على بعضهم، وتم اعتمادها جملة من قبل مدرسة السنة، وباتت هي الروايةُ الرسمية التي يتم تدريسها في المقررات الدراسية.

ثانيًا: اسمها ووصفها:

أخذت حواءُ اسمَها هذا في اليهودية والنصرانية، من النصوص المقدسة التي نصت على ذلك بمنتهى الوضوح؛ حيث جاء في الإصحاح الثاني من سِفر التكوين٢٣: «فقال آدمُ: هذه الآن عظمٌ من عظامي، ولحمٌ من لحمي، هذه امرأةٌ لأنها من أمري أخذتْ»، وفي الإصحاح الثالث٢٠: «ودعا آدمُ اسمَ امرأته حواءَ لأنها أمُّ كل حي».

ومع ذلك فقد جاء اسمها بالعبرية (تشاووا Chawwah) أي بمعنى تتنفس، وأصلُها من (Chavah تشافا) بمعنى تعيشُ أو تلِد، وهي المصدرُ للاسم (Eva إيفا) في اللاتينية، والمستخدمُ في العصور الحديثة للأنثى بالمعنى الحرفي تعيش[٢].

أما وصفُها فقد جاء في الإصحاح الثاني٢٧ من سفر التكوين: «فخلق اللهُ الإنسانَ على صورته، الله خلَقَه ذكرًا وأنثى، خلَقَهم وباركَهم الله تعالى، وقال أثمِروا وأكثِروا واملؤوا الأرض وأخضعوها»[٣]، أي أنها وآدم خُلقا على صورة الله.

---

(١) الفيض الكيشاني، التفسير الصافي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٢م، المجلد ١، صفحة ٤١٤.

(2) Cambridge English Dictionary.

(٣) سفر التكوين.

وقد أجمعت كتبُ اليهود والنصارى على أن حواءَ تمثِّلُ الجمالَ الروحيَّ والطهارةَ والنقاءَ الرباني، لأنها خُلقت على أعين الله مع آدم، وخُلقتْ في أطهر بُقعة، وكانت في العشرينَ من العمر هي وآدمُ عند خلقها، وتتفقُ الكتبُ أن جمالَها لم ولن تَصِلَه أنثى من البشر، ومع ذلك فهي أقلُّ درجةً من آدمَ عليه الصلاة والسلام الذي هو أجملُ مخلوقات الله[١]، وتتبارى كتبُ اليهود والنصارى في وصف هذا الجمال، ونكتفي لبيان ذلك بعبارةٍ وردَتْ في (المدراش) التي جاء فيها أنَّ منظر نساءَ العالمين مثل القرود مقارنةً مع سارة، وهي بدورها في المنظر مثلُ القرود مقارنةً مع حواء، وعلى الرغم من افتقار هذا التشبيه للذوق والحكمة والأصول، إلا أنه يكفي لإيصال فكرةِ جمالِها النادر[٢].

وحول اسم (حواء) وصفتها في المصادر الإسلامية، أشير ابتداء إلى أنه لا يوجَد نص في القرآن الكريم يُعيّن اسم زوجة آدمَ، غير أن هناك حديثًا واحدًا ورد في الصحيحين، ورد فيه اسمُ حواءَ، وقد عُرف بحديث اللحم، وستتم مناقشة صحته علميًا لاحقًا؛ مع الإشارة إلى ظهور عديد من الأحاديث المصنفة بأنها من الإسرائيليات التي لم تلق قبولًا من المحدثين.

تجدر الإشارة إلى أن معاجم اللغة العربية قدمت تفسيرًا لغويًا للاسم (حواء)، حيث جاء في لسان العرب أن (الحوّة) هو السواد المائل إلى الخضرة، وقيل: حمرةٌ تضربُ إلى السواد[٣]، ويقال الرجلُ أحوى، والمرأةُ حواءُ. وأكثر ما يُفسَّر على أنها حمراءُ مائلةٌ إلى السواد. وتتحاشى كتبُ التفسير والقصاصون القولَ بأنَّ حواءَ اسمٌ عِبري، ويُنطَقُ كما ينطَقُ في اللغة العربية تمامًا بالنطق نفسه.

---

(1) (All The Women of the Bible - Eve) Bible Gateway.

(2) (Eve: Midrash and Aggadah) Jewish Encyclopedia.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ط٣، (بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ) ج١٤، ص٢٠٦.

ويؤكد ذلك ما ورد في قاموس التراث الأميركي الذي ذكر بأن هذا الاسمَ مأخوذٌ من الأصل السامي (Hyw) وتعني مصدرَ الحياة[١]. وفي النطق فإنها تتبعُ نظامًا لغويًا لتنظيم نُطقِ الإنجيل والتوراة بالعِبرية يُدعى Tiberian Vocalization يَسمَحُ بنطقها كما تنطق بالعربية. وهو ما يقوم به أهل الكتاب من العرب الذين يستخدمون اسم (حواء) حال قراءتهم لسفر التكوين وما يرد في الإصحاح الثالث والإصحاح العشرين[٢].

وواقع الحال يُمكن إرجاع هذا التجاهل للأصل العبري للاسم حواءَ، إلى عدم المعرفة والجهل به، أو لتمرير الصفات التوراتية عن المرأة إلى الثقافة الإسلامية، وجعلها جزءًا أصيلًا من توصيف الأنثى في هذه الثقافة، باعتماد اسمِها والدلالاتِ المرتبطة بالاسم.

وعَودًا إلى (حديث اللحم) الوارد في الصحيحين والذي ذُكِرَ فيه اسم (حواء) أشير إلى ما قرره علماء الجرح والتعديل بخصوصه، إيمانًا بأهمية الحفاظ على السنة المطهرة من أي غبش وتدليس، ولكن وقبل أن ندلف في النقاش، أحب أن أؤكد على أن النبي قد أمرنا بتأمل ما يرد عنه حيث قال: «إذا سمعتُم الحديثَ عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعارُكم وأبشارُكم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتُم الحديثَ عني تنكره قلوبكم، وتنفِرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم، وترون أنه منكم بعيدٌ، فأنا أبعدُكم عنه»، أخرجه أحمدُ وابنُ سعد في الطبقات الكبرى، وورد في صحيح الجامع[٣].

---

(1) American Heritage Dictionary.

(٢) موقع شرح الكتاب المقدس، القس أنطونيوس فكري: www.st.takla.org.

(٣) توجد حملة سلبية على صحيح البخاري بدعوى ورودِ بعض الأحاديث الشاذة، وأُلف في ذلك عدد من الكتب مثل كتابِ «جناية البخاري» لزكريا أوزون، وكتاب «صحيح البخاري نهاية أسطورة» لرشيد إيلال، وغيرِهم، والكاتب لا يقر هذا التوجُّه وتلك الدعوات جملة، ولا يمنع ذلك إعمال التدبر لمختلف الأحاديثَ المروية استنادًا لما أقره العلماء وجاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا يبدأ الباحث محمد بن الأزرق بحثه حول هذا الحديث بمقولة ابن الجوزي: «وكلُّ حديث رأيتَه يخالفُ العقولَ أو يناقضُ الأصولَ فاعلمْ أنه موضوعٌ فلا تتكلفِ اعتبارَه، أي لا تعتبِرْ رواتَه ولا تنظرْ في جرحهم، أو يكون مما يدفعه الحسُّ والمشاهدة، أو مباينًا لنص الكتاب أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي؛ حيث لا يقبلُ شيءٌ من ذلك التأويل»، ثم يوثق بقوله: إن هذا الحديثَ معلولٌ على سبعة أوجه[1]:

١ـ انفرادُ أبو هريرة بالحديث بالرغم مما فيه من معلومات خطيرة تتعلقُ بتاريخ البشرية، أي أنَّ الدواعيَ متوفرةٌ لأن يَرويَه جمعٌ من الصحابة، ويُستغرَبُ أنَ كبارَ الصحابة لم يَرووا الحديثَ الوحيدَ عن حواء، وهو من الأحاديث التي انفردَ بها أبو هريرة في آخر أيام حياته أثناءَ خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقد طعنَ الصحابةُ في الأحاديث التي انفرد بروايتها أبو هريرة في تلك الفترة، بسبب النسيان والتوهم خاصة مع أحداث الفتنة. وفي هذا الحديثِ بصورة خاصةٍ لم يُصرِّحْ أبو هريرة بأنه سمِعَه من رسول الله؛ ولكن تعددتِ الطرقُ عنه.

٢ـ مناقضةُ القرآن في قصة الغواية وإلصاقِها بحواء؛ لأن الله ينسبُ النسيانَ إلى آدم، وأن إبليسَ جاء إلى آدم، فخاطبه وغرَّر به وحيدًا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ووسوسةُ إبليس لآدم كانت مباشرةً من دون وسيط: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، ومعنى ذلك أن حواء لم تشارك في الغواية، وبالتالي لم يقع عليها أي لوم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ

(١) محمد الأزرق، هل خانت أمنا حواء زوجها؟ وهل الخيانةُ ميراثُ النساء فيها؟ جريدة هسبريس الإلكترونية المغربية، زاوية كتاب وآراء

https//:www.hespress.com/writers.273670/html.

وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٢]، مع الإشارة إلى أن رايات الغواية الأخرى قد ذكرت بصيغة التثنية ولم تذكر حواء وحدها أبدًا، وهكذا فاللومُ على آدم لأنه هو الذي حصلتْ منه الغوايةُ، وبذلك لا يمكن أن يناقض الرسول كلام الله.

٣ـ مخالفةُ العقل والعلم؛ حيث يفيدُ الشطرُ الأول من الحديث أن اللحمَ لم يكن يخنز، وأن ادخارَ الأطعمة لم يكن تقنيةً معروفة، قبلَ ادخارِ بني إسرائيل المنَّ والسلوى، وهذا الكلامُ يتناقضُ مع قصة سيدنا يوسفَ، ويتناقضُ مع آثار الأمم السابقة.

٤ـ مخالفةُ الطبيعة البشرية، وأن الخيانةَ خلقٌ خاص بالمرأة، والواقع إنه لا يمكن ترجيح وصف المرأة أو الرجل بالخيانة أكثر من الآخر أو أقل.

٥ـ مخالفةُ أبي هريرة لعبد الله بن عباس الذي ورد عنه أنه قال[1]: «لولا بني إسرائيل ما خنز لحمٌ ولا أنتنَ طعامٌ، وأنهم لما أُمِروا أن يأخذوا ليومهم، ادخَروا من يومهم لغدهم»، أي أن الشطرَ الأول من حديث أبي هريرة موقوفٌ على ابن عباس، وهو أعلم بالسنة والتفسير والتاريخ، وعندَ تعارضِ الرفع والوقف، يرجح المحدثون الوقفَ إذا كان الواقفُ أحفظ من الرافع، وابنُ عباس أحفظُ وأضبطُ وأعلمُ من أبي هريرة بمراحلَ. ويجوز أن يكون أبو هريرة سمع ما نسبه إلى الرسول من ابن عباس ثم طرأ عليه النسيان والتوهم مع تقدم العمر.

٦ـ وجهٌ آخرُ لمخالفة القرآن والعلم؛ حيث إن البعضَ يفسرُ آياتِ الخلق بأنَّ حواءَ قد خُلقتْ من آدمَ، وهذا يعني أن سيدَنا آدمَ هو الذي أورثَها من مكوناتِه كلَّ الصفات والخصائصِ ظاهرَها وباطنَها، وعليه فالقابليةُ الفطرية للوقوع في الخيانة تكونُ نابعةً من آدم، ومنه سرتْ إلى أمنا حواءَ، ثم استرسلتْ إلى ذريتهما.

---

(١) تفسير يحيى بن سلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، المجلد الأول، ص٢٧٠، أورد حديث ابن عباس بسند صحيح.

٧ـ اضطرابُ الصحابي شاهدٌ على نسيانه، والمقصود بالاضطراب هنا أن الراويَ الوحيدَ لم يحفظه جيدًا ولم يَضبِطه، ويجوز الطعنُ في الحديث باضطراب سنده أو متنه، باعتبارها قاعدةً حديثيةً متبعة، وفي هذا فقد ورد الحديث بروايات متعددة وهي:

- **الروايةُ الأولى**: روَى الإمامانِ عمرُو بن الحارثِ وعبدُ الله ابنُ لهيعةَ عن أبي يونسَ سليم بن جبير مولى أبو هريرةَ عن النبي قال: «لولا حواءُ لم تخن أنثى زوجَها الدهرَ»، مسند أحمد وصحيح مسلم[١]، وفي هذه الرواية أُلغيَ الجزءُ الأول من الحديث الخاص باللحم.

- **الروايةُ الثانية**: عن همامِ بن منبه وابنِ سيرين عن أبي هريرة عن النبي قال: «لولا بني إسرائيل لم يخنز اللحمُ، ولولا حواءُ لم تخنْ أنثى زوجَها الدهرَ»[٢]، مسندُ أحمد وصحيحُ البخاري، والمستدركُ على الصحيحينِ للحاكم.

- **الروايةُ الثالثة**: ورُوِيَ عن همام بن منبه عن النبي أنه قال: «لولا بني إسرائيل لم يخبثِ الطعامُ، ولم يخنزِ اللحمُ، ولولا حواءُ لم تخنْ أنثى زوجَها الدهرَ»، صحيحُ مسلم ومستخرجُ أبي عوانة وبزيادة يخبث الطعام[٣].

كما يدلل ابن الأزرق على أن حديث أبي هريرة عن خيانة حواءَ من الإسرائيليات بعدة قرائن وهي:

- **القرينةُ الأولى**: شهرةُ أبي هريرة عن رواية الإسرائيليات عن مُسلمي أهل الكتاب، حيث اتخذ كعبَ الأحبار شيخًا له، كما ورد في تهذيب

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم(٨٥٩٧)؛ صحيح مسلم، حديث رقم (١٤٧٠).
(٢) مسند الإمام أحمد، حديث (٨٥٩١)؛ صحيح البخاري، حديث (٣٣٩٩).
(٣) صحيح مسلم حديث (١٤٧٠)؛ مستخرج أبي عوانة، حديث (٤٥٠٢).

الكمال للحافظ المزيِّ، وبعضُ أحاديث أبي هريرةَ سمعها من كعب، ويردِّدُها تلاميذُه بنسبتها إلى النبي.

- **القرينةُ الثانية**: تعظيمُ اليهودِ وأفعالِهم، فهو مدحٌ في ما يشبهُ الذمَّ، فالادخارُ ليس عملًا قبيحًا؛ ولكنْ بالصيغة التي وردت في الحديث، توضحُ أنهم اخترعوا تقنيةَ الادخار وعلَّموها للبشرية.
- **القرينةُ الثالثة**: تحقيرُ أمنا حواءَ وطباعِها، وتكريسُ الثقافةِ والرواياتِ التوراتية عن مسؤوليتها في الخطيئة، وأنها مَنْ غَرَّرتْ بسيدنا آدمَ، وهذا الحديثُ يدفعُ بالاعتقاد في هذا الاتجاه.

نحنُ إذًا أمامَ نقطةِ افتراقِ طُرقٍ ثقافية ودينية مهمة، حولَ قَبولِ أو رفضِ هذا الحديثِ، وما يترتبُ على ذلك. فإما أن نأخذَ حديثَ اللحم على الرغم من العلل التي أوردها الباحثُ آنفًا، وبذلك يكون الاسمُ العبراني حواءُ، قد ورد على لسان النبي، أو أن نُنكِرَ الحديثَ على الرغم من أنه جاء في الصحيحين للأسباب الآنفة. وهنا تنتصر وجهةُ النظر القائلة إن الله تعالى نَزَّه هذا النبيَّ عن الخوض في قصة الخلق وأمورِها الخلافية تكريمًا له، الذي لا ينطق عن الهوى كما سبق.

إن من سمات العقلانية في الإسلام، أن الله قد نزَّه هذا النبي المختار عن الخوض في تفاصيل قصة الخلق وأمورها الخلافية[1]. وهل يُعقَلُ أن قصةً معقدة تهمُّ البشريةَ تُذكر بحديث واحد فقط؟ ويسمعه صحابيٌّ واحدٌ فقط؟ ويَرويه بعدة روايات وأشكال في أواخر عمره؟ وتفوحُ منه الثقافةُ التوراتية في المرأةِ وتكريمِ اليهود؟ وندعو الله أن يُلهِمَ أهلَ العلم الطريقَ الأسلم في هذه المسألة[2].

---

(١) أمين الخولي، المجددون في الإسلام، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧م) ص٥١ – ٥٣.

(٢) في (كتاب بدء الخلق) جمع الإمام البخاري أحاديث قصة الخلق في سبعة عشر بابًا، وفيها تفاصيل خلق آدم والكون ولا يذكر فيه اسم حواء.

أما وصفُ حواءَ وجمالِها في التراث الإسلامي، فقد اعتمد على المخيال حيث وصفَها وهبُ بن منبه بقوله: «خَلْقُ حواءَ بيضاءُ نقية صافيةُ البياض كحلاءُ سوداء الأشعار؛ ولهذا سُميت حواءَ»، وركز الكسائي في وصفها على بيان جمالها ورونق ثيابها، وتعلقِ الجواهرِ بضفائرها، ويتفقُ الجميعُ على هذا الجمال بأشعار وأوصاف مختلفة. وجاء أنها كانت طويلة القامة وجميلة مثل آدم، لديها ٧٠٠ من جدائل الشعر مخضبة بالحناء الأخضر ومعطرة بالمسك، فكان ملمسها أنعم من ملمس آدم وأنصع لونًا منه، وصوتها أجمل من صوت آدم، وجاء في الأثر أيضًا أن الله خاطب آدم قائلًا: «لقد جمعت رحماتي في أمتي حواء من أجلك وما من رحمة يا آدم أفضل من المرأة الصالحة»[١].

ثالثًا: عمرُها ووفاتُها:

لم تُعنَ النصوصُ المقدسةُ في جميع الديانات السماوية بعمر حواءَ عند وفاتها، ولا كيفَ تُوفيتْ، في الوقت نفسِه، فقد اهتمت اليهودية بتحديد عمر آدمَ عليه السلام بدقة حيث بلغ من العمر وفق قولهم تسعمائة وثلاثين سنة. ويفصل الإصحاحُ الخامس من سفر التكوين آية (٣) ذلك بقوله: «وعاش آدمُ مائةً وثلاثينَ سنة وولد ولدًا على شبهه كصورته، ودعا اسمه شيثًا (٤) وكانت أيامُ آدمَ بعدما ولد شيثًا ثمانمائةِ سنة وولدَ بنينَ وبناتٍ (٥) فكانت كلُّ أيامِ آدمَ التي عاشها تسعَمائة وثلاثينَ سنة ومات». وبالنسبة لحواء فتذكر كتبُ اليهودْ أنها ماتت بالشيخوخةِ بعدَ وفاةِ آدمَ مباشرةً، وفي نفسِ العمر تقريبًا أي ٩٣٠ عامًا.

في حين يرى بعضُ القساوسة أن وفاة آدمَ وحواءَ قد بدأت مع ارتكابهم الخطيئة الأصلية في الجنة، على اعتبار أنَّ عصيانَ الله هو الموتُ الحقيقي، وأن هناك أكثرَ من نوع للموت، ومنه الموتُ الروحي، والموتُ الفسيولوجي، وذلك

(١) آنا ماري شمل، روحي أنثى، الأنوثة في الإسلام، ترجمة: لميس فايد، (القاهرة: الكتب خان، ٢٠١٦م) ص ١٠٠.

امتثالًا لقول عيسى في الإنجيل: «دعوا الموتى يَدفِنون الموتى»، أي الموتى روحيًا يَدفِنون الموتى فعلًا، وأن الله بكرمه أعطاهم مهلةً للتوبة بعدَ أن ماتوا روحيًا قبلَ قبضِهم فعليًا[1]. وهكذا فمن المتفق عليه في اليهودية والنصرانية أن حواءَ قد تُوفيتْ عن عمر يناهز ٩٣٠ عامًا تقريبًا بعدَ وفاة آدمَ بالشيخوخةِ والهرمِ.

كذلك الحال في الإسلام حيث تم التركيزُ على وفاة آدمَ ومقدار عمرِه، وجاءت الإشارة إلى حواءَ عابرة من قبيل إلحاقها بآدمَ، ولا يوجد في ذلك أي نص شرعي واضح، وإنما الأمر متعلق بما رواه المؤرخون نقلًا عمن سبقهم. وفي هذا يُورد الإمام محمد بن جرير الطبري عدةَ روايات عن عمر وفاة آدم، وكذلك حواءُ بالتبعية؛ حيث ذكر أن آدمَ عليه السلام مرضَ قبلَ موته أحدَ عشرَ يومًا، وأوصى إلى ابنه شيث، وكتبَ وصيتَه ثم دفع كتابةَ وصيتِهِ إلى شيث، ويزعم أهلُ التوراة أن عمرَه تسعمائة وثلاثونَ عامًا. كما يورد الطبريُّ روايةً أخرى تذكر أن عمرَ آدم تسعمائة وست وثلاثونَ سنة والله أعلم.

ويستطرد الطبريُّ أنه لما كتبَ آدمُ الوصية، ماتَ صلوات الله عليه، واجتمعتْ عليه الملائكةُ من أجل أنه كان صفيَّ الرحمن، فقبرتْه الملائكةُ وشيثٌ وإخوتُه في مشارق الفردوس عندَ قريةٍ هي أول قرية كانت في الأرض، وكُسِفتْ عليه الشمسُ والقمرُ سبعةَ أيام بلياليهن، فلما اجتمعت عليه الملائكةُ وجمعَ الوصيةَ جعلَها في معراج، ومعها القرنُ الذي أَخرجَ أبانا آدم من الفردوس، لكيلا يغفلَ عن ذكر الله عز وجل، وبعث الله إليه بكفنِه وحنوطِه من الجنة ثم وَلِيتِ الملائكةُ قبَره ودفنَه حتى غيَّبوه. ولما مات آدمُ قال شيثٌ لجبريل: صلِّ على آدمَ قال: تقدَّمْ أنتَ فصلِّ على أبيكَ، وكبِّر عليه ثلاثينَ تكبيرةً، فأما خمسٌ فهي الصلاةُ، وأما خمسٌ وعشرونَ فتفضيلًا لآدمَ. وقيل دُفِنَ بمكةَ في غار أبي قُبيس، وهو غار يُقَال

(1) Don Stewart (Did Adam and Eve Die Where They Ate The Forbidden Fruit?) Blue Letter Bible by Don Stewart.
www.blue letter bible.org

له غارُ الكنز، وفي رواية أنه مات على جبلِ بوذا في الهند الذي أُهبِطَ عليه. ويشير الطبريُّ أيضًا إلى أن حواءَ عاشتْ بعدَ آدمَ سنةً، ودُفنتْ معه في الغار[١].

أما الكسائي فيوردُ نصًا عن وفاة آدمَ وحواءَ مفاده[٢]: «إن الله تعالى أمر ملَكَ الموتِ أن يهبطَ إلى آدمَ في الصورة الحسنة التي لا ينزلُ فيها على أحدٍ إلا على محمدٍ، وأمره أن يُدخِلَ معه شرابَ الفراق فيسقيَه إياه، ويقبضَ روحه التي نفخها فيه، ويخبرَه قبل ذلك: إني لو خلدتُ أحدًا في الدنيا لكنتُ أخلدُك، قال: فهبطَ ملكُ الموت ومعه جبريلُ وميكائيلُ، في خلق من الملائكةِ براياتِهم وألويتِهم، وأُخرِجَ السريرُ الأعظم لآدمَ من الجنة، فنُصِبَ بين السماء والأرض، وبُشرتِ الجنةُ بروحه فتزينَتْ ونشرتْ، قال: ورفعَ آدمُ طرفَه والملائكةُ أعلامُها في أبواب السماء منتظرةٌ لروح آدمَ فقال نحوَ السلام ينظرُ إلى هذه الكرامات المعدةِ له، ودخلَ ملكُ الموت فقال: السلامُ عليك يا أبا البشر، أتعرفُني؟ قال آدم: نعم أنتَ ملكُ الموت. ثم قال: فبماذا أُمِرتَ؟ قال: أُمِرتُ أن أسقيكَ هذه الشربةَ كلَّها ثم أُذيقَكَ الموتَ. فقال آدمُ: إني سميعٌ مطيعٌ لأمر ربي. قال: فسقاه ملكُ الموت مِنْ شرابِ الجنة كما أمره ربه. قال وشيثٌ واقفٌ على باب القبة، ينتظرُ تعزيةَ الملائكة».

ويَروي الكسائيُّ أن عبدَ الله بن العباس قال: «صلوا على أبيكم آدم، وابكوا عليه عند ذكره، فلقد خلقه الله على صورة عجيبة، وفضَّلَه على جميع الخلائق، وعلَّمه الأسماءَ كلَّها، وعلَّمه سبعينَ ألفَ بابٍ من العلم، وإن الجنةَ لتبكي على آدم شوقًا إليه، ولم يبقَ على الأرض والسماوات شيءٌ إلا بكَى عليه يومَ أُخرجَ من الجنة».

وحول وفاة حواءَ يورد الكسائيُّ هذا النصَّ: «لم تعلمْ بموت آدمَ حتى سمعتِ البكاءَ من السباعِ والوحوشِ والطير والهوام، ورأتِ الشمسَ منكسفةً، فقامت مسرعةً إلى قبته فلم تره فيها، فصرخَتْ وبكت، فقال لها شيثٌ: «يا أماه كُفّي عن

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ص ١٥٨- ١٦١.

(٢) علي المخلبي، آدم والتاريخ، (الناشر مؤمنون بلا حدود، الرباط، بيروت، ٢٠١٨م) ص ٥١٦.

البكاء، وتَعزّي بعزاء الله؛ فإن أبي قد ذاق طعمَ الموت وقدِمَ على ربه، وقد أمرَني ألا أخبَركِ بذلك إلا بعد دفنه، فعليكِ بالصبر. فلم تصبِرْ وصرخَتْ ولطمَتْ وجهَها ودقَّتْ صدرَها، فأورثَتْ ذلك بناتِها إلى يوم القيامة، ثم لزمَتْ قبرَ آدمَ أربعينَ يومًا لا تَطعَمُ ولا تشرَبُ، فبكتِ الملائكةُ رحمةً لها، ثم هبطَ عليها ملكُ الموت، فسقاها الشربةَ التي سقاها لآدمَ، ففارقتِ الدنيا، فغسَّلَتْها بناتُها وكُفنتْ في أكفانٍ من الجنة، ودُفِنَتْ إلى جنبِ قبرِ آدمَ رأسُها عندَ رأسِه ورجلُها عندَ رجلِه»[١].

يذكر أن وهبُ بن منبه هو الوحيدُ الذي انفرد بالقول بوفاة حواءْ قبل آدمَ، بخلاف كل الأديان والروايات، حيث قال: «لم يقبض الله آدمَ عليه الصلاة والسلام حتى صلى خلفَه ألفا رجلٍ مِنْ بَنيه وبَني بنيه، وقال آدمُ: يا حبيبي يا جبريلُ نُعِيَتْ إليَّ نفسي بموت حواءَ، وكان موتُ حواءَ قبلَ موتِ آدمَ بعامينِ». ويقول وهب: إن آدمَ مات في سن تسعمائة وثلاثينَ عامًا مثلَ ما قالت اليهود، وكان عمرُ حواءَ تسعمائة وثمانيةً وعشرين عامًا[٢].

رابعًا: مكانُ دفنِ حواءَ:

لا يوجد نصٌّ صريحٌ في الكتب المقدسة لمختلف الديانات السماوية يشير إلى مكان مدفن حواءَ، وما هو موجود هو من قبيل الروايات المرسلة في كتب التراث الديني.

وفي ذلك يشيرُ كتاب (المدراش) اليهودي إلى أنها دُفنتْ في كِرْيَات أربعة بالقرب من مدينة القدس، كما ورد في Gen. Rabbah 58:4 أنها مدفونة مع سارةَ زوجةِ إبراهيمَ وربيكا وليا[٣]. ويوجد حاليًا في مكانَها مستوطنةٌ إسرائيلية باسم Kirya Arba.

(١) المخلبي، مرجع سابق، ص ٥١٨.

(٢) وهب بن منبه، كتاب التيجان لملوك حمير، (صنعاء: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ١٩٧٩م) ص٢٦.

(3) Jweish Women Archive: https://jwa.org.

وورد في الكتابات الإسلامية عن الطبريُّ أن ابن عباس قال: «مات آدمُ عليه السلام على بوذ، وذكر أن حواءَ عاشتْ بعدَه سنةً ثم ماتتْ رحمها الله، فدُفِنتْ معَ زوجِها في الغار (غار أبي قُبيس في مكةَ)، وأنَّهما لمّا يزالا مدفونينِ في ذلك المكان، حتى كان الطوفانُ فاستخرجَهما نوحٌ، وجعلَهما في تابوتٍ، ثم حملَهما معه في السفينة، فلما غاضتِ الأرضُ الماءَ ردَّهما إلى مكانهما الذي كانا فيه قبلَ الطُّوفانِ».

ويروي الثعلبيُّ رواية أخرى عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: «مات آدمُ على جبل نود بالهند، ولما كانت أيامُ الطوفان حملَ نوح تابوتَ آدمَ في السفينة، فلما خرج من السفينة دفنَ آدمَ ببيت المقدس، وعاشت حواءُ بعدَه سنة ثم ماتت، فدُفِنَتْ معَ آدم عليهما السلام»، أي في بيت المقدس[١]، وفي كل من الروايتين لم يظهرِ القولُ بدفنها في مدينة جُدةَ كما هو معلوم اليوم، مع الإشارة إلى أن أبكر الروايات الدالة على موقعها الحالي تعود إلى القرن السابع الهجري.

كذلك فقد اختُلِفَ في مكان هبوطها من الجنة، حيث قيلَ إنها هبطت مع آدمَ في الهند، وقيل في المروة رواية عن ابن عمر، وفي ذلك يقول الحافظ ابنُ كثير: «وقد ذكر المفسِّرون الأماكنَ التي هبطَ فيها كلٌّ منهم، ويرجع حاصلُ ذلك إلى الإسرائيليات والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدةٌ تعود إلى المكلفينَ في أمر دينِهم ودنياهم لذكرَها الله تعالى في كتابه أو رسولُه»، وهو ما رجحه العلامة محمد رشيد رضا حيث قال: «وكلُّ ما ورد في هبوط آدمَ وحواءَ من تعيين الأمكنة فهو من الإسرائيليات»[٢].

---

(١) أبي إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ٢٠١٢م) ص٤٤.

(٢) ألطاف الرحمن بن ثناء الله، المسائل العقدية المتعلقة بآدم عليه السلام، ط١، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ٢٠١٠م) ج٢، ص٩٥.

٣

الأنثى... بين الخطيئة والكمال

تظل الخطيئةُ التي ارتكبها آدمَ وحواءَ حين عصوا الله وخالفا أمره أمرًا مركزيًا في بنية الشرائع السماوية، وكان لاتهام حواء بالخطيئة وفق الديانة اليهودية والنصرانية أثر كبير في تعميق حالة الظلم الواقع على المرأة في هاتينِ الديانتينِ، الأمر الذي لم يقع فيه المسلمون الذين حافظ قرآنهم على موقفٍ عادل من الاثنينِ، وثقَّة القرآنُ الكريم في محكم آياته، وانتهى بمغفرته وتوبته عليهم.

ويمكن تعريف الخطيئةُ في الدين بأنها هي الأفعالُ التي تنتهك القواعدَ الأخلاقية، والشرائعَ الإلهية، والقوانينَ العامة، التي عبّر عنها الشارع في الدين الإسلامي باسم الذنب، وهي على درجات وأشكال.

الخطيئة في اليهودية:

ارتبطت الخطيئة في الديانة اليهودية بالثالوث (إبليسَ، حواءَ، الحيةِ)، وجاء في سِفْرِ التكوين: «وكانت الحيةُ أمكرَ وحوشِ البريةِ التي وصفها الربُّ الإلهُ، فسألت المرأةَ: أحقًا أمركما الله ألا تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فأجابت المرأةُ: يمكننا أن نأكلَ من ثمر الجنة كلِّها ما عدا ثمرَ الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله: لا تأكلا منه ولا تلمساه لكيلا تموتا. فقالتِ الحيةُ للمرأة: لن تموتا، بل إن الله يعرفُ أنه يومَ تأكلانِ من ثمرِ هذه الجنةِ تتفتحُ أعينُكما فتصيرانِ مثلَه، قادرينِ

عن التمييز بين الخير والشر». فأجاب آدم: «إنها المرأةُ التي جعلتُها رفيقةً لي، هي التي أطعمَتني من ثمر الشجرة فأكلتُ»، وهكذا أصبح هذا الثالوثُ هو المسؤولَ عن الخطيئة، وبذلك عملت الديانةُ اليهودية على ترسيخ النظرةَ السلبية للمرأة، التي استهانوا بها ووصفوها بخفة العقل وأنها رغّاءة وحادة اللسان ومتغطرسة ومتصنتةٌ وكسولةٌ، ولا يُعتمَدُ عليهاَ، وقاسيةٌ وغيورة وانتقامية وجَشِعة، وتعامل مثيلها من النساء بازدراء.

وتتكرس تلك النقمة في الصلاة حين يدعو اليهودي ربه بقوله: «مبارك أنتَ يا الله الذي لم تخلقني امرأة». وتقول جماعةُ ناطوري كارتا في دعائها: «اللهم لا تجعل المولودَ بنتًا»، لكونها بحسب اعتقادهم هي مصدرُ الشر كما جاء في سفر زكريا ٥ – ٧ : «ارفعْ عينيكَ وانظرْ إلى هذا الشيء المقبل، فسألتُ ما هذا؟ فأجاب أنه مكيالٌ (سلة)، وهو رمزُ إثمهم في الأرض كلها، وما لبث أن رفَعَ الغطاءَ الرصاصيَّ من على فوهتِه، وإذا بامرأةٍ جالسة في داخل المكيال، فقال لي: هذه هي رمزُ الشر، وألقى بها داخلَ المكيال، وألقى الغطاءَ الثقيلَ على فوهته»[1].

ومع ظهور الحرية باعتبارها عنصرًا أصيلًا في المجتمعات الغربية، حصلت المرأةُ على مكان أفضلَ في تلك المجتمعات، ومع نشوء دولة إسرائيل في فلسطينَ، استمتعتِ المرأةُ اليهودية بمعاملة متساوية مع الرجل فيها، وقد ساهمت هذه التطوراتُ مع الأنظمة والقوانينَ ذاتِ الطبيعةِ الليبرالية في الغرب بصورة عامة جنبًا إلى جنب في تعديل وضعَ المرأة اليهودية.

وكانت قد نشأت في القرن العشرينَ حركاتُ التجديد الديني في اليهودية، المرتكزة في دعوتها على رفض أساسيات سِفْرِ التكوين، والنصوصُ الأخرى التي ارتكزتْ عليه، وبصورة خاصة موضوعُ الخطيئة ودورُ حواءَ فيها، والقولُ الصريح بأن الله خلق حواءَ على صورته كما جاء في السفر، وعلى مر السنينَ ظهرتْ شبكةٌ

(١) حسني عايش، صورة المرأة ومكانتها في اليهودية والمسيحية والإسلام، (القاهرة: المحروسة للنشر، ٢٠١٨م) ص٧٦، ٨١.

من اللاهوتيين اليهودِ، الذين يرفضون هذا السفر، وما يترتبُ عليه بخصوص المرأة، وظهرَ ما يُسمَّى اليهوديةَ الجديدة[١]. بحثًا عن العدالة والحقيقة، وتصحيحِ وضعِ المرأة في الديانة.

خلاصةُ القول إن نسيجَ الديانة اليهودية تعرّضَ على مر السنينَ، إلى جهدٍ منظم على المستوى اللاهوتي، والمستوى القانوني والإنساني، لتعديلِ النصوص الأصلية التي حمَّلت حواءَ وزرَ الخطيئة، وأنها كانت سببَ الشرور التي حدثت للإنسان[٢].

الخطيئة في المسيحية:

اعتمدتِ المسيحيةُ في سياقها الديني على العهد القديم وما ورد في سفر التكوين من قصةَ الخلق، وبالتالي فقد تكرس لديهم كما اليهودية مسؤولية الثالوثَ (إبليسَ، حواءَ، والحيةَ) في وقوع آدمَ في الخطيئةِ، لكنها في المقابل أعطت تعريفًا موسعًا للخطيئة بإدخالها لمفهوم الخطيئة الأصلية، أي أن جميعَ البشر ذكورًا وإناثًا يرثونَ بالولادة من آدمَ الخطيئةَ الأصليةَ باعتبارهم ذريتَه.

وكانت المرأة في عصر ظهور السيد المسيح ضحية الضحايا، فهي في مجتمعها في حينه تمثل مرتكزًا للفتنة وأساسها، وإليها يرجعون فتنة الغواية، وفتنة الفاقة، وفتنة الأسرة المنحلة، وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة، في الوقت التي جعلها الله مرتكزًا للطمأنينة ومنبعًا للحنان.

ولذلك فقد جاء السيد المسيح نصيرًا لكل المظلومين والمستضعفين ورسول محبة وسلام، وأولى النساءَ عنايةً خاصةً حيث ملؤها العطف والرعاية وهو أحد أسباب غضب اليهود عليه، الذين جعلوا المرأة موضع امتحان له في عدد من

(1) Pirani, ALix (The Absent Mother: Restoring The Goddess of Judaism and Christianity (Mandala Books)), HarperCollins Publishers, 1991.

(2) Judith Plaskow, (The Feminist Revolution), Jewish Women's Archive.

المواقفَ، لكنه أظهر في جميعها الرحمةَ والرأفةَ بالمرأة، منتصرًا لها ومعارضًا لكل الممارسات اليهودية الصارمة إزاءها.

ولذلك فكما أقرت المسيحيةُ فكرة الخطيئةَ الأصلية التي يرثها ذريةُ آدم، فقد أقرت عقيدةَ الفداء وخلاص الإنسان من هذه الخطيئة، وذلك بصَلْب السيد المسيح الذي افتدى بجسده الطاهر وخلَّص المؤمنين به من تبعات تلك الخطيئة.

وقد تمثل غفران نبي الله عيسى للمرأة في شخص تلك الفتاة المنبوذة الجاثية على قدميه التي أخذت تسكب الدمع والطيب وتمسحها بضفائر رأسها. فقال المسيح لأحد حواريه: «انظر إلى هذه المرأة، إني دخلت بيتك فلم يكن لقدمي فيها مسحة من ماء ولكنها غسلتها بالدموع ومسحتها بشعر رأسها، أنت لم تمنحني قُبلة وهي منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي، أنت لم تدهن رأسي بزيت وهي قد دهنت رجلي بالطيب، من أحب كثيرًا غفر له الكثير من خطاياه»[(١)].

غير أن تلك الرؤيا النبوية العادلة لم تستمر، حيث وبعد وفاة السيد المسيح أعاد القديسُ بول بَوْصَلَةَ المسيحيةِ في ما يتعلق بالمرأة إلى اليهودية، وربما بصورة أكثرَ تعنتًا، وفي رسالة بوليس إلى تيموتاوس يذكر أن: «آدم لم يغوِ لكن المرأةَ غوتْ فحصلتْ على التعدي؛ لذلك لم يأذن لها الرسولُ أن تتعلّم، ولا أن تتسلطَ على الرجل، بل أن تكونَ في سكوت؛ لأن آدمَ جُبِلَ أولًا ثم حواء»[(٢)].

وهكذا أخذت آراءُ رجال الأكليروس نحو المرأة في تصاعد متشدد ليبلغ بهم الحد لأن يصرح أحدُهم في «مجمع ماكون»[(٣)] قائلًا بأن: «المرأةَ لا تتعلقُ ولا

(١) عباس العقاد، عبقرية المسيح عليه السلام، (القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١٤م) ص١٢٣ وما بعدها.

(٢) فتنت مسيكة بر، حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٩٩٦م) ص٦٠ – ٦٦.

(٣) مجمع مسيحي مقدس انعقد في القرن الخامس للنظر في حقيقة المرأة هل هي جسمٌ بلا روح، أم لها روحٌ كالرجل، وكان قرارُهم أن المرأةَ لها روحٌ شريرةٌ غيرُ ناجية من العذاب، =

ترتبط بالنوع البشري»، وكان نتيجة ذلك أن قررَ رجالُ الأكليروس في المجمع الأول الذي انعقدَ في رومية عام ٥٨٢م: «بأن المرأةَ كائنٌ لا نفسَ له، وأنها لهذا السبب لن ترثَ الفردوسَ، ولن تدخلَ في ملكوتِ السماوات، وأنها رجسٌ من عمل الشيطان، فليس لها أن تتكلمَ، ولا أن تضحكَ، ولا أن تأكلَ اللحمَ، بل غايةُ أمرها أن تقضيَ أوقاتَها في خدمة الرجل سيدِها، أو في عبادة الله ربها».

وواقع الحال فقد استمرت معاناة المرأة وصولًا إلى العصور الوسطى وبخاصة في القرن الخامسَ عشرَ والسادسَ عشرَ في أوروبا، حيث عانت المرأةُ كثيرًا بسبب هذه المعتقدات، وتزعمت الكنيسة موضوع الإساءة إلى المرأة استنادًا إلى المفاهيم اللاهوتية، ولذلك فقد كانت المرأة موضع اتهام بارتكاب السحر والشعوذة، وهو ما أدى إلى مهاجمتها والفتك بها ولا سيما بعد أن أصدرَ البابا يوحنا الثاني عشر عام ١٣٢٦م بيانًا يتهم فيه النساءَ بالسحر والشعوذة وبوجوب معاقبتهن.

ومع دخول عصر النهضة وما صاحبها من ثورة صناعية وذهنية، كان لها أثرها الإصلاحي على مفاهيم اللاهوت الكنسي، وبخاصة في ما يتعلق بقصةُ خلق حواءَ والخروجِ من الجنة، جرى طرح عديد من الأفكار المصححة استنادًا إلى قيم الحرية والمساواة، وساهم ذلك في قيام الدولة الحديثة بإصلاح مختلف القوانين والمفاهيمِ المتعلقة بالمرأة انطلاقًا من غاية حفظ كرامتها بالصورة الأساسية التي تم انتهاكها لقرون عديدة سابقة.

وكان من نتائج ذلك أن قامت إليزابيث ستانتون في أواخر القرن التاسع عشر وتحديدًا بين عامي ١٨٩٥ – ١٩٩٨م بقيادة فريق مكون من ست وعشرينَ سيدة لكتابةِ ما سمي بـ«إنجيل المرأة»، وهو كتاب استهدف إعادةِ كتابةِ سفرِ التكوين وتصحيح ما ورد فيه من أخطاء جسيمة حول المرأة، ليقدم رؤيةً تصحيحية بديلةً

= عدا أمَّ المسيح. موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، موقع الدرر السنية:

https//:dorar.net/mazahib.

عن الفكر اليهودي والنصراني في ما يتعلق بالمرأة، واستمرتِ السيدةُ ستانتون في جهودها، حتى حصلتِ النساءُ في أميركا على حق التصويت عام ١٩٢٠م، ووضعتْ برنامجًا لنيل حقوقِ المرأة على المستوى الوطني[١].

ومنذ الستينيات الميلادية وما بعدَها تطورتِ الحركةُ النسوية، وتحالفت مع الأفكارِ الراديكالية والماركسية، واستخدمتِ الأسلوبَ التفكيكي النقدي للنصوص، وآلياتِ القراءة والتفسير التي أنتجتها الحداثةُ في النقد، لإظهار أنَّ كلَّ النصوصِ الدينية غير ثابتة في أصولها، وأن القراءاتِ منحازةٌ أيضًا في أصلها.

وتم الهجومُ على الدين المسيحي وأصوله ورموزه، على أُسسٍ نقديةٍ وعلمية، بغرضِ إعادةِ قراءة وفهم وصياغة النصوص الدينية كافة من منظور نَسَويٍّ خالصٍ لإنهاء التحيزِ الذكوريِّ الوارد في تلك النصوص[٢].

خلاصةُ القول فإن قصةَ الخطيئة وموقعَ حواءَ منها قد جعل بعض أبناء المسيحية، في عصر الحداثَةِ وما بعدَ الحداثة، يُعيدون النظرَ في الرواياتِ والكتبِ الدينية وتفسيرِها، وشكل ذلك أحد أسس حركةِ الإلحاد العالمي، وذريعة للخروجِ عن الدين، والإيمان بالأنظمة الفلسفية والعلمانية.

الذنب في الإسلام:

لم تتجاوز قصةُ آدمَ وحواءَ حدها العادل في الدين الإسلامي، حيث انتهى إثمهما بالتوبة وليس دوام الخطيئة، وهو ما أكدته آيات الذكر الحكيم في مواضع عدة كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ

(1) Jewish Women Archive.

(٢) أميمة أبو بكر، قراءة نقدية في كتاب النسوية والدراسات الدينية، (مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة، ٢٠١١م) ص٥٧.

وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وفي سورة الأعراف ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وفي سورة طه ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

تلك الآياتُ البيّنات وغيرها تُوضّح بأن الله تعلى قد امتنَّ على آدمَ وحواءَ بالسكن في الجنة، لكن وسوسَة الشيطان لهما بالأكل من تلك الشجرة المحرمة قد أوقعتهما في الخطيئة والإثم، فاستحقا جزاءه، واستغفرا لذنبهما فعفا الله عنهما. وما من آيةٍ تقولُ بأن حواءَ قامت بإغراء آدم بالأكل من الشجرة المحظورة، أو أنها ابتدأتِ الإثمَ، بل إن الخطاب مُوَجَّه إلى آدمَ عليه السلام، وكأن في ذلك حكمة كما ورد عن عبد الله بن عباس الذي قال: «ما وقعتِ الخطيئةُ من آدمَ إلا ليعلمَ الخلقُ أن المعصيةَ هي التي تضعُ الإنسانَ، وأن التوبةَ ترفعُه، وما أُخرِجَ آدمُ من الدنيا حتى نظر إلى أصنافِ ما أعدَّ اللهُ من الثواب والكرامات».

كما يُلحظُ عدمُ وجود ذكرٍ للحيةِ في النص القرآني، على الرغم من دورِها المركزيِّ في قصة الخطيئة كما ورد في سفر التكوين، والبنيانِ اللاهوتي لليهودية والنصرانية باعتبارها أحدَ عناصرِ الثالوث: (حواءَ، الحيةِ، إبليسَ) ولذلك فلم يلتفت إلى ذكرها أحد من المؤرخين المسلمين الذين وإن كانوا قد سمحوا لأنفسهم برواية الأخبار الإسرائيلية، لكنهم قيدوا ما ينقلونه بموافقة ذلك للكتاب والسنة الصحيحة، وهو ما نص عليه الحافظ ابن كثير الذي أشار إلى أن: «من سلفَ قد ذكروا أخبارًا إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس، وكيف جرى من دخولِ إبليس الجنةَ ووسوستِه»،

لكنه بيّن تقييده الشرعي لما سينقله بقوله: «ولسنا نذكرُ من الإسرائيلياتِ إلا ما أذن الشارعُ في نقله، مما لا يخالف كتابَ الله وسنةَ رسوله، وهو القسم الذي لا يصدقُ ولا يكذبُ فنذكرُه على سبيل التحلي به»[١]. على أنه لم يبتعد عن الرواية التوراتية في ذكره لقصة الخلق والخطيئة، متوافقًا مع عدد غيره كالمسعودي والعسكري وغيرِهما، الذين وقعوا تحتَ تأثير الأساطير اليهودية والروايات التوراتية حين ذكر قصةَ آدمَ وحواءَ، فقاموا بإلقاء اللوم على حواء.

أشير في هذا السياق إلى أن المفسرين المسلمين قد اختلفوا في تحديد نوع الشجرة المحرمة، فمنهم من قال بأنها السنبلةُ كقول ابنُ عباس، ومنهم من قال بأنها الكرمةُ كقول ابنِ مسعود، والتينةُ كقول ابنِ جريج، والكافورُ كقول علي بن أبي طالب، وهي شجرةُ العلم عند الكلبي، وشجرةُ الحنطة عند غيرهم.

على أن هناك رأيًا آخر قال به بعض علماء الشيعة الذين رأوا بأن هذه الشجرةَ هي شجرةُ العلم التي كان يأكلُ منها النبيُّ وعليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ، بعدَ إطعامِهم اليتيمَ والمسكينَ والأسيرَ، حتى لم يُحِسّوا بعدُ بجوعٍ أو عطشٍ ولا تعبٍ ولا نصب، وأن الحيةَ تحدثتْ مع حواءَ «فرامتْ حواءُ الشجرةَ، فأرادتِ الملائكةُ أن تدفعَها عنها بحِرابها، فأوحى الله تعالى إليها: إنما تدفعونَ بحِرابكم مَنْ لا عقلَ له يزجره، فأما مَنْ جعلتُه متمكنًا مختارًا، فكِلوه إلى عقله الذي جعلتُه حجةً عليه، فإن أطاع استحقَّ ثوابي، وإن عَصى وخالفَ أمري استحقَّ عقابي وجزائي، فتركوها ولم يتعرضوا إليها بعد ما هموا بمنعِها بحرابهم، فظنَّتْ أن الله تعالى نهاهم عن منعِها؛ لأنه قد أحلَّها بعد ما حرّمها»[٢].

البعضُ الآخر من علماء الشيعية كفلاسفة إخوان الصفاء يذهبون إلى تفسير أن الشجرةَ التي أكلَها آدمُ هي شجرةُ العلم، والجنةُ هي جوارُ الله وكرامتُه، وأن الشجرةَ مذخورةٌ إلى وقت معلوم، وثمرُ الشجرة مستورٌ في أكمامها، مخبوءٌ

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص ٨١.

(٢) هاشم البحراني، تفسير البرهان، ط٢، (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ٢٠٠٦م) ج١، ص١٨٠.

تحت ورقها، لا يكاد مخلوقٌ في دور الستر أن يقفَ عليها ولا يصلَ إليها[١].

أخيرًا لقد جاء الدينُ الإسلامي ليحقق العدالة المفقودة، ويثبت الحقوق المتساوية، ويقرر أن الإنسان ذكرًا كان أو أنثى مُكلف بعمله، وأن ليس لأحد أن يحمل وزر أحد قبله أو غيره، ولا توجد خطيئةٌ متوارثةٌ من الأجيالِ السابقة بأي حال من الأحوال، كما لا يوجد فداء من أحد لخطيئة غيره.

كمالُ المرأة:

لقد اختار الإسلامُ كما جاءَ في الحديث الصحيح أن يصفَ المرأةَ بالكمال، وأن يخلعَ أرقى الصفات عليها، بغض النظر عن دينها وعرقها، وفسَّر الشيخُ ابنُ باز في مجموع الفتاوى مفهوم الكمال بقوله: «الكمال يعني في الصفات الإنسانية التي مدحَها الله، وأثنى على أهلها من العلمِ والجودِ والاستقامةِ على دين الله، والشجاعةِ في الحق، وغيرِ ذلك من الصفاتِ العظيمة التي مدحَها الله سبحانَه وأثنى على أهلها»[٢]. وقد ورد في فضل النساء عن أم المؤمنين السيدةَ عائشة رضي الله عنها أنها قالت للسيدة فاطمةَ: «ألا أبشركِ، إني سمعتُ رسولَ الله يقول: سيداتُ أهل الجنة أربع: مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيا بنتُ مُزاحِم، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنتُ رسول الله»[٣].

لقد جاءت صفةُ الكمال في المرأة وفق ما أقره رسول الله متوافقًا مع سماتِ هذا الدينِ، الذي أقرَّ مبدأَ المساواةِ في الثواب والعقاب بين الذكر والأنثى، ملغيًا

(١) المرجع السابق، ج٥، ص٥٤٦.

(٢) عبد العزيز بن باز، مجموع الفتاوى، ج٧، ص٣٩٨.

www.binbaz.org.sa-fatwas

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث (٢٩٥٧)؛ والحاكم في المستدرك، حديث (٤٧٤٥)، وجاء تفصيله كذلك في موقع الإسلام سؤال وجواب.

https//:islamqa.info/ar/answers/145623/

حالة الإقصاء والظلم الواقع على المرأة في العهد الوثني قبل الإسلام. وهو ما يشير إليه الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه صراحة بقوله: «والله إنا كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهنَّ ما أنزلَ، وقسمَ لهنَّ ما قسَم»[١]، ومن حينه آمن العرب بأن المرأة مثلُ الرجل، خلَقَها ونفخَ فيها من روحهِ، ولا توجَدُ خطيئةٌ متوارَثة، ولا لعنةٌ تنتقِلُ من جيلٍ إلى جيل، ولا شبهةُ انتقاصٍ ولا تجريح، وذلك كان ولا يزال هو جوهر الإسلام الهادف إلى تحقيق غاية المساواةِ بين الناس، وإقرار العدلِ في الثواب والعقاب ومن دون أي تفريق عرقي وحقوقي بين جنس الذكر والأنثى.

وقد جاءت معاملة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للأنثى لتؤكد هذا السياق العادل، ولا سيما أن رعايته قد امتدَّتْ إلى الطفلة والمرأة والعجوز، حيث وردَ عنه أنه كان يحملُ أمامة ابنةَ ابنتِهِ زينبَ في الصلاة، فإذا ركعَ وضعَها، وإذا قام حملَها، وتَروي صحابيةٌ أنها أتت رسولَ الله مع أبيها وعليها قميصٌ أصفرُ، فقال رسول الله: «سَنَة سَنَة»، فذهبتُ ألعبُ بخاتَمِ النبوةِ، فنهرَني أبي، فقال الرسول: «دعْها، ثم قال: أَبلي وأَخلِفي، ثم أَبلي وأَخلِفي، ثم أَبلي وأَخلِفي»[٢].

كما لن يغفل التاريخ والسنة المطهرة موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع صُوَيحباتِ زوجته خديجةَ من بعد وفاتها رضي الله عنها، حيث خلعَ رداءَه ليجلِسْنَ عليه قائلًا لمن حوله تعظيمًا وتقديرًا: «إنَّهنَّ صُوَيحباتُ خديجةَ». وجاءت عجوزٌ إليه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «كيف أنتم؟ وكيف حالكم؟ كيف كنتُم بعدَنا؟» فقالت: «بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله»، فلما خرجتْ قالت عائشةُ: «تُقبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال»، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عائشةُ إنها كانتْ تأتينا زمنَ خديجة، وإن حُسنَ العهد من الإيمان»[٣].

---

(١) البخاري (٤٩١٣).

(٢) البخاري (٣١٧).

(٣) المستدرك للحاكم، حديث (٤٠).

هكذا كانت المرأة مع رسول الله مبجلة مكرمة، وكيف لا وهو الذي ضرب بسلوكه معها زوجًا وأبًا وجدًا أفضل الأمثلة، وكان نموذجًا في كيفية التعامل معها باحترام ومودة ورحمة، وقد تجسّد تقديره لها في مواضع عديدة يمكن تتبعها في سيرة نماذج سيدات بيت النبوة.

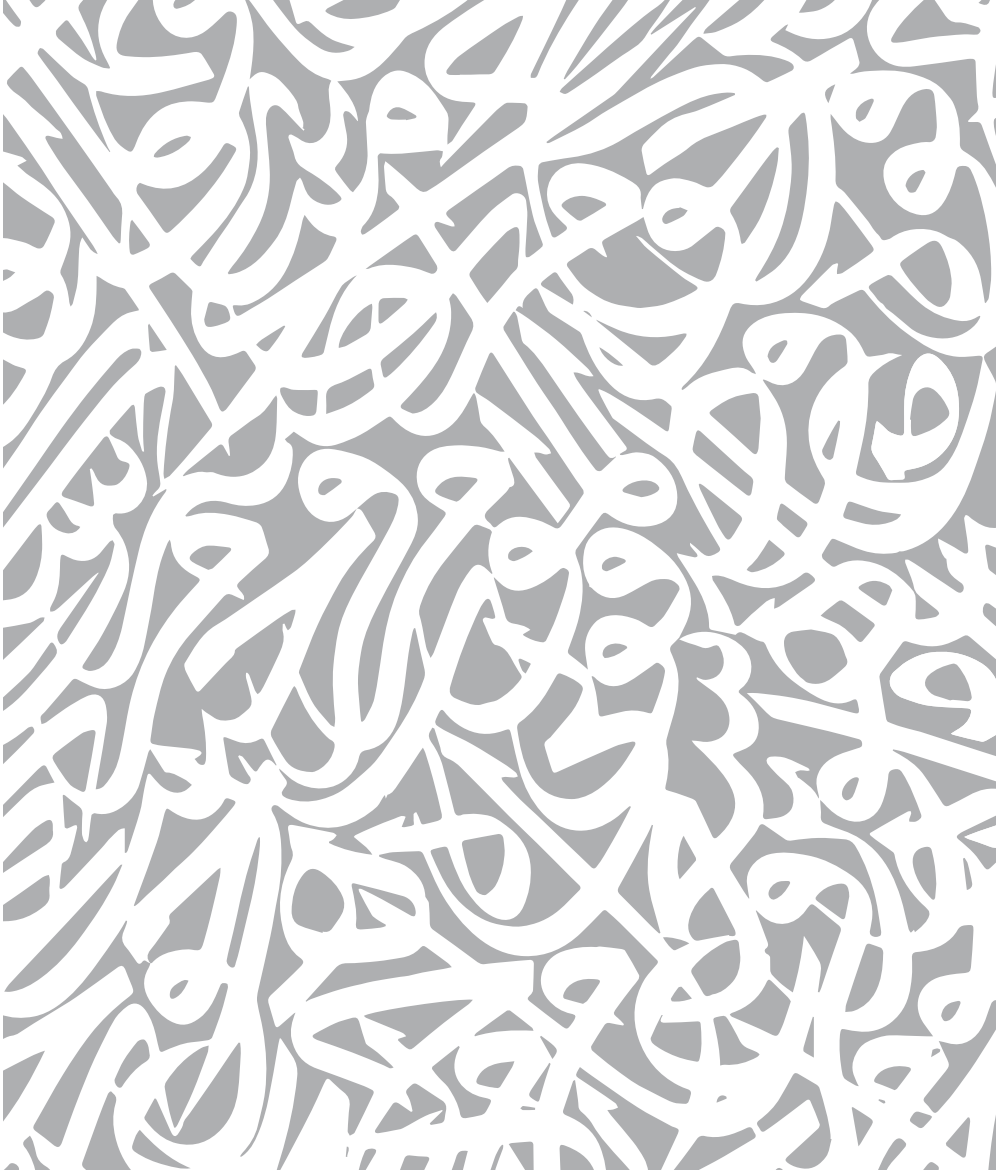

الباب الثاني

الأنثى بين الألوهية والقداسة

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾

[سورة النجم : الآيتان ١٩ – ٢٠]

■■■

"إن في المرأة يكتمل ظهور الحقيقة"

ابن عربي

■■■

"للمرأة حضور خفي لا يراه ولا يهتدي به إلا رجل متفتح عارف. . . ربما كانت المرأة نورًا من نور الله"

جلال الدين الرومي

إضاءة:

- أنشئ المقام المقدس في جدة لتكريم أنثى على الأرجح، وبعد ذلك تم الربط بينه وبين أمنا حواء في القرن السادس الهجري، في هذا الباب نتساءل ابتداء: لماذا تقام المقامات المقدسة للأنثى بوجه خاص؟ وما الإطار التاريخي والثقافي والأنثروبولوجي لظاهرة تأليه الأنثى ثم تقديسها لاحقًا؟
- كما يتناول هذا الباب ظهور تلك الأديان التي عُرفت بعبادتها للربة الأنثى بأشكالها المختلفة، ثم انتقلت إلى عبادة الكواكب التي تمثل الأنثى، وصولًا إلى نهايتها بظهور اليهودية والنصرانية.
- والعرب مثل غيرهم من الشعوب السامية عبدوا الكواكب والنجوم والأصنام في الجاهلية، وفي هذا الباب سنركز على عبادة بنات الله عند العرب والأصنام التي تمثل الإناث قبل الإسلام، وتلك التي تمثل الكواكب والنجوم، ومدى تعلق العرب بكوكب الزهرة الذي يمثل عشتار في وادي الرافدين، ويمثل في الحجاز العزى، ومدى تعلقهم بالربة الكبرى وهي اللات وعمق اعتقاد العرب في عبادات الإناث، خاصة وأن من المحتمل أن يكون قد بُني المقام في جدة قبل الإسلام وفقًا لهذه العقائد.
- ويتطرق هذا الباب إلى جوانب من حيثيات التصوف في القرن الثاني الهجري وما بعده، الذي أضفى صفة القداسة على الأنثى «الأولياء عرائس الله»، وعليه سيناقش هذا الباب تعريف واصل وهوية التصوف ومصادره ونظرته للمرأة ولا سيما أن مقام حواء في جدة قد وُصف

بأنه مقام صوفي، وارتباط التاريخ الروحاني في جدة بالحركة الصوفية وفرقها على مدى قرون. وكيف انتعش المقام في العهد العثماني، مع الإشارة إلى الوثائق العثمانية المتعلقة بالموضوع.

- وأخيرًا نضع الإطار المعرفي الذي يمكننا معه وبه فهم وإدراك حقيقة الربط بين المقامات المقدسة والأنثى.

■■■

١

ألوهية الأنثى

ارتبط التصورُ الدينيُّ الأولُ للإنسان بعبادة الأنثى، التي كانت موضعَ حب ورغبة، وأيضًا موضعَ خوف ورهبة، كما توصف المجتمعاتُ الباليوليت الأولى التي تعودُ بتأريخها إلى خمس وعشرينَ ألفَ سنةٍ فما فوقُ قبلَ الميلاد، بأنها مجتمعاتٌ أمومية، حيث يُنسبُ فيها الطفلُ إلى أمه، ولا سيما أنها كانت مرتكز ومحور وأساس ابتداء أي تجمع إنساني على نطاق الأسرة، ومقومات الحياة في شكلها البدائي القائم على الزراعة والتداوي بمختلف المنتوجات الزراعية. وبالتالي فقد قامت الأم بمهمة الحفاظ على الحياة والشفاء من الأمراض، كما توثَّقَ موقعُها بحكم رعايةِ الأطفال، وتحويلِ جلودِ الحيوانات إلى ملابسَ، إضافة إلى ما تميزت به من قدرات روحية وفسيولوجيةٍ، مع ترسخ الاعتقادِ في فترة قديمة بأنها هي من تقومُ بخلق المواليد وحدَها[1].

وفي هذا السياق، هناك توافقٌ على أن عبادةَ الأنثى قد امتدت برقعتها لتشمل مختلف الثقافات في جميع أرجاء الأرض، حيث كانت عبادةً أمميةً عالمية، والدليلُ على ذلك انتشار المعابد والدُّمى والتماثيلِ في الشرق الأقصى والأدنى وأوروبا والهند، كما وُجِدَتْ تماثيلُ الربة في المعابد البوذية والهندوسِ، إضافة

(1) Jewish Women Archive. www.jwa.org

إلى معابد الأناضولِ وسوريا وجنوبِ فرنسا والنمسا وغيرها[١].

وبصورةٍ عامة ومن باب التقريب والتبسيط يمكن تقسيمُ الآلهة الأنثى من حيث طبيعتهن، خلال مختلف العصور، وفي مختلفِ المناطقِ الجغرافية، إلى ثلاثِ مجموعات وهي:

أولًا: آلهة الخصوبة: ومنها (هيرا) ربةُ الزواج والخصب عندَ اليونانِ وهي أختُ (زيوس) وزوجته، و(أثينا) ربةُ الحكمة والخراب، و(عشتروت) ربةُ الخصبِ والجنسِ الكنعانية، و(إنانا) ربةُ الخصبِ والجنسِ السومرية، و(ديميترا) ربةُ الحصادِ والنماءِ والأرض في اليونان، و(ريانون) ربةُ الشعرِ والإلهام، و(فرايا) ربةُ الجنسِ عندَ شعوبِ شمال أوروبا، ومن اسمِها اشتَقَّ اسم اليومُ السادس في الأسبوع بحسب تقويمهم وهو فرايدي.

ثانيًا: الآلهة المقدسة: وهي المسؤولةُ عن هبة الحياة واستمرارِها في الكون، ومنها في العقيدة البابلية (سميراميس)، وابنها (دامو)، وفي الهند (ياسودا) وابنُها (كريشينا)، وكذلك (ايزي) وابنُها (أسوارا)، وفي مصرَ (إيزيس) وابنُها (حورس).

ثالثًا: الآلهة المدمِّرةُ: وهي المسؤولةُ عن الدمار الهائل، ومنها (النورنات) رباتُ شمال أوروبا الثلاثُ المتحكماتُ في مصير البشر وهن: (أورد) النهاية، و(فيرداني) الحتمية، و(سكولد) الكينونة؛ وعند الإغريق يوجدُ (الجرجوناتُ الثلاث) وهن: (يوريل)، و(ستينو)، و(ميدوسا)، ويتميزن بكون شعرهن من الثعابين، كما أن مَنْ ينظرُ إليهن سيتحولُ إلى حجر؛ وفي الهند توجدُ الإلهةُ (دورجا) رمزُ الجمال المطلق والغناء المطلق أيضًا[٢].

---

(١) مارلين ستون، يوم كان الرب أنثى، ترجمة: حنا عبود، الأهالي للطبع والنشر، سوريا، دمشق ١٩٩٨م، ص ٣٠ – ٣٢.

(2) Ellwood, Robert (The Encyclopedia of World Religions) New York, 2007, p. 180 – 240.

ويتفق تقسيمُ الآلهة الأنثى ووظائفهُن الرئيسة مع ما تنادي به الباحثة ستون، التي ترى أن الأنثى قد عُبدتْ في إطار أوسعَ من إطار الخصوبة فقط، وهو ما يحاول معظمُ المؤرِّخينَ أن يُحِدُّوها به، ولذلك فإنها ترى بأن هناك انحيازًا طبيعيًا ضدَّ المرأة في النصوص الآثارية، وتشير إلى أن تفسيراتها نابعةٌ من المواقفِ الجنسانية في المجتمعات، والمفاهيمِ التالية لمجتمعات عبادة الأنثى الأولية؛ لهذا فقد ركَّزتِ النصوصُ وفقًا لذلك على (عبادة الخصوبة)، وهي ترَى في هذا تبسيطًا غير عادي لمركب البنية اللاهوتية في تلك المجتمعات؛ لأن الإلهة الأنثى من وجهة نظرها تمثل الخالق والوازن للكونِ، إضافة إلى كونها مُبدِعةً وشافيةً وصيادةً وقائدةً جريئة في المعارك؛ وعليه واستنادًا إلى ذلك فقد اختصر الباحثون كل هذه الصفات الشاملةِ في سطر أو اثنين، متخلصين منها كما لو أنَّها غيرُ موجودة، أو غيرُ جديرةٍ بالمناقشة، وتركوا في المقابل لقبَ (الربة) الذي هو بمعنى (ملكة السماء) الموجود في معظم وثائق الشرقِ الأوسط والأدنى التاريخية، ليستخدموا مصطلحَ (أم الأرض) لتكريس مفهومِ الخصوبة فقط.

وهكذا يمكن القول بأن صفات وأسماء الربةِ قد اختلفتْ من جهة لأخرى، فهي ملكةُ السماء، وهي سيدةُ المكان العالي، أو الحاكمةُ السماوية، أو سيدةُ الكون، أو حاكمةُ السماوات، أو لبوةُ المجمع المقدس، وقد يُضاف اسمُ المدينة لجعل الاسم أكثرَ تخصصًا[1].

وتُرَكِّز غالبيةُ المؤرِّخين على مركزية دور الإله الأنثى، في عملية الخصبِ والتوالدِ، كونَها المخصبةَ للكون، وأمَّ الأشياء جميعًا، وظهورُ الدمى، ومن ثَمّ التماثيلُ الضخمةُ لتصوير الملامحِ المميزةِ للأم الكبرى، واعتنَوْا بتضخيم المناطق الأساسية الدالة على الخصوبة، وهذا موجودٌ في مختلفِ القارات؛ حيث يتوحدُ الشكلُ والمظهرُ العام، وهناك مؤرِّخون يقولون بأن هذه التماثيلَ ساهمتْ في

(١) مارلين ستون، مرجع سابق. ص ٢٠ – ٢١.

شعائر عبادةِ الربة، وإن كانت الخصوبةُ الصفةَ الرئيسة إلا أنها ليست الوحيدةَ[١].

تجدر الإشارة إلى أن انهيار المجتمع الأمومي الذي شهد عبادةَ الإله الأنثى قد حصل بشكل تدريجي، وعلى مدى مئاتِ السنينَ وبأسبابٍ متنوعة بعضها نابع من داخل المجتمعات، وأخرى من خارجها، وكان أن تحولت مع المدى الزمني إلى عبادة بعضِ الكواكب، وتقديس الآلهةِ التي تمثِّلها على الأرض كما في حالة عشتار مثلاً.

ولعل مِنْ أهمِّ الأسبابِ الداخلية لانهيار المجتمع الأمومي ابتداء الإنسان بترتيب وتنظيم العلاقة الجنسية بين أفراد المجتمع، حيثُ حُرِّمَ الجنسُ بين الآباء والأبناء، وفي مرحلةٍ لاحقةٍ بينَ الأخواتِ والإخوانِ، ثم في مرحلةِ العائلة الثنائية، حيث صار لكل رجلٍ زوجة رئيسة داخلَ مجموعةِ الزوجات، وأخيرًا مع مرحلةِ العائلة الصغيرة المكونة من الرجل والمرأة وأبنائهما؛ وبالتالي فمع ابتداء انتساب الابن لأبيه، أخذ نظامُ القرابة القائم على مفهوم الأمومة بالانهيار، وهو الذي كان عمادَ تكوين المجتمعات، وأحدَ أُسُسِ عبادةِ الربّة، وقد أدى انهيارُ هذا النظام إلى اختلافِ نظامِ ملكيةِ المحاصيل الزراعية، التي كانت محصورة في المرأة لكونها مركز الأسرة الرئيس.

ثم كان مع تزايدِ المعرفةِ أن تلاشى الانبهارُ بدور المرأة البيولوجي في ولادة الأطفال، وازدادَ الاعتمادُ على الرجل في الزراعة، لقوته البدنية، وقدرته على تنظيمِ المحصول، وبالتالي قلَّ دورُ المرأة في الزراعة، وحرَص الرجلُ على توريث هذه الثروةِ إلى أبنائه بعد ذلك.

ومع اكتساح الغزاةُ الشماليونَ أو الهندُوأوروبيون لمناطقِ الشرق التي كانت تعبد (الربة) وذلك قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام تقريبًا، تم فرض معتقدهم القائم على عبادة الشاب المقاتِل أو الربِّ الذي هو الأبُ القائد. وقد استخدم هؤلاءِ

(1) Paula Hyman, Dalia Ofer (Jewish Women: A Comprehensive Historical Encyclopedia), 2007 Jewish Publ. Society.

الغزاة في حربهم معدات حربية متطورة، منها العربة، والبلطة، وغيرها من أدواتِ قتلٍ جديدة، مما سهلَ عليهم اكتساحَ الشرق الأدنى. وعلى الرغم مِن أنهم قد فرضُوا الآلهةَ المذكرةَ التي يعبدونها، ومنها الإله (أندرا) وهو ربُّ الجبال الذي يدمر المدن، إلّا أنَّ دوافعَهم للغزو كانت سياسيةً واقتصاديةً ولم تكن دينية[1].

وكان أن اكتمَلَ القضاء على دينِ (الربة) مع ظهور الكتابة المسمارية المستخدمة في معابد الدياناتِ الجديدة التي جاءت بديلًا عن دين (الربة)، والتي تميزَتْ بوجود ترتيبٍ تنظيميٍّ للآلهة، وتخصيصِ آلهةٍ لكلِّ مهمةٍ، وهكذا طمسَ أصحابُ المعابد كل أثر للديانة القديمة مِن عبادة الربة، وركَّزوا في كتاباتهم على العباداتِ الجديدة، وتراتيبِ الآلهة المذكَّرةِ الموجودة فيها.

ثم تمثل العداءُ الحقيقيُّ لدين عبادةِ الآلهة الأنثى مع ظهور الأديان السماوية، وأولُّها الدين اليهودي الذي اعتبرَ عبادة الربة من العبادات الوثنية وبالتالي فقد دعا إلى تدميرِها وتدميرِ معابدها وآثارها. حيث ورد في سفر التثنية (١٢: ٢-٣): «تخربون جميعَ الأماكن حيث عَبدَتِ الأممُ التي ترثونَ آلهتَها على الجبال الشامخة، وعلى التلال، وتحتَ كل شجرة خضراء، وتهدمون مذابحَهم، وتكسرون أنصابَهم، وتحرقون سواريَهم بالنار، وتقطعون تماثيلَ آلهتِهم، وتمحون اسمَهم من ذلك المكان».

وبالرغم من هذا الموقف العدائي الصريح الآمر بتدمير معابد الربة، وقَتل من فيها، إلا أنَّ بعضًا من اليهود قد ارتَدُّوا عن دينهم، وعادوا إلى عبادةِ عشتار، وهو ما يفسر سلامة عدة مدن كانت تعبد عشتار من الذبح وهدم معابدها وتحطيم أصنامها كما أظهرتِ السجلاتُ التوراتية، بل يمكن فهم سبب اهتمام بعض العبرانيين بدين الربة حال تقسيم الأراضي في كنعانَ بينَ القبائلِ، باعتباره دين

(1) Witcombe, Christopher (Women in The Stone Age) The Venus Of Willendorf. March 13, 2008. www.arthistoryresources.net.

الأجداد، حيث تذكر التوراةُ في سفر القضاة (٢: ١٣) ذلك بقولها: «تركوا الربَّ وعبدُوا البعلَ وعشتاروت». كما ورد في سفر القضاة (٣: ٧): «فعمِلَ بنو إسرائيل الشرَّ في عيني الرب إلههم، وعبدوا البعليمَ والسواريَ»، والمقصود بالسواري هنا أي عشتار. كما ورد في سفر صموئيل الأول (٧: ٣ – ٤): «وكلم صموئيلُ كلَّ بيت في إسرائيل قائلًا: إن كنتم بكل قلوبكم راجينَ إلى الرب فانزَعوا الآلهةَ الغريبةَ والعشتاروت من وسطكم وأعِدُّوا قلوبَكم للرب، واعبدوه وحدَه فينقذَكم».

وبالرغم من إظهار الإنجيل موقفًا عدائيًا لا يقل عن سابقه حيث ورد في سِفر الرؤيا حال مخاطبة الربةِ: «الزانيةَ العظيمةَ الجالسةَ على المياه الكثيرة التي زنَى معها ملوكُ الأرض، وسكِرَ سكانُ الأرض من خمرِ زِناها، أمَّ الزواني ورجاساتِ الأرض»، إلا أن ظاهرة الارتداد تتكرر مع المسيحية، والتي كانت في بعض جوانِبها تقدس الأنثى من خلال المكانة الرفيعة للسيدة مريم العذراء، وهكذا استمرتْ عبادةُ الربة على الرغم من أن الإنجيلَ أخذ موقفًا مشابهًا لموقفِ اليهوديةِ من هذه العبادة الوثنية، إلا أنها استمرَّتْ بشكل موازٍ، حتى وضعَ الإمبراطور قسطنطينُ حدًا لهذه العبادة.

وفي هذا السياق يُقَال إن الإمبراطور قسطنطين ذبحَ سبعةَ آلاف شخصٍ في سالونيك عام ٣٠٠ بعدَ الميلاد، وأغلق من بعده الإمبراطور ثيودوسيوس معبدَ الربةِ في غرب الأناضول عام ٣٨٠ بعد الميلاد، كما حول الإمبراطورُ جوستنيان معابدَ الربة في أثينا إلى كنائسَ مسيحيةٍ عام ٤٥٠ بعد الميلاد. وهكذا انتهى مآل عبادةَ الربة رسميًا من بعد مخاض تاريخي وثقافي طويل[١].

أشير إلى أن مفهومُ تقديس الأنثى لم يكن مقتصرًا من حيث الموقع والنطاق على مناطق الشرق وحسب، بل وجد بصيغ أخرى لدى آلهة الإغريق واليونان والهنودِ والفرس.

---

(١) ستون، مرجع سابق، ص ١١٩.

وحتى في قصة الخلق الأوروبية القديمة، ذُكر أنَّ الأمَّ الكبرى هي التي خلقتِ الكونَ، وأن أولَ أعمالها كان فصلُ الماء من السماء، ثم خلقتِ القوى السبعةَ، والتي تُمثِّل العناصرَ السبعةَ الأولية للوجود. وهذه العناصرُ السبعة كانت أنثويةً، وتُسَمَّى المقدساتِ السبعةَ، أو الآلهةَ السبعة، حتى انتقلتْ إلى الميثولوجية الهندية، وأصبحت تُسمَّى (جناياتا) أو الملائكة السبعة (Janyati). ثم استمرتْ هذه الأفكارُ في الهند بصورةٍ خاصة حتى يومنا هذا[1].

(1) Pirani Alix Ed (The Absent Mother, Restoring The Goddess Of Judaism and Christianity), Mandala Book 1991. مرجع شامل للموضوع.
Published by Harper Collins,1991.

٢

بنات الله عند العرب

عَبَدَ العرب في جاهليتهم وغيرهم من الشعوب السامية في عصور تاريخية قديمة، آلهة جسدت الكواكب والنجوم بشكلها الأنثوي، وقدسوا وفقًا لذلك ما يعرف ببنات الله، وواقع الحال فإن استيعابنا لذلك سيساعدنا في فهم الإطار النظري لوجود المقام المقدس لأمنا حواء بجدة، وقبل ذلك لإدراك جوانب شغف العرب بنصب الأوثان لتلك الآلهة على مختلف طرق التجارة، وبناء حرم لها. وكانت في هذا السياق الإلهة عشتار من أعظم الآلهة ذات الطبيعة الأنثوية التي قدسها العرب، ومن المفيد أن نعرض نبذة عن عبادتها في أنحاء جزيرة العرب.

عشتار في جزيرة العرب:

تمثل الإلهة (عشتار) وهي إلهة الحب والحرب والجمال الإلهة العظمى والأسمى منزلة عند العرب جملة، وقد ظهرتْ عبادتُها مع ابتداء عصر المجتمعات الإنسانية في العهدِ النيوليني ٧٠٠٠ عام قبلَ الميلاد، والبعضُ يُرجِعُ عبادتَها إلى نحو خمسةٍ وعشرينَ ألفَ سنةٍ قبلَ الميلاد. وكانت بدايتُها في أرض سومر جنوب أرض الرافدين قبلَ ظهور الكتابة، حيث أسماها السومريون (عينانا) ابنةَ الإله (سيون) إلهَ القمر، وأمُّها الإلهة (ننكال) وأخوها الإلهُ (أوتو) إلهُ الشمس، وأختُها الإلهةُ (إيرشكال) إلهةُ العالم السفلى؛ كما عرفت لاحقًا في اليمن باسم (عثتر)، وتسمت في شرق الجزيرة العربية باسم (تاروت)، وعبدت في مكةَ في

السماء باعتبارِها كوكبَ الزهرة، ويجسدها في الأرض (العزى) وهو أعظمُ أصنامِ قريش؛ وعبدها الأقباط في مصرَ باسم (بادخت)، وعرفت عند الإغريق باسم (أفروديت)، وعندَ الرومانِ باسم (فينوس)؛ وسماها الهنود (مايا وبهافاني)، والفرسُ (ميترا)، والآشوريون (أنايتس)[١].

ولعل من أبرز مميزاتها أنها كانت تجمعُ المتناقضات، فهي إلهةُ الجمال والحب والخصب من ناحية، وهي إلهة الدمار والهلاك من ناحية أخرى، وبالتالي فهي تجيد الاختفاء وراءَ قناع محكم؛ كما تجمعُ المتناقضات في ألوانها فهي تُمثِّل اللونَ الأبيض، لكن أسمى تجلياته يتمثل في كوكب الزهرة والدر المكنون، كما تُمثل اللونَ الأسود وهو لون الموت. وفي ذلك كتبَ فراس السواح عن لغز عشتار قائلًا[٢]:

"هي ربةُ الحياة وخصبِ الطبيعة، وهي الهلاكُ والدمارُ وربةُ الحب، في الليل عاشقةٌ، وفي النهار مقاتلةٌ ترعَى المواقعَ وتفشي المذابحَ، هي الأم الرؤوم الحانيةُ... وهي البوابةُ المظلمة الفاغرةُ لالتهام جثثِ البشر. هي ربةُ الجنس وسريرُ اللذة، وهي من يسلب الرجالَ ذكورتَهم، هي القمرُ المنير، وهي كوكبُ الزهرة، هي النورُ ورمزُها الشعلةُ الأبدية، وهي العتمُ والظلمةُ وما يخفى، هي القاتلةُ وهي الشافيةُ، هي العذراءُ الأبدية، وهي الأمُّ المنجية، هي البتولُ، وهي البغيُ المقدسة، هي ربةُ الحكمة، هي سيدةُ الجنون، هي الإشراقُ بالعرفان، وهي غيبوبةُ الحواس وسباتها، التقَتْ عندها المتناقضاتُ، وتصالحتِ المتنافرات".

---

(1) Campbell (The Masks Of God: Oriental Mythology) Penguin Random House, New York, 1976.

(٢) فراس السواح، لغز عشتار: الألوهيةُ المؤنثة وأصلُ الدين والأسطورة، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢م، ص ٢٨.

وبالرغم من هدم الإسلام لمعابدها في الجزيرة العربية، وقيام المسلمين بطمس مختلف الآثار والنقوش الدالة عليها، إلا أن الشعر الجاهلي قد حفظ لنا في ثنايا سرده بعض خصائصها وصفاتها، وفي ذلك يقول كعب بن زهير تورية من خلال وصفه للمرأة التي جعلها تعكس في سلوكها متناقضات عشتار، وتتصف في شكلها وطبيعة أحوالها الإلهة عشتار كذلك، فهي كوكبُ الزهرة والدرةُ المكنونة، وهي أيضًا الغولُ البغيضةُ ذات الوجهِ الكريه فيقول:

أَكـرِمْ بهـا خُلّةً لـو أنها صدقَتْ موعودَها أو لو أنَّ النصحَ مقبولُ
لكنهـا خُلةٌ قد سـيط مـن دمِها فجـعٌ وولـعٌ وإخـلافٌ وتبديلُ
فمـا تدومُ على حـالٍ تكونُ بها كمـا تُلَـوِّن فـي أثوابهـا الغولُ

وقد عرفت العربُ هذه الربةَ من خلال بوابتينِ رئيستينِ: أولاهما بوابة اليمن، حيث انطلقتْ عبادتُها شمالًا، وكانت تُسمَّى بالمذكر باسم (عثتر)، أما البوابة الثانية فقد تمثلت في الصابئة، حيث انطلقت عبادتها من الشمال إلى الجنوب. كما توجدُ مصادر ثانوية لذلك الارتباط من قبيل الاحتكاكِ الثقافي حال التجارة مع بلاد الرافدين، ومع عربِ الشمال، وأيضًا من خلال الأفكار التي حملها العبيد والجواري، إضافة إلى حركة القوافل وغيرها، وسنعرض لكل مسار منها على حدة في الأسطر المقبلة.

البوابة الأولى:

ارتبط التنظيمُ الاجتماعي والحضريُّ والسياسيُّ في اليمن، بعبادة آلهةِ النجومَ، فعبدت اليمن مثل غيرها من الشعوب السامية آلهة تجسدُ الكواكبَ والنجومَ، وخاصةً الثالوثَ المقدس، وهي إلهة نجمةِ الصباح (الزهرة) وإله القمر ويُسمَّى (ألمقه) وله أسماءٌ أخرى، وإله الشمسِ ويُسمَّى (شمس) وله أسماءٌ أخرى أيضًا. كما كانت القبائلُ اليمنيةُ منظمةً على شكل جماعاتٍ دينية، لها

مجالسُ من الكهان تُساعد الملك على الحكم، وتميزتْ أيضًا بوجود حياة تجارية نشطة، بين الشواطئِ وبقيةِ الجزيرة العربية شمالًا.

وأول من استوطن اليمنُ كان المعينيون، الذين يُظن أنهم في أصولهم يمثلون امتدادًا للآراميين سكان شمال الجزيرة العربية المرتبطين بالحضارة البابلية، ويستدل علماء الآثار على ذلك بتشابه أسماءِ الآلهة، وتشابهِ العباداتِ بينَ أهل اليمن المعينيين وأسلوب عبادة البابليينَ، إضافة إلى تشابهِ النقوشِ والأختامِ وهندسة بناء المعابدِ؛ علمًا بأن المعينيين قد سيطروا على طرق تجارة البخور في الجزيرة العربيةِ من جنوبِها إلى شمالِها مرورًا بالحجاز، وأقاموا مستوطنات لهم على امتداد ساحل البحر الأحمر، وفي أعالي الحجاز، حيث توجد نقوشٌ لهم في العلا وحوران[١].

وكان أهلُ اليمن يعتقدون بأثَرِ (عشتر) على الأمطار والري والخصوبة، وتوجد نقوشٌ بهذا المعنى تبرز ما قدموه من نذور وقرابين للإله (عشتر)، الذي وصف بأنه (ذو هرق) أي الذي يُريقُ الماء ويسيلُه، وفي ذلك قال امرؤ القيس:

وإنَّ شـــفائي عبـــرَ مهراقـــة فهل عندَ رسمٍ دارسٍ من معوّلِ؟

ولذلك فقد قدَّس عرب الجنوب (عشتر) وأقاموا له المعابدَ الكثيرة في شتى الديار، وعلى دروب التجارة التي يسافرون عبرها، إيمانًا منهم بمكانتهِ الرفيعةِ دونَ الآلهةِ الأخرى، وكانوا يحرِصون على زيارة هذه المعابد، وممارسةِ الشعائر والمقامات على مدار الأوقات، وفي مختلف المواسم، وأثناءَ سفرهم في تجارتهم[٢].

(١) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، (بيروت: دار النهضة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩).

(٢) أسمهان سعيد الجرو، الآثار والحضارة في التاريخ العربي القديم، (القاهرة: دار الكتاب الحديث، ٢٠١٨م) ص١٤، ١٣٨، ١٣٩.

البوابة الثانية:

تمثلت البوابة الثانية لمعرفة العرب بالإلهة عشتار في تعاملهم التجاريِّ والحضاري مع الصابئة الساكنين على ضفاف نهر دجلة ببلاد الرافدين. وتعود جذور ديانة الصابئة إلى آدم وابنهِ شيت كما يقولون، على أنهم ديانة سماوية تتبع تعاليم النبي يحيى بن زكريا، ولهم كتاب عظيم يدّعون أنه تنزَّلَ على آدمَ في شكلِ صحائفَ، يطلقون عليه اسم (كنزا ربا) أي الكنزُ العظيم، وكتابهم الثاني (دراشا إد يهيا) أي تعاليم النبي يحيى.

ونظرًا لانغلاقهم وانزوائهم وتعرضِهم للاضطهاد عبرَ العصور، فلا يُعرفُ عن تاريخهم الكثير، لكنَّ المؤرِّخين يعترفونَ بوجودهِم كجماعاتٍ قديمة جدًا منتشرة بفلسطين وعلى ضفاف نهر الأردن بوجه خاص، وبعدَ تعرضهم للاضطهادِ تفرقوا إلى جماعاتٍ في أماكنَ مختلفة يأتي على رأسها ضفافِ نهر دجلةَ بالعراق.

ويعبد الصابئةُ إلهًا واحدًا أزليًا، له وحدانيةٌ مطلقة لا تنالُه الحواسُّ، ولا يُفضي إليه مخلوقٌ، ويتوجهون في صلواتهم نحو القطب الشمالي حيث قبلتهم، ويشترطون أن يكون التعميد في المياه الجارية. لكنهم في المقابل يجعلونَ بعدَ الله ٣٦٠ مخلوقًا في صور خيالية، وأن الكواكبَ مسكنٌ للملائكة؛ لذا يُعظِّمون الكواكبَ ويقدسونها، خاصةً صابئةُ حران.

وهم فِرَقٌ وأنواعٌ، وقد اختلَف فيهم المسلمون؛ فالبعضُ يرى أن علاقتَهم بالكواكب أعمقُ مما يظهر، وخاصةً صابئةُ حرّان، لذا هم من عبدةِ الكواكب؛ في حين يعتبرهم آخرون أنهم من أهلِ الكتاب الموحِّدين؛ انطلاقًا من أن كلمة الصابئة مشتقة من لفظة «صبا» في لغتهم وتعني المندائين المصطبغين بنور الإيمانِ والتوحيد، إضافة إلى ذلك فقد جاء ذكرهم في ثلاث آياتٍ كريمات مع أهل الكتاب وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحۡزَنُونَ ﴾[البقرة: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[المائدة: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[الحج: ١٧]. ولهذا فقد ذكرهم ياقوتُ الحمويُّ على أنَّهم ملةٌ ترجعُ إلى شيت بن آدمَ، ويؤكد ذلك ابنُ الوردي، الذي أبان أنهم يدَّعون أن النبيَّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد ذُكر في كتبهم.

إذًا هاتان هما البوابتان اللتان دخلت منهما عبادة الكواكب وفكرة تجسيدها إلى عرب الحجاز، وكان أهمها عبادة الإلهة (عشتار) أو (العزى) بلغة قريش التي جعلتها أعظم أصنام العرب، وقد وصفَها ابنُ عباس بقوله إنها أي (العزى) كانت شيطانة تأتي ثلاثَ ساحرات ببطن نخلةَ؛ ومن تعظيم قريش لها أن بنتْ لها حرمًا يُضاهونَ به حرمَ الكعبة، وصنعوا لها صنمًا مِنْ مكان يُقال له سقام بوادي حراض[1]، وفي ذلك يقول أبو جندب الهذلي.

لقد حلفتْ جهدًا يمينًا غليظةً بفرع التي احمتْ فروعَ سقام

لئن أنتَ لم تُرسلْ ثيابي فانطلقْ أباديك أخرى عيشنا بكلام

ونسب إليها صفة السعادة وهي من صفات عشتار، وفي ذلك يقول درهمٌ الأوسيُّ:

إني ورب العزى السعيدة والله الذي دون بيته سرف

وكانت العربُ وقريشٌ تنتسب إليها فيتسمى المرءُ باسم عبد العزّى، وأولُ مَنْ دعا إلى عبادتها كان عمرُو بنُ ربيعةَ، والحارثُ بن كعب، وجاء عن عمرو أنه قال: «إن ربكم يتصيفُ باللات لبردِ الطائف، ويشتو بالعزّى لحرِّ تهامه».

(١) أبو المنذر بن هشام الكلبي، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط٤، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠م) ص ١٧ - ٢٦ وهو المصدر الرئيس للمعلومات عن العزى، بالإضافة إلى دواوين الشعراء.

وقد عُرفَتِ العُزَّى مثلَ عشتار بالثنائية المزدوجة، فهي ربةُ الخصبِ والنماءِ، والحبِّ والجنسِ، وهي أيضًا ربةُ الهلاكِ والدمارِ والحربِ، ويختفي تحتَ قناعِها تناقضُ الألوان، فهي رمزٌ للون الأبيض، الذي يُمثِّل الكوكبَ الأبيض، والزاهرَ الحسنَ الأبيض من الرجال، والزهرةَ التي هي البقرةُ الوحشية، كما يختفي تحتَ قناعها اللونُ الأسود، وهو لونُ الدمِ والموت، وعليه فقد عرفها العربُ بأشكالها وألوانها المتناقضةِ في الغزَل، وفي الحربِ، وفي شربِ الخمر، وفي غير ذلك مما يتخيلونه عنها.

وقد تعددت الشعائر التي مارسها العرب في تقربهم من العُزى أو عشتار أو كوكبِ الزهري، حيث يورد ابنُ الجوزي أن الذين عبدوا اللونَ الأبيضَ فيها، كانوا يقربون إليها عجوزًا شمطاء ماجنة، يُقدِّمونَها بين يديها، وينادون الإلهةَ الماجنة أتيناكِ بقربان بياضُه كبياضك، ومجانتُه كمجانتِك، وظرفُه كظرفك، فتقبَّليه منا، ثم يأتون بحطبٍ فيجعلونَه حولَ العجوز، ويُضرِمونَ فيها النار إلى أن تحترقَ، فيحثّون الرمادَ في وجه الصنم العُزَّى الذي يمثلُ الأمَّ الكبرى أعظمَ الآلهة[١].

وفي صورة أخرى يُحضِرونَ ناقةً بيضاءَ فيُنيخونَها إلى مذبح الحجارة، حتى إذا لاحَ كوكبُ الصبح وهو رمز عشتار قبلَ ظهور الشمس، يدورونَ حولَ الناقة ثلاثَ مرات، ثم يتقدمُهم الكاهنُ وهم يُنشدون التراتيل، فينحَرُ الناقةَ مع آخر كلمةٍ من التراتيل، ويشربُ من الدم المتدفقِ، ثم تنقضُّ الجماعةُ على الناقةِ البيضاء، فيقتطعُ كلُّ واحدٍ قطعةً من اللحم الذي لا يزال يختلج، ويلتهمُها وهي نيةً على وجه السرعة، حتى لا يبقَى شيءٌ من الجذور قبلَ طلوعِ الشمس، لكي تحلَّ فيهم بركةُ الآلهةِ عشتار أو العزى[٢].

---

(١) أبو الفرج بن الجوزي، تلبيس إبليس، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ٢٠٠١م).

(٢) روبرتس سميث، محاضرات في ديانة الساميين، ترجمة: عبد الوهاب علوب، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧م) ص ٣٦٢.

ومِن صورِ الغزلِ باللونِ الأبيض للمرأة قرينة عشتار؛ فتظهرُ المرأةُ بيضاءَ ملساءَ الوجه، تشعُّ ألقًا ونعومةً أضاءتِ المكانَ من وجهها، كلمَعانِ الزهرةِ في السماء، وفي ذلك يقول المخبلُ السعدي[١]:

ـــــ وتُريكَ وجهًا كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهم
كعقيلةِ الدرِّ استضاءَ بها محرابُ عرشي عزيزها العجم ـــــ

أما الأعشى فيأخذ أحدَ تجليات عشتار، وهي الدرةُ المكنونة التي تُشع بياضًا ونورًا داخلَ أصدافها في البحار، وتحيط بها الرهبةُ والخوفُ؛ لأن من الممكنِ أن يموتَ الغواصُ للحصولِ عليها، وربطَ بينَ الدرةِ والسرِّ المقدسِ الذي يبعثُ الحياةَ ويضمنُ الخلودَ. وتجاوز الأعشى رمزيةَ الدرةِ في حدود الدلالةِ على المرأة الحسناء، لتشملَ معانيَ أسطوريةً عميقةً متعلقة بالإلهةِ المتربعةِ على عرشِ الجمال والصفاتِ العشتارية الأخرى.

ـــــ كأنها درةٌ زهراءُ أخرجَها غواصُ دارينَ يخشَى دونَها الفرقا
قد رامَها حججًا مذ طرَّ شاربُه حتى تسعسعَ يرجوها وقد خفَقا
لا النفسُ تؤسيه منها فيتركُه وقدرأىالرعبرأيَالعينِفاحترقا ـــــ

وفي المقابلِ فقد ظهرَ اللونُ الأسودُ وهو لونُ الدمار والموتُ كأحد أشكال العُزّى، وهو الظاهر كذلك عندَ العربِ في النار، والعوان، والدم الأسودُ الذي كان يأخذُه العربُ من الغبغب، وهو المكانُ الذي تُنحرُ فيه الذبائح للعُزَّى، وقد أخذته قريشٌ يومَ أحد، وقالوا بعد انتصارهم العُزَّى لنا، ورفعوا دمَها الفاسدَ.

ومن شعائر عبادةِ الزهرة السماوية شرب الخمر؛ لأنه يُمثِّل دمُ الإله المسفوح، ويكون شربُ الخمر آخرَ ما يفعله الأعرابيُّ قبلَ مغادرته حرمَ العُزَّى، وتشربُ الخمرَ مساءً عندَ بزوغِ نجمِ الزهرة وتحت أنوارها، وسماها العربُ (الصَّبوح) لعلاقتها بنجم الصباح.

(١) المفضل الضبي، المفضليات، ط١، (بيروت: شركة دار الأرقم بن الأرقم، ١٩٩٨م) ص١٠٤.

ـــــ أغادي الصبـوح عند هر وفرتني وليـدًا وهل أفنى شـباب غير هر ـــــ

جدير بالذكر فقد أخفتْ عشتارُ في الأسطورة الأصلية طبيعتَها المتناقضة تحتَ قناع بات رمزًا لها، وفي ذلك يصف الشاعرُ حبيبته بالمرأة العَروب، وهي المِغناجُ التي تتودّدُ إلى الرجل من وراء قناع، وهي من الصفاتِ العشتارية في الحب والجنس.

ـــــ عَروبٌ كأنَّ الشمسَ تحتَ قناعِها إذا ابتسمَتْ أو سافرًا لم تبسم[١] ـــــ

كما يعتبر الجنس المقدس من ممارساتِ عبادةِ عشتار وهو نوعٌ من القرابين التي تقدَّمُ لها، سواء عن طريق الجنسِ الفرديِّ أو الجماعيِّ داخلَ المعابدِ أو بجوارِها، وحول ذلك يذكر فراسُ السواح شعائر الجنسِ المقدسِ بقوله: «إنه ممارسةٌ جنسية مكرَّسة لمنبعِ الطاقة الكونيةِ مستسلمةً منفعلةً به، ذائبةً فيه، كالأنهار التي تصدر من المحيط، وإلى المحيط يقود».

وكان هذا الطقسُ يُقَام عندَ بذار الأرضِ بالبذور، لتوفير الطاقةِ الكونية لنموِّ الزرع، وقد انتشرَ في المناطقِ الساميةِ القديمة كافة. ولذلك فقد جاء في قصيدة امرؤُ القيس وصفًا لمغامراتهِ داخل معبدِ عشتار، وممارسته البغاء المقدس وهو يعاشر النساءَ البدينات[٢]:

ـــــ وبيـت عـذارى يـوم دجـن ولجتُه يطفـنَ بجبـاءِ المرافـقِ مكسـالِ
نواعـمُ يتبعْـنَ الهوى سُـبل الردى يقلْـنَ لأهـل الحلمِ ضـل بتضلال
صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى ولسـتُ بمقلـيِّ الخـلالِ ولا قـالِ ـــــ

(١) نادية زياد سلمان، تجليات عشتار في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، (نابلس: جامعة النجاح الأهلية، ٢٠١٥م) ص ١٢٢ - ١٤٨.

(٢) الوزير البطليوسي، شرح ديوان رئيس الشعراء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م) ص١٣٢.

وهكذا يمكن أن نخلُصَ إلى أنَّ عبادةَ الكواكبِ والنجومِ وما يماثلُها على الأرض من تماثيلَ وأوثان تعكس عبادةَ الأنثى، كانت متجذرةً وعميقةً في العقلية العربية الجاهلية، وما (عشتار) إلا مثال لذلك، كما احتلت (بنات الله) مكانًا مركزيًا في العبادة الجاهلية، حيث يعتبرها البعض مرتبطة بنجوم حزام الجوزاء، فيقابل نجم النطاق اللات، ونجم النيلام العزى، ومناة نجم المنطقة، ويعتد أصحاب هذا الرأي بالآية الكريمة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩-٢٠]. ذلك إن النجمين الأول والثاني قريبان من بعضهما في حين أن النجم الثالث يبتعد قليلًا وينحرف نحو اليسار إلى مناة الثالثة الأخرى المنفردة المبتعدة.

وحرص عرب الحجاز في الجاهلية على هذا التثليث لقناعتهم بأن مجموع البنات الثلاث يمثلن الله، وهو ما يمكن أن نطلق عليه ثالوث الغرانيق، ويتماثل مع ثالوث العائلة المقدسة في المسيحية، وثالوث بنات أيوب في العهد القديم باليهودية وهن (يميمة، وقصيعة، وقرن هفوك)[١].

وعليه فقد بات مهمًا لاكتمال الصورة أن نستعرض أهمَ الآلهةِ الأنثى وأصنامها عندَ العرب مع الإشارة إلى ما يُعرف ببنات الله، ثم نُلحِقُ ذلك بأهم الآلهةِ والأصنامِ القمرية المرتبطة بالنجوم والكواكب بشيء من التفصيل، وهي على النحو التالي:

الآلهة الأنثى عند العرب[٢]:

اسم الإلهة وصنمها	الوصف
أثرت	زوجةُ الإله (عم) إلهة قتبان الرئيس، وأثرت هي الشمسُ، والاسمُ قريبٌ من كلمة عشيرات في العبرية، وتعني الشروقَ، وعشرتوا الآشورية البابلية موطنُها اليمنُ.

(١) زكريا محمد، ذات النحيين، الأمثال الجاهلية بين الطقس والأسطورة، الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١١م، ص٤٠٨ – ٤١٦.

(٢) تم الاعتماد في ذكر ما ورد في جدول أصنام الآلهة الأنثى على: جورج كدر، معجم آلهة =

اسم الإلهة وصنمها	الوصف
أساف ونائلة	مِنْ أعظم أصنام قريش، وكانوا يتمسحونَ بهما وينحرونَ لهما، وكان أساف بدايةَ الطوافِ بالبيت، فإذا فرغَ من الطوافِ استلم نائلةَ، وهما في أصلهما رجل وامرأة من جُرهمٍ عشقا بعضَهما، وزنيا في الكعبةِ، فمُسخا حجرَيْنِ، وعبدتهما خزاعةُ وقريشٌ ومَن حجَّ البيتَ من العرب، وكانوا يذبحونَ ويحلقونَ رؤوسَهم عندهما إذا نسكوا، ولهم تلبيةٌ خاصة: (لبيكَ اللهم لبيكَ، لبيكَ لا شريكَ لك، إلا شريكًا هو لك، تملكُه وما ملك)، ونزل فيهما قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الأنفال: ٣٩]، يعني لا يكونَ شركٌ بالله بذكر أساف ونائلة.
أم عطات	إلهة ثموديةٌ وتتوافقُ مع الإلهةِ العربيةِ الجنوبيةِ أم عطار فهي أم عطار النجمية.
أوراينا	وهي من أسماء اللات، وكانت تُشكِّل ثنائيًا مع الإله المذكر العربي (أوروتال)، وجاء ذكرُها في تاريخ هيرودوت.
ذات بعدن/ بعدن	إلهة أنثى مِنْ آلهة اليمن، وأيضًا وردتْ في نص على تمثال تم تقديمه بحق الإله (ألمقه)، وبحق ذات بعدن.
بوانه	صنم أنثى تعني البنت الصغيرة كانت قريش تعظمُها وتنسك عندها، فتحلق رأسها، وأفردت لها عبد لخدمتها، وعيدُها من أعياد الخصب.
حرمت/ حرمة/ حرم	وهي إلهه أنثى يُقال إنها زوجةُ الإله (ألمقه) إله سبأ، وتوجدُ نصوصٌ أوردها المستشرقون تعود إلى ٨٠٠ عام قبلَ الميلاد، والاسم يُطلق على المذكر أيضًا، وعلى المكان المقدَّسِ المخصصِ للعبادة.

= العرب قبل الإسلام، ط٢، (لندن: دار الساقي، ٢٠١٣م)؛ وجواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، (بغداد: جامعة بغداد، ١٩٩٣م)؛ والكلبي، مرجع سابق.

اسم الإلهة وصنمها	الوصف
ذات حشولم/ ذات حشول	إلهة حضرمية أنثى، ويوجدُ اسمُها في كتاب للملك (يدع إيل بين) ذكر فيها أنه بنَى وحصَّن سورَ مدينة شبوه لوجه الإلهة ذات حشولم، وأيضًا الإلهة ذات صميم.
ذات حميم	إلهة أنثى، وترمزُ عند السبئيين إلى الشمس.
ذات رحاب	إلهة أنثى، وجاء ذكرها في أسوار مدينة (هربت).
ذات سماوى	إلهة أنثى تعني صاحبةَ السماء، وهي إلهة ثمودية وإلهةُ قوم سبأ من بلاد حران، وعند عربِ الجنوب اسمه (ذو سمائي)، وعُثرَ على نقوش بمنطقة الجوفِ في اليمن بصيغته النسائية.
ربّت أثر	إلهة أنثى، وهي ربةٌ لموضع اسمُه أثر، ويوردُ الهمداني موضعَيْنِ بهذا الاسم، أحدُهما في بلاد همدانَ، والثاني وادي ثره شرقَ اليمن.
رُضا	إلهة أنثى عندَ الثموديين، وكانتْ على شكل امرأةٍ عارية أمسكَتْ شعرَها بيديها على شكل هلال، والشمسُ على كتفِها الأيمنِ، وتكتبُ (رضو) و(رضى)، والأنباطُ والتدمريون يدعونَها (أرصو)، وكانت من أكثر الآلهة التي توجَّه إليها الثموديون، ويسمونَها (عالية التقديس)، واسمُها (سيدة النجدة) و(سيدة الموت).
رداح	مِنْ آلهة الخصب وتسمت العربُ بعبد رداح، وهم بطنٌ من الأوس.
روعة	من آلهة سبأ، وتعني الحسنَ والجمالَ، وذُكِرتْ في الأسماء الثمودية.
ريحان	وهي إلهةُ المطر عندَ عربِ الجنوب.

اسم الإلهة وصنمها	الوصف
الزبّاء	وهي من آلهة الخصُوبة، وكانت قبيلةُ إياد لها ناقةٌ تتبرك بها اسمُها الزباء، يقولون إنها ميمونةٌ، وردت سيرتُها في كتاب الأغاني.
السعيدة/ سعاد	صنمٌ وبيتٌ كانت تحجُّه ربيعةُ في الجاهلية، وكان سعدُ هذيم وسائرُ قضاعه يعبدونَ السعيدةَ ومناةَ، وكانت الأزدُ تعبدُها أيضًا، وموطنها بأحد، وسدنتُها بنو العجلان، ومن أسمائها سعادُ، وكانت التلبيةُ لها: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لبيك، لم نأتك للمياحة ولا طلبًا للرقاحة).
سُكيلات	وهي اسمُ ملكةٍ نبطية رُفِعَتْ إلى درجةِ الآلهة كما كان يحدثُ عندَ عرب الشمال.
غلاب	صنمٌ على هيئة امرأة رائعةِ الجمال، وهو من الأصنام التي هتفَتْ بمقدم النبي كما قالوا.
كثرى	هي صنمٌ لجديس وطسم، وقد كسرها سادنُها نهشلُ بن الربيش، ولحق بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم مسلمًا.
الإلهة/ إلهة	مؤنثُ الإله وهي أصلُ كلمة الله، وكانت تطلقُ على الشمس عندما عبدَتْها العربُ، وكانوا يدعونَ معبوداتِهم من الأوثانِ والأصنامِ آلهة، جمعُ إله، وقال الله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].
لخم/ لخامو	آلهة دلمون: وهي إلهة أنثى من آلهة الخصب في البحرين.
ليل/ ليلى	عُبِدَ في جزيرة العرب وبلادِ الرافدَيْنِ، ومنها اشتقَّ اسمُ الإله يا ليل أو كاليل، وليل في اللغة العربية الظلمةُ عقب النهار، وليلى أشدُّ ليالي الشهر ظلمةً، ومنها اسمُ المرأة ليلى.
المروة	صنمٌ على صورة امرأة؛ بينما الصفا كان صنمًا على هيئة رجل.

اسم الإلهة وصنمها	الوصف
منى	من أصنام إسرائيل: وهي إلهةُ القدرِ عندَ الكنعانيينَ: وهي من الكلماتِ الساميةِ المشتركة، لها علاقةٌ بالصنم منوات من أصنام ثمودَ، ومناة من أصنام الجاهلية.
هند	اسمُ صنمٍ ذكره ابنُ دريد في جمهرته، وهو من العباداتِ القديمةِ عندَ العرب، والتسميةُ في عبادته (عبد هند).

بنات الله:

اللات:

ظهر اسم اللات في الأساطير البابلية قبل ثلاثة آلاف سنة باعتبارها ابنة رب الأرباب وأخواتها ماميتو والأخرى عشتار[١]. كما ورد في قصيدة «فروسية ازدوبار» أن اللات كانت هي الملكة التي تتحكم في الهاوية التي سجنت فيها عشتار، فمحي الحب والخصب من الأرض، وتسلطت اللات على الأرض وهي تمثل الشمس المحرقة، والصيف، والبؤس، ثم بعث رب الأرباب بمن يرش الماء على وجهها الغاضب، ويهدي من شدتها بالألقاب المتعددة لتفرح[٢]. وقد أوجد لها عرب الجزيرة مسمى قريب من الثقافة العربية، حيث تم اشتقاقه من الصنم لاتًا من لوى؛ لأنهم يلوون عليها أي يطوفون حولها، على أن ابن كثير يرى أنهم قد اشتقوا اسم اللات كناية عن التأنيث من اسم الله، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [سورة النجم: آية ١٩].

(١) مراجع اللات هي نفسها التي وردت في موضوع الأصنام، وتُضاف إليها مراجع أخرى حينما يذكر ذلك.

(٢) محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، (القاهرة: آفاق للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م) ص١٦٠ – ١٦٢.

وقد عبدت اللات أو الربة في مناطق واسعة من قبل عرب الشمال والجنوب وفي فترات زمنية متفاوتة. حيث عبدها عرب الأنباط في شرق الأردن في القرن الخامس قبل الميلاد، وبنوا لها المعابد، وضربت باسمها النقود. وعبدها الصفويون في جنوب دمشق باعتبارها الشمس، وذكرت في نقوشهم أكثر من أي إله آخر، واعتبروها كبيرة الآلهة. وعبدها الثموديون ولها معبد في روافة غرب مدينة تبوك، وكان سعدة الثمودي كاهن معبدها. كما عبدت اللات في مدينة تدمر شمال شرق دمشق، وعرفت باسم الإلهة (أثينا) اليونانية، وعبدت عند مدينة الحضر جنوب غرب الموصل. وفي جنوب الجزيرة العربية عبدها المعينيون قبل الميلاد، ويعتقد البعض أن عبادتها انتقلت إلى الحجاز والطائف تحديدًا من عرب الأنباط، واعتبروها إلهة الخصب والحرب وسموها ربة البيت.

وقد صورت اللات بأشكال وصور متعددة، فعند النبطيين ظهرت على هيئة نصف امرأة ونصف سمكة مثل الإلهة اليونانية أفروديت، وتماثل عشتار البابلية، وفي تدمر صورت وبصحبتها أسد، أو هيئة إله محارب، أو امرأة بين أسدين. كما صورها الصفويون بامرأة فاتحة ذراعيها تمد بيدها شعر رأسها على الجانبين مثل إنانا السومرية. أما في الطائف فكانت صخرة من الغرانيت حيث ورد أن عمرو بن لحي قال للناس: إن ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة[١].

ويشير بعض الغربيين ومنهم الباحثة ستون إلى أن اللات قد عرفت بأنها (ليلث) اليهودية أو (يداينانا) السومرية التي تجلب الرجال إلى المعبد، وهي في الرواية اليهودية زوجة آدم الأولى المتمردة عليه، حيث عندما رفضت العودة قامت بقتل الملائكة وأبنائها، وهكذا أخذت تنتقم من الأطفال الرضع والنساء حديثي الولادة، وتمثل روح الشر والغواية، وترتبط بالشيطان وتلد منه مائة طفل كل يوم، وهي أم الأبالسة والأطفال غير الشرعيين، وتتسلط على قتل الأطفال.

(١) سعد عبود سحار، المعتقدات الميثودينية عند العرب قبل الإسلام، (دمشق: منشورات تموز، ٢٠١٦م) ص١٤٨.

وتوجد أقوال ضعيفة عند الصابئة بأنها تمثل زحل، وأخرى تقول بذكورية اللات، والبعض يقول إن الأنثوية للمعبد نفسه واللات ذكر، ولكن كلها أقوال ضعيفة[١].

وأهم وظيفتين لها هي أنها إلهة الحرب وإلهة الخصب بصورة أساسية، إضافة إلى وظائف أخرى أقل أهمية. وتوجد نقوش صفوية وغيرها تؤكد طابعها الحربي، كما أن أسد اللات موجود في متحف تدمر، وتماثيلها في مدينة الحضر ترتدي زيًا عسكريًا وهكذا. وقد حملها أبو سفيان كما قال الطبري يوم أحد وقال في المعركة:

لعمرك إني يوم أحمل الراية لتغلب خيل اللات خيل محمد

أما وظيفة الخصب فواضحة في تسميتها من خلال عديد من النقوش النبطية التي ذكرت بأنها (أم الآلهة)، وقد صورت عند عرب الشمال كامرأة عارية، وعند الصفويين واهبة الرزق للتاجر والجو الصحو الجميل، وسميت بعض معابدها باسم معبد الأم العذراء وغيرها مما يتفق ويتماهى مع صفات عشتار في الخصوبة. وتوجد نقوش توضح حال النساء وهي تصلي لها وتطلب منها أمور نسوية خالصة، وهي أكثر عبادات عرب الجزيرة التي تظهر فيها إعادة الميثولوجيا الدينية في المنطقة كلها.

وكان العرب يختصونها بتلبية يقولون فيها: «لبيك اللهم لبيك، لبيك كفى ببيتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، ولكن من تربة ذكية، أربابه صالحي البرية». وكان حرم اللات يضاهي الحرم حول الكعبة في مكة لدرجة أن أبرهة الحبشي عندما وصل إليه أراد هدم حرم اللات ظنًا منه أنه وصل حرم مكة، وكانوا يعلقون عليها القلائد والسيوف تكريمًا، ويعتقدون أنها واهبة الحنان، وبيدها سر البقاء في الدنيا، وتشفع للناس بعد الموت، كما قال النضر بن الحارث: (إذا كان يوم القيامة تشفع لي اللات)، وقد نزل فيها أكثر من آية كريمة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا

(١) ستون، يوم كان الرب أنثى، مرجع سابق، ص١٩٠.

يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]. حتى إنهم يعتقدون إنها واهبة الطقس الجميل والمطر كما تقول العرب: إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف.

ولأهميتها فقد كان يوم هدم معبدها في الطائف يومًا مشهودًا، حيث أسلمت ثقيف بشرط ألا تقوم هي بهدم معبد اللات، وأعفاهم الرسول من ذلك لمعرفته بعمق تعلقهم بها، كما رفض أبو سفيان أن يشارك في هدم المعبد، فأرسل الرسول المغيرة بن شعبة، الذي سقط بعد أول ضربة، فارتج الناس بصيحة واحدة، وأظهر أهل الطائف فرحهم وقالوا: قتلته الربة، وكانت نساء ثقيف قد خرجن حاسرات يبكين هدم المعبد، ومعهن العبيد والصبيان والأبكار. لكن المغيرة سرعان ما قام قائلًا: والله يا معشر ثقيف إنها لكاع حجارة، ثم ضرب الباب، وعلا سورها بمن معه، فهدموها حجرًا حجرًا، والسادن يقول: ليغضبن الأساسي فليخسفن بهم، لذا استمر المغيرة حتى بلغ أساسها وأخرج ترابها.

وشاهد الرحالة جيمس هاملتون في منتصف القرن التاسع عشر عام ١٨٥٢م صخرة اللات في الطائف، ووصفها بأنها من الغرانيت، وطولها قرابة اثني عشر قدمًا. وإلى يومنا هذا توجد جماعات تعبد اللات في أماكن نائية من العالم، إذ يوجد في سيبيريا جماعة يسمون أنفسهم دائرة المخلصين للآلهة اللات، وينادونها الأم الكبرى، ولهم تلبية خاصة يقولون فيها: «بسم اللات الأم الكبرى، باسم اللات الصبح، باسم اللات الحبيبة»[١]. وفي سوريا تضرر معبدها أثناء الحرب وكذلك تمثالها، وقد تم ترميم التمثال[٢].

---

(١) أحمد نزيه، حكايات في الجاهلية في القرن ٢١، موقع بوابة أخبار اليوم بتاريخ ٢٠١٨/٨/٢٠م. https://akhbarelyom.com/news/newdetails/2713310/1/

وانظر: دراسة شاملة عن ظاهرة عبادة الشيطان في المجتمع المعاصر، شبكة ومنتديات قدماء. https://www.qudamaa.com/vb/node/37328/page2

(٢) شبكة نسمة الإخبارية ٢٠١٧/١٠/١٥.

العُزّى:

يؤكد المستشرق فلهاوزن بأن العُزَّى هي الزهرةُ[١]. وعلى كل هي من أعظمِ أصنامِ قريشٍ والعربِ بوادي نخلة الشامية، ويُقال له حراض، وكانت قريشٌ قد حمت لها شِعبًا من وادي حراضٍ يُقال له سقام، يضاهونَ به حرمَ الكعبة. بل وجعلت لها تلبيةً خاصة وهي قولهم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك ما أجبنا إلاّ إليك»، وفي رواية الكلبي إن قريشًا كانت تعظم البناتِ الثلاثَ وتطوفُ بالكعبة قائلة: «واللاتِ والعُزَّى، ومناةَ الثالثةِ الأخرى، فإنهنَّ الغَرانيقُ العلى، وإن شفاعتَهنَّ لتُرتَجى»، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [سورة النجم: ١٩ - ٢٣].

يذكر أن أبا لهب واسمه عبد العزى بن عبد المطلب دخل على سادنِ العزى ويقال له أبو أصيحة حين حضرته الوفاة فوجدَه يبكي فقال له: ما يبكيك يا أبا أصيحة؟ أمن الموتِ تبكي ولا بدَّ منه؟ فأجابه بقوله: لا، ولكني أخافُ ألا تُعبدَ العُزّى بَعدي، فقال أبو لهب: والله ما عُبِدتْ في حياتك لأجلك، ولا تُترَكُ عبادتُها بعدَك لموتِك، فقال أبو أصيحة: الآنَ علمتُ أنَّ لي خليفةً، فجعل أبو لهب يقول: إن تظهرِ العُزى كنتُ قد اتخذتُ عندها يدًا بقيامي فيه، وإن يظهر محمدٌ على العُزى - وما أظنه يظهرُ - فابنُ أخي.

وفي يومِ الفتحِ العظيم بعثَ الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم خالدَ بنَ الوليد إلى العُزَّى، وقال له: إيت بطنَ نخلةَ، فإنك تجدُ ثلاثَ سَمُراتٍ فاعضدِ الأولى؛ فعضدَها، فلما جاء النبيُّ قال: هل رأيتَ شيئًا؟ فقال لا. قال: فاعضدِ الثانيةَ،

(١) روبرتسن فلهاوزن، محاضرات في ديانة الساميين، ترجمة: عبد الوهاب علوب، (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ١٩٧٤م) ص٨٤ – ٨٥.

فأتاها فعضدَها، ثم أتى النبيُّ فقال: هل رأيتَ شيئًا قال: لا، قال: فاعضدِ الثالثةَ فأتاها، فإذا هو بحبشيةٍ نافشةٍ شعرَها، واضعةٍ يدَيْها على عاتقها تصرفُ بأنيابها، وخلفَها دبية الشيباني ثم السلمي الذي أنشد قائلًا:

أعـزّاء شـدى شـده لا تكذبي على خالدٍ ألقِ الخمارَ وشَمِّري
فإنـكِ إلاّ تقتُلـي اليـومَ خالدًا تبوئـي بـذلٍّ عاجـلًا وتنحري

فقال خالدُ بن الوليد:

يـا عـزَّ كفرانَـكِ لا سـبحانَكِ إنـي رأيـتُ الله قـد أهانَـكِ

وبعد أن قطعَ الشجرَ، وكسر الوثنَ، وهدمَ البيتَ، جاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال: تلك العُزَّى ولا عُزَّى بعدَها للعربِ؛ أما إنَّها لن تُعبدَ بعدَ اليوم.

مناة:

هي إلهة الحظ السعيد، وهي إلهةُ القدر واسمُها (م ن ي) وتعني المنيةَ والموتَ، ويقال إن اسمَها مشتق من (ن و ء)، ويعني سقوطَ النجم في المغرب مع الفجر، وطلوعَ آخرَ من المشرق. أسماها العبرانيون باسم (منا)، وأطلق عليها البابليون اسم (ما مناتو)، وتنشر عبادتها لدى الأنباط والتدمريين واللحيانيين، ولها صورةٌ في تدمرَ وهي جالسةٌ حاملة للصولجان. كما يسميها الثموديون باسم (مناة) (منة) (منوت)، وتُسمَّى في الأدعية سيدةَ السلام.

وهي أقدمُ بناتِ الله عندَ العرب، وكانوا يبالغونَ في تعظيمها وتقديم الهدايا والنذور لها، لارتباطها بالمطر والغيثِ، وأصبح سدنتُها من الغضاريفِ الأزدِ في غناءٍ وثراءٍ فاحش، من كثرة ما يقدمُ لها من الهدايا. وكانت العربُ تقول: لا بدَّ لكل كوكبٍ من مطرٍ أو ريحٍ أو بردٍ أو حرٍّ، وأن النجمَ تسبَّبَ في ذلك، وجاءت

سورةُ النجم في القرآن الكريم للرد على هذه الأباطيل. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [سورة النجم ١٩- ٢٣].

يقع مكان نصبها على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشلل بمنطقة قديدٍ بينَ مكةَ والمدينةِ، حيث يتوجه إليها بالعبادة أهل يثرب من الأوس والخزرجِ الذين لم يكونوا ليحلقوا رؤوسهم بعد إتمام حجهم حتى يأتونَ مناةَ، كما توجه إليها بالعبادة أهل الشام من قبيلة غسان وقضاعةُ. وكانت لها تلبية تقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لولا أن بكرًا دونك، يبرك الناس ويهجرونك، ما زال حج عثبح يأتونك، إنا على عدوائهم من دونك».

وقد نزلت فيها آيةٌ كريمة في سورة البقرة من غير آية سورة النجم، حيث تفرد هذا الصنم بطقس خاص به، إذ يُهِلّون بها؛ أي إذا أهلّوا بحج أو عمرة لم يستظلَّ أحد بسقف حتى يفرغ من حجه وعمرته، وإذا أحرم لم يدخلْ بيتَه حتى ينتهي من حجه وعمرته، فإذا كانت له حاجةٌ تسوَّر بيتَه؛ لأنه لا يجوز رتاج الباب رأسه ونزل قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾.

وفي عام الفتح بعثَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم عليَّ بنَ أبي طالب لهدمها، وأخذ ما كان عليها، ومنها: سيفانِ أهداهما ملكُ غسانَ للصنم، فوهبَهما النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا علي، ويقال: إن أحدها كان سيف ذو الفقار المشهور.

عليا / علي:

وهي مِن بناتِ الله التي عبدَها أهلُ كِندة وحضرموتَ، ووجد اسمها في نصٍّ سبئٍ يعودُ إلى ما قبلَ الميلاد. وحولها يَروي ياقوت الحموي: إن قومًا خرجوا ليقدموا ذبيحة للآلهة الجلد فخرج منها صوت يقول: «عم صباحَنا ربنا،

لا مصدّ عنك ولا محيد، تشاجرتِ الشؤونُ، وساءتِ الظنونُ، فالعياذُ من غضبك، والإيابُ إلى صفحك»، فإذا النداءُ من الصنم يقول: «قلبتُ البناتِ وعزّاها، واللاتَ وعلياها، ومناة منعتِ الأفقَ فلا مصعد، وحرستْ فلا مقعد، وأبهمتْ فلا متلد، وكان قد ناجم نجم، وهاجم هجم، وصامت زجم، وقابل رجم، وداع نطق، وحق بسق، وباطل زهق».

الغرانيق العلي:

هي الثالوث المكي لبنات الله التي تدعى الغرانيق العلي، وجاءت التسمية من طائر مائي أبيض اللون أو طائر البلشون، كما تطلق أيضًا على الشاب الأبيض الناعم، وتطلق على اللين من البنات. وبذلك أراد العرب أن يشبهوا بنات الله بأنها مثل الطيور ترتفع في السماء وتلعب فيها؛ لأنها آلهة تأخذ شكل الطيور، ولذلك فقد تخيَّل العرب بأن أرواح أمواتهم تصعد إلى السماء في شكل غرانيق بيض تلتحق بالآلهة السماوية وتجدد وجودها عندها.

وجاء في لسان العرب لابن منظور أنه حين أُتي بجنازة عبد الله بن عباس الوادي أقبل طائر غرنوق أبيض كأنه قبطية حتى دخل في نعشه، قال الراوي: فرمقته فلم أره خرج حتى دفن؛ وهكذا دخل الغرنوق الأبيض الذي يشبه القماش القبطي الأبيض نعش ابن عباس ولم يغادر إلا بعد اكتمال الدفن مع روحه طائرًا إلى السماء والله أعلم[1].

(١) زكريا محمد، ذات النحيين، مرجع سابق، ص٤٠٨.

الآلهة والأصنام المرتبطة بالنجوم والكواكب عند العرب:

لم يعبد العرب في جاهليتهم الأصنامُ لذاتِها، وإنما لما تُمثِّله من كواكبَ ونجومٍ من جهة، أو دياناتٍ ساميةٍ قديمة من جهة أخرى، كما تركت عبادتهم لها في نفوسهم أثرًا عميقًا، انطلاقًا من رؤية روحية آمنوا بها، وليس كما تم تصويرهم في بعض روايات تاريخنا الإسلامي بشكل ساذج مضحك، وإن كان ذلك قد حدث من بعضهم، ولا سيما مع تلك الأصنام الثانوية التي لم يكن لها وزن، كحال ذلك الأعرابي من بني حنيفة الذي أكل صنمه حين جاع، وقد كان مصنوعًا من التمر المخلوط بالسمن المسمى بالحيس، فأصبحَ إلهه في بطنِه كما قيل، وهو ما عيَّرتْهم به العربُ بقول شاعرهم:

أكلتْ حنيفةُ ربَّها زمنَ التقحُّمِ والمجاعة
لم يحذَروا مِن ربِّهم سوءَ العواقبِ والتباعة
أحنيفُ هلّا إذ جهلت ما صنَعتْ خزاعة
نصَبوه من حجرٍ أصمَّ وكلَّفوا العربَ اتِّباعَه

على أن الصور المضحكة لم تقتصر على ذلك، حيث صنع بعضهم صنمه من تراب حين تنعدم الأحجار فيُسَمَّى (الحثى)، وهو ما أورده البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي أنه قال: «كنّا في الجاهلية إذا لم نجدْ حجرًا جمعنا حثيةً من التراب، وجئنا بالشاةِ فحلَبْناها عليه ثم طُفْنا بها».

من جانب آخر فقد توارث الباحثون رواية الكلبي في كتابه الموسوم بـ«الأصنام» حين الإجابة عن سؤال البداية لعبادة العرب للأصنام، فتجدهم يرددون قصة استحداث عمرو بنِ لحي لها بمكة كما رَواها الكلبيُّ في كتابه[1]، على الرغم من مختلف المآخذ العلمية على هذه الرواية، كما أوضح ذلك محقق الكتاب أحمد

(١) الكلبي، مرجع سابق، ص١٣.

زكي باشا، الذي أشار إلى أنه وبالرغم من أهمية الكتاب على الصعيد الثقافي والتاريخي باعتباره قد وثق للأصنام في الجاهلية، وحفظ أسماءها، ووصفها بأسلوب علمي، إلا أن المحدثين قد أخذوا عليه استعانته في تدوينه بالقصص والأساطير، وفي ذلك يذكر السمعاني أن الكلبي: «يروى الغرائب والعجائب من الأخبار التي لا أصول لها»، وقال الإمام أحمد بن حنبل ناقدًا: «إن من يحدث عن هشام الكلبي إنما هو صاحب سمر ونسب»[١].

وواقع الحال فإن روايات متعددة تدحض مضمون الفكرة المبسطة التي رواها الكلبيُّ، التي تقضي بأن العرب لم تعرف الأصنام إلا على يدِ عمرِو بنِ لحي. ولعل ازدياد الاعتماد عليها بعد ظهور الإسلام كان بدافع تبرير تورط عرب الحجاز عامة، وأهل مكة خاصة، في تحريف ديانة التوحيد الإبراهيمية، وأن ذلك ما كان إلا بتأثير خارجي.

ورغبة في تفكيك قصة مرجعية عمرو بن لحي التاريخية لابتداء عبادة الأصنام وفق رواية الكلبي، أستشهد بما جمعه الباحث أحمد فرج الله[٢]، الذي توصل إلى أن صنم (ود) و(سواع) و(يغوث) و(يعوق) و(نسر) التي جاء القرآن الكريم على ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح: آية ٢٣] قد عبدت فعليًا منذ زمن النبي نوح عليه السلام، أي أن العرب قد عبدت الأصنام قبل عصر عمرو بن لحي، وهو ما يؤكده ابن عباس في قوله: «صارت الأوثانُ التي كانتْ في قوم نوح في العرب بعدَهم، أما (ودّ) فكانت لكلبٍ بدومةِ الجندل، و(سواع) لهُذيل، و(يغوث) لمرادٍ ثم لبني غطيف من سبأ بالجوف، أما (يعوق) فكانت لهمدانَ، و(نسرٌ) لبني حميدٍ لآل ذي الكلاع. أسماءُ

(١) المرجع السابق، ص١٢ – ١٥.

(٢) أحمد فرج الله، بحث في عبادة الأصنام عند العرب، شبكة الإمامين الحسنين للذات والفكر الإنساني، ٢٠١٣م. http://alhassanain.org/arabic/?com=content&id=2150

رجالٍ صالحينَ من آل نوح، فلما أوحى الشيطانُ أن انصِبوا إلى مجالسِهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، فعلوا، فلم تُعبَدْ، حتى إذا هلَكَ أولئك وتنسخَ العلمُ عُبدَتْ».

كما أن صنم (هبل) قد نصبه خزيمةُ بنُ مدركةَ وهو يقابلُ أبا جدِّ عمرو، كما وجد الصنمُ (شمس) قبلَ جدِّ جدِّ عمرو، أما الصنمانِ (أساف) و(نائلة) فينتميان إلى قبيلة جُرهمٍ، التي سبقتِ الأزدَ وحميرَ في الوجود.

كذلك تعودُ فكرة بنات الله مناة واللات والعُزَّى إلى فترة زمنية أسبق من عصر عمرو بن لحي، ولذلك فقد عرف العرب أسماءَ من قبيل عبدِ مناةَ وزيدِ مناةَ، من قبل عَمرِو بنِ لحي بزمنٍ طويل، ومنهم من يقابلُ جدودَ عمرو، وبعضُهم جدودَه هو، والشيءُ يُقَال عن اللاتِ الذي يلتقي بعضُ من سمُّوا بالصنم مع أجدادِ عمروٍ مثل زيدِ اللات الذي يلتقي مع أجدادِ عمرو، وهكذا.

كما ومن الناحية التاريخية فقد عبدت الشعوب السامية ومنهم العرب الأوثان والأصنام والأحجار منذ فجر التاريخ، حيث يُذكر أنه تمت عبادة أصنام (ود) و(سواع) و(يغوث) و(يعوق) و(نسر) في عهد نبي الله إدريس عليه السلام وهو من أحفاد شيت بن آدم، وقد أرسله الله إليهم فلم ينتهوا، فكان أن غرق القوم في طوفان نوح بعد أن استكبروا وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وذكر المؤرخ المسعودي أن الله بعث نبيه هود عليه السلام في العرب البائدة للتحذير من عبادة الأصنام (صمود) و(صداء) و(الحصباء)، لكن قومه أنكروا عليه ذلك ولم يؤمنوا بقوله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، ثم أتبعهم بنبي الله صالح عليه السلام الذي أرسله إلى قوم ثمود من العرب البائدة داعيًا إلى التوحيد، لكنهم أبوا واستكبروا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦١ - ٦٢].

كما ظهرت عبادة الأصنام جلية مرة أخرى مع قوم إبراهيم، حيث جادل إبراهيم أباه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤]. ويورد الأزرقي في كتابه «أخبار مكة»: أن أول من عبد الحجارة هم بني إسماعيل، وأنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم وصبابة بمكة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وخاصة حجارة الحرم[١].

إذًا المسألة أعمق في جذورها مما تم تبسيطه برواية الكلبي، وعبادة الأصنام والآلهة متجذرة في نفوس العرب من قبل وجود عمرو بن لحي الخزاعي بزمن سحيق، مثلهم مثل غيرهم من الشعوب السامية، ولذلك فقد احتلت عبادة الأنثى مكانًا مركزيًا، وكان اعتقادُ العرب عظيمًا في بناتِ الله وهن الملائكة في تصور بعضهم، ولهم تلبيةٌ خاصة ونذورٌ وحرمٌ كما سبق الإشارة إليه، وكانت امتدادًا لأديانٍ أخرى من خارج الجزيرة كما تقدم. وقد أشار الله صراحة في محكم كتابه إلى تلك الآلهة الأنثى بقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، وذكر أنهم: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ۖ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧].

وواقع الحال فقد حافظت فكرة تقديس «بناتُ الله» على نفسها حتى بعدَ ظهورِ الإسلام، مما يكشف حجم الصعوبة والمعاناة التي واجهها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حال دعوته إلى التوحيد ونبذ عبادة غير الله. ويمكن استظهار بعض جوانب ذلك العمق من قول المقدسيَّ: «إنهنَّ نتاجُ مصاهرةِ الله للجنِّ»[٢]، كما - وفي السياق ذاته - أورد ابنُ تيمية آراءَ بعضِ المفسرينَ لأكثرَ مِنْ آيةٍ كريمة،

(١) أبو الوليد محمد الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، (بيروت: دار الأندلس للنشر، ٢٠١٠م) ص٦٦.

(٢) المطهر بن طاهر المقدس، البدء والتاريخ، (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٥م) ج١، ص١٦٩.

ومن أولئك مجاهدًا وقتادةَ الذين فسروا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]، بأنهن الملائكةُ بناتُ الله، مشيرين إلى أن لفظة «الجنة» في الآية مشتقة من اسم جنًا لاجتنانه عن الأنظار، معيدين رواية الكلبي من: أنه تزوّج الجنَّ فخرجَ بينهم الملائكةُ. كما أورد تفسير الثعلبي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، بأن الملائكةَ والأصنامَ هنَّ بناتُ الله[١].

لقد كان جهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الجهاد الأكبر، ولا سيما أنه قد بعث برسالة التوحيد الخالص التي جاءت لتقضي على كل تلك العقائد الفاسدة المترسخة بجذورها في عمق الزمن، وكان فعله وقوله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وهو ما انتصر فيه بعد رحلة طويلة من الصبر والدعوة والاحتمال على مواجهة الأذى حتى تمم الله نورَه، وأظهر دينَه، وكُسرتِ الأصنامُ، وأصاب العربَ نوعٌ من الخزي والإحساسِ بالذنب.

على أن تقديسَ الأنثى بمختلف الأشكال وتعظيم أصنامها سيظلُّ كامنًا في نفوس الناسِ حتى يأتي الوقتُ، ليخرجَ إلى الملأِ مرةً أخرى، حيث ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صحيح مسلم أنه قال: «لا يذهب الليلُ والنهارُ حتى تُعبَدَ اللاتُ والعُزَّى، فقلتُ: يا رسولَ الله، إني كنتُ أظنُّ حين أنزلَ الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، إن ذلك تامًا، قال إنه سيكونُ مِنْ ذلك ما شاء الله، ثم يبعثُ الله ريحًا طيبًا، فتوفي كلَّ مَنْ في قلبه مثقالُ حبةِ خردلٍ من إيمان، فيبقَى مَنْ لا خيرَ فيه، فيرجعونَ إلى دينِ آبائهم»[٢]؛ وروي عن أبي هريرةَ أنه قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تضطربَ

(١) ابن تيمية، مجموعة فتاوى ابن تيمية، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥م) ٢٧/٣٦٣.

(٢) انظر موقع جامع السنة وشروحها. =

آلياتُ نساءِ دوسٍ على ذي الخلَصة» وهو صنمُ دوسٍ الأعظمُ[١]. وفي ما يلي قائمة بأسماء الآلهة وأصنامها المنتمية للنجوم والكواكب:

اسم الصنم أو الآلهة	وصفه
الطارق	هو كوكبُ الصبح، وكلُّ نجم طارقٌ؛ لأن طلوعَه بالليل، وتنسب جميلاتُ العرب إلى هذا الكوكب، وفي ذلك جاء إنشاد هند بنتِ عتبةَ يوم أحد وهي تحض على الحرب: «نحنُ بناتُ طارق، لا نتثني لوامق، نمشي على النمارق، المسكُ في المفارق»، وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا سمع هذا يقول: «اللهُ إني بكَ أحولُ وأصولُ، وفيك أقاتلُ، حسبي اللهُ ونعمَ الوكيلُ». وفيه نزلت سورة باسمه تبتدئ بعد بسم الله الرحمن الرحيم بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ - ٣].
عزيز	مِن آلهة ثمود، ومن آلهة عربِ الجنوب أيضًا، والبعضُ يلحقُه بالإله (عثتر) عندَ الحميريين، وذكر عندَ اليونانيين باسم (عزيزو)، ويُمثِّل الزهرةَ أو كوكبَ الصباح.
عطار	مِن الآلهة الثمودية، وقد عُبِدَ في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وورد ذكره في اللغةِ الثمودية باسم (عطر) أو (عتر)، ويلجؤونَ إليه عندَ المرض، فهو صاحب اللطفِ والحبِّ والراحةِ والعطاءِ.
عطارد	هو النافذُ في الأمور، وعبدَتْه بنو أسد، ويُسَمَّى الكاتبَ.

http://hadithportal.com/index.php?show=hadith&h_id=5305& = uid = 0&sharh=10000&book=31&bab_id=1287

(١) انظر موقع الدرر السنية الموسوعة الحديثية.

https://www.dorar.net/hadith/sharh/25566

اسم الصنم أو الآلهة	وصفه
عم، عُما، عميناس	(عُما) هو صنمُ خولان باليمن، و(عمُّ) إله شعب قتبان، وقُصد به الإلهُ القمري: وهي من الكلماتِ الساميةِ القديمة، وفي نصوص قديمةٍ ذُكِرَ معبدٌ مخصَّصٌ لعبادة الإله، (عم ذ دونم)، ومعبدُ الإله (عم في ريمت) كانت عليه كاهنةٌ، وأثبتَ الكلبيُّ أن (عُميانس) صنمُ خولان، ويقسِمون له من أنعامهم وحرثهم قسمًا بينَهم وبينَ الله، وهم الإله (عم) والإله (آنس)، وحين ورود وفدُ خولانَ على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سألهم ما فعل آنس؟ وله حديثٌ مطول عنه حيث أخبرهم بنزول آية في ذلك وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام ١٣٦]، فما كان منهم إلا أن هدموه بمجرد رجوعِهم إلى اليمن.
عير	صنمُ عبدو بن عمر، وهو من الأصنام التي قيل إنها بشرت بمجيء الرسول، وسماه الرسول (بكر).
غَلَاب	صنمٌ على هيئة امرأةٍ رائعةِ الجمال، ويعود إلى مالك بن نفيع، وله في ذلك قصةٌ طويلة. وارتبطت به أسطورةُ أنه من الهواتف التي ذكرتْ بعثَ النبي.
غُمّ	إله قمري ثمودي، ويعنى الهلالَ المحتجبَ، وكان العربُ قبلَ الإسلام يصومونَ للقمر المحتجب، ويقولون صُمْنا للغُمّى، وبعد الإسلام أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتحري رؤية الهلال حيث قال: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته؛ فإن غمّ عليكم فأكملوا العدة».

اسم الصنم أو الآلهة	وصفه
القمر	عبدتِ العربُ القمرَ، وكان آلهةَ كنانة، وأخذت أصنامُه أسماءً مختلفة منها: (عم، ألمقة، سين، هلال، ود... إلخ)، ورمزُه الثورُ، ويقول ابنُ وحشية: إن أصل الطواف مأخوذٌ من دورةِ الناس حولَ صنم القمرِ سبعَ مرات، يتقربُ به، ويقومُ مقامَ القربان العظيم، والله أعلم.
كَبِر	من الآلهةِ الشمسيةِ عِندَ عربِ الجنوب، لكونه من صفاتِ الشمس في مغيبها، وتوجدُ نصوصٌ من اللغة العربية الجنوبية تعود إلى الملك (أنمار بهأمن) تفيد بأن هذا الإلَه أجابَ دعاءَه.
كهل	إلهٌ يرمزُ إلى القمرِ وهو من آلهة ثمود ومعين، ويرمزُ إلى الأب في الثقافة الثمودية، وعُثر عليه في شمالِ الجزيرة العربية، ويُطلبُ منه الكمالُ والفرحُ والراحةُ والحياةُ.
المرزم	وهو الغيثُ والسحابُ الذي لا ينقطع صوت رعده، وهو من العبادات الكوكبية، حيث عبدَتْه قبائلُ ربيعةَ، وكانت العربُ تستسقي بنوئه، والمرزمانِ نجمانِ من نجوم المطر، أحدُهما في الشّعري، والآخرُ في الذراع يُسمَّى الضميصاءَ.
ألمقة	إلهُ سبأَ العظيمُ: وهو الإلهُ القمرُ، ومعبدُه في صرواح باليمن، ويرمزُ إليه برأس الثور مثل الإله (عم/ عميانس)، وقرينُه دلالةٌ رمزيةٌ لشكل القمر، وقد انتقلتْ عبادةُ (ألمقة) إلى الحبشةِ من السبئيينَ، وكانت له معابدُ كثيرة وأوثانٌ وصورٌ ونذورٌ على شكل ثيرانٍ.
النجم	وهو من العباداتِ الكوكبيةِ، ونزلَتْ فيه سورةُ النجم في القرآن الكريم، وجاء في التفاسير أنه الثُّريا، والنجمُ هو الكوكبُ.

اسم الصنم أو الآلهة	وصفه
نكرح	يرمزُ إلى الشمس: وهو إلهُ الحربِ والبغضِ من آلهة معين. ويدعوه البابليونَ باسم (نكرو) أو (مكرو)، وفي ترتيبِ الآلهة عند المعينيين يكون الإلهُ الأكبرُ (عثتر) يليه (ود) ثم (نكرح)، مع الإشارة إلى أن معنى نكرح في اللغة أي فسد.
ورخ	ويقصدُ به الإلهُ القمرُ من آلهة شعبِ قتبان.
الوضّاح	مِنْ أسماء القمرِ عندَ العرب، ومن نعوت الإله، وكانوا يقولونَ: (ربنا وضاح، ربنا وضاح)، وإليه كما يذكر أنه توجه عبدُ الإله جلسةً بالدعاء عندما خرج صوتٌ من صنعِه يُبشرُهم بمجيء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

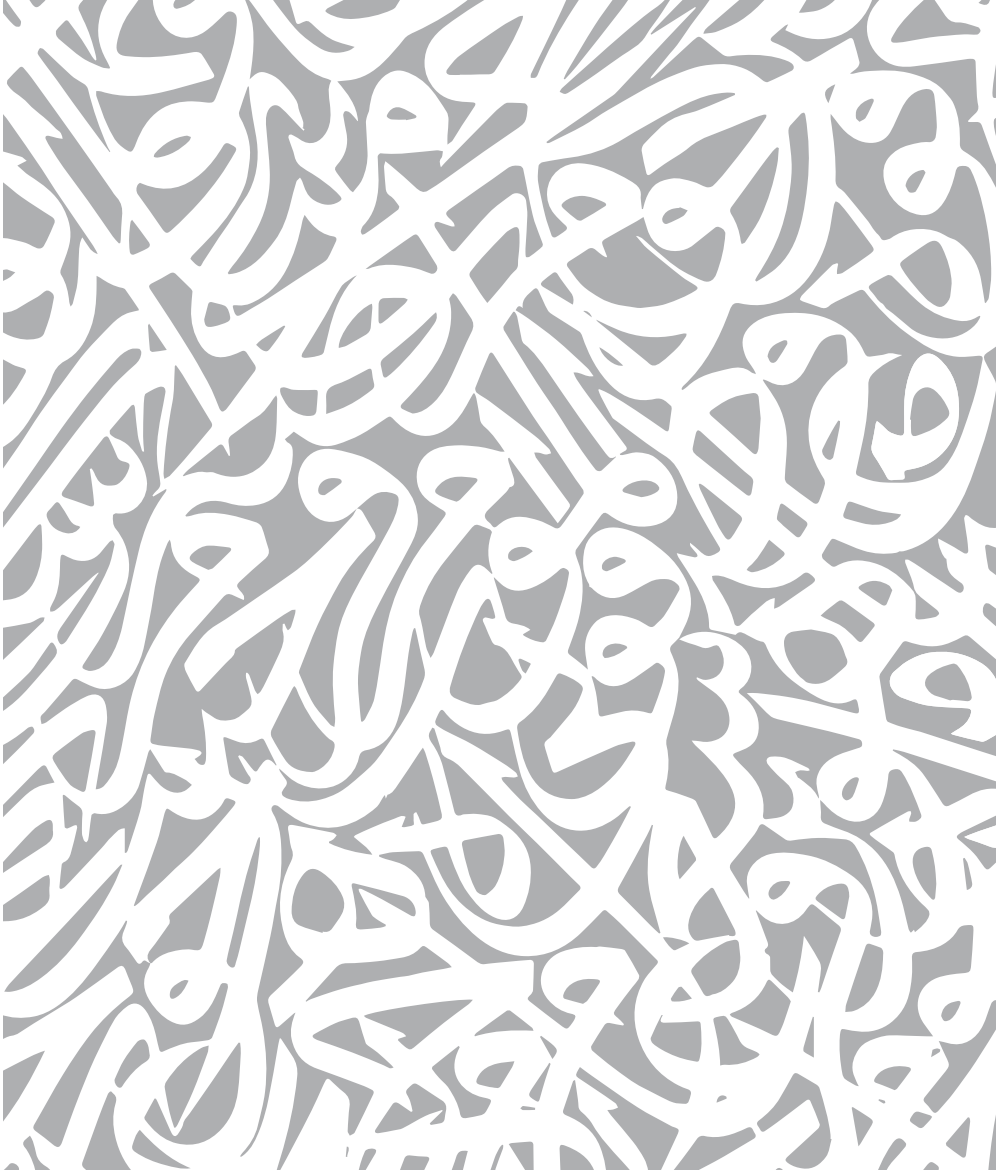

الباب الثالث

حقيقة التصوف ورؤيتهم للأنثى

”الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول وتبعه ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه“

القطب الجنيد البغدادي

■■■

”أعرف الله وكن كيف شئت“

الشاذلي

■■■

”وصرّحْ بإطلاق الجمال ولا تقُل
بتقييـده ميـلًا لزخـرف زينـه
فـكل مليـحٍ حسـنه مـن جمالها
معـار لهـا بل حسـن كل مليحه“

ابن الفارض

إضاءة

- ارتبط مقام أمنا حواء بالمتصوفة ولا سيما في العهد العثماني الذي أولى المقام عناية كبيرة وقام سلاطينه بترميم قبته وأسواره على أسس عقائدية. في هذا الباب نسلط الضوء على التصوف من حيث منشئه وطبيعته ووجوده بالحجاز جملة ومدينة جدة على وجه الخصوص.
- كما يسلط الباب الضوء على مفهوم وقيمة الأنثى في أدبيات المتصوفة وبعدهم الذهني، رغبة في توضيح العلاقة بالمقام المشار إليه، ولهذا يتطرق هذا الباب إلى جوانب من حيثيات التصوف في القرن الثاني الهجري، الذي أضفى صبغة القداسة على الأنثى، وبيان مضامين مقولة الأولياء عرائس الله.
- وفي هذا الباب يتم تسليط الضوء على مكانة مدينة جدة في العرف الصوفي بوصفها مدينة للتطهر الروحي والرؤيا والكشوفات، مع ذكر أبرز الطرق وأشهر التكايا والزوايا والمراقد بها بوجه خاص.

١

منشأ التصوف وفلسفته وتطوره عند المسلمين

مدخل:

عززت حركة التصوف التي تشكَّلَ إطارها في الذهنية الإسلامية مع بدايات القرن الثالث الهجري تقريبًا من قيمة المرأةِ في المجتمع المسلم، وساهمت في حفظِ حقوقِها ووضعها في المكان اللائق بها، حيث أفسحت المجال لها لتتبوأ أعلى المراتبِ في مدارجها الروحية، فكان أن وصل بعضهن إلى مرحلةِ القطبية، وهي درجة عالية في مدارج السالكين وفق رؤية المتصوفة، لتصبح بموقعها بمنزلة رمز لقدس الأقداس، وباتت روحها رمزًا لأعلى درجات التوقير والمحبة، وكيف و«الأولياء عرائس الله» وفق وصف القطب الصوفي الكبير أبي يزيد البسطاميّ. ولذلك تحتلُ المرأة في عالم ابن عربي الدرجات العلى، «فهي تجسيدٌ لكلِّ ما هو إلهيٌّ، بكلِّ ما تحملُ الكلمةُ من عناصرَ موجبةٍ وسالبة»، وقال: «فمن الناس من أجاز إمامة المرأة على الإطلاق بالرجال والنساء وبه أقول»[١].

وكان ارتباط التصوف بمدينة جدة كبيرًا، ولا سيما أنها أحد أهم المدن المرتبطة بفكرة التطهير، باعتبارها بوابة للحرم الشريف؛ وبلغ هذا التوجه ذروتَه خلال العهد العثماني، الذي ترسخ فيه وجود قبر (حواء) بمدينة جدة؛ ولذلك

(١) ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥، المجلد الثاني، صفحة ٨٣.

يقتضي الموضوع الحديث عن الصوفية كمسلك وطريق، للإحاطة بتعقيداتِ أسطورةِ وجود قبر حواءَ بمدينة جدة، مع الإشارة إلى أن هناك مذاهب إسلامية عديدة تقفُ من التصوف موقفًا حادًا وسلبيًا[١].

تعريف التصوف[٢]:

يتفق علماء الأمة بأن ديننا الحنيف قد بني على أصول ثلاثة وهي: الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ؛ وتوافقت الأمة بعدئذ على تسمية العلم الذي يشرحُ أركانَ الإسلام بالفقه، وتسمية العلم الذي يشرح أركان الإيمانِ بالعقيدة، والعلمِ الذي يشرحُ مقامَ الإحسانِ بعلم التصوف، لكونه المسار الذي يسعى من خلاله المؤمن الوصول إلى درجة الإحسان.

وواقع الحال فلا يوجدُ تعريفٌ محدد ودقيق للتصوف، باعتباره حالة وجدانية ذوقية ناتجة عن تجاربَ روحية، على أن من تلك التعريفات ما قاله معروفٌ

(١) تتحفظ السلفيةُ جملة على المتصوفة ويرفضون مبادئهم وأفكارهم، حيث وصف الشيخ ابنِ باز التصوف: "بأنه التعبدُ على طريقةٍ خاصة لم تأت بها الشريعة، ولهذا غلبَ على أهلها البدع"، وقد أنكر الشيخ ابن باز عليهم في كثير من المواقع رافضًا البدعِ التي يأتونَ بها في العبادة، (فتاوى بن باز، المجلدُ التاسع). أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قال: «والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل الطاعة، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي الصنفين من يجتهد ويخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومنهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه»؛ على أن للشيخ أبي حامد الغزالي رأيًا مخالفًا، حيث يقول: «ولقد علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، خاصة وأن سيرهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطُرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق»؛ انظر: عبد الفتاح محمد أحمد، التصوف بين الغزالي وابن تيمية، (المنصورة: دار الوفاء، ٢٠٠٠م) ص٢٠٦.

(٢) أبو العلا عفيفي، التصوف، الثورة الروحية في الإسلام (القاهرة: آفاق للنشر، ٢٠١٨م) ص٣٨ – ٥٠

الكرخي الذي أشار إلى أن التصوف هو: «الأخذُ بالحقائق، واليأسُ مما في أيدي الخلائق». وجاء في وصف المتصوف عند بشر الحافي أنه: «مَنْ صفا قلبُه لله». في حين يشير العطار إلى أن الصوفي هو: «مَنْ إذا نطق كان كلامُه حينَ حالِه، فهو لا ينطقُ بشيء إلا إذا كانَ هو ذلك الشيء». ويرى سَرِيُّ السقطيُّ أن للصوفي ثلاث علامات: «فهو الذي لا يُطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلمُ بباطنٍ في علمٍ ينقضُه عليه ظاهرُ الكتاب والسنة، ولا تحملُه الكراماتُ على هتكِ أستارِ محارمِ الله». وهو ما يؤكده النوريُّ حيث يقول بأن الصوفية هم: «قومٌ صفَتْ قلوبُهم من كدوراتِ البشرية وآفاتِ النفوس، وتحرَّروا مِنْ شهواتِهم، حتى صاروا في الصفِّ الأول، والدرجةِ العليا معَ الحق، فإذا تركوا كلَّ ما سِوى الحقِّ صاروا لا مالِكينَ ولا مملوكينَ». ويصف الحدادُ التصوف بأنه: «كلُّه أدبٌ، لكلِّ وقتٍ أدبٌ، ولكلِّ مقامٍ أدبٌ، ولكلِّ حالٍ أدبٌ فمَنْ لزمَ آدابَ الأوقاتِ بلغَ مبلغَ الرجال، ومن ضيَّعَ الآدابَ فهو بعيدٌ من حيثُ يظنُّ القربَ، ومردودٌ من حيثُ يظنُّ القبولَ».

أما أبو محمد رُوَيم فيذكر أن التصوف قد بُني على ثلاث خصال: «التمسكُ بالفقرِ والافتقارِ، والتحقُّقَ بالبذلِ والإيثار، وتركُ التعرضِ والاختيار». وهو ما يشير إليه أيضًا أبو حمزةَ البغداديُّ في قوله: «علامةُ الصوفيِّ الصادق أن يفتقرَ بعدَ الغنى، ويذلَّ بعد العزةِ، ويُخفيَ بعدَ الشهرةِ، وعلامةُ الصوفيِّ الكاذب أن يستغنيَ بعدَ الفقرِ، ويعزَّ بعدَ الذلِّ، ويشتهرَ بعدَ الخفاءِ».

ويبلغ بعض المتصوفة منتهى الخلوص إلى الله كجلال الدين الروميُّ الذي أنكر انتسابه إلى الأماكنِ أو الأشخاصِ والصورِ، فضلًا عن العقائدِ أو الأنهارِ والبلدانِ، بل نسب نفسه إلى الطريق الخفي الموصل إلى معالم المحبة الإلهية، حيث قال شعرًا[1]:

---

(١) أحمد بهجت، (بحار الحب عند الصوفية)، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٢٠٤.

مجهـولٌ أنـا عنـدَ نفسـي بربـكَ خبِّرْنـي مـا العمـل؟
لا الهـلالُ ولا الصليـبُ معبودي ولا أنـا كافـرٌ ولا يهـودي
ولا في الشرقِ ولا في الغربِ موطني ولا لـي قريبٌ مـن مَلاكٍ ولا جِنِّ
ولا طينتـي مِـنْ تـرابٍ ولا طـل ولا صورتـي مِـنْ مـاء ولا زبـد
ولا بالصيـــنِ ولا بسقســـينَ ولا ببلغـــارَ مولـــدي
ولا بالعراقِ ولا خراسـانَ ولا الهندِ ذاتِ الأنهـار الخمسـةِ منبتـي
ولا طُـرِدتُ من عـدنٍ ولا يزدانَ ولا مِـنْ آدمٍ أخـذتُ نسـبتي
بـل مِـن مَقـامٍ رفيـعِ المقـام وطريـقٍ خفـيِّ المعالـمِ
تجـردتُ عـن بدنـي وروحـي فمِـنْ جديـدٍ أحيـا مـن مجـرى

توضح هذه الأبيات حالة التجرد الكاملة التي يتوق إليها الصوفي الصادق غير الحريص على الارتباط بطينة أو أرض أو أصل أو بلاد، رغبة في معرفة معالم الطريق الخفي الموصل للحب الإلهي الخالد، ميراث أبينا آدم، المرتكز على خاصيتي التفويض والتسليم، وفي حينه يكون بمنزلة الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من خلاله إلى الثريا.

أصل التصوف:

كان الإسلامُ ولم يزل دينًا ربانيًا يخاطبُ مدركات العقل والقلب معًا، ويحث المؤمنين على إعمال التدبرَ، والنظرَ بتأمل في خلق الله واستنباط عظمته، ومع انتشارِ الإسلام في حقبة الراشدين وما بعدها، وابتعاد أتباعه عن حياة الزهد التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم، أخذ التصوف في التشكل بمنطلقاته الأولى، ثم ومع ازدياد حالة التفاعل والتمازج الحضاري بين مختلف المجتمعات المسلمة، ظهرَ التصوفُ باعتباره استبطانًا منظمًا للتجربة الدينية، وبرزت ملامحه في نفوسِ أتباعه. على أن ذلك قد تحقق

وفقًا لثلاث نظريات متنوعة قال بها المختصون وهي:

- التصوفُ تعبيرٌ عن الجوانب الباطنية في الإسلام، باعتبار أن للإسلام ظاهر وباطن، علمًا بأنه لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القول بالتأويلِ الباطنِ للقرآن.
- التصوفُ ردٌّ فعلٍ لعقلِ الجنسِ الآري، ضدَّ دين سام فُرِضَ عليه فرضًا، وهذه النظريةُ تأخذ شكلينِ:

- الصورةُ الهندية: والقائلونَ بها يرونَ أوجهَ الشبهِ بينَ النظرياتِ الصوفية وبينَ (الفيدا).
- الصورةُ الفارسية: والقائلونَ بها يرونَ التصوفَ نتاجَ الثقافةِ والحضارةِ الفارسية.

- التصوفُ نتاجُ الأفلاطونيةِ الحديثة، حيث عكسَتْ أعمال بعضِ أعلام الصوفية، هذه الأفكارُ مثل ذا النون المصري.

يتبين من هذه النظرياتِ الثلاث حولَ أصلِ التصوفِ مدى التعقيدِ والتداخلِ في أصل تكوينه ومنشأه، وبخاصة في البيئاتِ والمجتمعاتِ التي انتقلَ إليها الإسلام، التي كانت متباينةً جغرافيًا وثقافيًا وعقليًا واجتماعيًا. ولهذا سرعان ما تطور التصوف فيها من حالته البدائية القائمة على الزهد، إلى أفكارٍ معقَّدةٍ مثل: وحدةِ الوجود، وفلسفة الحلولِ وغيرِها[1].

مصادر التصوف:

يستند المتصوفة في طرحهم على عدد من المصادر وهي:

- القرآنُ الكريمُ والحديثُ النبوي الشريف: وهما مصدر أساسيٌّ للمتصوفة؛ حيث عمدوا إلى تفسير الآياتِ القرآنيةَ تفسيرًا باطنيًا كما هو الحال مع ابنِ

(١) أبو العلا عفيفي، مرجع سابق، ص ٥٦ – ٦٠.

عَرَبي في كتابه «فصوصِ الحكم»، الذي يخلص في كل فصلٍ من فصوله إلى صورة من صور وحدةِ الوجود، ويعتمدون في ذلك على لغتين: لغةُ الظاهر، التي تفهمُ منطوقَ النصِّ القرآني، ولغةُ الباطن، وهي التأويلُ الصوفيُّ والفلسفيُّ للنصِّ القرآني.

- علمُ الكلام، حيث دخلتْ كثيرٌ من أفكارِ ونظرياتِ الأشاعرةِ والكراميةِ والشيعةِ والإسماعيليةِ الباطنيةِ إلى التصوفِ الفلسفيِّ، حتى إن فكرةَ وحدةِ الوجود، التي هي أخصُّ مظاهرِ التصوفِ الإسلامي، ترجعُ إلى تفكير كلاميٍّ بحت. وحول ذلك فقد سمى الصوفية عقيدةَ التوحيدِ الأصلية باسم «توحيدَ العوام»، في حين أطلقوا على «وحدة الوجود» اسم «توحيدَ الخواص»، وعرَّفَ الجنيدُ الفرقَ بينهما قائلًا: «إنَّ توحيدَ العوام يقوم على إفراد الموحِّدِ بتحقيقِ وحدانيته، أما توحيدُ الخواص فيقوم على فكرة الخروج من ضيقِ الرسوم الزمانية، إلى سعةِ فناءِ السرمدية».
- الأفلاطونيةُ الحديثةُ، وهي نظريةُ الصوفية في المعرفة، التي تستند إلى ترجمة كلمة «غنوص»، كذلك تستند إلى نظرية الكشفِ والشهودِ، التي يعود أصلُها إلى الأفلاطونية الحديثة، وكانتِ الطريقُ الذي تسرَّبَتْ منه مفاهيمُ الكنيسة الشرقية خاصةً في موضوع «الحلول»، وتشبَّعَتْ به الصوفيةُ.
- التصوفُ الهنديُّ، وهو الذي أثَّرَ بشكلٍ رئيس في الأساليبِ والأدوات، وليس في الفكرِ والمضمون، كما استلْهَمَ المتصوفة من التصوفِ الهنديِّ أساليبَ مجاهدةِ النفس، والرياضاتِ الروحية، والشعائر الدينية؛ حتى إن بعضَ علماءِ الصوفية سكنُوا في مدن التصوفِ البوذي.
- كما أثرت المسيحيةُ على الصوفيةِ في أكثرَ مِنْ مجال، وكان للسيدةِ مريمَ بنتِ عمرانَ مكانٌ مَركزيٌّ في الفكرِ الصوفيِّ، كما تأثر المتصوفة بفكرة الرهبنةُ المسيحيةُ وأساليبُها، باعتبارها سلوك يساعد على تعزيز مفهوم الزهدِ.

كما تسرَّبَتْ أفكارُ الحلولِ من المسيحية، وقال بها الحلاجُ في شعره[١][٢].

مفهوم التصوف:

ينطلق المتصوفة في أفكارهم من منهجين، حيث يرتكز المنهج الأول على مفهوم علمَ الشريعةِ وهو علمُ ظاهرِ الشرع، الذي يدرسُ الأعمالَ التي تجري على الجوارح، كالعباداتُ والصلاةِ والصوم والحجِّ والمعاملات مثل: الحدودِ والزواجِ، وهو علمُ الفقهاءِ وأهلِ الفتيا. أما المنهج الآخر فيقوم على المفاهيم غير الظاهرةَ في النص الديني، الذي يكنى عنه بالباطن، أو أعمال القلوب، ويطلق على هذا المنهج اسم «الحقيقة» أو «أهل الرسوم».

وعليه فالمتصوفة لم يشاركوا الفقهاءَ في نظرتهم إلى الدين، ولم يتفقوا معَ عامةِ المسلمين في نظرتهم إلى الدنيا، واختلفوا معَ أهلِ الفلسفة في نظرتهم إلى العالمِ والإنسانِ، لهذا كان التصوفُ الإسلاميُّ دعوةً للخروج على ما تقدَّمَ، وإعلانٍ عن الجانبِ الروحيِّ للإسلام[٣]. وبالتالي آمن المتصوفة بأنّ القلب وليس العقل هو مركز المحبةِ والإدراكِ الوجدانيِّ والذوقيِّ في الإنسان، وفي هذا يقول ابنُ عَرَبي[٤]:

لقد كنتُ قبلَ اليومِ أُنكرُ صاحبي ... إذا لـم يكنْ ديني إلـى دينه داني
لقد صـارَ قلبي قابـلًا كلَّ صورةٍ ... فمرعًـى لغـزلانٍ وديـنٌ لرهبـانِ
وبيـتٌ لأوثـانٍ، وكعبـةُ طائـفٍ ... وألـواحُ تـوراةٍ، ومصحفُ قرآنِ
أَديـنُ بديـنِ الحقِّ أنـي توجهَتْ ... ركائبُـه، فالحـبُّ دينـي وإيماني

(١) شبكة وموسوعة الصوفي. https://alsufi.net .

(٢) عبد الفتاح محمد أحمد، (التصوف بين الغزالي وابن تيمية)، المنصورة، دار الوفاء، ٢٠٠٠م، ص ٢١ – ٣٠.

(٣) عفيفي، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٤) محيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، (القاهرة: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م).

على أن التصوف صار فكرًا وتأملًا، قلبًا وعقلًا ورياضة نفسية، مع ابتداء القرنِ الثالث الهجري، حيث اتجه المتصوفة إلى تعميق فكرة الفناء في الله، ومحوِ الوجودِ المحدود المجازي في الوجودِ المطلق الحقيقيِّ، ومِنْ هنا نشأَ القولُ بوحدةِ الوجود، فلم يَرَ الصوفيُّ إلا موجودًا واحدًا هو اللهُ، وما سواه عدمٌ، وهذه الحالةُ الوجدانيةُ كما يقول الشقيري: «تحملُ العبدَ على تعظيم الله، وإيثارِ رضاه، وقلةِ الصبر عنه والاحتياجِ إليه، وعدمِ القرار من دونه، ووجوبِ الاستئناس بدوام ذكره»[١].

وكما هو معلوم فقد اعتمد المتصوفة لأنفسهم طرقًا تؤدي بهم إلى كمال الحياةِ الروحية التي يأملون وصولها، وعادة ما تكون تحتَ إشراف شيخٍ يعرف بشيخ الطريقة، وهؤلاءِ الأفراد الذين يسيرونَ في دربِ (المعراج) أو (السفر) هم الذين يرتقونَ في المقاماتِ، ويرتفعون من منزلة إلى منزلة، وهذا المعراجُ الروحيُّ هو نتاجُ أعمالِ المجاهدةِ، والرياضةِ الروحية، وتطهيرِ النفس والارتفاعِ بها في المقامات[٢].

وتختلف درجات المقامات وعددُها من فرقة إلى أخرى؛ لكنها تبدأ بمقام التوبةِ، ثم الذي يليه، والذي يليه، حتى مقامِ المشاهدة، ولا يمكن القفز من مقامٍ إلى مقامٍ إلا بعدَ استيفاءِ أركانِ المقام السابق.

وأخذ المتصوفة فكرةُ المعراجِ من أفلاطون؛ فالنفسُ عندَهم كائنٌ غريب عن هذا العالم، هبطتْ من العالم العلوي، وحلَّت ضيفًا على البدن، ولكنَّ النفسَ ومنذُ هبوطِها إلى هذا العالم، تحنُّ إلى الخلاصِ من قيودها، واللحاقِ بعالمها الخاصِّ، حيثُ النورُ الإلهيُّ الذي يُضيء جوانبَها.

ووصف ابنُ عربي المعراجَ الروحيَّ في الفتوحات المكية تحت عنوان «كيمياء السعادة»، وفيها يتصورُ المعراجَ رمزًا لحياة النفس في هذا العالم، الذي وضعَه اللهُ

(١) عبد الوهاب عزام، التصوف وفريد الدين العطار، (القاهرة: مركز المحروسة، ٢٠١٧م) ص ٥٦.

(٢) عفيفي، مرجع سابق، ص ١١٧ وما بعدها.

فيه، لكي تحصِّلَ كمالاتِها، وتحظى في النهاية بمقصودِها الأعظم، وهو شهودُ الله، ووصفَها أنها عمليةُ تحويلِ عناصرِ النفس البشرية، إلى الأكسيدِ الروحيِّ الخالصِ، وهي أشبهَ بالتحولِ في علم الكيمياء، عندما تتحولُ العناصرُ الحيةُ إلى الذهبِ. وبالتالي فالطريقُ الذي يسلكونَ فيه إلى الله يتشعب إلى طريقينِ، هو طريقُ العروجِ من عالم الظاهرِ إلى عالم الحقيقةِ، أو أنه طريقُ تحوُّلٍ باطني، وتهيئةٌ للنفس يمكنُها من الاتصال بمحبوبها الأعظم(١).

وللحياة الصوفية جانبانِ يكمِّلُ أحدُهما الآخرَ؛ الأولُ هو المجاهدةُ، المؤدي إلى الجانب الثاني وهو الكشفُ والإشراقُ أو الارتفاعُ في المقام. والزهد أساسُ المجاهدة، ويُروَى عن الإمام أحمدَ بنِ حنبل قولٌ في الزهد: «تركُ الحرام هو زهدُ العوام، وتركُ الفضول من الحلال هو زهدُ الخواص، وترك ما يُشغِلُ العبدَ عن الله تعالى هو زهدُ العارفين».

وعليه فالمجاهدةُ هي الجانبُ العملي للأعمالُ الدينية الموجهة ضدَّ النفس وهواها، واعتبارُ النفس هي العدوُّ الأول الذي تجب محاربتُه، ومواجهةُ شرورِها من المعاصي وسوءِ الأخلاق، ولمواجهة ذلك يجب الالتزام بالعبادات من صوم وصلاة وذكر ودعاء، مع الاعتقاد بأنَّ العبادةَ لا تكون مخلصةً إلا إذا تحقَّقَ فيها معنى المجاهدةِ، فتوافرتْ فيها عناصرُها من مخالفةِ هوى النفس والإقبالِ على الله، وهذه المجاهدةُ تؤدي إلى تطهيرِ النفس، وكانت تمارسُ هذه الأمورُ في جُدةَ قبلَ الصعود إلى مكةَ، وتأتي البشارةُ من خلال الرؤيا أو الحلم والكشوف(٢).

---

(١) الفتوحات المكية، (مرجع سابق)، مجلد ٢، صفحة ٣٥٦ – ٣٥٧.

(٢) رؤيا الأنبياء جزءٌ من الوحي، وهو ما حدثَ مع الأنبياءِ إبراهيمَ ويوسفَ ومحمد عليهم صلوات الله، وقد ورد في السيرة النبوية أن أول ابتداء الوحي كان بالرؤيا الصالحة في المنام، فكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يَرى رؤيا إلا جاءتْ مثلَ فلَقِ الصبح، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «لم يبقَ من النبوةِ إلا المبشراتُ، قالوا: وما المبشراتُ؟ قال الرؤيةُ الصالحة». على أن أحاديثُ الرؤيا قد أصبحت المستندَ لكل من يبحثُ عن تبرير أو تشريع لأفكاره، حيث يقول أحدُ المشاركين في الهجوم =

أدب المتصوفة:

أنشأ الصوفيةُ أدبًا منثورًا وشعرًا منظومًا، ليُعبِّروا به عن فلسفتهم وطريقة مناجاتهم، وما يشعرونَ به من الوَجدِ والعشق، وما يلوحُ لهم في سلوكهم من جَذَباتٍ روحية، كما ضمنوه أخلاقًا وآدابًا تتصل بهذه الأمور؛ وقد برز منهم العديد من الشعراء والكتاب، إيمانًا منهم بأهمية تأكيد الوعي الإنساني، وإثراء تجاربه، وإضافة الجمال إلى الحياة، والبحثُ عن الحقيقة.

ولم يقتصر الشعرُ والأدب الصوفي على اللغة العربية وحسب، بل ظهر نجمه في الأدبُ الفارسي، والأدبُ التركي، والأدبُ الأردي. ويتفق المؤرخون على أن الشعرَ الفارسي قد بلغَ درجة عاليةً في إدراك المعاني الظاهرةِ والخفيةِ، ولم يصلْ إلى ما وصل إليه شعراءُ أي لغةٍ أخرى، ولذلك فقد حرصَ شعراءُ اللغة التركية على تقليد الشعر الفارسي، وإلى يومنا هذا يُعتبرُ الشعرُ الفارسيُّ هو المرجعَ.

وحظي مفهوم الحبُّ الإلهي بمكانة مركزية لديهم، حيث يرون أن العالمَ ما هو إلا انعكاس للجمال الإلهي، الذي يتحلّى بالحبُّ الإلهيُّ، وهو ما تجلى في محكم التنزيل وفق استنادهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ

= على الحرم المكي مع جهيمان العتيبي عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م: «عرفتُ الجماعةَ السلفية المحتسبة – وهو الاسم الذي أطلق على جماعةِ جهيمان – وهي تمجدُ الرؤيا، وترفعُ من شأنها، حتى انتشر بينهم مؤولو الأحلام، وكانت الرؤيا تحظَى من جلساتهم العلمية بنصيب وافر، ولا أذكر أنني جلستُ مع جهيمان في سَفر أو حضر إلا ويسأل عن تأويل حلم. وكان جراء ذلك أن قامت الجماعةُ بالدمج بينَ الأحلام وأحاديث الفتن وأشراط الساعة، بحيث أصبحوا يستعينونَ في تطبيقها على الواقع ومجرياته. والمضحكُ المبكي أنه بعدَ القضاء على حركتهم، كانوا يسألونَ عن مدى تحقق أحلامِ بعضِهم حول الخسف بالجيش، والذي كانوا مؤمنين بحدوثه بناءً على الرؤيا». انظر: ناصر الحزيمي، أيام مع جهيمان: كنت مع الجماعة السلفية المحتسبة، ط٢، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠١١م) ص١٢٣ – ١٣٠.

يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وما نص عليه الحديثُ القدسيُّ بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزالُ عبدي يتقربُ إليّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصَره الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورجلَه التي يَمشي عليها...». وفي ذلك يقولُ ذا النون المصري شعرًا[1]:

أموتُ وما ماتَتْ إليكَ صبابتي ... ولا قُضِيَتْ مِنْ صدقِ حبكَ أوطاري
مُنايَ كلُّ المنى أنتَ لي منىً ... وأنتَ الغنى كلُّ الغنى عن اقتاري
وأنتَ مَدى سؤالي وغايةُ رغبتي ... وموضعُ آمالي ومكنون أصحاري
تحمَّلَ قلبي فيكَ ما لا أبثُّه ... وإن طالَ سُقمي فيكَ أو طال أضراري
وبينَ ضلوعي منك مالك قد بدأ ... ولم يبدأ بادية لأهل ولا جار
وبي منكَ في الأحشاء داءٌ مخامرٌ ... فقد هدَّمني الركنَ وانبثَّ إسراري
أنرتَ الهدى للمهتدينَ ولم يكنْ ... منَ النورِ في أيديهمُ عشرُ معشارِ
فنلني بعفوٍ منكَ أحيا بقربه ... أَغِثْني بيسرٍ منك يطردُ إِعساري

مكانة المرأة في التصوف:

التصوف حالةٌ وجدانيةٌ عالية، ولينٌ ورقَّةُ قلب ممزوجةٌ بالشفافية، وكانت الأنثى ولم تزل هي سيدةُ هذه الصفاتِ في نظر المتصوفة، ولذلك عدَّ ابن عَرَبي المرأة بأنها كل ما هو إلهي، بكل ما تحملُه الكلمةُ من عناصرَ موجبةٍ وسالبةٍ، حيث يقول:

(١) شبكة وموسوعة الصوفي: www.alsufi.net .

إنّــا إنــاثٌ لمــا فينــا بولــدُه فلنحمدِ الله ما في الكون مِنْ رجلِ
إنَّ الرجالَ الذيـن العرفُ عيّنَهم هم الإناثُ وهم نفسي وهم أملي

ويهتم المتصوفة بالروح أكثر من الجسد، وهو ما يؤكده العطار: «من أن مصطلحَيْ رجلٍ وامرأةٍ مرتبطانِ بهيئة طينية، إلا أن الروحَ غيرُ متعلقة بأي من هذه الأشكال، فعندما يصبحُ الرجلُ والمرأةُ في الله كاسيًا، فلا يوجدُ أثرٌ لوجودهم». بل إن ابنَ عَرَبي في فتوحاتِه المكية قال: «إن كلَّ ما نشيرُ إليه تحت مسمَّى رجالٍ تندرجُ تحته نساءٌ؛ لأن المرأةَ ممكنٌ أن تكون معلمةً ومرشدةً للطريق الصوفي».

ويؤكد ابنُ عربي أن النساءَ والرجالَ يشتركانِ في جميع مراتب الولاية، حتى المرتبةِ القطبيةِ التي هي أعلى منزلةٍ روحيةٍ، ولا تكونُ إلا لشخصٍ واحدٍ في الزمان. فإذا كان القطبُ امرأةً تكون سيدةَ الزمان، وخليفةَ الله في أرضه، ونائبةَ سيدِ المرسلين على أمته، وعليها مدارُ العالم، وتعطي التحكُّمَ في العالم، وعلى الناس مبايعتُها على السمع والطاعة.

هذه المنزلةُ الرفيعة للمرأة، ليست إذا وصلتْ مرحلةَ القطبية، ولكنَّها في كل صميم طرقِ المتصوفة، حيث يصفها الرومي بقوله: «فهي قبسٌ من نور الله، وليستْ بقميصٍ أو جلبة خارجية، فهي خلَّاقةٌ أقربُ ما تكون إلى الغير مخلوقة»، ويقول ابنُ عربي: «ليس في العالم المخلوق أعظمُ قوةً من المرأة»، بل لا قيمة للمكان لديه إذا لم يؤنث وفق قوله. وهو ما يُفسِّر تصرفُ ابنِ عربي عندما منحَ الخرقةَ أو زيَّ الطريقة، وهي العلامةُ على الطريق الروحي إلى أربعَ عشرةَ سيدةً من أصل خمسةَ عشرَ شخصًا كانوا من مريديه[1]. وقد عرف الحجاز ظاهرة تولي المرأة لأعلى مراتب التصوف وهي مرتبة القطبية؛ حيث ظهرت فاطمة بنت حمد الفضيلي الزبيدية (توفيت ١٢٤٧هـ)، وتتبع الطريقة النقشبندية والقادرية وكان لها أوراد وأحزاب، وأقامت في مكة المكرمة فتردد عليها أغلب علماء مكة وسمعوا

(١) آنا ماري شمل، روحي أنثى، مرجع سابق، جمعتها في الصفحات ١٦١ – ١٩٠.

منها وأجازتهم ولها مشرب في التصوف، وكانت من أهل العراق[١].

تجدر الإشارة إلى أن السيدة مريم بنتَ عمرانَ وابنها نبيّ الله عيسى بن مريم، قد أخذا مكانًا ساميًا في المفاهيم الصوفية، وانتقلتِ الرواياتُ عن حياة السيدة مريم وآلامها، عن طريقِ أحاديثِ وهبِ بن منبه باعتباره محدثًا عن روايات العهد الجديد، وفي مرحلةٍ لاحقةٍ اتصلتِ الحركةُ الصوفية بالكنيسة الشرقية، وتأثرتْ بالعديد من المفاهيمِ والنظرياتِ، والقصصِ المسيحية التي اندمجتْ في الفكر الصوفي. وأصبحت السيدةُ مريمُ رمزًا للروح الإنسانية، حيث يقول الباقلي: «مَنْ له أن يتأملَ في خلوة المحتجبِ له أن يحمل مثلَ مريمَ من الروحِ القدسِ بعيسى».

وكان عيسى بنُ مريم منذُ ابتداء التصوف مثالًا أعلى في التقشُّفِ والزهد والفناء في الله، وأقصى مرادِ الباحثِ المتصوف أن يصلَ في آخر الطريق إلى (حالِ عيسى) بعد أن يجتازَ ثمانيَ وعشرينَ مرحلةً ترمزُ إلى الأنبياءِ المذكورينَ في القرآن، وعندما يصلُ إلى مرحلة عيسى يكون قد بلغ مرحلة الفناء في الله. ومن هنا يمكن القول بأن التداخل بين الصوفيةِ والمسيحيةِ في هذا الجانب كان كبيرًا وواسعًا، وبالتالي فقد أخذتِ الحركةُ الصوفيةُ من آداب الكنيسةِ الشرقية وأساطيرها الشيءَ الكثير.

قيمة الرمزية في التصوف:

انقسم المتصوفة الكبار بين فئتين، فئة التزمَتِ الصمتَ، وأخرى نطقتْ بالرمزِ للتعبير عن الحب الإلهي، الذي يختلفُ في طبيعته عن أيِّ حبٍّ آخرَ، والرمزُ يكون موجهًا للعاطفة والقلب. وهناك عدةُ تفسيراتٍ لأسباب اللجوء إلى الرمز؛ منها أن الرموزَ تُخفي عقائدَ باطنية، لو صرَّحوا بها لأَخرَجهم الناس من الملة، أو أن هذه الرمزيةَ للحفاظِ على أسرارهم لأنفسهم، باعتبار أن التجاربَ الصوفيةَ إحساسٌ فني عالٍ، وبالتالي فالرمز يساعد على إيصال هذا التعبيرَ الفني لا الإفصاح عنه.

(١) البداح، حركة التصوف في الخليج العربي، مرجع سابق، ص ١٠٣.

أشير إلى أن هناك ثلاثة نماذجَ للرمزيةِ الصوفية، واحدةٌ للكعبة، والثانيةُ للبرقِ وتكوينِ البحار، والثالثةُ للذاتِ الإلهية، وكلُّها تَستخدِمُ الأنثى في الرمز. وهو ما يدل على تكريس تقديس الأنثى من جهة، وامتدادًا للفكر القائم على إعطاء الصفة الأنثوية للأمر ذي الطبيعة الرفيعة المقام.

أمّا رمزية الكعبة بالأنثى فيذكر الشاعر عبد الرحمن جامي أن مجنون ليلى وحين اقتربَ من الكعبةِ حاجًا أخذ يناجيها قائلًا: «آه يا مَنْ تجلسينَ في أغاني العرس متغنجة، يا من تزيحينَ الستائرَ عن السر، قد جلستِ في صحبة العرب، وأفنيتِ تجارةَ الفرس، وأدار العربُ والفرسُ وجوهَهم لك، وأثملَهم الشوقُ إليك». ويفسر ابنُ الفارض ميلادَ البحار من البرق رمزيًا، فهو يَرى أن البرق يمثل وجهَ الحبيبة، وهي وجهُ الحقيقة فيقول:

— أبـرقٌ بـدا مِـن جانب الغـور لامعُ؟ أم ارتفعـتْ عن وجه ليلـى البراقعُ؟
أنارُالغضاضاءتْوسلمَىبذيالفضا؟ أم ابتسـمتْ عمـا حكتْـه المدامعُ[١] —

ويقول الراغبُ الأصفهاني في الحب الإلهي:

— أسـميكِ لُبنـى فـي نسـيبيَ تـارةً وآونـةً سُـعدَى وآونـةً ليلَـى
حـذارِ مـن الواشـينَ أن يفطِنوا بنا وإلا فمَن لُبنى فُديتِ ومَن ليلَى؟[٢] —

الرأي الآخر في التصوف:

كلُّ ما ذكرناه عن التصوف وأشعارهم وأفكارهم وأساليبهم، مأخوذ من كتب المتصوفةِ أنفسِهم؛ ولا بدَّ من الإيضاح أن ليس كلُّ المسلمين، ولا كلُّ أهلِ السُّنة والجماعة، الذين ينتمي لهم المتصوفة في أساسهم هم في وفاقٍ معهم؛ لأنَ هناك

(١) محمد مصطفى حلمي، (ابن الفارض والحب الإلهي)، دار المعارف، القاهرة.
(٢) الأصفهاني، الحسين بن محمد المفضل (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء)، ١ – ٤، ج٣، صفحة ١١٧، دار الأرقم للطباعة والنشر، ١٩٩٩، بيروت.

مَنْ زلَّتْ به القدم، واتخذ لنفسِه تفسيرًا ضيقًا يتناسبُ مع هواه، ويمكن تصنيفُ هؤلاء الذين زلت أقدامُهم إلى ثلاث فئاتٍ[١]:

- الفئةُ الأولى: ترفع التكليفَ عن العبد، من عبادات وصلاة وصوم، على اعتبار أن العبدَ قد وصل إلى الحقيقة، وهي الهدفُ والمعنى الحقيقي للعبادات، وطالما تحققت بالوصول إلى مقام القربِ من الله تعالى، وبالتالي لا لزومَ لهذه الوسائل لأن الغايةَ تحققت.
- الفئةُ الثانية: ينظرونَ إلى العبادات بشكل رمزي، وأنَّه يوجدُ لكل عبادة معنى باطني، أما ظاهرُ العبادات فليس لها أهميةٌ كبرى، المهمُّ الرمزُ. ومثالُ ذلك تأويلُ ركن الإسلام الحج إلى بيت الله؛ حيث يتمُّ تأويلُه باعتبار أن التصوف سفرٌ إلى الله، والحج سفرٌ إلى بيت الله، وكلُّ عمل من أعمال الحج الظاهرة، يوازيه عملٌ من أعمال القلب، وبالتالي الحجُ سفرٌ روحيٌ وليس سفرًا بدنيًا. وهذا الإغراقُ في الرمزية يجعلُ المتصوفةَ يتلاقون مع الباطنية الإسماعيلية في كثير من وجوهها.
- الفئةُ الثالثة: يتعمدونَ أن يُظهروا للناس أنهم على غير الملة، ويعملونَ كلَّ عمل منافٍ لظاهر الشرع استجلابًا للملامة، لاعتقادِهم أن علاقتَهم بالله يجب أن تكون سريةً، وإذا شاهد الآخرون هذه العباداتِ، فإنها مبطلةٌ لها ويُسَمُّونَ أنفسهم باسم «الملاماتية».

وقد تصدّى كثيرٌ من العلماء المسلمين، ومن علماءِ الصوفية أنفسهم وأهل الفقه، لهذه الفئاتِ وغيرِها؛ لأن الدينَ والشرعَ لم يأتِ إلا بأحكام الظاهر، ولم يضعْ حدودًا لأحكام الباطن، وبالتالي فإن الاحتكام يكون بالظاهر[٢].

(١) ضوابط التصوف السني، دار الإفتاء المصرية، رقم الفتوى ٢٧١٤، التاريخ ٢٠١٤/٥/٩.
(٢) التصوف وعلماء الأزهر بين التأييد والتنوير، موقع وموسوعة الصوفي ٢٠٢٠م.
https//:alsufi.net.

كما وفي إطار آخر فعلى مرِّ السنين، لم يسلمِ التصوف من المنتفعين، الذين بالغوا في ادعاءات البركة والكرامات، ونسجَ حولهم الطلابُ والمريدون الحكايات الخرافيةَ والأساطيرَ، وقد قامت بعضُ الدول مثلُ الدولة العثمانية، باستغلالِ الحركاتِ الصوفية لأغراض سياسية تتعلق بالحكم.

٢

حكاية التصوف بمدينة جدة

أعطت الصوفية الحقة مدينة جدة تألقها وتميزها الروحي، فكانت مركزًا رئيسًا للطرق الصوفية والتكايا على مر السنين، وقد وصل التصوف أوجه في مدينة جدة خلال فترة الحكم العثماني، الذين استعانوا بذلك على تثبيت جنبات حكمهم، وقدموا لهم أكبر الامتيازات لدرجة أنهم أعفوهم من الالتزام بالتسلسلِ الهرميِّ للمخاطباتِ في الدولة العثمانية، أو مخاطبةِ مجلسِ شورَى الدولة مباشرةً، وفق ما تشير إليه الوثائق المرفقة في ملاحق هذا الكتاب[١].

وقد ربط الإمامُ أبو حامد الغزالي بينَ التصوف ومدينة جُدةَ في أهم مؤلفاته وهو كتابه «إحياء علوم الدين» حيث ذكر: «أن بعضَ الأولياء كوشف فرأى جميعَ الثغور تسجدُ لعبادانَ، وعبادانُ تسجد لجدةَ»، والمكاشفةُ من الإلهام الصوفي. وفي موقعٍ آخرَ من الكتاب يوردُ قصةً عن طاهر الهمداني مختصرها أنه قال: «كنتُ معتكفًا في جامع جُدةَ، فرأيتُ طائفةً يقولون الشعر، وينشدونَه في جانب منه ويستمعونَه؛ فأنكرتُ ذلك عليهم بقلبي، وقلت: في بيتٍ من بيوت الله يقولونَ الشعرَ، قال: فرأيتُ النبيَّ وهو جالس في تلك الناحية، وإلى جانبه أبو بكر يقولُ شيئًا من القول، والنبيُّ يُصغي إليه ويضعُ يدَه على صدره كالواجدِ بذلك، فقلتُ في نفسي: ما كان ينبغي لي أن أُنكرَ على أولئك الذين كانوا يستمعونَ، وهذا

(١) هذه الوثائق من الأرشيف العثماني مترجمة مصورة.

رسولُ الله يسمع، وأبو بكر يقول، فالتفتَ إليَّ النبي وقال: هذا حقٌّ بحق، أو قال حقٌّ في حق»[١].

يُذكر أن أهل الاعتكافِ والتطهرِ الروحيِّ قد وَجَدوا في مدينةِ جدةَ مكانًا مناسبًا لاعتكافهم وتطهرهم، فجعلوا من المدينة محطةً لإعدادِهم الروحي، وتهيئةِ النفس قبلَ دخولِ مكةَ والصلاةِ في مسجدها الحرام وأداءِ الشعائر؛ لكون مدينة جدة أولَ محطةٍ يصلُ إليها الزائرُ من البحر، وهي بوابة الحرم الشريف منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد ذكر القائدُ البرتغالي ألبوكيرك في كتابه إلى ملك البرتغال في القرن السادس عشرَ الميلادي حال حملته العسكرية على المدينة بأن سكانَ مدينة جُدةَ من الدراويش.

وعليه يمكن القول بأن مدينة جدة قد اشتهرت عبر حقبها التاريخية السالفة بانتشار المتصوفة بين أرجائها الذين تكثف وجودهم مع حكم الدولة الفاطمية للمدينة، لكن عصرهم الذهبي تزامن مع حكم الدولة العثمانية، حيثُ وُجدَ بالحجاز أكثر من مائة زاويةٍ وتكيةٍ وخانكة، لتأديةِ الصلاةِ والاعتكافِ بها، وارتبطتْ شؤونُ المتصوفة وطرقهم بأعلى مستوياتِ السلطة في الدولةِ العثمانية، بل وحظي المتصوفة بدعم كبير من قبل السلطان العثماني ذاته في عديد من الحقب.

أبرز الطرق الصوفية:

يشير في هذا الإطار البروفيسور وليام أوكسنولد إلى نمو طريقتينِ صوفيتينِ متميزتينِ انبثقتا محليًا، واجتذَبتا أبناء الحجاز؛ تمثلت الأولى في الطريقة الميرغنية، وتُعرف أيضًا بالختمية، التي أسسها محمد المحجوب بن عثمان

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط١، (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥م)، ج ٢، ص ٢٦٧.

الميرغني المولود بمدينة الطائف، والذي انتشرت طريقته في مصرَ والسودانِ إضافة إلى الحجاز؛ في حين تمثلت الثانية في الطريقة الإدريسية السنوسية، التي انطلقتْ من مكةَ إلى مختلف الآفاق في شمال أفريقيا[١].

ويؤكد ذلك ما ورد في الموسوعةِ الإسلامية الصادرة عن جمعية الديانة التركية، حيث ذكرت أن الطريقة الميرغنيةَ الختمية قد أسست أولَ زاويةٍ لها بمكةَ المكرمةِ ثم المدينة المنورة ثم مدينة جدةَ، واهتمتْ بالإرشادِ، ولاقتْ رواجًا كبيرًا، لأجل ذلك قام الشيخ محمد عثمان بإرسال ولده محمد سر الختم إلى اليمن وحضرموت، وولدِه الآخر محمد حسن إلى السودان، واستخدمَ الابنين في إرشادهم مؤلفات وأذكارَ مؤسسِ الجماعة. ثم ومع انتشارِها في الحجاز وشمالِ السودان، تفرقتْ الطريقة بين شيوخٍ محليينَ في مصرَ وأرتيريا واليمنِ والصومال[٢].

على أن الطرق لم تتوقف عند ما سبق، حيث عرف الحجاز وجودًا لغيرها من الطرق، ومن ذلك ما أوردته الموسوعة الإسلامية لجمعية الديانة التركية من حضور مفصل للطريقة البيومية، التي تُنسبُ إلى المتصوّف المصري علي بن حجازي البيومي، والذي قام بزيارات متكررة إلى مدنِ الحجاز، وسعى إلى انتشار طريقته في أرجائها، فكان أن وجدت قبولًا، وانتشر خلفاؤُها في الحجاز واليمنِ وإيران ونهري الفراتِ والسندِ حتى شواطئِ المحيط الهندي، وبلغ عدد تكاياها في مكةَ المكرمة ثماني تكايا، وفي جدةَ ستُّ تكايا، إضافة إلى عدد آخر في المدينة المنورة والطائف، وقد اشتهرت تلك التكايا بتقديمها للخدماتِ الصحيةِ في حينه[٣].

جدير بالذكر فقد كانت الطريقة الرفاعية من أكثر الطرق عددًا واتباعًا، وأغناها موردًا وأوقافًا، فضلًا عما تحصل عليه من دعم مالي من العاصمة العثمانية

(١) ويليام أوكسنولد، الحجاز تحت الحكم العثماني، ترجمة: عبد الرحمن العرابي، (جدة: مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، ٢٠١٦م) ص ٥٥ – ٥٧.

(٢) الموسوعة الإسلامية التركية، ج ٦، ص ٩٩. من الوثائق المترجمة من الأرشيف العثماني.

(٣) وثائق مترجمة من الموسوعة في الأرشيف العثماني في ملاحق الكتاب.

إسطنبول، ولذلك فقد انتشرت تكاياها في مدنِ الحجاز الرئيسة مكةَ المكرمة وجدةَ والمدينة المنورة.

كما انتشرت في أروقة الحجاز الطريقةُ القادرية التي أسسها عبدُ الكريم باثنين، وكانت لها زوايا متعددة في مكةَ المكرمة وجدةَ والمدينةِ المنورة.

وكذلك الطريقةُ النقشبندية ولا سيما بين الهنود والأتراك، وتعودُ إلى محمد بهاء الدين نقشبند، الذي جعل للنفس سبعَ مراتبَ، يرتفعُ الفردُ فيها حسبَ المجاهدةِ الروحية من مرتبةٍ إلى مرتبة، ومِن أشهر مَن سكنَ الحجاز من شيوخها إبراهيم بن أدهم، الذي مهر في الصناعة، وأشرفَ على ترميم الكعبةِ المشرفة، وقد ساهمتْ هذه الطريقةُ في جمع تبرعاتِ إنشاء سكةِ حديدِ الحجاز، لما كان لها من دور سياسي بارز في وقته.

ومن الطرق أيضًا الطريقةُ الخلوتية التي ابتدأت في القرن العاشر الهجري، وتُنسبُ إلى محمد بن أحمد الخلوتي، نسبةً إلى تعبدِه في الخلوة، وقد انتشرت طريقته في مصرَ والجزائرِ وفلسطينَ وتركيا، كما كان لها وجود في مدنِ الحجاز كلِّها، حيث بلغ أتباعُها في الحجاز قرابة ١٨٠٠ شخص كما وثق ذلك أوكسنولد، وكانت لها مدارسُ وزَوايا وتَكايا في كل مدنِ الحجاز بما في ذلك مدينة جُدةَ، وقد ركزت على السرية، كما تقومُ بالتدريس الديني، وتفرعت منها الطريقةُ السماتية في المدينة المنورة، وكان يرأس هذه الطريقةَ أصحابُ مقام دنيوي وديني كبير، وأُناسٌ لهم هيبةٌ ومكانةٌ انعكستْ على مكانةِ هذه الطريقة.

ومن ذلك أيضًا الطريقةُ الإدريسيةُ السنوسيةُ، التي تعودُ إلى الشيخِ أحمدَ بنِ إدريسَ الفاسي، وتُسمَّى كذلك بالطريقةِ الأحمدية الإدريسية، وقد انتشرت في اليمنِ والحجازِ والشامِ ومصرَ والسودانِ إضافة إلى ماليزيا وإندونيسيا، وتتفرعُ منها السنوسيةُ في ليبيا، والرشيديةُ في الحجاز، وغيرُهم. وكانت في الحجاز تحتَ قيادة شيوخٍ محليينَ، ولذلك فقد انضم إليها خلقٌ كثير من البدوِ، فعملت

على تأسيس هجر صغيرة، واهتمت بتنظيم طرق القوافل، وتواجدتْ في جدةَ ومكةَ والمدينة، ومن فروعها السنوسيةُ التي ساعدتِ الحُجاجَ بمواردِها الماليةِ الضخمة، وكانت السنوسيةُ ذاتَ استقلالٍ سياسيٍّ واضح عن الدولة العثمانية، ونفوذُها كبيرٌ بين قبائلِ الجزيرةِ العربية.

ومنها أيضًا الطريقةُ الشاذليةُ وتُنسبُ إلى أبي الحسن الشاذلي، وقد اشتهرت بالذكر المفرد (الله) لفظًا أو مضمرًا بقول المتصوف (هو هو)، وكان لها تواجدٌ في الحجاز ومدينة جدة على الخصوص، كما تنتشرُ في مصرَ ودولِ المغربِ العربي.

وواقع الحال فالطرقُ الصوفيةُ في الحجازِ عمومًا ومدينة جدةَ بصفةٍ خاصةٍ كثيرةٌ، ومنها إضافة إلى ما ذُكر: الطريقةُ الأوزبكية، والطريقةُ الخلندريةُ، والطريقةُ الرحمانيةُ، وغيرها، وكما تقدمَ كانتِ الدولةُ العثمانيةُ ترعَى وترحِّبُ بهذه الطُّرق. وللاستزادة يمكن الرجوع إلى ما كتبه المؤرخ العجيمي في كتابه «خبايا الزوايا» الذي أشار فيه إلى وجود أربعين طريقة صوفية رئيسة في الحجاز وذكر أسماءها[١].

تجدر الإشارة إلى أن أشعار وأهازيج المتصوفة كانت منثورة بين الناس حتى مع رعاة الغنم، التي عُرف منها نوع سمي بالغارة وهو كلام ينم عن مناغاة الراعي لأغنامه، وأهم أشعار الغارة ما ينسب لأحمد العجيلي، وللقطب عبد القادر الجيلاني الذي قال[٢]:

يا غارة الله جدي السير مسرعة ... في حل عقدتنا يا غارة الله

يا غارة الله لا خل يساعدني ... من الأنام ولا أرجو سوى الله

---

(١) محمد حسن العجيمي، خبايا الزوايا، تدقيق: أحمد السايح وتوفيق وهبة، ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٣٠هـ) ص١٤ – ٩٤.

(٢) إبراهيم طالع الألمعي، التصوف في عسير والمخلاف السليماني، كتاب (التصوف في السعودية والخليج) مجموعة مؤلفين، الناشر مركز المسبار للدراسات والبحوث، ٢٠١٣، دبي ص ١٣٦ – ١٣٧.

فثـق فـي مهمـات الأمـور ولا تجعـل يقينـك يومًـا بغيـر الله
إن الشدائد مهما ضاقت انفرجت لا تقنطـنّ إذًا مـن رحمـة الله

أشير إلى أن التعبدَ والاعتكافَ لم يكونا قاصرين على المتصوفة المنتمين إلى ما سبق من طرق تمت الإشارة إليه وغيرها، بل امتدت إلى غيرهم كما هو الحال مع السادة آل باعلوي المنتمين إلى حضرموت، الذين حرصوا في سياق منهجهم الروحي وتربيتهم السلوكية على اتِّباع الكتاب والسنة بعيدًا عن مظاهر الرهبنة، كما قرنوا بين الدعوة إلى الزهد، ومشروعية العمل والكسب والإنفاق المشروع على العيال.

وفي واقع الحال، تُوصف طريقة آل باعلوي الصوفية بأنها غزالية الظاهر، شاذلية الباطن، إذ ظاهرهم ما شرحه الإمام الغزالي من العلم والعمل على المنهج، وباطنهم ما أوضحه الشاذلية من تحقيق الحقيقة وتجريد التوحيد، وجل مجاهدتهم الاجتهاد في تصفية الفؤاد، ويرجع الفضل لهم في نشر الإسلام في مناطق واسعة من آسيا مثل الهند وسيرلانكا وماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة، وفي شرق أفريقيا في كينيا وتنزانيا من خلال تقديم نموذج المسلم الصالح العالم والعاقل[1].

وقد تواجدت عبر القرون أسر عريقة من أصل يمني إجمالًا ومن حضرموت بخاصة، الذين مثلوا أحد المكونات الرئيسة لجدة، ولا يزالون حتى اليوم يتمتعون بمكانتهم الاجتماعية المميزة. ويوثق عبد العزيز البداح تواجد المتصوفة القادمين من اليمن جملة بقوله: «إن ابتداء توافدهم إلى مدن الحجاز كان في القرن الثامن الهجري»، ذاكرًا منهم عبد الرحمن بن أحمد الفراوى اليمني، وبعده عبد الله بن أسعد اليافعي، وبعدهم عمر بن أبي القاسم اليمني، وكلهم اشتغلوا بالتدريس

(١) مصطفى حسن البدوي، الإمام الحداد، مجدد القرن الثاني عشر الهجري، (بيروت: دار الحاوي، ٢٠٠١م)، ص ٥٣.

والأذكار، وفي القرون التالية تزايد أعداد رجال هذه الطريقة الصوفية، وعمل بعضهم في التدريس بالحرم المكي وبالقضاء، وبعضهم أسس زاوية في جدة مثل عمر بن إبراهيم القديمي اليمني في القرن العاشر الهجري، مبينًا أنه كانت لبعضهم كرامات خارقة[1].

(١) عبد العزيز أحمد البداح، حركة التصوف في الخليج العربي، ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٣٦هـ)، رسالة جامعية، ص٨٣ – ٨٥.

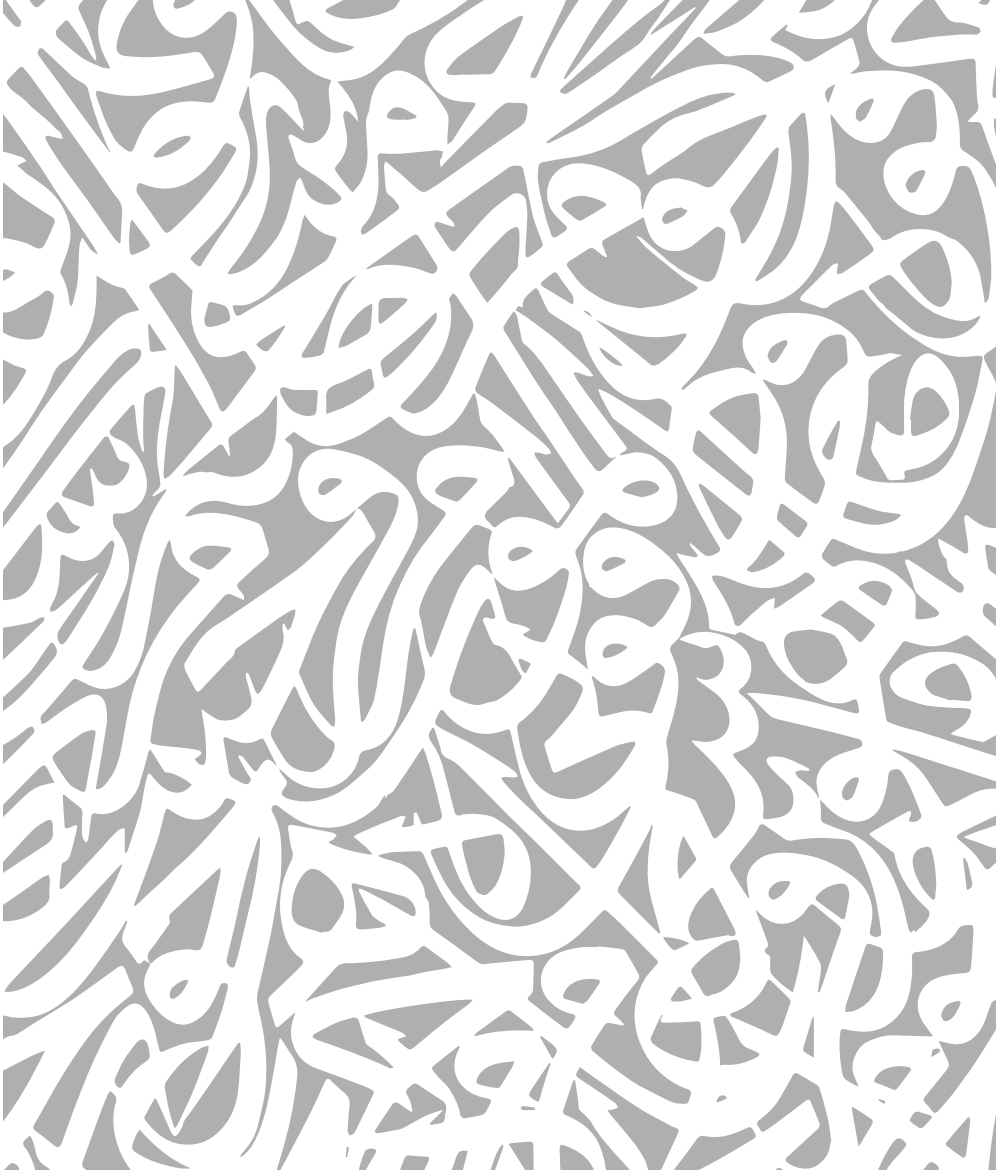

الباب الرابع

حواء في جدة

جاء في الأثر: «يأتي على الناس زمان يكون أفضل الرباط رباط جدة».

الفاكهي – أخبار مكة

■■■

قصيدة الأرز

عُمَر شيخ الإسلام والقانون الجديد
الذي جاء به محمدٌ إضافةً إلى ما يكشف عيسى
عُمَر الماشي المتكئُ على منسأته الطويلة
مثلُ الراعي ليضعَ عليها ذقنَه
بالقرب من جُدَّةَ المقدسةِ
على الشاطئ من البحر الأحمر
حيث يضئ نورُ الله كما لو كان في أعماقِ الحلمِ
في هذه الصحراءِ المعتمةِ من ظل السماواتِ
حيث مرتْ محجباتُ موسى غامضةً محتجبة
أثناءَ المشي هكذا مليئةً بفكرة جادة
فوق الصحراء مصر ويهودا[1].

فيكتور هوغو

---

(١) هي واحدة من ثلاث قصائد عن الإسلام، وأول من وجَّه الأنظار إليها كان القنصل الفرنسي الأسبق في جدة الدكتور لويس بلان، وهذا النص بهذه الصيغة موجود في النسخة المطبوعة في المطابع الحكومية الفرنسية، وهي محرّفة في طبعات أخرى. انظر: أسطورة العصور، (باريس: دار نشر مكتبة أولاندورف).

Victor Hugo “La Légende Des Siècles” Michel Lèvy Frères - Hetzel Et C, Paris, 1859.

إضاءة

- نعرض في هذا الباب لمزايا مدينة جدة التي تتفرّد بها بين غيرها من مدن ساحل البحر الأحمر.
- عرف العرب قبل الإسلام قصة الخلق تفصيلًا من التراث اليهودي وهي المرحلة التي تمّت فيها تهيئة البيئة الثقافية للجزيرة العربية لاستقبال قصة الخلق، وساهمت الروايات الإسرائيلية لاحقًا في فهم قصة الخلق، ولا سيما مع تسابق القُصاص في سردها واستخدام الخيال وأساطير الأمم السابقة حال روايتها. في هذا الباب نعرض لهذه الأفكار ونناقش مرحلتها.
- كما لا يمكن النظر إلى تحول المقام إلى قبر في جدة باعتباره حادثًا منقطعًا، ولكن في سياق التأثير الثقافي المصري على إقليم الحجاز وعلى جدة بصورة خاصة أثناء فترة الدولة الفاطمية ودولة المماليك في مصر.
- على أن العصر الذهبي للمقام كان مع الدولة العثمانية، وفي هذا الباب نعرض لعلاقة الدولة العثمانية بمقام حواء، والوثائق التي توضح بناء السور والمقام والفكر الذي يحكم هذه العلاقة.
- ثم نعرض لعولمة الأسطورة التي تمت من خلال زيارات الرحالة الأجانب في فترة الدولة العثمانية على الحجاز وتبنيهم لرواية أن المقام هو قبر حواء.

١

فضل جدة

الموقع:

تقع مدينة جدةَ بين دائرتَيْ عرض (٢٥ – ٢١، ٤٥ – ٢١)، وخطَّيْ طول (٥ – ٣٩، ٢٠ – ٣٩) شرقًا، وجاء تشكيلُها المتميزُ من سكنى خليطٍ من الأجناس، لتقوم بدورِها الذي وُجِدَتْ له، فكان هذا المزيجُ سببًا في خلق تفردها وروحَها الوثابةَ.

توجدُ في سلسلةِ الشعاب المرجانية، والصخورِ البحرية، فجوةٌ وحيدةٌ تسمحُ بمرور السفن مقابلَ مدينة جُدةَ، وتكملُ الجغرافيا رسمَ دَورِ جُدةَ، حيث يقابلُ هذه الفجوةَ في الصخور تحت الماء، ممرٌّ في الجبال المحيطة من ناحية الشرق نحو مكة، أوجدَتْه عواملُ التعرية، ويسمَّى وادي غُليل، وبالتالي فإنَّ الطريقَ بحرًا وبرًا سالكٌ إلى مكةَ من خلال جُدةَ[1]. هذا التفردُ الجغرافي، قابلُه تفردٌ في دور المدينة في الإسلام، فبالإضافة إلى أنها الميناءُ الرئيس الذي تبارك بخدمة الحجاجِ والزوارِ بحكم موقعها، فهي درعُ مكةَ من حيث كونها أرضُ الرباط، وهي مركزُ التطهُّر الروحي والصفاء قبلَ الصعودِ إلى مكةَ.

---

(١) محمد فوزي حلوة، جغرافية المدن، (الرياض: أجنادين للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م)، ص ٣٧.

ولذلك فمن خلال موقعها الجغرافي، وتميزها الوظيفي المزدوج، وتركيبتها السكانية، فقد حازت على كل ما لعبقرية المكان من امتياز وجمال، مما ساهم في صمودِ وبروزِ جُدةَ بروحِها الوثابةِ الوطنية على مَرِّ العصور.

بداية الاستيطان:

يعود استيطانُ جُدةَ إلى الألف الثاني قبل الميلاد، حيث وجدت نقوش ثمودية بوادي (البُويب) تذكر أن امرأةً أُصيبتْ بمرضِ البرداء، كما وجد نقشٌ آخرُ فيه صلاةٌ وتضرعٌ من صاحب النقش، ويُدعى (ساكت بن يشعن) أُصيب بالحمى[١]. ولا يوجدُ اتفاقٌ بين المؤرِّخينَ على الزمن بدقة.

كما يذكر أن قبيلة قضاعة هي من أوائلِ القبائل العربية التي سكنْت جُدةَ، وأحدُ أحفادِ قُضاعةَ كان اسمُه (جُدةَ بنَ حِزام)، الذي وُلد في هذا المكانِ فسمي باسمه، وهذا تقريبًا منذ ألفين وخمسمائة عام تقريبًا.

وظهرت جدةُ في كتب التاريخ بوضوح بظهور الإسلام، وخاصةً بعد أن جعلها الخليفة عثمانُ بن عفان رضي الله عنه ميناءً رسميًا لمكةَ المكرمةِ؛ وقد كانت من قبل تقوم بدورها ولكن بشكل بسيط[٢].

على أن الطفرة الأولى للسكان والازدهار في جدة حدثت في القرن الرابع الهجري كما يَرويها ابنُ المجاور[٣]، الذي أوضح أن أهل ميناء (سيراف) - وهي مدينة فارسية على الخليج العربي - هاجروا إلى جدة بعد تعرضهم للخراب جراء إصابتهم بالزلزال عام ٣٦٦هـ، وكانوا مشهورين بغناهم وتفوقِهم في التجارة.

---

(١) نسيب وهيبة الخازن، من الساميين إلى العرب، (بيروت: دار ومكتبة الحياة، ١٩٦٢م)، ط ١، ص ١٦١.

(٢) للاستزادة انظر: عبد القدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، مرجع سابق، ط٤، ص ١٠٣.

(٣) أبو الفتح يوسف الشيباني ابن المجاور، تاريخ المستبصر، تحقيق: ممدوح حسن، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٦م)، ص ٥٨.

وذكر ابن فهد في تاريخه: «إن الفرسَ حفروا خندقًا عظيمًا في الوسع والعمق، وكان يدورُ ماءُ البحر حول البلدِ ويرجعُ ما يفضلُ منه إلى البحر، والبلدُ يومئذٍ شبهُ جزيرة في وسط لجج البحر، فلما حصَّنَ الفرسُ البلدَ غايةَ التحصين، وخافوا من ضيعةِ الماء، بنَوا ثمانيةً وستينَ صهريجًا داخلَ البلد، وبنَوا بظواهرها مثلَها، ويُقَال ثلاثمائة داخلَها ومثلَ ذلك خارجَها»[١].

هكذا أدرك الفرس أهمية موقعها، فاعتبروها محطةً رئيسة للتجارة، وكان ينزلها ملوكُ الفرس التجار القادمين من الآفاق، إذ هي محطُّ السفنِ من الهندِ وعدنَ واليمنِ وعيذابَ والقلزم وغيرِها[٢].

لكنهم لم يلبثوا أن تركوا جدة بعد أن سكنوها ثلاثين عامًا، حيث يؤرخ الشيخُ عبد القادر الشافعي، أنه بخروج الفرس بدأت مرحلة جديدة من مسيرة جدة حيث استوطنها الأعرابُ من كل مكان لملء الفراغ، حيث جاء مِن أرض الصعيد المرسةُ من بلد اسمُها مريسة، ومِن أرض اليمن جاء الحفصةُ، ومِن ظِفار جاء بنو الظفاري، ومن جبل صبح جاء بنو الصبحي، ومِن شراكسة مصر جاء بيت من قرقماص، ومن وادي مَرَّ جاء بيت المديد وبيت التكروري[٣].

ومن حينه سكن المدينة خليط من الأجناس فشَكَّلوا هذا الموزاييكَ النادر إلى يومنا هذا. في مطلع القرن العشرين أكدت هذه الحقيقة دائرة المعارف البريطانية عندما ذكرت: «إن السكان هم مزيج من عرب حجازيين ونجديين ويمانيين وحضارمة ومصريين وسوريين ومغاربة ومن شعوب إسلامية غير عربية

(١) جار الله محمد بن فهد، حسن القرى في أودية أم القرى، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠١م) ص٢٩.

(٢) محمد عبد المنعم الحمير، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٥م)، ط ١، ص ١٥٧.

(٣) عبد القادر الشافعي، السلاح والعدة في فضائل بندر جدة، تحقيق: خضر بن سند، (الروضة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٨م)، ص ٥٨.

في مقدمتها الفرس ويشاركهم أهل أفريقيا وجاليات كبيرة من الترك، وقدم إليها بحكم الأعمال إنكليز ويونان وفرنسيون وإيطاليون»[١]، وعليه فلا توجدُ فئةٌ أو قبيلة أو أصلٌ معين يستطيعُ أن يدعيَ أن جُدةَ تعود إليه؛ فهذه المدينةُ تاريخيًا هي مدينةٌ تجمَّعَ سكانُها عبرَ العصورِ من مختلف الأجناس والأعراق، لتأدية وظيفتِها التي أوجدَها لها الإسلامُ ذات البعدين الروحي والدفاعي كرباط في سبيل الله.

خاصية التطهر الروحي:

أولُ من وَجَّه الأنظارَ إلى المكانة الروحية الرفيعة لمدينة جدة هو عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، الذي اختارَ المدينة لتكون مكانًا لاعتكافه في الشتاء، فكان يعتكفُ في الجامع الكبير، وبعدَ ذلك اقتدى به الكثير من المؤمنين بعد أنْ ترسَّخَت في أفئدتهم مكانةَ جدةَ كمدينةٍ للتطهر الروحيِّ والتقرب إلى الله[٢]. وكانت بذلك مركزًا لتلقي الرؤيا قبل الصعود إلى مكة أو الذهاب إلى المدينة المنورة على اعتبار أنها محطة الوصول الأولى للحجاج والزائرين من الخارج.

وقد اشتهرت جدة بالمزارات السبعة وهي: مزار المظلوم، ومزار العلوي، وأبو عنبة، وأبو سرير، ومقام الأربعين، ومقام العقيلي، مقام وأبو العيون، بالإضافة إلى تكايا الفرق الصوفية التي تقدم ذكرها. كما عرفت المدينة زوايا دُفن فيها الصالحون مثل زاوية الجيلاني، وزاوية السمان وغيرها، وزوايا للتعبد مثل زاوية الحداد، وزاوية الخضر، وزاوية الحضارم وعدد كبير من الزوايا في مساحة جغرافية ضيقة للغاية، وبعض هذه الزوايا لها أوقاف إلى اليوم.

وقد تحدث كبار الصوفية عن تجاربهم في جدة ومنهم زيارة ابن عربي لمقام حواء، وأيضًا ما جاء في الرحلة الورثلانية لمؤلفها الحسين الورثلاني الذي

(١) عبد القدوس الأنصاري، (موسوعة تاريخ مدينة جدة)، الطبعة الرابعة، صفحة ١٦٣.
(٢) الشافعي، مرجع سابق، ص ٩٢.

تحدث عن المقامات والقبور في الحجاز وفضل جدة، واستصراخ الناس بالولي سيدي عمر العرابي[١].

وكان لمعظم الفرق الصوفية الرئيسة في العالم الإسلامي تواجد في جدة من خلال التكايا والزوايا، إضافة إلى تلك التي انبثقت من الحجاز مثل الميرغنية (الختمية)، والإدريسية السنوسية، وأكثر هذه الطرق لها مساجد باسمها وبعضها مرفق بها جبانات لدفن الموتى مثل مسجد العقيلي، أو مساجد بها بئر للاستحمام والبركة مثل مسجد ابن علوان، على أن التأثير الأكبر في جدة والحجاز كان لمنهج متصوفة السادة آل باعلوي الذين لم ينتسبوا لطريقة من الطرق المذكورة، وكانوا من الشاذلية.

وقد حوت جدة على مر السنين مساجد جامعة وأهمها تاريخيًا المسجد الجامع والذي نسبه ابن جبير إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إضافة إلى مسجد الأبنوس، وكان كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت قد حصر بالمدينة قرابة خمسة وثلاثين مسجدًا في العصور الحديثة.

أرض الرباط:

يتجلى فضلُ جُدةَ في وظيفتِها المزدوجةِ لخدمةِ الإسلام. وكما تقدم فإنها أرضُ الاعتكافِ والتطهرِ الروحيِّ، وهي أيضًا أرضُ الرباطِ. هذه الثنائيةُ الوظيفيةُ لم تُعطَ لأي مكانٍ آخرَ في العالم الإسلاميِّ على مر التاريخ، وهي تجسيدٌ لمقولةِ عبقريةِ المكان؛ حيثُ أن مكانَها الفريدَ باعتبارها بوابةَ مكةَ، ومَنْ سكنَها من الصالحينَ مِن مختلف العالم الإسلامي، قد أظهرَ هذه العبقريةَ وجسَّدها؛ لأنَّ هناك أماكنَ لوظيفةِ الرباط فقط، مثلُ عسقلانَ في فلسطينَ المحتلةِ، كما وردَ في صحيح الحديث، ومدنٍ أخرَى للتقربِ إلى الله بصالح العبادة، مثلُ الحرمَينِ

(١) الحسين بن محمد الورثلاني، الرحلة الورثلانية في القرن الثاني عشر الهجري، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨م).

الشريفَين والقدسِ الشريف، أما أنْ يجتمعَ شرفُ هاتينِ العبادتينِ في مكانٍ واحد فهو فضلٌ من الله آتاه جُدَةَ.

والرباطُ هو المُقامُ في الثغورِ لإعزازِ الدين، ودفع شرِّ الكفار عن بلادِ المسلمين، وبالتالي فإن أيَّ مكانٍ يتوقعُ أن يهجمَ منه العدوُّ فالإقامةُ فيه بقصدِ دفعِ العدوان رباطٌ في سبيل الله؛ أي أنَّ الإقامةَ على حدودِ المسلمين تقويةٌ لهم وحمايةٌ للحدود، وعقدُ نيةِ الجهادِ فهو رباطٌ في سبيل الله. وقد حازت جُدةُ على نصيبها من الأثر، حيث جاء: «يأتي على الناس زمانٌ يكون أفضلُ الرباط رباطَ جدة»[١].

وواقع الحال فقد تكرر هجومُ أعداءِ الإسلام على المدينة، إما بهدفِ الحصولِ على خيراتِها والسيطرة على موقِعها الجغرافي الفريدِ، أو بنيةِ احتلالِها والوصولِ إلى مركزِ الإسلام في مكةَ المكرمةِ. وأهمُّ الغزوات التي تصدَّتْ لها جدةُ عبر تاريخها كانت غزواتُ الأحباش في صدر الإسلام، حيث أورد ابنُ سعد في الطبقات أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أرسل علقمةَ بن مجزز في ثلاثمائة عندما شاهد أهلُ جُدةَ قومًا من الحبشة في مراكب بالبحر، فانتهى إلى جزيرةٍ في البحر، وقد خاضَ إليهم البحرَ فهربوا منه، وذلك في السنة التاسعة للهجرة[٢].

وجاءت المحاولةُ الثانية للأحباش في عام ١٥١ هـ، حيث احتل قومٌ يسمَّوْنَ أهلَ الكرك جدة لمدة سنتينِ، ثم طردهم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عام ١٥٣ هـ[٣]، كما غزوها للمرة الثالثة في عام ١٧٣ هـ فخرج كثيرٌ من أهل جُدةَ إلى مكةَ، وتكاتف أهلُ المدينتين لصدِّ العدوان، وعندما علم الأحباشُ بذلك هربوا في المراكب، ثم أعادوا الكرة بعدَ عشرِ سنوات، وتكاتف أهلُ جدةَ ومكةَ تحت قيادةِ أميرِهم عبدِ الله بن محمد لمحاربتهم، فقاتلوهم حتى أخذوا بعض سفنهم وأجلوهم.

---

(١) الشافعي، السلاح والعدة، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٢) محمد بن سعد، (الطبقات الكبرى)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر للنشر، بيروت، ١٩٦٨، ج ٢، ص ١٦٢ وما بعدها

(٣) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج٨، ص٣٣.

وفي عام ١٩٩هـ جاء جيشٌ من العراق لصالح السريِّ بن منصورٍ الشيباني بعدَ أنْ تمردَ على المأمون، وكان قائدَ الحملة يُدعى الحسينُ الأفطس، واحتل جدةَ وأخذ أموالَ أهلها، ودخلت مكةُ معه طوعًا. إلى غير ذلك من الغزوات التي تعرضت لها جدة عبر التاريخ نتيجة للصراع الدائر في المنطقة بين المسلمين، وتكررت الغزوات من داخل الجزيرة العربية على جدة مثل حصار بني عقيل في العام ٢٥١هـ، وهو العام الذي غزا فيه إسماعيل بن يوسف الحسني جدة ومكة وقتل خلقًا كثيرًا منهم ومن الحجاج، وفي العام ٢٦٨هـ أغار أبو المغيرة المخزومي على جدة وحرق البيوت واحتل مكة، وبعد عام قام والي مكة من طرف العباسيين محمد بن أبي الساج بطرده في ٢٦٩هـ[١].

كما شارك الاستعمارُ الغربي الحديث في الهجوم على جُدةَ والذي تمثل في الهجومِ البرتغالي ثُم الهجومِ البريطاني على النحو التالي:

الهجوم البرتغالي:

انحصرت دوافعُ الهجومِ البرتغالي على جُدةَ في الجانب الديني الصليبي البحت، بهدفِ تدميرِ مركزِ الإسلام في مكةَ، وذلك بعد أن نجحَ البرتغاليونَ في إنهاء الوجودِ الإسلامي في الأندلس، وانطلقوا إلى الديارِ الإسلاميةِ في أفريقيا وآسيا بأساطيلَ حديثة وعقيدةٍ دمويةٍ بهدفِ تطويقِ العالم الإسلامي من الجنوب، وذلك بعدَ اكتشافِ رأسِ الرجاءِ الصالح عام ١٤٩٨م.

وقد تصرَّفَ البرتغاليون بهمجية وقسوة إزاء سفنِ الحجاجِ المتجهة إلى جدةَ، كما عملوا على إحراقِ المدنِ الساحلية الإسلامية، وتحالفتِ البرتغالُ مع عدد من القوَى التي تضمرُ العداءَ للإسلام في المنطقة، وهي دولةُ فيجا يانا جار الهندوسيةُ في الهند، والدولةُ اليعقوبيةُ في الحبشة. وأتاح لهم ذلك أن يَعبُروا بالمدفعيةِ الثقيلة على سفنِهم من بابَ المندب، والتوغل في البحر الأحمر شمالًا حتى

(١) العمارة بمدينة جدة في العصر العثماني، مرجع سابق ص ٤٣.

مدينة جدةَ بغرض تدميرِها، ليتسنى لهم بعد ذلك احتلالُ مكةَ المكرمة والمدينةِ المنورة، ثم الانطلاقُ نحو تبوكَ، ومنها إلى القدسِ الشريف لإحياءِ المملكةِ الصليبيةِ كما يتصورون.

وكان قائدُهم ألبوكيرك، وهو جنرالٌ دموي كاره للمسلمين، يحلم بتدميرِ مكةَ المكرمةِ والقاهرةِ تدميرًا كاملًا، ويعملُ بشكلٍ استراتيجيٍّ متكاملٍ للقضاءِ على التجارة الإسلامية أولًا، وطردِ المسلمين من المراكزِ التي يتعاملونَ معها لإضعافهم، مثلَ مدينةِ (ملقةَ) أو سنغافورةَ حاليًا، وكان يُمارسُ القرصنةَ، ويجمعُ المعلوماتِ عن الدولِ الإسلامية بواسطة شبكةٍ من الجواسيس في مكةَ وغيرها، حيث قال في رسالتِه لملكِ البرتغال: «ليس في جُدةَ أو مكةَ أناسٌ مسلمونَ بل دراويشُ، أما بلادُ القديس يوحنا (يقصد القدسَ) فتعجُّ بالناسِ والخيولِ».

لقد حملت رسائلُ ألفونسو دي ألبوكيرك إلى ملكِ البرتغال تصورًا استراتيجيًا عن كيفيةِ السيطرة على بلاد المسلمين، حيث يقولُ بتاريخ ١٥١٣/١٢/١م:

> "إنه بمجرد أن يُسيطرَ على البحر الأحمر، لن يتمكنَ السلطانُ من العودة إليه، ولو ساندَه جميعُ ملوك المسلمين، وسيُضرِمُ النارَ في أي سفينةٍ إسلامية تدخل هذا البحرَ".

وفي الرسالة نفسِها يقول:

> "بإمكاننا السيطرةُ بسهولةٍ كبيرةٍ على جدةَ، لانعدامِ ما يحولُ دونَ ذلك، فبوصولِنا إلى هناك لن يستطيعَ أحدٌ منعَنا من التحكُّم فيها، لأنَّها لحدِّ الساعةِ غيرُ محصَّنة من جهة البحر... سوف تُهجَرُ جُدَةُ بالتأكيد فورَ تحكمِكم في مرسى مصوع والحبشةِ، بسبب توقُّفِ وصولِ التوابل وباقي السلع إليها وكذلك الأقوات. وبالتحكُّم في جُدةَ سيُقضَى نهائيًا على مكةَ، ولن يجَرؤَ أحدٌ بعد ذلك اليومِ على الإقامة فيها، لأنها لا تَبعُدُ سوى مسيرةِ

يومٍ واحدٍ، وفي اعتقادي لن يَصعُبَ علينا تخريبُ مكةَ، ولن يتطلبَ منا ذلك جهدًا كبيرًا"[١].

ثم يصف جدة بأنها:

"مرسى محاط بجزرٍ صغيرةٍ تَحمي السفنَ من الرياح، وتقطع المسافةَ بين جدةَ ومكةَ ركوبًا على الخيل في يوم واحد، بينما يتطلبُ الأمر من المشاة والقوافل يومًا ونصف اليوم، وتنعدمُ الأقواتُ في جدةَ، وتعتمدُ مكةُ على الأقوات التي تجلبها من جُدةَ".

ويشير في ختام رسالته إلى أن دخوله إلى البحر الأحمر قد انعكس سلبًا على المدينتينِ معًا، فقلَّتْ فيهما الأقواتُ، وارتفعتْ أثمانُها كثيرًا، وهجرها ناسٌ كثير بحسب قوله.

وفي رسالة أخرى بتاريخ ١٥١٣/١٢/٢٨م يؤكد رغبتَه الأكيدةَ في إخلاءِ جُدةَ من سكانها وتدميرِ مكة حيث يقول[٢]:

"أعتقدُ يا سيدي أنَّ بإمكانِكم التحكُّمَ في جُدةَ بسهولةٍ كبيرة لشدةِ ضعفها، وسيتعذَّرُ على السلطان مدُّها بالرجالِ والمؤونةِ، وأن تحكَّم جلالتِكم في مصوعِ والحبشةِ سيؤدي حتمًا إلى إخلاءِ جُدةَ، وسيسفرُ التحكمُ في جدةَ عن القضاءِ على مكةَ، ولن يجرُؤَ أحدٌ على الإقامة فيها، أظنُّ يا سيدي أنَّ تخريب مكةَ أمرٌ سهلٌ وفي متناولنا".

كما قدم القائدُ دورات كلفاو صورةً أكثر شمولًا عن جهودِ البرتغال في السيطرةِ على الهند، ثم لقي حتفَه قبلَ أن يقودَ الأسطولَ إلى جُدةَ، حيث يقولُ في رسالته إلى ملكِ البرتغال:

(١) أحمد بوشرب، مرجع سابق ص ١١٣ – ١١٤.

(٢) أحمد بوشرب، الخليج العربي والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية، (الرياض: كرسي الأمير سلمان بن عبد العزيز للدراسات التاريخية، ١٤٣٣هـ) ص ١٨٧.

"لا مفرَّ لنا من التحالفِ معَ ملكِ الحبشة الراغبِ في لقائنا، ولن يصعُبَ علينا بعدَ ذلك تخريبُ مكةَ لقربِها من جُدةَ، ولأن كلَّ الأقواتِ تأتيها من بربرةَ وزيلعَ ومن الساحلِ التابع لشيخ عدنَ".

ويضيف:

"إن جُدةَ ضعيفةٌ وسهلةُ المنال بجنودٍ قليلين، أعتقدُ أنَّ سكانَ مكةَ جميعَهم سيفرّون فورَ رسُوِّ سفننا قبالةَ مرسى جُدةَ وعلمِهم إننا مسيحيون، إن تخريبَها سهلٌ ولن يتطلبَ مجهودًا كبيرًا لقلةِ المدافعينَ عنها؛ لأن جِلَّ سكانِها من المتعبِّدينَ، وفي حالة ما إذا حرَمْناهم مِن تجارةِ الأثواب البيضاء، ومن توابلِ الهندِ التي تصلُ سنويًا، فلن تُقبلَ على مكةَ قافلةٌ واحدة. أما إذا تمكَّنَ ملكُ الحبشة من العبورِ إلى مكةَ، فإنْ شجاعةَ رجالِه كافيةٌ لتحقيق ما نَسعَى إليه، ولن نُضطَرَّ إلى التدخلِ. إني أرى الأمورُ تسيرُ حسبَ توقعاتِنا شريطةُ أن يُساعدَني الملكُ ويشجعَني"[١].

على أن تفاصيلُ انكسارِ الهجوم على جُدةَ، وصمودِ أهلها قد جاء في رسالةٍ بعثَها إليشو دي منيزش إلى ملكِ البرتغالِ في ١٥١٧/١٢/٢٤م وفيها يقدمُ تفاصيلَ عن الأحوال الجوية، وصعوبةِ الاقترابِ من جُدةَ، لطبيعةِ المياه حولَها، واستبسالِ أهلِها في الدفاعِ عنها من السورِ المحيطِ بالمدينة، ونقصِ مياهِ الشرب، وعدمِ استطاعةِ السفنِ الضخمةِ الاقترابَ من المدينةِ بشكلٍ كافٍ[٢].

تجدر الإشارة إلى أن البرتغاليين قد حاولوا غزو جدة عبر محاولات أربع على النحو التالي[٣]:

(١) بوشرب، مرجع سابق. ص ٢٤٣.

(٢) مرجع سابق. ص ٢٧٧.

(٣) أحمد الظرافي، أبعاد الغزو البرتغالي لجدة، مجلة البيان، العدد ٣٧٠ في ١٨/ ٢/ ٢٠١٨.

المحاولةُ الأولى : في العام ٩١٩هـ/١٥١٣م، حيث خرجت قواتهم من الهندِ بقوةٍ مكونة من عشرينَ سفينةً، خاضوا بها المعاركَ في عدنَ وجزيرةِ كمرانَ، لكنها لم تواصل لقوة الرياح ومعاكستها لهم.

المحاولةُ الثانية : عام ٩٢١هـ/١٥١٥م، وفيها غادرَ القائد ألبوكيركُ الهندَ بحملةٍ قوامها خمس وعشرينَ سفينة، إلا أنه اضطر لتغيير اتجاهه إلى هُرمزَ لإخماد الثورة هناك، ثم اشتدَّ عليه المرضُ فعاد إلى (جوا) أو كوةٍ في الهند، حيث ماتَ مع تأكيده لمن يخلفه بغزو مدينة جدة.

المحاولةُ الثالثة : في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، حيث انطلقتْ من ميناء جنوةَ الإيطالي أربعونَ سفينةٍ وألفَا مقاتلٍ بُرتُغالي، وعَبَرُوا بابَ المندبِ بالمدفعية الثقيلة، وشهدَ ذلك العامُ نهايةَ دولةِ المماليك ودخولَ السلطانِ سليمٍ الأول مصرَ، ولم تستطع الحملةُ النزولَ إلى أرض جُدةَ؛ لأنَّ التحصيناتِ التي عملَها المماليكُ كانت قويةً، واستَبْسلَ أهلُها في الدفاع عن المدينة بمؤازرة الحامية العثمانية، فاضطرت الحملةُ إلى الانسحاب إلى كمرانَ ومنها إلى عدنَ.

المحاولةُ الرابعة : عام ٩٢٧هـ/١٥٢٠م، وكانت في هذه المرة بقيادة نائبِ ملكِ البرتغالِ لوبر سكويرا، وهدفت إلى تدمير جُدةَ، لكنهم تحولوا إلى مصوع ونزلتْ قواتهم في ضيافةِ ملكِ الحبشة.

الهجوم الإنجليزي:

في القرن التاسعَ عشرَ وجدَتْ جدةُ نفسَها أمامَ ضرباتِ البوارج الاستعمارية بشكلٍ مباشرٍ من السفن الإنجليزية، بعد أن سيطرتْ إنجلترا على مساحاتٍ شاسعةٍ من العالم الإسلامي، وجاء القصفُ الإنجليزيُّ على جُدةَ في أحداثِ ما يُعرفُ باسم مذبحة جُدةَ أو فتنةِ جُدَةَ، أو كما سماها الفرنسيون مجزرة المسيحيين وذلك

في عام ١٨٥٨م[١]، وقد تم ذلك العدوان بخلفية اقتصادية استعمارية، وبدوافع صليبية واضحة. ولفهم القسوة التي تعاملت بها بريطانيا مع جدة لا بدَّ من معرفة البيئة التاريخية للأحداث.

في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وما قبلها، شهدت جدة نموًا اقتصاديًا وازدهارًا حضاريًا دفعت القنصل الفرنسي إلى القول بأنه لا يعرف على الإطلاق مدينة إسلامية تستطيع أن تتمتع بإدارة وحكومة محلية إلا مدينة جدة، ولا توجد مدينة أخرى في شبه الجزيرة العربية لها تجارة عليا تتميز بالنظام غير جدة[٢].

وفي حينه انتهج ممثلو بريطانيا أسلوب تضخيم الحوادث الفردية ضد الأجانب، فعلى سبيل المثال ذكر نائب القنصل الإنجليزي في الإسكندرية بأن خمسمائة بحار من أهل جدة موجودون في السويس، وأنهم يشكلون تهديدًا للشركات البريطانية هناك. كما قال الكابتن بولين: إن سفن أهل جدة الموجودة في البحر الأحمر تقوم بنهب واضطهاد سفن المسيحيين؛ وهكذا كان دأب المسؤولين الإنجليز قائمًا على إفهام حكومتهم بأن أبناء الحجاز وأهل جدة خاصة يكرهون المسيحيين بتعصب[٣].

من الناحية الاقتصادية نمت التجارة مع جدة، وانغمس القناصل مباشرة فيها، حيث كان القنصل الإنجليزي كول وكيل شركة الهند الشرقية، والقنصل بيج مالكًا لشركة ضخمة، كما عمل القنصل الفرنسي فرينل بالتجارة، وكانوا جميعهم يستغلون مناصبهم للتدخل مع الحكومة العثمانية لحماية مصالحهم. وكان ذلك سببًا لابتداء الاحتكاك بينهم وبين التجار الحضارم في جدة، ولا سيما مع تظلمهم

(١) صدرت حول ذلك مؤخرًا رواية أدبية تحكي ثنايا الواقعة. انظر: مقبول موسى العلوي، فتنة جدة، (بيروت: رياض الريس للكتب، ٢٠١٠م)

(٢) أحمد حسن العقبي، دراسة وثائقية جديدة لبعض جوانب أحداث فتنة جدة، (جدة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز)، ص١.

(٣) العقبي، المرجع السابق، ص٦.

من تعيين القنصل البريطاني لتاجر هندي وهو فرج يسر ليكون كبير تجار المدينة، وهو ما زاد من حدة الأجواء بين التجار والأجانب بوجه عام.

فتنة جدة:

في أجواء هذا الاحتقان أنزل التاجر صالح جوهر العلم البريطاني ورفع علم الدولة العثمانية على الباخرة المسماه (إيراني)، فحدث خلاف حول ذلك، وحضر القنصل الإنجليزي الذي مزَّق العلم العثماني ووطئه بقدمه، وتكلم بكلام غير لائق، مما تسبب في غضب الأهالي وهياجهم، ولا سيما أن السلطات قد قررت حجز السفينة، فكان أن تجمع جمع غفير من السكان يقدر بثمانية آلاف، وهاجموا مقر القنصل البريطاني، ثم مقر القنصل الفرنسي الذي قتل هو وزوجته واثنان وعشرون شخصًا آخرين، بينهم سبعة أتراك إضافة إلى نائب القنصل الإنجليزي، ولحق الدمار بمقر القنصليتين والشركات الأوروبية[١].

على إثر ذلك قررت الدولتان بريطانيا وفرنسا أن تعملا معًا لتأديب مدينة جدة وسكانها، وبعد مشاورات مطولة مع العثمانيين طلب الإنجليز أن تنزل قوات عثمانية أولًا إلى جدة، ثم تليها القوات الإنجليزية حتى لا يستفزوا مشاعر المسلمين في شبه القارة الهندية، وعندما تأخر الأتراك هدد الإنجليز بتوجيه السفن إلى جدة واحتلالها عسكريًا، وبناء على طلب (مالسبري) وزير خاجية بريطانيا تم إرسال الفرقاطه سيكولوبس Cyclops مع ثلاث سفن، وبدأ قصف المدينة صباح الخامس والعشرين من يوليو ١٨٥٨م حتى الثامن والعشرين منه، وأعيد القصف في الخامس من أغسطس تحت قيادة الكابتن بولين مع العمل على إغراق سفن أهالي جدة، وإحراقها بالبضائع التي عليها[٢]، وقبل ذلك بأسبوع اقترح وزير خارجية فرنسا

(١) تهاني جميل الحربي، القنصليات الأجنبية في جدة: دراسة تاريخية وثائقية، (الرياض: مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، ٢٠١٩م) ص١٦٦ – ٢٠٦.

(٢) رواية (فتنة جدة)، تُصوّر من منظار أدبي كيف تلقى أهالي جدة القصف وتهدمت بيوتهم وقد نزح خلق كثير إلى مكة جراء القصف.

الكونت والوسكي وضع جدة تحت الإشراف الفرنسي البريطاني المشترك لضمان عقاب جدة، وقتل من شارك في الفتنة وتحصيل التعويضات. وفي رسالة لوزير الخارجية الإنجليزي (مالسبوري) الذي كان فخورًا بهذا القصف قال:

"لقد كان من الأهمية منذ اللحظة الأولى إقناع العقلية الإسلامية بأن القوى النصرانية لن تتوانى في كل الحالات عن إنزال العقاب للانتهاك ضد النصارى في جدة".

كما صرَّح مسؤول فرنسي قائلًا:

"إن القصف له تأثير مفيد على سكان جدة وحاكمها لبث الخوف من النصارى في النفوس".

وفي ذلك تكريس للعقلية الصليبية حيث كان القنصل الفرنسي فرينل عام ١٨٤٦م قد صرح باعتقاده أنه محاط بشعب متعصب ضد الوجود المسيحي، في الوقت الذي يرى الكابتن بولين أن أحداث الفتنة قد جاءت نتيجة لبغض قديم لدى المسلمين ضد المسيحيين نظرًا لإقامة المسيحيين بالقرب من الأراضي المقدسة[١].

وبعد انتهاء التحقيقات والمحاكمة تم الحكم على مجموعة من أهالي جدة بالإعدام، وأخرى بالحبس المؤبد، وثالثة بالنفي، وتم إقرار تسليم تعويضات باهظة، حيث طالبوا بأربعة وعشرين مليونًا، وقالوا للسلطان العثماني هذا يليق بملكك ومنصبك فوافق، وتم فرض ضرائب عالية على أهالي جدة ومصادرة أملاكهم لدفع التعويضات.

ومع بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣هـ/١٩١٤م حلقت في سماء جدة طائرة حربية ملقية منشورات تحث فيها الأهالي على الثورة ضد الدولة

(١) الحربي، المرجع السابق، ص١٩٧.

العثمانية، وتقدم المبررات لخوض الحرب ضد ألمانيا، وكيف أن تركيا اصطفت مع ألمانيا في هذه الحرب، وتطرقت المنشورات إلى:

"إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وإمبراطور الهند قررا أنه عند انتهاء الحرب سيجعلان من بين شرائط الصلح ومواده الرئيسة أن تكون شبه الجزيرة العربية والأراضي المقدسة فيها مستقلة، وألا يُضم شبر منها إلى أراضينا أو أراضي أي دولة أخرى"[١].

وفي سبيل الضغط على أهالي جدة والحجاز فقد قررت بريطانيا منع دخول المواد الغذائية إلى الحجاز من مستعمراتها، والتي من الناحية الفعلية هي كل الدول التي يتاجر الحجاز معها[٢].

ومع حلول عام ١٣٣٤هـ/١٩١٥م بدأ القصف الحربي من البوارج البحرية على المواقع العسكرية العثمانية، بل وتم استخدام الطيران الحربي في قصف المواقع العسكرية بجدة[٣]، كما كانت الثورة العربية الكبرى قد اندلعت لطرد الأتراك من الجزيرة العربية، فأدى ذلك إلى خروجهم بشكل نهائي من الحجاز[٤].

ولم تمض مدة طويلة حتى دخلت جدة صلحًا في الحكم السعودي، وبدأت مرحلة الازدهار الحضاري والاقتصادي والسياسي بعد أن استتب فيها وفي الحجاز الأمن، وبدأ التعامل مع المشكلات المزمنة وأهمها مشكلة المياه الصالحة للشرب، وقفز عدد السكان من بضعة آلاف إلى أربعة ملايين ونصف في الألفية الجديدة تحت الحكم السعودي الزاهر.

---

(١) حسين بن محمد نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، (القاهرة: مكتبة خضير، ١٣٤٩هـ)، ص٢٥.

(٢) مكتبة الملك فهد الوطنية، وثيقة رقم ٥/٣٥.

(٣) صوت الحجاز، ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣.

(٤) هاري سانت جونز فيلبي، أيام عربية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢م)، ص٢٤٧.

٢

مراحل تركيب الأسطورة

المرحلةُ الأولى: تهيئةُ البنيةِ الثقافية:

لا تظهر الأسطورة في ثقافة أي شعب بشكل عشوائي، إذ لا بدَّ لها من جذور ضاربة في معارف وثقافة المجتمع ليتحقق لها الاستمرار والانتشار، ولفهم أبعاد الربط بين أمنا حواء ومدينة جدة، نحتاج للعودة إلى الجذور الثقافية والمحيط الاجتماعي للجزيرة العربية والأديان التي انتشرت فيها سابقًا، وكيف تعاملت هذه المعتقدات والأديان مع قصة الخلق، ومدى تأثر الثقافة المجتمعية بها في الجاهلية وصدر الإسلام، وحتى مرحلة التدوين في القرن الثاني الهجري الذي انتشرت فيه مقولة أن آدم قد هبطَ بسرنديبَ بالهندِ، وحواءَ بجُدةَ، وإبليسَ بالإبلةِ، والحيةِ بأصبهانَ.

لقد شكَّلتِ المنظومةُ العقائديةُ لمجتمع الجزيرة العربية فُسيفساءَ متداخلةً متناغمةً، حيث انتشرتْ مفاهيمُ وديانـاتٌ متعددة بينهم، كما كان للعربِ اطلاع على أساطيرِ الأولينَ، إضافة إلى الديانة النصرانيةِ واليهوديةِ بدرجاتٍ متفاوتة، ولذلك فمن الضروريِّ الإلمامُ بأبرزِ مكوِّناتِ هذه الفسيفساءِ وقصةِ الخلق فيها:

الزرادشتية:

عرف العربُ الزرادشتيةَ عبر مدينة الحيرة التابعة للعرب المناذرة، التي تعرَّفَ منها تجار قريش على ثقافةِ الفرس وعلومِهم وآدابِهم ومعتقداتِهم، بل لقد

حرصت الطبقةُ الغنيةُ من قريشٍ على إرسال أبنائها إلى مدرسة (جندي سابور) لتعلُّم الزرادشتية، ومن أولئك الحارثُ بن كندةَ وابنُه النضرُ بن الحارث، الذي حال ظهور الإسلام كان يأتي إلى مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحين يفرغ النبي من حديثه يقول: أنا أحسنُ حديثًا منه، ويبدأ يقصُّ على قريش أساطيرَ فارسَ ورستم، لكنها لم تجدْ قبولًا لدى قريش والعرب.

جدير بالذكر إن الزرادشتية يعتقدون بوجود إله واحد هو: (أهوار مزدا)، وهو الإله الحكيم خالقُ الكون، وله ستةُ مساعدينَ خالدينَ، ونبيٌّ واحدٌ هو «زرادشت»، وجعلوا لهم على الأرض رموزًا دائمة وهي: الشمسُ، والنارُ التي يجبُ أن تظلَّ مشتعلةً في المعابد، لتُمثِّل نورَ حكمةِ الإله، وكتابُهم المقدسُ الذي جُمع بعد وفاة نبيهم زرادشت يسمى «الأبستاق». ويؤمنون بانقسامِ النفس إلى قوةٍ مقدسةٍ فيها صفاتٌ معينة، والقوةُ الدنيا تشمل الرذائلَ، ولهم اعتقادٌ في الحياة بعدَ الموت[١].

وقد لعب السريان بعد ذلك دورًا في مساعدة العرب على فهم الحضاراتِ السابقة مثلَ حضارة الفرسِ واليونان، وفي مرحلةِ الدولة الأموية كانوا أصحابَ الفضل في النهضةِ الفكرية التي جعلتِ العالمَ الإسلاميَّ مسرحًا لأهم حركاتِ تاريخِ الفكر، من خلال نقلِ الأفكارِ الفارسيةِ واليونانيةِ إلى الثقافة العربية[٢].

النصرانية:

عرفَ العربُ النصرانيةَ من خلال حركةِ التجارةِ والسفرِ إلى الشام، وتواجدِ الأديرةِ والكنائسِ على طرقِ التجارة، التي تقدم المساعدةَ للمسافرين، وتُبشرُ بالدين النصراني، إضافة إلى انتشار الرهبانِ في الجزيرة العربية، بإيعازٍ من الدولةِ

(١) شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م) كذلك موقع: shrouro.com بعنوان: من هم الزرادشتيون؟.

(٢) رحيم هادي الشمخي، مدرسة جنديسابور في الطب والترجمة وأثرها على العرب، (دمشق: أمل الجديدة للنشر، ٢٠١٥م) ص ٧٠ – ٧٣.

الرومانيةِ الشرقيةِ لأسبابٍ سياسية، ولم تنتشر المسيحية بين عرب الجزيرة بشكل واسع. وقد ساعدتِ الطبيعةُ التبشيريةُ التنصيريةُ المنفتحة على تنصُّر أقوام من العرب مثل: بني تغلب، وقومِ أمرئ القيس، وجانب من قبيلة مذحج الشام، وغسان، ولخم؛ وبرز من شخوصهم المعروفة ممن تنصر عثمانَ بنِ الحويرث، وورقةَ بنِ نوفل؛ بالإضافة إلى بعضِ النازحينَ إلى مكةَ والرقيقِ والغرباءِ.

وبخصوص قصة خلق آدمَ وزوجِه في الديانة النصرانية، فهي نفسُها الواردةُ في سفرِ التكوينِ كما سبق الإشارة إليه معَ تعديلٍ في مفهوم ومآلات الخطيئة، وكان المنَصِّرون في كل زمانٍ ومكان يُركِّزون على قبولِ المسيح أكثرَ من تركيزِهم على أي جانبٍ آخر[١].

الحنيفية:

«الحنفية» هي مِلّة إبراهيم الخليل التي مالت بإيمانها عن النصرانيةِ واليهوديةِ وعبادةِ الأصنام، وحافظت على توحيدِ الله، وحجِّ البيت، واعتزالِ الأصنام، وقد عَبَّر الحنيفيون عن فكرهم التوحيديِّ بمختلفِ الوسائلِ الأدبيةِ من شعرٍ ونثر وحِكَم. وكان البعضُ منهم يوصَفُ بالنبوةِ بالمعنى اللغويِّ للكلمة، وجميعهم كانوا ينتظرونَ ظهورَ نبيٍّ في الجزيرة العربية. وورد ذكرُ بعضِهم على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأسماهم بأهلَ الفترة. ومن أولئك الذين يوصَفونَ بالنبوة لغة: خالدُ بنُ سنان العبسيُّ، حيث رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «هذا نبيٌّ ضيَّعَه قومُه»، ورُوِيَ أن ابنتَه قدِمَتْ على الرسول فبسط لها رداءَه وقال: (هذه ابنةُ نبيٍّ ضيَّعه قومُه)[٢]، وكان أن سمعتِ الرسول يتلو سورةَ

(١) محمد حمزة إبراهيم، الأديان في شبة الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة الخليج العربي، العدد ١ – ٢ يونيو ٢٠١٢، ج٤٠، ٢٠١٢م، ص ١ – ٤١.

(٢) أورده ابن سعد بسنده عن أبي هريرة في الجزء ٣، ص٢٥، وذكره ابن الكلبي في نسب عبس، وذكر أنه من بني مخزوم الذي أطفأ نار الحدثين، وقال المسعودي ذكره أهل الفترة ممن كانوا بين المسيح ومحمد عليهما السلام.

الإخلاص فقالت: «كان أبي يتلو هذه السورةَ»[١].

كذلك قِسُّ بنُ ساعِدةَ الأيادي الذي وصف بالنبوة، ودعا إلى التوحيد وزيادة الوعي، وارتاد ملتقياتِ القبائل في مواسم التجارة، ممتطيًا راحلته خاطبًا في الناس، ويُنسبُ أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال بعد أن سمعَ أبياتًا من شعر قس رَواها أبو بكر الصديق: «رحم الله قِسًا، إني أرجو أن يبعثَه الله أمةً واحدة»[٢].

ويُجمِعُ الرواةُ أن الرسولَ رآه في سوقِ عُكاظ، وهو يركبُ الجملَ الأورقَ ويخطبُ في الناس قائلًا:

> "أيها الناسُ اجتمعوا واسمعوا وعوا، مَنْ عاش مات، ومَن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، آياتٌ محكمات، مطرٌ ونبات، آباءٌ وأمهات، وذاهبٌ وآت، ضوءٌ وظلام، وبِرٌّ وآثام، ولباسٌ ومركب، ومطعمٌ ومشرب، ونجومٌ تمور، وبحورٌ لا تفور، وسقفٌ مرفوع، ومِهادٌ موضوع، وليلٌ داج، وسماءٌ ذاتُ أبراج، ما لي لا أرى الناسَ يموتون ولا يرجِعون، أرَضُوا فأقاموا، أم حُبِسوا فناموا؟!".

ومِن أنبياءِ أهلِ الفترة أيضًا رئابُ بنُ البراء الشنّي، وهو من الذين دعوا إلى توحيد الله، وسألَ النبي عنه وفد بني عبدِ قيس، حيث جاء في المعارف: «أن سمِعوا مناديًا ينادي: خيرُ أهل الأرض ثلاثةٌ: رئابٌ الشنّيُّ، وبُحيرَى الراهبُ، وآخرُ لم يأتِ بعدُ» يقصدُ به النبيَّ محمدًا.

كما يوجدُ عددٌ كبيرٌ من الشعراءِ والمفكِّرين الذين اعتنقوا الحنيفيةَ قبلَ البعثة ومنهم: كعبُ بنُ زهيرٍ الأيادي، وعامرُ بن الظربِ العُدوانيُّ، وعلافُ بنُ شهابٍ التميميُّ، وعبدُ الله بنُ الأبرصِ الأسديُّ، وكعبُ بنُ لؤي بنِ غالب، وزيدُ بنُ عمرو بنِ

(١) علي بن محمد ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠١٦م) ج٢، ص٩٩.

(٢) رُوي الحديث عن سعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، ووردت سيرته في البيهقي.

نُفيل القرشيُّ، وكان أغزرَهم شعرًا داعيًا للتوحيد أميةُ بنُ أبي الصلت، ومِن شعرِه:

لله نعمتُنـــا تبـــاركَ ربُّنـــا ربُّ الأنـام وربُّ مـن يتأبـدُ

ومن الجدير بالذكر، لم يكن المؤمنون بالحنفية معنيون بقصة خلقِ العالم وخلقِ آدم وذريته؛ لأنهم كانوا مسكونينَ بالدعوةِ للتوحيدِ والحكمة، والبعدِ عن عبادةِ الأصنام[١]. ويلخص المسعودي صور الإيمان عند العرب، حيث كانت فرقًا[٢]:

- منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور موقنًا بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي.
- ومنهم من أقر بالخالق، وأثبت حدوث العالم، وأيقن بالبعث والإعادة، وأنكر الرسل وعبد الأصنام مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].
- ومنهم من أقر بالخالق وكذب بالبعث والرسل مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].
- ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية.
- ومنهم من عبد بنات الله.

والخلاصةُ أنه عندما تنزلَ الإسلامُ، كان واضحًا وحريصًا منذُ البدايةِ على توحيدِ الألوهية لله؛ لأنَّ الوثنيةَ القرشيةَ، والمفاهيمَ الحنيفيةَ السائدةَ، كانت لا تجهلُ الدينَ

(١) محمد سعيد، أنبياء البدو: الحراك الثقافي والسياسي في المجتمع العربي قبل الإسلام، (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٨م) ص ١٦٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، تحقيق: كمال مرعي، (بيروت: المكتبة العصرية)، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

كليًا، ولا تُنكِرُ الله، بل تجمعُ على نحو مبهم بين المعرفةِ به، وتقديمِ شعائرٍ عباديةٍ للأصنام، ولهذا جاءتْ شهادةُ (لا إله إلا الله) بنفي عبادةِ الأصنام والشركِ بالله.

واستمرتِ الآياتُ الكريمةُ التي تنزلت في مكةَ، لإيضاح أن الله الذي يتكلمُ عنه القرآن، هو إلهُ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ وموسى، والذي يعرفُه القرشيون معرفةً مشوهةً، ولكن يعرفُه اليهودُ معرفةً قويةً. وجاءَ القرآنُ منذُ البدايةِ واضحًا مخاطبًا الناس جميعًا، وإلى الإنسانِ كجنس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥][1].

اليهودية:

اليهود هم أكثر فئة جهزتِ التربةَ لظهورِ الثقافة المتعلقة بقصةِ الخلق؛ لأنهم كانوا معنيينَ بقصةِ الخلق بشكل جوهري، ويستهل سفرُ التكوينِ وهو أولُ أسفار العهد القديم، قصةِ الخلقِ وتفاصيلها، ومِنْ هناك يكملُ التلمودُ والقصصُ الدينيُّ اليهوديُّ قصةَ آدمَ وحواءَ وتفرعاتِها، وهم الذين كانوا يعتبرونَ أن تفاصيلَ قصةِ الخلق جزءًا لا يتجزأ من معتقداتِهم، بعكس كلِّ المعتقداتِ الأخرى السائدةِ في الجزيرة العربية.

وقد شكّل اليهودُ ثقافةً مختلفة ضمنَ الثقافةِ السائدةِ في الجزيرة العربية، وذلك بسبب اختلافهم في أنسابِهم وجذورِهم وثقافتِهم الدينية وحرصهم على احتكار أصولِهم الثقافيةِ ومعتقداتِهم الدينية.

استوطن اليهودُ الجزيرةَ العربية على مرحلتينِ: تعود المرحلةُ الأولى إلى الملكِ سليمانَ، حيث وردت تفاصيلُ هذه العلاقةِ في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا

(١) عبد الجواد ياسين، اللاهوت أنثروبولوجيا التوحيد الكتابي، (الرباط: مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٩م) ص ٢٨٨ – ٣١١.

يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل: ٢٣ - ٢٥]. وورد ما يؤكده في سفرِ الملوكِ بقوله[١]:

"وسمعتْ ملكةُ سبأٍ بخبرِ سليمانَ لمجد الرب، فأتَتْ لتمتحنَه بمسائل* فأتتْ إلى أورشليم بموكبٍ عظيم جدًا، بجمالٍ حاملةٍ أطيابًا وذهبًا كثيرًا جدًا، وحجارةً كريمة، وأتتْ إلى سليمانَ وكلمتْه بكل ما كان بقلبها * فأخبرَها سليمانُ بكل كلامها، لم يكن أمرًا مخفيًا عن الملكِ لم يخبرْها به * فلما رأتْ ملكةُ سبأٍ كلَّ حكمةِ سليمانَ والبيتَ الذي بناه * وطعامَ مائدته، ومجلسَ عبيدِه، وموقفَ خدامِه وملابسَهم، وسقاتِه ومحرقاتِه التي كان يصعدُها في بيت الرب، لم يبقَ فيها روحٌ بعدُ".

أما المرحلةُ الثانية وهي الثابتة تاريخيًا، فكانتْ مع هجومِ الدولةِ الرومانيةِ في القرنِ الأول قبلَ الميلاد على بلادِ فلسطينَ، والمعاملةِ القاسيةِ التي لاقاها اليهودُ على أيدي الرومانِ، وانتهتْ بهدم معابدِهم، وحرقِ كتبهم، وسَبْيِ نسائهم، فكان أن نزح في عام ٧٠ بعدَ الميلاد عددٌ كبيرٌ منهم إلى وادي القرى، ووادي تيماءَ، وبلادِ خيبرَ، وانتشَروا في شَمالِ وجنوبِ الجزيرة العربية. وحال استيطانهم أقام اليهودُ الحصونَ والآطامَ على قِمَم الجبال ليتحصَّنوا بها، وهي من الأساليبِ التي جاء بها اليهودُ من فلسطينَ والشامِ، ويُقدرُ عددُ القبائل اليهودية التي سكنتْ شَمالَ الحجازِ بعشرينَ قبيلةً، وعددُ آطامِهم وآطامُ من نزلَ معهم من العربِ تزيدُ على السبعينَ، جاء النهيُ عن هدمها[٢].

وقد تميزتِ القبائلُ اليهوديةُ بمزاولة النشاط الاقتصاديِّ بمختلفِ فروعِه، خاصةً الزراعةَ؛ حيث أَحضَروا معهم أساليبَ جديدةً في الريِّ والزراعةِ، ومحاصيلَ لم

(١) سفر الملوك.

(٢) خالدة عبد اللطيف ياسين، موقف الرسول من يهود الحجاز، رسالة ماجستير (نابلس: جامعة النجاح الوطنية) ص٣٤ – ٣٦.

تكن معروفةً من قبلُ وكانت متوافرةً في بلاد الشام، لذا تكرسَتْ لهم الثروةُ الزراعية، وكانوا كذلك أهلَ صناعة؛ فقد برعَ منهم «بنو قينقاع» في صناعةِ الأسلحة والأدوات الحربية. أما «بنو أبي الحقيق» فقد اختصُّوا بصناعةِ الذهبِ والحلي، وكان أغنياءُ قريش والعربِ يشترونَ الحليَّ في أفراحِهم منهم، كذلك بَرعوا في التجارة والتعامل بالربا خاصةً، ولأنهم على طريقِ القوافلِ، فقد ذاعَ صيتُهم في التجارة.

واكتسبوا معَ الزمنِ الغلظةَ والقسوةَ في التعامل، وكانتِ الأوسُ والخزرجُ تحسبانِ لهم حسابًا كبيرًا، لذلك فقد اجتهد كل منهم لكسب دعمهم حال اشتعال الحرب بينهما، وكانوا في ما بينهم يتقاتلونَ بشراسةٍ حيث يذكر أن بني النضير وقريظةَ قد أثخَنوا الجراح في بني قينقاعَ، ومزَّقوا شملَهم، بسبب تحالفهم مع الخزرج من دون الأوس[١].

وكان أن اغتر اليهود بقوتهم على بقية العرب، وفي ذلك يَروي ابنُ هشام فيقول: إنه بعدَ غزوةِ بدرٍ وانتصارِ المسلمين، جاء الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم إلى حي بني قينقاع، وجميعُهم بسوقِهم وقال: «يا معشرَ اليهودِ احذروا منَ الله مثلَ ما نزلَ بقريشٍ من النقمةِ، وأسلِموا فإنكم قد عرفتُم إني نبيٌّ مرسلٌ، تجدونَ ذلك في كتبِكم وعهدِ الله إليكم»، فما كان منهم إلا أن ردوا عليه بكلِّ وَقاحةٍ وجرأةٍ قائلين: «يا محمدُ لا يغرنَّك أنكَ لقيتَ قومًا لا علمَ لهم بالحرب فأصبتَ منهم فرصةً، إنا والله لئنْ حارَبناك لتعلمَنَّ أنا نحنُ القومُ»[٢].

حظي اليهودُ بمكانة عندَ العرب، ويؤكد ابنِ هشام ذلك حيث يروي: «إن رجلًا من يهودِ الشام يُقال له ابنُ الهيبان، قدم على عرب قُبيلَ الإسلام بسنينَ فأقام عندهم، فكنا إذا قحطَ عنهم المطرُ قالوا له: أخرجْ يا ابنَ الهيبان فاستَسقِ لنا،

(١) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية والإسلام، (القاهرة: مطبعة الاعتماد، ١٩٢٧م) ص ١٢٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، (القاهرة: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥م) ج٢، ص ٣٣٤.

فيقول: لا والله حتى تُقدِّموا بينَ مخرجِكم صدقةً، فيقولون له كم؟ فيقولُ: صاعًا من تمر أو مُدّين من شعير، ثم يخرجُ بهم إلى ظاهر حرَّتِهم فيستَقي لهم، فلا يبرحُ مجلسَه حتى تمرَّ السحابة ويسقون، وقد فَعل ذلك غيرَ مرةٍ ولا مرتينِ ولا ثلاثًا»[١].

تجدر الإشارة إلى أن يهودَ الجزيرة العربية قد انقطعوا من الناحية الأنثروبولوجية عن بقية اليهود، إذ لا يوجدُ في المصادر اليهودية أي ذكر عنهم؛ لأنهم قطَعوا كلَّ صلاتِهم بالطوائفِ الأخرى، وامتزجَوا بالمكوّن العربي، واكتسبَوا صفاتهم الاجتماعيةَ والثقافيةَ واللغويةَ؛ حيث كانوا يتكلمونَ الفُصحَى ولهم أشعار ورطانةٌ للصلوات. كما لم يكونوا متبعين للقانونِ التلموديِّ الذي ينفي وجود أنبياءَ بعد أنبياءِ العهدِ القديم، وأنه بموجبِ كتابِ تثنية من الإصحاح ١ إلى ١٤، لا بدَّ أن يكونَ الأنبياءُ مِنْ بني إسرائيل، أما اليهودُ في الجزيرة فكانوا غيرَ تلموديين، ويؤمنونَ بظهور نبيٍّ مِنْ غيرِ بَني إسرائيلَ[٢].

ولهذا فقد كان اليهود يحدثونَ العربَ عن التوحيدِ وعظمةِ الله، وقصةِ الخلقِ، وآدمَ وزوجِه، والجنة والنار، ويظهرونَ معايبَ الأوثانِ والأصنامِ، ويذكرونَ قصصَ الأنبياءِ، ولم يكن الغرضُ دعوةَ العربِ لدخولِ اليهودية، فدينهم مغلقٌ وعنصريٌّ، ولا يريدونَ أن يدخلَ فيها إلا مَنْ ورِثَها من أنجالِ أصحابِ العهدِ القديم، شعب الله المختار بزعمِهم.

وفي ذلك يَروي ابنُ هشام أن سلمة من أصحاب بدر قال: «كان لنا جارٌ من يهودِ بن عبدِ الأشهل، قال: فخرجَ علينا يومًا من بيتِهِ، فذكرَ القيامةَ والبعثَ والجنةَ والنار، قال: ذلك لقومٍ أهلِ شركٍ وأصحابِ أوثانٍ لا يرونَ بعثًا بعدَ الموت، فقالوا له: ويحكَ يا فلانُ أوتَرى أنَّ هذا كائنٌ أن الناسَ يُبعَثونَ بعدَ موتِهم إلى دارٍ فيها جنةٌ ونارٌ، ويُجزَونَ فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يُحلَفُ به ويودُّ

(١) المرجع السابق، ص ٧٤.
(٢) ولفنسون، مرجع سابق، ص ١٢٢.

أنَّ له عظةً من تلك النار أعظم تنوّر في الدار يحمونَه يُدخِلونَه إياه فيظنونه عليه بأنْ ينجو من تلك النار غدًا، فقالوا له: ويحكَ يا فلانُ فما آيةُ ذلك. قال: نبيٌّ مبعوثٌ من نحوِ هذه البلاد، وأشار بيدِه إلى مكةَ واليمن».

على أن القصصَ الدالة على انتظارِهم بعثَ النبي كثيرة، نذكرُ منها قصةُ إسلامِ عبدِ الله بن سلام؛ حيثُ كان مِن كبار يهودِ المدينة، وعندما أسلمَ قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن اليهود قومٌ بُهتٌ، وأنَّهم إن يعلموا بإسلامي بَهتوني، فأرسِلْ إليهم فسَلْهم عني، فأرسَلَ إليهم وقال: أيُّ رجلٍ ابنُ سلام فيكم؟ قالوا: حَبرُنا وابنُ حَبرِنا، وعالمُنا وابنُ عالمِنا، فخرج عبدُ الله فقال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فقالوا شرُّنا وابنُ شرِّنا، وجاهلُنا وابنُ جاهلنا»، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

كذلك ما جاء عن أهل السيدةِ صفية بنتُ حييّ بنِ أخطبَ حيث أورد ابن هشام عنها قائلًا: «لم يكن أحدٌ من ولدِ أبي وعمي أحبَّ إليهما مني، لم ألقَهما قطُّ أهشُّ إليهما إلا أخذني دونَه، فلما قدم الرسول إلى قباء غدا إليه أبي وعمي مغلِّسينَ (من الفجر)؛ فوالله ما جاءانا إلا معَ مغيبِ الشمس، فجاءانا فاترَيْنِ كسلانَيْنِ ساقطَيْن يمشيانِ الهوينى، فسمعتُ عمي يقول لأبي أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: تعرفُه بذمتِه وصفتِه؟ قال: نعم والله، قال: فماذا في نفسِك منه؟ قال: عداوتُه والله ما بقيت»[1].

وقد كان أبو السيدةِ صفيةَ كبيرَ بني النضير، وزعيمَ اليهود في يثربَ، وعالمًا من علمائهم، وقد أقر النبيُّ نسبَه إلى هارونَ، وذلك عندما قال للسيدةِ صفيةَ: (إنك لابنةُ نبيٍّ (يقصدُ هارونَ)، وإن عمَّك نبيٌّ (يقصدُ موسى)، وإنكِ لتحتَ نبيٍّ (يقصدُ ذاتَه) ففيم تفخَرْنَ عليهاِ؟ ثم قال: اتق الله يا حفصة).

وعندما ظهر الإسلامُ ولم تستطع قريشٌ القضاءَ عليه، كان النضرُ بنُ الحارثِ

(١) ابن هشام، مرجع سابق. ج١، ص٥١٧.

مِن أشدِّ الناس عداوةً للرسول، وقال لقريش: إنه أمرٌ عظيم، وذهب مرسولًا إلى اليهود من قريش معَ عقبةَ بن أبي مُعَيط للاستفسارِ عن أمر هذا النبيِّ؛ لأنَّهم أهلُ علم، فقال لهما اليهودُ: اسألوه في ثلاثٍ؛ فإنّ أخبرَكم بها فهو نبيٌّ؛ فإنْ لم يفعلْ فإنَّ الرجلَ مُتقوِّلٌ، والقصةُ طويلةٌ، ونزلتْ فيها آياتٌ محكماتٌ كثيرات.

والمغزَى هو تبيان المكانةُ الروحيةُ التي أعطتْها العربُ لليهودِ، في علوم الأنبياءِ والتوحيدِ وخلقِ الكون، وفي الوقتِ نفسِه كانت طائفةُ اليهودِ الموجودةُ في يثربَ تنتظر نبيًا، وعندما سمعوا آياتِ القرآن الكريم تدعوا إلى التوحيدِ، وتدعوا إلى تمجيد إبراهيمَ وموسى، عقَدوا آمالًا كبيرةً عليه أن يكون منهم ومعَهم، وقد نادى فيهم أولُ يهوديٍّ رأَى النبيَّ في يثربَ بأعلى صوته (هذا جدُّكم قد جاء).

وفي المقابلِ فقد دعاهم الرسولُ باللين والحُسنى إلى دخولِ الإسلام، وقابله اليهودُ بالتعنّتِ، ونزلَ فيهم قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

كما عاملهم منذ وصوله بالعدل والإحسان حيث أصدر وثيقة تاريخية مهمة عرفت بوثيقة أو صحيفة المدينة، التي أورد فيها نصوصًا خاصة بعشائر اليهود قاطبة كقوله: «وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»، وهكذا جرى ذكر كل عشيرة، مؤكدًا على أن من اتبعه من اليهود فإن له النصر والأسوة[1]. وقد أسلم اثنانِ من أحبار اليهود على عهده صلى الله عليه وآله

(١) خالد ياسين، مرجع سابق، ص٧١ – ٧٥؛ ويلاحظ استخدام مصطلح (أمة واحدة)، أي جماعة سياسية تستند إلى العقيدة، وليس المكون القبلي كما قبل الإسلام.

وسلم وهم: عبدُ الله بن سلام، ومخيريقُ بنُ النضير، وورد في الحديث أنه قال: «لو آمنَ بي عشرةٌ من اليهودِ لآمنَ بي اليهودُ»، وفي رواية كلُّهم.

ومع ابتداء العداوةِ والحربِ من اليهود نحوَ الرسول، وأخذهم موقفَ العداء منه بأسبابٍ عنصريةٍ وعرقية لكونه ليسَ مِنْ بَني إسرائيلَ. نزلَ فيهم قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقولُه تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

وكان من جراء ذلك أن حاربوه سرًا وعلانية، وتحالفوا مع القوى المناوئةِ له في محيطِ المدينة وخارجَها، ودخلوا في مجادلاتٍ عقائدية لإحراجه والتشكيكِ في دعوته، وصولًا إلى ذروة الصدام المسلح الذي نتج عنه خروج بَني قينقاع في السنة الثانية، ثم بَني النضير في السنة الرابعة، وأخيرًا بني قريظةَ في السنة الخامسة، وصولًا إلى غزوة خيبرٍ في السنة السابعة.

تجدر الإشارة إلى أن آيات الله البينات من سورةُ البقرة قد تناولت بني إسرائيل ويهودَ المدينة باعتبارهم شعبًا واحدًا ممتدًا تاريخيًا، وتُظهِرُ الآياتُ بأنهم أمةٌ عاصيةٌ بطبيعتهم، وشعبٌ مفطورٌ على خصائصَ مناقضة للإيمان، حيث يبدأ النقدُ الإلهي بتذكير بَني إسرائيلَ بنعمةِ الله التي أنعمَها عليهم في الآيةَ رقم (٤٠)، ثم يدعوهم إلى الدخول في الدينِ الجديدِ الذي جاء مصدقًا لما معهم في الآية رقم (٤١)، وتقرُّ صراحةً بالعلاقةِ الخاصة التي كانت تربطُهم بالله الذي فضَّلهم على العالمين في الآيةِ رقم (٤٧)، ثم تتصاعدُ حِدَّةُ النقد إلى اتهامِهم بقتلِ الأنبياء ومِنْ ثَمَّ لعنَهم ووصمهم بالكفر في الآياتِ (٨٨ – ٩٠)، وتُنبه النبيَّ إلى أنهم لن يؤمنوا له حتى يتبعَ ملتَهم في الآية رقم (١٢٠)[1].

ولفهمٍ أعمقَ للثقافةِ اليهودية ومصادرِها، لا بدَّ من معرفةِ مصادرِ العلم فيها، التي هي خليطٌ من الوثائقِ المنزلة، وأخرى ملهمةٌ، وثالثةٌ من القَصَصِ الدينيِّ

(١) عبد الجواد ياسين، اللاهوت، مرجع سابق، ص٣٨٣ – ٣٨٥.

اليهودي، أخذَتْ جميعًا قرابة ألفِ عام حتى تبلورَتْ واكتملتِ ضمن ما يعرف بالتوراةُ، إضافة إلى غيرها من الكتب وهي على النحو التالي[1]:

كتب اليهود:

الكتاب المقدس: ويشملُ ثلاثةَ أقسام: التوراةُ، وأسفارُ الأنبياء، وأسفارُ الحكمةِ الشعريةِ في مجموعها تُسمَّى التناخ (Tanakh):

أولًا: التوراةُ: هي مجموعةٌ كبيرةٌ من الكتب، تبلورَتْ على مدَى ألفِ عام ويقدسُها اليهودُ، وتحظى الأسفارُ الخمسةُ الأولى بقدسيةٍ خاصة، وهي موجودةٌ في كل معابدِهم، ويعتقدُ بعضُ اليهود أنَّ هذه الأسفارَ الخمسةَ من الوحيِ المباشرِ من الله للنبيِّ موسى، وأحيانًا تُسَمَّى توراةَ موسى، وتسمى بالعبرية «حوميش موشيه» وهي: سفرُ التكوين، وسفرُ الخروج، وسفرُ اللاويين، وسفرُ العدد، وسفرُ التثنية، وتُعتبرُ التوراةُ مرادفةً لكلمةِ الشريعة.

ويعتقد الكثيرون أن التوراةَ قد ضاعت وأُحرقت بعد دمار المعبد في أورشليم سنة ٥٨٧ ق. م على يدِ البابليينَ، والمقصودُ بذلك الأسفارُ الخمسةُ «التناخ»؛ لأنها كانت مكتوبةً في اللفائفِ الكبيرة والغاليةِ الثمن، ومتوفرةٌ في المعبد فقط، وليست مشاعةً عندَ الناس، وإن عزرا (قد هيأ قلبَه لطلبِ شريعةِ الربِّ والعملِ بها، وليعلِّمَ إسرائيلَ فريضةً وقضاءً)، وجاء في إنجيل مَتّى ١٥: ١ – ٩: أنَّ عيسى قال لليهود: «أبطلتُم كلمةَ الله بسبب تقليدِكم».

ثانيًا: التلمودُ: وهو كتابُ تعليم الديانةِ اليهودية، ويشملُ تدوين نقاشاتِ الأحبار حولَ الدين اليهودي، وتعليمِ الدين منْ خلالِ تراثٍ شفهيٍّ في الأصل، حيث يَدَّعي اليهودُ أنَّ موسى حفظَه لدَى هارون، وتوارثَه الأحبارُ بعدَ ذلك. ويتشكلُ التلمود من عنصرينِ هما: المشناه: وهو النسخةُ الشفهيةُ الأولى من

(1) Jewish Encyclopedia, Jews and Judaism.

الشريعة اليهودية، والجمارا: وهو الذي يُعَلِّق على المشناه، ويشرحُها ويُفسِّرها. كما يحوي التلمودُ بشقَّيهِ ملخصَ الأفكارِ التشريعيةِ والأساطيرِ، والقصصَ التاريخيةَ تصوريًا. وما جاء في التلمود مُلزِمٌ للشعب اليهودي، وله أكثرُ من نسخةٍ، والتلمودُ البابلي شائع أكثر من التلمودِ الأورشليمي، ويتشكلُ البابليُّ من عشرينَ مجلدًا تحوي أكثرَ من ثلاثةِ آلافٍ صفحةٍ، تمتْ زيادتُها وتشكيلُها عبرَ السنواتِ والقرونِ.

ويُفسِّر البعضُ قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، إن اليهودَ أخفوا بعضًا مما أُوحي إلى موسى، وحفِظوها شفهيًا على شكل التلمود، وكانوا يحاولونَ إخفاءَ عقوبةِ الزنى عن الرسول في كتبِهم في الحادثةِ المشهورة. علمًا أنه حتى في سفر الخروج (٣٤: ٢٧) وَرَدَ أن الله قال لموسى: «اكتبْ لنفسِك هذه الكلماتِ»، أي أنَّ الأسفارَ المقدسةَ لم تُثبِتْ وجودَ شريعةٍ شفهية، وقال عيسى في إنجيل متى: ١٥: ١- ٩: «أبطلتُم كلمةَ الله بسبب تقليدِكم». ويتفرعُ من التلمودِ كتابُ الهلاغا أو Common Law وهي بمنزلة مدوَّنةٍ للأسئلة والأجوبة حولَ الشريعةِ اليهودية.

ثالثًا: تفسيراتُ وترجماتُ الكتبِ المقدسة: عندما حلت الآراميةُ محلَّ اللغةِ العبرية، أصبحتْ تُضَافُ الترجمةُ الآرامية لكل جزءٍ من الكتاب المقدس، وتُسَمَّى الترجومَ (Targum) مصحوبةً بالتأويلاتِ، والمعاني الباطنيةِ للنصِّ والأساطير. الترجمةُ الثانية شفهيةٌ وتسمى: المشنا أو التوراة الشفاهية: وهي تفسيرٌ تحليليٌ للتوراة المكتوبة.

رابعًا: كتابُ الأجداه (Aggadah) أو (Haggadah): ويتكونُ من نصوصٍ دينية تتضمنُ القصصَ الفولكلوريةَ، وتفاصيلَ القصصِ التاريخية، والمحتوى الأخلاقيَّ، والدينيَّ للأساطير، ونصائحَ في الأعمال، والطبَّ الشعبِّي، وقصصَ وأساطيرَ الأنبياء بالتفصيل، وأقوالَهم وحياتَهم بصبغة خيالية، وروايات خرافيةً عن الأنبياء، كما يروي تقاليد الأحبار وأفكار علماءِ اليهود، والهدف تحقيق

فهم أعمقَ للديانةِ اليهودية. ويعتبر كتاب الأجداه الجزءَ غير الموصول بوحي في التلمود، ومِنْ عملِ علماءِ اليهود لنشرها بين العوام، وهذا الكتابُ بتفرعاته ومختلفِ طرق حفظه، يعتبرونَه المرجعَ في الأساطير اليهودية، ويتهمونَ أصحاب الدياناتِ الأخرى بأنهم يأخذونَ منه.

خامسًا: (القبالا) الكتابُ الباطنُ: وهي فلسفةُ القبولِ، القبولِ بالتراث، القبولِ بالقدر بالله، وهي السلفيةُ اليهوديةُ، ولها فلسفةٌ باطنيةٌ في قبول النصوص، وغايتُها الوصولُ إلى الله، ومِنْ أهمِّ مؤلفاتِ هذه الفلسفةِ «الزوهار».

سادسًا: المدراش **Midrash**: وهو من مدارسِ التفسير.

سابعًا: الكتبُ غير القانونية **Apogrypha**: وهي الأسفارُ والنصوصُ غيرُ المعترف بها دينيًا، وكذلك الأسفارُ المنسوبة لغير مؤلفيها، وتُسَمَّى Pseudepigrpha[1].

من هذه المصادر الدينية والتاريخية المتنوعة كان اليهودُ يُحدِّثون عن قصة الخلق، وبدايةِ العالم، وقصصِ الأنبياء، والآخرةِ، والجنةِ والنارِ، ولم يُجاريهم أحدٌ في الجزيرة العربية في ذلك؛ حتى المسيحيةُ التي تواجدَتْ بشكلٍ أساسيٍّ في شمالِ الجزيرة، كانت تستند في روايتها وتفسيرها لقصة الخلق إلى سفرِ التكوين باعتباره سفرًا مُلْهَمًا من الله[2].

حدثوا عن بني إسرائيل:

مِن هذا المنطلقِ سمحَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام لليهود أن يحدثوا في قصةِ الخلق والقصصِ التي جاءتْ في كتبهم حيث ورد عنه أنه قال: «حدِّثوا عن بني إسرائيل

(1) (The Infinite Chain: Torah, Mesorah, and Man) Nathan Cardozo, Philipp Feldheim 1989.

(٢) هنري بولاد، الإنسان والكون والتطور بين العلم والدين، (بيروت: دار المشرق، ٢٠٠٨م) ص١٤٠ – ١٤٤.

ولا حرج»، بمعنى حدِّثوا عن بني إسرائيلَ بما لا تعلمون كذبَه، وعليه فقد كان اليهودُ يقرؤون التوراةَ بالعبرية، ويُفَسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المروي عن أبي هريرة: «لا تُصدقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم» رواه البخاري.

على أن النبي عليه الصلاة والسلام قد نهى وبشدة عن كتابة ما يورده اليهود من تفسير ورواية، وهو ما قاله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن الخطاب حين اصطحب معه كتابًا كان قد أخذه منهم، وأخذ يقرأه على رسول الله، فغضب النبي وقال: «لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيةً، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى حيًا ما وسِعَه إلا أن يتبعني»[1].

وفي روايةٍ أخرى عن عمر بن الخطاب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأله قائلًا: «ما هذا في يدك يا عمر؟ قلتُ: يا رسولَ الله كتابٌ نسختُه لنزداد به علمًا إلى علمنا، فغضب رسولُ الله حتى احمرَّتْ وجْنَتاه، ثم نودي بالصلاةِ جامعة وقال: أيُها الناسُ لقد أوتيتُ جوامعَ الكلم وخواتيمَه، واختُصر لي اختصارًا، ولقد أتيتُكم بها بيضاءَ نقية، فلا تُهوِّكوا ولا يغرَّنكم المتهوِّكون». وظلَّ معه الرسولُ يمحو بريقِه ويقول: «لا تتَّبِعوا هؤلاءِ فإنّهم قد هوَّكوا وتهوَّكوا حتى محا آخره حرفًا حرفًا»[2]، أي: أنَّ الإسلامَ يجيزُ التحدثَ والتذاكرَ الشفهيَّ بعلومِ اليهود، وليس كتابتَها وحفظَها. ومن بعد ذلك كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه مِنْ أحرصِ الناسِ تتبعًا ألا يكتبَ المسلمون شيئًا من كتبِ اليهود، ورُويَ عنه في ذلك كثيرٌ من الروايات.

على أن الثقافةَ اليهودية قد انتقلتْ إلى المسلمين بصورة ممنهجة وأساسية، من قِبَل ثلاث شخصيات يهودية أعلنت إسلامها تباعًا وهم: عبدُ الله بن سلام الذي ذكرنا قصةَ إسلامه، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، ويضاف إليهم عدد من أبناء العرب

(١) مسند الإمام أحمد، حديث (١٥١٥٦) وإسناده ضعيف.

(٢) ابن كثير، التفسير، ٣١٥/٤.

الذين نقلوا عنهم كأبي هريرة وعبد الله بن عباس وآخرين. وكانت الشخصيات اليهودية السالفة الذكر من علماء الديانة اليهوديةِ قبلَ إسلامهم، وبالتالي فقد كانوا مطَّلِعين على كتبِها وعلومِها، ويُعتبَرون بمنزلةِ البوابة التي عبرَتْ منها كثيرٌ من قصصِ اليهود إلى الثقافةِ والمجتمعات الإسلامية، وفي ما يلي نبذةٌ بسيطةٌ عن كلٍّ منهم:

عبدُ الله بنُ سلام:

هو أبو يوسفَ عبدُ الله بنُ سلام بن الحارث، مِن علماءِ بَني قينقاعَ، وهو من ذريةِ يوسفَ عليه السلام، كان اسمُه الحصينَ، وسماه الرسول عبد الله، وأسلَم بعد أنْ سأل النبيَّ أسئلةً لا يعرفُها إلا نبيٌّ، وعندما أجابه الرسولُ أسلمَ، ونزلَتْ فيه الآية الكريمة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وبعد إعلان إسلامه جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لو آمنَ بي عشرةٌ من اليهود لآمنَ بي اليهودُ». روَى الحديثَ عن الرسول، وشهدَ مع الخليفة عمرَ بن الخطاب فتحَ بيتِ المقدس، وعدَّه البعضُ من أهل بدر، وكان من علماء اليهود بشهادة النبيِّ له[1].

كعبُ الأحبار:

هو كعبُ بن مانع الحميريُّ أبو إسحاق، المعروفُ باسم كعبِ الأحبار مِنْ أهل اليمن، أدرك حياةَ النبيِّ، وأسلم في خلافة أبي بكر، وكان مِن علماء اليهود، وراويًا لكثير من قصص وأساطير بني إسرائيلَ، روى له البخاريُّ ومسلمٌ والنسائيُّ وابنُ ماجه، وكانت رواياتُه وتفسيراتُه لبعض الآيات وقصصُ الأنبياء والأقدمين، هي مصدرُ روايات عديد من الصحابة وعلى رأسهم أبو هريرة رضي الله عنه وعدد من التابعين؛ وكان مصدقًا عند معاوية بن أبي سفيان ويحظى بثقته[2]، فهو من

(١) سير أعلام النبلاء، موقع إسلام ويب، ج ٢، ص ٤١٤. www.islamweb.net

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير (البداية والنهاية)، مكتبة المعارف، بيروت، ج ٥، ١٩٩١م.

خيار الأحبار كما يقول ابن الجوزي، وإنْ كان يختلف معه في بعض مروياته لعدم مطابقتها الواقعَ.

كما اختلف كعب الأحبار مع السيدة عائشة رضي الله عنها في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨]، فقال كعب: إن هارونَ المذكورَ ليس هارون أخو موسى، فكذبته عائشةُ، فرد عليها قائلًا: إذا كان النبيُّ قال هذا فهو أعلم وأخبر، وإلا فإني أجدُ بينَهما ستمائة سنة، فسكتتْ عائشةُ.

واختلف مع أبي هريرة في تحديد ساعة يوم الجمعة التي لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو قائمٌ يصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه، فأجابه كعبٌ أنها جمعةٌ واحدةٌ في السنة، فرد عليه أبو هريرة بأنها كلُّ جمعة، وحين رجع كعبٌ إلى كتبِ اليهود وافقه على رأيه.

وذكر ابن تيمية قائلًا: «لما دخلَ عمرُ بن الخطاب بيتَ المقدس، وأراد أن يبنيَ مصلى للمسلمين، قال لكعب: أين أَبنيه؟ فقال ابنه: خلفَ الصخرة، قال: خالَطَتْك يهوديةٌ يا ابنَ اليهودية، بل أبنيه أمامَها»، وذلك لأن اليهودَ تعظِّمُ تلك الصخرةَ، ولم يأتِ دينُنا بأيِّ فضلٍ لها[1].

لهذا كان عبدُ الله بنُ عمر إذا دخل بيتَ المقدس صلى في قِبليِّه، ولم يذهبْ إلى الصخرة، وكانوا يكذِّبون ما ينقلَه كعبٌ أن الله قال للصخرة: أنتِ عرشي الأدنى، ويقولون: كيف تكونُ الصخرةُ عرشَه الأدنى، وهو مَنْ وسعَ كرسيُّه السماواتِ والأرضَ.

وفي أحاديثه روَى كعبُ الأحبار قصةَ الخلق مِنْ زوايا عديدةٍ، نقلًا عن كتبِ وأساطيرِ اليهود، وبشكل متقطع، وليس سردًا كاملًا حسبَ التسلسلِ التاريخي، كما فعلَ وهبُ بنُ منبه لاحقًا.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٥٣).

http://islamport.com/d/3/tym/1/40/368.html

كان يجلسُ مع معاويةَ، وكان يحضرُ إلى مجلسِه في المدينة عددٌ ممن صحب رسول الله مثل أبي هريرةَ وعبدُ الله بن عباس وغيرهما، وكان يحدِّثُ بقصص أنبياءِ بني إسرائيل، وقصةِ الخلق، وبدايةِ الكون، وما وردَ في كتب اليهودِ عن وصفِ النبيِّ. وجاء في الطبقاتِ لابن سعد: أن أبا هريرة قال لكعب: «إني جئتُكَ لأطلبَ عندك العلمَ وأستَقي مِنْ مَعينِك الغزيرِ»[١].

ولهذا كان أبو هريرةَ ملازِمًا لكعب الأحبار، حتى أنه استقى كثيرًا من علمِه إلى الدرجة التي قال فيها كعبٌ: «ما رأيتُ أحدًا لم يقرأ التوراةَ وهو أعلمُ بما فيها من أبي هريرةَ، فقد كان يحفظُها». وكان ذلك سببًا في بروز إشكالياتٍ جمةٍ كما جاء في البدايةِ والنهايةِ عن مسلمِ بنِ حَجّاج الذي قال لمن يروي عن أبي هريرة: «اتقوا الله وتحفَّظوا في الحديث؛ فوالله رأيتُنا نجالسُ أبا هريرة فيحدِّثُ عن رسول الله ويحدِّثُ عن كعب الأحبار، فأسمع بعض مَنْ كانَ معَنا يجعلُ حديثَ رسول الله عن كعب، وحديثَ كعبٍ عن الرسول»[٢].

وهبُ بنُ منبّه:

هو الإخباري القَصَصيّ وهبُ بنُ منبّه بن كاملِ بنِ سيج بنِ ذي كبار، وُلدَ في صنعاء لأبٍ من أصلٍ خُراسانيٍّ من هَراةَ فترةَ خلافةِ عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه، وتوفي عام ١١٠ هـ أيام خلافةِ هشامِ بن عبد الملك، وكان يتردَّدُ على خراسانَ ويسافرُ من بلاده صنعاءَ إلى الحجازِ، وروى عنه أبو زرعةَ والنسائيُّ والعجلي وكذلك في الصحيحَيْنِ.

كان لديه علمٌ واسعٌ بالإسرائيلياتِ وعلومِ أهل الكتاب، ومثَّل المدرسةَ اليمانيةَ التي التزمتْ بالنهجِ القصَصيِّ الأسطوريِ، ويُقَال إنَّه كان يحفظُ سبعينَ كتابًا منها، وقيل: تسعينَ كتَابًا كما جاء في الطبقاتِ لابن سعد.

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (تذكرة الحفاظ)، جامعة البويرة، تصوير دار الكتب العلمية، ج ١، ص ٣٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ج ٨، عنوان أبو هريرة الدوسري، ص٩٣.

وقد حفظ علمه في عدد من الكتب التي فقد أغلبها من قبيل كتاب: المبتدأ، وفتوح البلدان، والمغازي، والفتوح، وقصص الأخيار، وكتاب في القدر، وقصص الأنبياء، وتفسيرِ القرآن؛ ولم يبق منها إلاّ كتابَه «التيجان في ملوك بني حمير»[1].

وقد جاء تأثيرُه الواسعُ على الثقافةِ الإسلامية من علمِه الغزير بكُتبِ بني إسرائيل، وقصصِ الأنبياء، وأساطيرِ العهدِ القديم، والتراثِ اليهوديِّ الشفهي، حيث كان يحدِّثُ بأسلوب قصَصي، ويُعيدُ صياغةَ الأساطير لتكونَ مقبولةً في المجتمع الإسلامي، خاصةً تلك التي لم يتحدثْ عنها القرآنُ.

ويعتبر مِنْ أوائل مَنْ قدَّم قصةَ الخلقِ في كتبه، ومنها التيجانُ؛ حيثُ سردَ بأسلوب قصصي كيفَ خلق الله الكونَ والسماواتِ والأرضينَ السبع، وكيف خُلق آدم، وأصبحَ مصدرًا أساسيًا للمفسِّرين والقَصّاصين في السنواتِ التالية. وفي ذلك فقد ذكر في كتاب «التيجان» نزولَ آدمَ وحواءَ من الجنةِ فيقول: «فنزلَ آدمُ على جبلِ لبنانَ، وقال قوم: على الجوديِّ، ونزلتْ حواءُ على جبلِ الطورِ، وأن آدمَ لما غوَى وأمرَه الله بالخروج من الجنةِ، أخذَ جوهرةً منها يمسحُ بها دموعَه، فلما صار إلى الأرض لم يزلْ يبكي ويستغفر الله، ويمسح دموعَه بتلك الجوهرة، حتى اسودَّتْ من دموعِ الخطيئة، وتابَ اللهُ على آدم».

في كتبه الأخرى ومؤلفاته كانت له روايات أخرى عن نزول آدم وحواء مثل تلك التي رواها ابن قتيبة في (المعارف)، وهذا نابع من أنه كان يروي قصصًا وأساطير وليست بحثًا علميًا محكمًا، وبالتالي تتغير الأحداث والأماكن بتغير الرواية وزمنها.

وقد لازم عبد الله بن عباس مدة ثلاث عشرة سنة، ومعروف أن ابن عباس قد تحدث عن قصة الخلق وبداية الكون، وصنف وكتب في الأحاديثِ والدينِ والتاريخ.

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، ج٤، ص٥٤٥، موقع إسلام ويب.

عبد الله بن العباس:

هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي أُلصِقتْ به كثيرٌ من الإسرائيليات، ومن المعروف عنه تكلمه في قصةِ الخلق وتفاصيلِها نقلاً عن كتب اليهود وروايتهم، وليس لها صفةُ الرفعِ إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ كما قام الوضاعون والمدلِّسون بإلحاقِ بعضٍ من قصَص الخلقِ كذبًا له، لإشباعِ الرغباتِ في معرفةِ تفاصيل إضافيةٍ لهذه القصة.

دعا له الرسول بقوله: «اللهم فقهه في الدين»، كما وصفَه بقوله: «إن حبرَ هذه الأمة عبدُ الله بن عباس»، ولهذا فقد حظي بمكانة كبيرة عند صحابة رسول الله فكان عمرُ بن الخطاب يلقبه بفتىَ الكهول، ويصفُه سعدُ بن أبي وقاص بقوله: «ما رأيتُ أحدًا أحضرَ فهمًا، ولا أكبرَ لبًا، ولا أكثرَ علمًا، ولا أوسعَ حلمًا من ابن عباس، ولقد رأيتُ عمرَ يدعوه للمعضِلاتِ، وحولَه أهلُ بدر من المهاجرينَ والأنصارِ، فيتحدثُ ابنُ عباس فلا يجاوزُ عمرُ قولَه». وقال عطاءُ بن أبي رباح: «ما رأيتُ مجلسًا أكرمَ من مجلسِ ابنِ عباسٍ، ولا أعظمَ جفنةً، ولا أكثرَ علمًا، أصحابُ القرآنِ في ناحية، وأصحابُ الفقهِ في ناحية، وأصحابُ الشعرِ في ناحية، يوردُهم في وادٍ رحبٍ». وقد وصفه كعبُ الأحبار بقوله: «ربانيُّ هذه الأمةِ، هو أعلمُ مَن مات ومَن عاش»[١].

وبيّن ابن سعد ملامح منهج ابن عباس العلميُّ حيث قال: «كان ابنُ عباسٍ إذا سُئِلَ عن الأمر، فإن كانَ في القرآن أَخبرَ به، وإن لم يكنْ في القرآن وكان عن رسولِ الله وكان عن أبي بكر أو عمرَ أَخبرَ به، فإنْ لم يكنْ في القرآن في شيءٍ من ذلك اجتهدَ رأيَه»[٢].

صادقَ ابن عباس وهبَ بنَ منبه لسنواتٍ طويلةٍ وتأثرَ بعلمِه الواسعِ عن كُتبِ اليهود، ومن هنا جاء تفصيله عن قصة الخلق مرتكزًا على إعادته لأخبارِ التوراة،

(١) ابن سعد، الطبقات، ١/ ٣٧٠.

(٢) ابن سعد، الطبقات، مرجع سابق ١/ ٣٦٥.

أو أخبار يمكنُ الرجوعَ بها إلى أساطيرِ الفرسِ والهند، مع سعيه في توجيه تلك الأخبار توجيهًا يخرجُ بها عن انتمائِها التوراتيِّ أو الفارسيِّ والهندي، كما وسّعَ من روايته لتشمل أخبارًا غير موجودة في كتب اليهود أو في غيرِها[١].

على أن ذلك لم يمنع من وضع المدلسين على لسانه، ومن ذلك ما رواه الإمام الشافعي بقوله: «لم يثبتْ عن ابنِ عباس في التفسير إلا شبيهٌ بمائة حديث»[٢]. وهناك رواة ثقاتٌ لتفسير ابنِ عباس منهم مجاهدٌ، وابنُ جُبير، وعكرمة. أما مَنْ روىَ تفسيرَ ابنِ عباسٍ من الضعفاءِ والكذابين فمنهم محمدُ بن السائب الكلبي، الذي عُرف بكذبه في كل ما رَواه عن ابن عباس، وأضعفُ منه محمدٌ بن مروانَ السديُّ الصغيرُ، وغيرهم.

لذا كان لا بدَّ من التريُّثِ عندَ ذكرِ الرواياتِ والتفاسير عن هذا الصحابيِّ الجليل حبرِ الأمة، مع الإشارة إلى أنه مثل غيره يمكن أن يصيب ويخطئ[٣]؛ لأنه لم يكن معصومًا ودعوة الرسول له أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل، وفي موضع آخر «اللهم علمه الحكمة». وكان يختلف مع الصحابة الأكبر سنًا.

الإسرائيليات وقصة الخلق:

شكلت القصصُ والرواياتُ المأخوذةُ عن الثقافةِ اليهودية المكتوبة والشفهية، التي تتناولُ قصةَ الخلق وبدءَ الكون، وأخبارَ الأمم الماضية، والكونياتِ، وآخرَ الزمان، وقصصَ أنبياءِ بني إسرائيل، وهي ما تسَمَّى بالإسرائيليات، جزءًا كبيرًا من محتوى مرويات المؤرخين والمفسرين المسلمين بعد ذلك، وللأسف فقد كانت جزءًا من حركةٍ

(١) المخلبي، مرجع سابق، ص١١٣.

(٢) حسن سعيد، ابن عباس مدرسته ومنهجه في التفسير، موقع الصراط نهج السعادة والتقدم.
http//:www.al-serat.com/content.php?article&704=part=maintable

(٣) في موقع الإسلام، سؤال وجواب.
https//:islamqa.info/ar/answers/228565/

أعمَّ وأشملَ وهي حركةُ الوضعِ والتقول على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بهدف التشكيك في الدين الإسلامي، وزرع قنابلَ موقوتةٍ تنفجرُ تباعًا في مفاهيم الإسلام.

وقد بدأت ظاهرة وضع الأحاديث في صدر الإسلام ولا سيما في الجانب السياسي تمجيدًا لفئة سياسية على أخرى، كتلك التي مجدت الدولة العباسية وانتقصت من خصومها. كما ظهرَتْ أحاديث تتعصب لجنس من دون آخر، أو للغة ومكان وإقليم عن غيره. وبلغ الاستسهالُ في وضع الأحاديثِ مبلغًا عظيمًا، إلى الدرجة التي يصل إلى مجاملة الحكام كذبًا باسم النبي، ومن ذلك قصةُ القاضي أبي البختري، الذي دخلَ على الرشيد وهو يطيِّرُ الحمامَ فقال له: هل تحفظُ في هذا شيئًا؟ فروَى حديثًا أن النبي كان يطيِّرُ الحمامَ، فأدرك الرشيدُ كذبَه، وقال له: لولا إنكَ من قريشٍ لعزلتُكَ. كذلك الحال مع غياث بن إبراهيمَ الذي دخلَ على المهديِّ وهو يلعبُ بالحمام فروَى له إرضاء حديثَ: «لا سبَقَ إلا في نصلٍ أو حافرٍ أو جَناحٍ»، فقال المهديُّ: أشهدُ أنَّ قفاك قفا كاذب وأمرَ بذبحِ الحمام. [رواه أحمد].

وفي موضوعنا فقد كذب الوضاع ورواة الإسرائيليات على الرسول في قصةِ الخلقِ بأحاديثَ عديدةٍ، نوردُ بعضَها على سبيل المثال، وللأسف فقد حظيتْ هذه الأحاديثُ على الرغم من عدمِ صحتِها بانتشار كبير.

نماذج للأحاديث الموضوعة:

- الحديثُ القدسيُّ: «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأردتُ أن أُعرَفَ فخلقتُ الخلقَ فيه عرفوني (و) كنتُ كنزًا مكنونًا فأردتُ أن أُعرفَ فخلقتُ الخلقَ»، وهو حديثٌ منتشرٌ بينَ الصوفيةِ بشكل خاص، وقد رفضَه شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ في الفتاوى الكبرى، وقال: لا أعرفُ له إسنادًا صحيحًا ولا ضعيفًا[1].

(١) تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية (الفتاوى الكبرى)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م، بيروت، ج٥، ص٨٨.

- حديثُ المسوخ: عن علي أن النبيَّ سُئلَ عن المسوخ فقال: «هم ثلاثة عشرَ: الفيلُ والدبُّ والخنزيرُ والقردُ والجريّثُ والضبُّ والوطواطُ والعقربُ والدعموصُ والعنكبوتُ والأرنبُ وسهيلُ والزهرةُ». فقيلَ: يا رسولَ الله، فما سببُ مسخِهم؟ فقال: «فأما الفيلُ فكان رجلًا جبارًا لوطيًا، وأما الدبُّ فكان مؤنثًا يدعو الناسَ إلى نفسه، وأما الخنزيرُ فكان من النصارى الذين سألوا المائدةَ فلما نزلتْ كفروا، وأما القردةُ فيهودٌ اعتدَوْا في السبتِ، وأما الجريّثُ فكان ديوثًا يدعو الرجالَ إلى حليلتِه، وأما الضبُّ فكان أعرابيًا يسرقُ الحاج بمحجنة، وأما الوطواطُ فكان رجلًا يسرقُ الثمارَ من رؤوس النخيل، وأما العقربُ فكان رجلًا لا يسلَمُ أحدٌ من لسانه، وأما الدعموصُ فكان نمامًا يفرقُ بين الأحبة، وأما العنكبوتُ فامرأةٌ سحرتْ زوجَها، وأما الأرنبُ فامرأةٌ كانتْ لا تتطهرُ منْ حيضِها، وأما سهيلُ فكان عشارًا باليمن، وأما الزهرةُ فكانت بنتًا لبعض ملوكِ بني إسرائيل افتتنَ بها هاروتُ وماروتُ». وقد أوردَ الحديثَ السيوطيُّ، واعتبرَه ابنُ الجوزي وغيرُه من الموضوع على الرسول[١].
- حديثُ الخلق بالأيام: عن أبي هريرةَ قال: أخذَ رسولُ الله بيدي فقال: «خلقَ اللهُ التربةَ يومَ السبتِ، وخلقَ الجبالَ فيها يومَ الأحد، وخلقَ الشجرَ فيها يومَ الاثنين، وخلقَ المكروهَ يومَ الثلاثاءِ، وخلقَ النورَ يومَ الأربعاءِ، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميسِ، وخلقَ آدمَ بعدَ العصرِ يومَ الجمعة آخرَ الخلق في آخر ساعةٍ من ساعاتِ الجمعة في ما بين العصرِ إلى الليل»، رواه مسلمٌ في صحيحه. وقد رفضَه العلماءُ ومنهم البخاريُّ الذي حكَم أنه من كلامِ كعبِ الأحبار أخذَه عنه أبو هريرة[٢]، وبعض طلبة العلم يقبل الحديث[٣].

---

(١) محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (القاهرة: مكتبة السنة، ٢٠٠٥م) ص١٦٢ – ١٦٣.

(٢) موقع الإسلام، سؤال وجواب. https://islamqa.info/ar/answers/218080/

(٣) السندي، عبد القادر (إزالة الشبهة عن حديث التربة)، مجلة الجامعة الإسلامية العدد ٤٩، ص ٢٩ – ٣٩، والعدد ٥٠، ص ٤٧ – ٦١.

- حديثُ بناءِ الكعبة وبدايةِ الأرض: أورد السيوطيُّ ما رواه بسندٍ عن عطاءِ بن أبي رباح أن النبي قال: «لما أُهبِطَ آدمُ من الجنةِ كانت رِجلاه في الأرض ورأسُه في السماء، يسمعُ كلامَ أهلِ السماء، ودُعاءَهم، يأنسُ إليهم، فهابَتْه الملائكةُ حتى شكَتْ إلى الله في دعائها، وفي صلاتها، فوُجِّهَ إلى مكةَ، فكان موضعُ قدمِه قريةً، وخطوِه مفازَة، حتى انتهَى إلى مكةَ، وأنزلَ الله ياقوتةً من ياقوتِ الجنة، فكانتْ على موضعِ البيت الآن، فلم يزلْ يطوفُ به حتى أنزلَ الله الطوفانَ، فرُفِعتْ تلك الياقوتةُ حتى بعثَ الله إبراهيمَ فبناه». وقد أوضحَ ابنُ كثير أنَّ هذا من خُزَعْبلاتِ بَني إسرائيل وخرافاتهم، ولا يجوزُ نسبُه إلى النبيِّ المعصومِ، وقال: هذا من مفرداتِ ابنِ لهيعة، والأغلبُ أن يكونَ موقوفًا على عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاص، ويكونَ من الزاملتينِ (حمولةِ البعيرَيْنِ) من كتبِ أهلِ الكتاب اللتينِ أصابَهما يومَ اليرموك، وكان يحدثُ منهما.

- **حديثُ عبد الحارث**: انتشرت مروياتٌ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]، حيث وردتْ عدةُ رواياتٍ: «لما ولدتْ حواءُ طافَ بها إبليسُ، وكان لا يعيشُ لها ولدٌ، فقال: سمِّيه عبدَ الحارث فإنه يعيشُ، فسمَّتْه عبدَ الحارث فعاش، فكان ذلك مِنْ وحيِ الشيطان وأمرِه»، هكذا رواه ابنُ جريد ورواه الترمذيُّ ورفضَه عامةُ العلماء، وأوضحَ ابنُ كثير أنَّ الحديثَ معلولٌ من ثلاثةِ أوجه: أولهما أنَّ الراويَ عمرُ بنُ إبراهيمَ لا يحتجُّ به، وثانيهما أنه قد روَى مِن قول سمرةَ نفسِه، وليس مرفوعًا إلى النبي، وهناك سندٌ واضحٌ إلى سمرةَ، وثالثهما أن الحسن البصري قد فَسَّرَ الآيةَ بغير هذا، وقال: كان هذا بعضُ أهلِ الملل وليس آدمُ، وفي روايةٍ أخرى عن الحسن أن المقصودَ بها اليهودُ والنصارى، وهناك أسانيدُ صحيحة لتفسير الحسن لهذه الآية، ولو كان حديثُ عبدِ الحارث محفوظًا عندَه عن الرسول لما عدلَ عنه. جدير بالذكر فقد اتفق العلماءُ على أن هذه الرواياتِ من آثارِ أهلِ

الكتاب، ولذلك يقول الإمامُ الحسنُ البصري أنه ليس المرادُ آدمَ وحواءَ، وإنما المرادُ المشركون من ذريته، فذكرُ آدمَ وحواءَ كالتوطئةِ لما بعدَهما من الوالدينِ، وهو كالاستطرادِ من الشخصِ إلى الجنسِ[1].

- حديثُ قبضِ الروح: عن أبي هريرةَ قال رسولُ الله: «وُلد لسليمانَ ولدٌ، فقال للشياطين تُواريه من الموت، قالوا: نذهبُ به إلى المشرق، فقال: يصلُ إليه الموتُ، قالوا: فإلى المغرب، قال: يصلُ إليه الموتُ، قالوا: إلى البحارِ، قال: يصلُ إليه الموتُ، قالوا: نضعُه بينَ السماءِ والأرضِ، قال: نعم، ونزل عليه ملكُ الموت فقال: إني أخرتُ بقبضِ نسمةٍ، طلبتُها من الرياح، وطلبتُها في تخومِ الأرضِ فلم أصبْها، فبينما أنا قاعدٌ أصبتُها فقبضتُها، وجاء جسدُه حتى وقع على كرسيِّ سليمانَ فهو قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤]». هذا من الإسرائيليات، وقد نبه ابنُ الجوزي أنه موضوعٌ، كذلك ابنُ كثير، ووافقه السيوطيُّ الذي أكد أنه مِنْ كذبِ بني إسرائيل على النبي.

ومن الإسرائيلياتِ أيضًا الشعرُ الذي نُسِبَ إلى آدمَ وإلى إبليس، فقد روَى ابنُ جرير عن علي لما قَتل ابنُ آدم أخاه بكَى آدمُ، فقال لشيث: يا بُني إنكَ وصي فاحفظْ هذا الكلامَ ليتوارثَه الناسُ، فلم يزلْ يُنقَلُ حتى وصلَ إلى يعربَ بنِ قحطانَ ابنِ هودٍ فوزنَه شعرًا:

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليها فوجهُ الأرضِ مُغبَرٌّ قبيحُ
تغيَّرَ كلُّ ذي طعمٍ ولونٍ وقلَّ بشاشةُ الوجهِ المليحُ
وقابيل أذاقَ الموتَ هابيل فواحُزْناه قد فُقِدَ المليحُ
وما لي لا أجودُ بسكب دمعٍ وهابيلٌ تضمنَه الضريحُ
وجاءت شعلةٌ ولها رنينٌ لهابلِها وقابلِها يصيحُ

(١) أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٠٤ - ٢٠٥.

لقتلِ ابنِ النبيِّ بغيرِ جُرمٍ فقلبي عندَ مقتلِه جريحُ
وجاورَنا لعينٌ ليس يُغني عدوٌّ لا يموتُ فنستريحُ

وقالت حواء:

دعِ الشكوى فقد هلَكا جميعًا بموتٍ ليس بالثمنِ الربيحِ
وما يغني البكاءُ عن البواكي إذا ما المرءُ غُيِّبَ في الضريحِ
فابكِ النفسَ وانزلْ عن هواها فلستَ مخلدًا بعدَ الذبيحِ

فأجابهما إبليسُ لعنه الله شامتًا بهما:

تنحّ عن البلادِ وساكنيها ففي الجناتِ ضاق بك الفسيحُ
وكنتَ بها وزوجُك في رخاءٍ وقلبُك من أذى الدنيا مريحُ
فما زالتْ مكايَدتي ومكري إلى أن فاتكَ الثمنُ الربيحُ
فلولا رحمةُ الجبار أضحى بكفِّكَ من جنانِ الخلد ريحُ

قال الألوسي في تفسيره عن ابنِ عباس: «مَنْ قال إنَّ آدمَ قد قال شعرًا فقد كذبَ، إن محمدًا والأنبياءَ كلَّهم في النهي عن الشعر سواء»، وطعن الإمامُ الذهبيُّ في كتابه ميزانِ الاعتدال في نسبةِ هذا الشعرِ، وأكدَ الزمخشريُّ أنَّ الأنبياءَ معصومون من الشعر[1].

على أن نسبة الإسرائيليات لم تتوقف عند النبي بل جاء بعضها موقوفًا على الصحابة ومنسوبًا إليهم، ليظن الناس أنَّها علومٌ تلقاها الصحابة من الرسول؛ لأنها من الأمورِ التي لا مجالَ للرأي فيها، فلها حكمُ المرفوعِ إلى النبي، وإن لم تكنْ مرفوعةً إليه صراحة.

(١) السيوطي، اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م) ٢/٢٢١.

كما نسبت كثيرٌ من الإسرائيليات إلى التابعين، وهي في الأصل من كتبِ اليهود، أو سمعوها مِنْ أحبارِهم ورؤسائهم قبلَ إسلامهم، أو مِنْ رواياتِ مَنْ أسلمَ من الأحبار، وتُلصقُ هذه الرواياتُ بالتابعين، ولا سيما أنَّ معظمَها أسانيدٌ لا تخلو مِنْ ضعيفٍ أو مجهولٍ أو متهمٍ بالكذب.

وقد قسَّمَ العلامةُ الشيخُ محمد أبو شهبة الإسرائيلياتِ إلى ثلاثة أقسام: أولها، ما علمنا صحتَه مما بأيدينا من القرآنِ والسنةِ، فما وافقَه فهو حقٌّ وما خالفَه فهو باطلٌ، ومما عندنا نحِيةٌ عنه؛ ولكن يجوزُ ذكرُه للاستشهادِ به. وثانيهما، ما علِمنا كذبَه مما عندَنا مما يخالفُه خاصةً في قصص الأنبياء، وتطعنُ في عصمة الأنبياء. وثالثها، المسكوتُ عنه لا هو من هذا ولا من ذاك فلا نؤمنُ به ولا نكذبُه، ويجوز روايتُه كما جاء في الحديث والتوجيهِ النبوي[1].

على أن مِنْ أخطر أنواعِ الإسرائيليات التي تكونُ صحيحةَ السند، أو يكون إسنادَها جيدًا، أو ثابتًا، وهذا طبعًا لا ينفى كونَها من خرافاتِ بني إسرائيل حتى لو كان السند صحيحًا؛ لأنها تسندُ إلى أحدِ أهل الكتاب الذين أسلموا، أو عن صحابي اطلعَ على قصصِ أهلِ الكتاب، وكونُها مكذوبةً أو باطلةً أو خرافةً لا يتغيرُ مع كونِ السندِ صحيحًا.

المرحلةُ الثانية: نشوء الأساطير الإسلامية:

دعا الإسلامُ إلى العقلانيةِ والتدبُّرِ في خلقِ السماواتِ والأرضِ، وإعلاءِ قيمةِ الإنسان في هذا الكون، وبالتالي فقد قدَّم الإسلامُ نفسه في الجانب الآخر من الأسطورة، كما أن هناك عددًا من الأسس التي حفظت للإسلام سمةَ التطورِ في الإطار العقلاني، ومن هذه الأسس[2]:

(١) أبو شهبة، مرجع سابق، ص٩٣.

(٢) أمين الخولي، المجددون في الإسلام، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧م) ص٤٩ – ٥٤؛ وقد أورد الكاتب عددًا أكبر من الأسس.

- ترك النقاش في الغيبيات، والإيمان بأن الله ليس كمثله شيء.
- تنزيه كتابِ الله عن ذكر نشأةِ الحياة على الأرضِ، وظهورِ الإنسان وما مرَّ به من أدوار، مما اتضحَ مع العلمِ الحديثِ المجرب وجودُ خلافٍ واسعٍ حولها.
- جعل الاجتهاد أساسًا للحياة الإسلامية.
- عدمُ الخوض في تفاصيلِ تاريخِ الأمم والرسل.

وبالتالي فقد ابتعد المسلمون عن تداعيات الأسطورة في حياتهم وهي الحكاية التي ترتبطُ بالكائناتِ العليا فوقَ الطبيعية، أو بالشعائر، أو بدايةِ وجودِ الإنسانِ على الأرض، أو وقائعَ تاريخيةٍ قديمةٍ ومقدسة، سواء كان ذلك بالروايات الكاذبة، أو بالبُعدِ الرمزي[١].

وبذلك فقد شَهَدَ صدرُ الإسلام انفصامًا تامًا بينَ المجتمعِ المسلم والفكرِ الأسطوري برموزِه وإشكالِه، واستمر ذلك حتى بداية عصرِ التدوين في القرن الثاني للهجرة وهو عصر بزوغ الأساطير في الثقافة الإسلامية. ويمكن تلخيص الأسبابَ الرئيسةَ التي مهدت لظهور عالم الأسطورة في التراث الإسلامي العقلي على النحو التالي[٢]:

١- اطلاعُ العرب على الفكر الأسطوري القديم للفرسِ والهندِ وشعوبِ الأناضول وآسيا الصغرى، التي جمعتْ في تراثها أساطير الشعب اليونانيّ القديم، وشعوب ما بين النهرين (العراق القديم)، وشعوب المنطقةِ السورية. وكان الإسلام قد انتشر بينهم من دون أن يفرض انتزاع ما تراكم في عقلهم

(١) عبد الله محمد العقيلي، ميثولوجيا الأيام: البُعد الأسطوري في الروايات الأدبية والتاريخية لأيام العرب الجاهلية، (بيروت: جداول للنشر، ٢٠١٨م) ص ٢٨.

(٢) محمد خليفة حسن، الشرق الأدنى القديم وحضارته، رؤية عربية، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٧م) ص٨٥ – ٩٨.

الجمعي من روايات أسطورية، كما لم يتعرض المسلمون لتلك الأقليات التي تمسكتْ بدينها، وحافظت على عاداتها القديمة وأساطيرها، ثم ساهمَ ضعفُ الدولةِ المركزيةِ الإسلامية في ظهور الدُّوَيلاتِ المتعددةِ التي بلّورتْ حركاتٍ ومذاهبَ مناهضةً للعقلانية.

٢ـ الاعتمادُ على الإسرائيليات في التفسير، حيث اعتمدَ بعضُ مُفسِّري القرآن الكريم، وشارحي الأحاديث النبوية على المادة الأسطورية، سواءٌ كانت وثنيةً من فارسَ والهندِ، أو من التراثِ اليهوديِّ والإسرائيليات، وكانتْ معبرًا للأسطورة إلى العقل العربي المسلم، وتحديدًا القصصَ التي لم تتناولها النصوصُ الإسلامية بالتفصيل، للإجابةِ عن التساؤلات، وتدعيمِ موقفِهم في الشروحات، وهكذا حظيتْ قصَصُ الخلقِ، وبدايةُ استيطانِ الأرض، والطوفانُ، وأنبياءُ بني إسرائيل، والمعاد، بالجانب الأكبر مِنْ إعادةِ النشر؛ لأنها ذاتُ تأثير على المستوى الشعبي، بما تَحويه من عناصرَ تشويقيةٍ وعاطفيةٍ وغيبيةٍ غيرِ عقلانية. وقد أعطى ظهورُ أخبارِ وأساطيرِ بني إسرائيل داخلَ كتبِ التفسير شكلًا من أشكال المصداقيةِ لدى المسلم البسيط الذي لم يُشَكِّك فيها؛ وعزز ذلك القبول نقل الكتب الثقافية والأدبية من أساطير بَني إسرائيل، لتصبح مع مرور الزمن جزءًا من العقلِ الجماعي والعاطفةِ الدينية.

٣ـ نشأة الفرق والمذاهب التي توجه بعضها في اتجاهينِ متضادينِ وهما؛ إما العقلانية مثلُ: فِرَقِ الكلامِ والفلسفةِ والمعتزلة، أو اللاعقلانيةِ مثلُ فِرَقِ التصوفِ المعتمدة على التجربةَ الذاتية. وقد أنتج هذا الجدلُ الدينيّ نوعًا من التشتتِ الذهنيِّ والتخّبطِ العقليِّ، فكان أن اضطُرَّ بعض تلك الفرقِ والمذاهبِ للجوءِ إلى الأسطورة لإثباتِ صحّة معتقدها.

٤ـ تطورُ الآدابِ الشعبية وانتشارُ أساطير البطولات، حيثُ لجأتِ الشعوبُ

والجماعاتُ التي دخلتِ الإسلامَ، لاستلهام تاريخِها القديمِ واستخراج سير أبطالها، وخلع صفاتٍ أسطورية عليهم لا تتناسبُ مع الروح العقليةِ للإسلام، ونظرًا للتأثير العاطفيِّ للقصَصِ الشعبية، فقد تمَّ إحياءُ الأساطيرِ القديمةِ بصورة مختلفة، وإعادةُ زرعِ التفكيرِ الأسطوريِّ في الثقافةِ الإسلامية.

المرحلةُ الثالثة: قصة الخلق في الثقافة الإسلامية:

لم يتطرق النص المقدس الإسلامي من قرآن وسنة نبوية إلى تفاصيل قصة الخلق، وقد نزه الله النبيَّ الكريمَ عن التحدثِ بالتفصيل في قصة الخلق، وهذه من سماتِ الأسسِ العقلانيةِ في الإسلام، وتحديدًا في قصة آدمَ وحواءَ؛ حيث لم ترِدْ حواءُ باسمها العبري هذا في القرآن على الإطلاق، وإنما وردَ ذكرها بوصفها زوجة آدمَ، وفي صحيحِ الحديث لا يوجدُ سوى حديثٍ واحدٍ فقط وردَ في الصحيحينِ، هو حديثُ اللحم، وردَ فيه ذكرُ حواءَ بالاسم، وقَدَّمنا وجهةَ نظرِ بعضِ الباحثين، في أنَّ هذا الحديثَ يتعارض نصًا وروحًا مع الهدي النبوي؛ وبالرغم من كل ذلك إلا أن كتبَ التفسير وغيرها تعج باسم حواء، وأصبحَ الاسمُ والصفاتُ التوراتية هو الأصلُ، وما عداه هو الاستثناءُ.

ومن المعروف أن الثقافةَ الإسلامية كانت ثقافةً شفهية، ولم يكنْ هناك تدوينٌ مكتوبٌ، ومعَ بناءِ الدولة الإسلامية ظهرتِ الحاجةُ إلى كتابةِ هذه الثقافة، ومنها قصةُ الخلق وبدايةُ البشر، لكي تتماشى معَ مفاهيمِ الدولةِ الإسلامية الناشئة، وإعادةِ بناء الماضي الجاهلي ليتماشى مع الحاضرِ الإسلامي وبلورةِ الموروثِ الثقافي هذا.

وكان معاوية بن أبي سفيان مِن أوائل مَن تنبه لهذه الظاهرة، حيث أدرك أهميةَ توثيقِ الأساطير، والتحكمِ بها لترسيخ شرعيةِ الدول، فاستقدم المعمِّرينَ اليمنيينَ، وطلب منهم روايةَ الأساطيرِ، وطلب من غلمانِه توثيقَها[1].

(١) المسعودي، (مروج الذهب)، تحقيق: كمال مرعي، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٨م، ج٣، ص٣٢.

ومع بلوغ القرن الثاني الهجري بدأ عصر التدوين الذي شرع فيه العلماء تدوينِ الحديثِ والفقهِ والتفسير، حيث صنَّفَ ابنُ جريح التصانيفَ بمكةَ، وصنَّفَ أبو عروبة، وحمادُ بنُ سلمةَ وغيرُهما بالبصرة، وصنفَ الأوزاعيُّ بالشام، وصنفَ مالكٌ موطأه بالمدينة، وصنفَ ابنُ إسحاقَ المغازي، وصنفَ معمرٌ باليمن، وصنفَ أبو حنيفةَ وغيرُه الفقهَ بالكوفة، وصنفَ سفيانُ الثوريُّ كتابَ الجامع، وصنف الليثُ بمصرَ، وكثُرَ تدوينُ العلم وتبويبُه، ودُوّنَتْ كتبُ العربيةِ، واللغةِ، والتاريخ، وأيامِ الناسِ، وقبلَ هذا العصر كان سائرُ الأئمة يتكلمونَ عن حفظِهم أو يروونَ العلمَ من صحفٍ صحيحة غيرِ مرتبة[1].

واستفادت حركةُ التدوين هذه من علوم الأولينَ وأساطيرِهم وكتبِهم المقدسة، وتنوعت مصادر قصةِ خلق آدمَ وزوجِه التي يمكن حصرها في ثلاثة مصادر رئيسة وهي:

- المصدر الكتابي واليهودي تحديدًا، حيث إن التشابهَ معَ الأساطيرِ اليهودية يصلُ إلى حدِّ النسخِ من نصوص توراتية في كتبِ أهل السُّنة، وأولُ مَنْ كتبَ قصةَ آدمَ وحواءَ بصورةٍ سرديةٍ بحسب زمنِ الخطاب، والتسلسلِ الزمني: هو وهبُ بنُ منبهٍ ضمنَ القصةِ الأشمل، وهي قصةُ الخلق، وقد وردت متفرقة كما هو الحال مع كعبِ الأحبار. واختلف المسلمون في قبولهم ورفضهم لتلك المقولات اليهودية، فمنهم من قبلها بعمومها كالثعلبيِّ، ومنهم من قبلها بشكل جزئي كالطبريِّ، وابنِ الأثير، وابنِ الجوزي، وفريق رفضها كليًا مثلُ ابن كثير، وعلماء الحنابلةِ في القرنَيْنِ السابعِ والثامنِ الهجريين.
- المصدر الفارسي، حيث عبرَتْ أساطيرُ الفرس إلى الثقافةِ الإسلامية مِنْ خلالِ مقاتل بن سليمان، مِنْ أهالي بلخَ في أفغانستانَ، وهي مدينةٌ تجمعُ

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام، تدقيق: عمر تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م) ٩/ ١٣.

الثقافتينِ الهنديةَ والفارسيةَ، وكان مقاتلٌ رجلًا مطلعًا على قصةِ الخلق عندَ الفرسِ والهنودِ وموضوعاتِ الوجود، والأصلِ، والبدايةِ، وكان رجلًا مدلّسًا لا يُسنِدُ العلم، ولازمَ الضحاكَ بنَ مزاحمٍ الذي هو حلقةٌ أساسيةٌ من سندِ الطبريِّ إلى ابنِ عباس، وهو ما أعطى هذا الرافدَ الشرعيةَ والأهميةَ. وقد اهتم مقاتلٌ بفكرة أنَّ خلقَ آدمَ جاء في سياق الصراع بين الملائكةِ والجانِّ، وهذه أساطيرُ كانت متصلةً بالأساطير اليونانية القديمةِ التي تتناولُ صراعَ الآلهةِ حتى انتصرَ زيوس، وفصلَ بين السماءِ والأرض، وقرر أن تكونَ الأرضُ للإنسان إلى آخر هذه الأساطير، وهي صراعُ الخير والشرِّ والنورِ والظلامِ، أو الملائكةِ والشياطينِ، وهذا تأطيرٌ لحكايةِ آدمَ في صراعِه مع إبليس[1].

المصدر الحديثي، وتحرى هذا المصدر الدقةَ من أمثال ابن سعد، والطبريُّ، وغيرهم الذين ضبطوا رواياتهم بضوابط الجرح والتعديل، وحرصوا على التفريق بين ما يُنسب إلى الرسول أو إلى غيره[2].

قصةُ الخلق في التفاسيرِ الأولية:

لم يُنزلِ الله سبحانَه وتعالى قصةَ الخلقِ في القرآن الكريم بالتفصيل، وتَنزَّه نبيُّه الكريمُ أن يخوضَ في تفاصيلها، ومع ذلك فقد تصدّى القصاصونَ والمفسِّرون ابتداءً من القرنِ الثاني الهجري لهذه الموضوعاتِ معتمدين على ما ورد في التراث التوراتي، وعلى أساطيرِ الأولينَ، سواءٌ كانتْ زرادشتيةً أو سومريةً أو أساطيرَ قدماءِ المصريين وغيرِهم. ومن أهم من روى في هذا السياق كعب الأحبار ووهب بن منبه والثعلبي ومن تبعهم، الذين عادة ما يلجؤون إلى القول: روت الرواة، أو قال الأولون، لعدم ثبات أصل النص.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧، ص٣٧٣.
(٢) المخلبي، مرجع سابق، ص١٠١ – ١٠٩.

وقد أفرد بعض المؤرخين والمفسرين مساحة لتلك القصص المبنية على الروايات الإسرائيلية من جانب، فضلًا عن القصص الأسطورية التي تناقلتها ثقافات الشعوب المتنوعة، وهي كثيرة ومبثوثة في بطون الكتب لمن أراد تتبعها، وسنكتفي بإيراد نماذج منها لاستيفاء المراد البحثي.

ومن ذلك فقد روتِ الرواةُ بألفاظٍ مختلفة ومعانٍ متفقة أنَّ الله تعالى لما أراد أن يخلقَ السماوات والأرضَ خلقَ جوهرةً خضراءَ أضعافَ طباقِ السماواتِ والأرضِ، ثم نظرَ إليها نظرةَ هيبةٍ فصارَتْ ماءً، ثم نظرَ إلى الماءِ فغلَى وارتفعَ منه زبدٌ وبخارٌ، وأرعدَ من خشية الله، فمن ذلك اليوم يرعَدُ إلى يوم القيامة، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وخلقَ من ذلك الزبدَ والأرضَ. وأولُ ما ظهرَ من الأرض على وجهِ الماء مكةُ، فَدَحَا اللهُ الأرضَ من تحتها؛ فلذلك سُميتْ أمَّ القرى، وهو قوُله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ولما خلقَ اللهُ الأرضَ كانت طباقًا واحدًا، ففتَقَها وصيَّرها سبعًا، وذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ثم بعث اللهُ تعالى مِنْ تحت العرشِ ملكًا، فهبطَ إلى الأرضِ حتى دخلَ تحت الأرضينَ السبعِ، فوضعَها على عاتِقه، إحدى يدَيْه في المشرق، والأخرى في المغرب، باسطتَينِ قابضتَينِ على قرارِ الأرضينَ السبع حتى ضبطَها، فلم يكن لقدمَيْهِ موضعُ قرارٍ. فأهبطَ الله تعالى مِنْ أعلى الفردوسِ ثورًا له سبعونَ ألفَ قرنٍ، وأربعونَ ألفَ قائمةٍ، وجعلَ قرارَ قدَمي الملكِ على سَنامِه، فلم تستقرَّ قدماه، فأحضر الله ياقوتةً خضراءَ من أعلى درجةٍ في الفردوس، غُلظُها مسيرةُ خمسمائة عام، فوضعَها بين سنامِ الثورِ إلى أذنِه، فاستقرَّتْ قدَماه، وقرونُ ذلك الثورِ خارجةٌ من أقطار الأرض، وهي كالحسكةِ تحتَ العرش، ومنخرُ ذلك الثورِ في البحر، فهو يتنفسُ كلَّ يوم نفسًا، فإذا تنفَّسَ مدَّ البحرُ، وإذا رد نفسَه جزرَ. ولم يكنْ لقوائمِ الثور موضعُ قرار، فخلقَ اللهُ تعالى صخرةً خضراءَ، غُلظُها كغُلظِ سبعِ سماواتٍ وسبعِ أرضينَ، فاستقرَّتْ قوائمُ الثورِ عليها، وهي الصخرةُ التي قال لقمانُ لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ

أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦]. ورُوِيَ أنَّ لقمانَ لمّا قالَ هذه الكلماتِ انفطرَتْ مرارته من هيبتِها ومات، فخلق الله نونًا هو الحوتُ العظيمُ اسمَه لويثا وكنيتُه بلهوت، ولقبُه بهموتُ، فوضعَ الصخرةَ على ظهره وسائرُ جسدهِ خالٍ، وقال: والحوتُ على البحر، والبحرُ على متنِ الريح، والريحُ على القدرةِ وثقلِ الدنيا، وما عليها مِنْ كتابِ اللهَ تعالى، قال لها الجبار: كوني فكانتْ فذلك قولُه عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

قال كعبُ الأحبار: إن إبليسَ تغلغلَ إلى الحوتِ الذي على ظهره الأرضُ، فوسوسَ إليه، وقال له: أتدري ما على ظهرك يا لويثا منَ الأممِ والدوابِّ والشجرِ والجبالِ وغيرِها؟ لو نفضتَها أو ألقيتَهم عن ظهرك أجمعَ لكان ذلك أريحُ لك. قال: فَهمَّ لويثا أن يفعلَ ذلك، فبعث الله له دابةً، فدخلتْ في منخرِه، فوصلتْ إلى دماغِه، فعجَّ الحوتُ إلى الله تعالى منها، فأذِنَ الله تعالى لها فخرجَتْ. قال كعبُ الأحبار: فوالذي نفسي بيدِه إنه لينظرُ إليها وتنظرُ إليه إنْ همّ بشيء من ذلك عادَتْ كما كانَتْ. وهذا الحوتُ الذي أقسم الله به: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثم قالوا إنَّ الأرضَ كانت تتكفأ على الماءِ كما تتكفأُ السفينةُ على الماء، فأرساها الله تعالى بالجبال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧][1].

قال وهبُ بن منبه: «إن ذا القرنينِ أتى على جبلِ قاف، فرأى حولَه جبالًا صغيرة، فقال له: مَنْ أنتَ؟ قال: قاف، قال: فأخبِرْني ما هذه الجبالُ من حولك؟ فقال: هي عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزلَ أرضًا أمرَني فحرَّكتُ عرقًا من عروقي، فتزلزلُ الأرضُ المتصلةُ به، فقال: يا قاف أخبِرْني عن شيءٍ من عظمة الله ... إنَّ ورائي أرضًا مسيرةَ خمسمائة عام من جبالِ الثلج يحطِّمُ بعضُها بعضًا، ومن وراءِ ذلك جبالٌ من البرد مثلُها، ولولا ذلك البردُ والثلجُ لاحترقتِ الدنيا من حرِّ جهنم. قال: زِدْني، فقال: إنَّ جبريلَ عليه السلام واقفٌ بين يدي الله تعالى ترتعدُ فرائصه، فيخلقُ الله من كلِّ رعدةٍ مائةَ ألفِ ملَكٍ، وهم صفوفٌ بينَ يدي الله تعالى

(١) النيسابوري، عرائس المجالس، مرجع سابق، ص٧ – ٩.

منكِّسو رؤوسِهم، لا يؤذَنُ لهم في كلامٍ إلى يومِ القيامة، فإذا أذنَ الله لهم بالكلام قالوا: لا إله إلا الله، وهو قولُه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]»[١].

في نصٍّ آخرَ يقولُ وهبُ بن منبه: «كادتِ الأشياءُ أن تكونَ سبعًا، فالسماواتُ سبعٌ، والأرضونَ والجبالُ سبعٌ، والبحارُ سبعةٌ، وعمرُ الدنيا سبعةُ آلاف سنة، والأيامُ سبعةٌ، والكواكبُ سبعةٌ وهي السيارةُ، والطوافُ بالبيت سبعةُ أشواط، والسعيُ بينَ الصفا والمروة سبعةٌ، ورميُ الجمار سبعة، وأبوابُ جهنمَ سبعةٌ، ودركاتُها سبعةٌ، وامتحانُ يوسفَ سبعُ سنينَ. قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وإبقاؤه ملكَ مصرَ سبعَ سنينَ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، والقرآن سبعةُ أسباع، وتركيبُ ابن آدمَ على سبعةِ أعضاء، وخلقُه من سبعةِ أشياء، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، إلى قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ورزقُ الإنسان وغذاؤه من سبعةِ أشياء، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]، إلى قوله: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٣٢]، وأمر بالسجود على سبعةِ أعضاء»[٢].

وأَطلقَ وهبٌ على السماواتِ أسماءً وهي: أولُها: سماءُ الدنيا دِيناح، والثانيةُ: ديقا، والثالثةُ: رقيع، والرابعةُ: فيلون، والخامسةُ: طفطاف، والسادسةُ: سماق، والسابعةُ: إسخاقائل، أما الأراضي السبعُ فأطلقَ عليها وهبُ بن منبه هذه

(١) المرجع السابق، ص٨.

(٢) الرقم سبعة من الأرقام المقدسة في الثقافة البابلية، ثم صار من الأرقام التي لها دلالة لدى الشيعة الإسماعيلية.

الأسماءَ: الأولى من الأرض: أديمًا، والثانيةُ: بسيطًا، والثالثةُ: ثقيلًا، والرابعةُ: بطيحًا، والخامسةُ: متثاقلة، والسادسةُ: ماسكة، والسابعةُ: ثرى[١].

وفي روايةٍ عن الضحاكِ ومقاتلٍ في وصف السماوات قالا: «خلق الله السماءَ الدنيا وزيَّنَها وهي ماءٌ ودخانٌ، وغلظُها مسيرةُ خمسمائة عام، وبينَها وبينَ الأرضِ مسيرةُ خمسمائة عام، ولونُها كلون الحديدِ المُجلى، وسماؤها برقيعًا، وبينَها وبينَ السماء الثانية مسيرةُ خمسمائة عام، وفيها ملائكةٌ خُلِقوا من نار وريح، وعليهم ملَكٌ يُقَال له الرعدُ، وهو ملكٌ موكلٌ بالسحاب والمطر. وخلقَ السماءَ الثانيةَ على لون النحاسِ، وغلظُها مسيرةَ خمسمائة عام، وبينَها وبينَ السماءِ الثالثة مسيرةُ خمسمائة عام، وفيها ملائكةٌ على ألوانٍ شتَّى صفوفٌ، لو قيستْ شعرةٌ بين مناكبِهم لما انقاسَتْ، رافعونَ أصواتَهم يقولون: سبحانَ ذي العزةِ والجبروتِ، واسمُها قيدومُ، وخلقَ الله فيها ملكًا يُقالُ له حبيبٌ نصفُه من نار ونصفُه من ثلج بينها رتقٌ، فلا النارُ تذيبُ الثلجَ، ولا الثلجُ يُطفئُ النارَ، وهو يقول: يا من ألَّفَ بيَن الثلجِ والنارِ، ألِّفْ بينَ قلوبِ عبادكِ، ومنها إلى السماءِ الثالثة مسيرةُ خمسمائة عام، ولونُ السماء الثالث كلون الشبّة غلظُها مسيرة خمسمائة عام، واسمُها الماعون، وفيها ملائكةٌ ذوو أجنحة، المَلَكُ منهم له جناحانِ، وله أربعةٌ، وله ستةُ أجنحة، ووجوهٌ شتى، رافعونَ أصواتَهم بالتسبيح يقولون: سبحانَ الحيِّ الذي لا يموتُ أبدًا، صفوفٌ قيامٌ لو قيسَتْ شعرةٌ بينَ مناكبِهم ما انقاسَتْ، لا يَعرِفُ أحدٌ منهم لونَ صاحبه مِنْ خشية الله، وخلقَ الله السماءَ الرابعةَ وبينَها وبينَ السماءِ الثالثة مسيرةُ خمسمائة عام، وغلظُها خمسمائة عام، ولونُها كلون الفضةِ البيضاء، واسمُها فيلون، وفيها ملائكةٌ يضْعفون على ملائكةِ السماءِ الثالثة، وكذلك أهلُ كلِّ سماء أكثرُ عددًا من السماء التي تليها إلى الضعفِ، وهم قيامٌ وركوعٌ وسجودٌ، يبعثُ الله الملكَ منهم في أمر من أمور، فينطلقُ الملكُ فلا يعرفُ صاحبَه الذي جانبَه من شدةِ العبادة. وخلقَ الله السماءَ الخامسةَ، وغلظُها

(١) النيسابوري، عرائس المجالس، مرجع سابق، ص١٤.

مسيرةُ خمسمائة عام، ولونُها على لون الذهب، واسمُها اللاحوقُ، ومنها إلى السماءِ السادسةِ مسيرةُ خمسمائة عام، وفيها ملائكةٌ يضعفونَ على ملائكةِ الأربع سماوات، واسمُها عاروس: وهي من ياقوتةٍ حمراء؛ ثم خلقَ الله السماءَ السابعةَ، غلظُها مسيرةُ خمسمائة عام، وعليها ملكٌ على سبعمائة ألف ملك، كلٌّ منهم له من الجنودِ مثلُ قطرِ السماء وترابِ الثرى والسهلِ والرملِ وعددِ الحصى والورق، واسمُها الرقيعُ: وهي من درةٍ بيضاءَ، ومن السماء السابعةِ إلى مكان يُقَال له: مرحوثًا، مسيرةُ خمسمائة عام، وعليه جنودُ الله من الملائكة... ومن فوقِ ذلك غمامةٌ، غلظُها كغلظِ سبعِ سماواتٍ وسبعِ أرضينَ من السماء السابعة إليها، كما بينَ سبعِ سماواتٍ وسبعِ أَرضينَ، والعرشُ فوق ذلك في عِلِّيينَ[١].

وذكر الطبريُّ نقلًا عن وهب: إن السمواتِ والأرضَ والبحارَ لفي الهيكلِ، وإنَّ الهيكلَ لفي الكرسي، وإنَّ قدمَيْه عز وجل لعلى الكرسيِّ، وهو يحملُ الكرسيَّ، وقد عادَ الكرسيُّ كالنعلِ في قدميه، وسُئل وهبٌ ما الهيكلُ، قال: شيءٌ من أطرافِ السماواتِ ممدقٌ بالأَرضينَ والبحارِ كأطنابِ الفسطاط، وسُئلَ وهبٌ عن الأرضينَ كيفَ هي، قال: هي سبعُ أرضينَ ممهدة جزائرُ، وبينَ كلِّ أرضينَ بحرٌ، والبحرُ محيطٌ بذلك كلِّه، والهيكلُ مِنْ وراء البحر[٢].

وفي خلقِ إبليسَ روَى الطبريُّ عن ابن عباس أنه قال: «كان إبليسُ من أشرافِ الملائكة، وأكرمِهم قبيلةً، وكان خازنًا على الجنانِ، وكان له سلطانُ سماءِ الدنيا، وكان له سلطانُ الأرض»، وفي روايةٍ أخرى: كان من سكانِ الأرض، وكان من أشدِّ الملائكةِ اجتهادًا، وأكثرهم علمًا، فذلك الذي دعاه للكبر. وفي روايةٍ: كان إبليسُ قبل أن يركبَ المعصيةَ من الملائكةِ اسمُه عزازيل، وكان مِنْ سكانِ الأرض وأكثرِهم علمًا، وفي رواية: مِنَ الجنِّ الذين طردَتْهم الملائكةُ فأسره بعضُ الملائكة فذهبَ به إلى السماء.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦ - ١٧.

(٢) تاريخ الطبري، ١/ ٤٠ -٤١.

وفي خلق إبليس والجن ذكر المسعودي نقلًا عن الفرس واليونان من دون تحديد المصدر أنه كان بالأرض قبائل من الجن، ولكل قبيلة ملك ومنهم من يسترق السمع. فبعث الله بجيوش من الملائكة تحت إمرة إبليس، فهزم الجن وتملك الأرض حتى خلق الله آدم عليه السلام. وعندما أهبط آدم على الأرض انتقل إبليس إلى البحر المحيط، ولا يلد ولكن يبيض ويفرخ، وقيل إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان فيسلطهم على الخلق[١].

وورد في كتاباتِ الطبريِّ وابنِ منبه ومقاتلِ بنِ سليمانَ وغيرِهم، أنه قبلَ خلقِ آدمَ كانت هناك أممٌ على الأرض هم الجِن والبِن، وقامتْ بينهم الحروبُ وسفكُ الدماء، فسلّطَ الله عليهم الجنَّ، فقتلوهم ونفَوْهم إلى الجزرِ في البحرِ، وأصبحتِ الأرضُ موطنًا للجن، وهم الأمةُ الثالثةُ التي تعمرُ الأرضَ كما جاء في كتاباتِ القرنِ الثاني الهجري، وسُمّوا الجنَّ لأنهم خزانُ الجنة، وكان إبليسُ خازنًا[٢].

وفي خلقِ الحيواناتِ قال المسعوديُّ في الأخبار: «إنه صوَّرَ النسناسَ بأنه مثلُ نصفِ إنسان، وله يدٌ واحدةٌ، ورجلٌ واحدةٌ، وأنيابٌ بارزةٌ طويلة، وآذانُها طويلةٌ، وإن أبدانَها تبدو كأبدانِ الناس. والسمكةُ طولَها أربعمائة ذراع، ولها وجهُ الإنسان، ورأسًا مثلُ الحية، وطولُها عشرون ذراعًا، وأن لها أرجلًا كثيرةً، وأسنانُها مثلُ المنشارِ من صدرِها إلى ذنبِها. وخلقَ اللهُ الخيلَ عندما أمرَ ريحَ الجنوبِ أن تجتمعَ، وأمرَ جبريلَ أن يقبضَ قبضةً مِنْ هذه الريحِ ليخلُقَ الخيلَ، ووسمَها بالفرةِ والتحجيلِ»[٣].

---

(١) شهاب الدين الأبشيهي، (المستطرف في كل فن مستظرف)، تحقيق محمد الحلبي، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة ٢٠٠٨، صفحة ٥٣١.

(٢) تاريخ الطبري، ج١، ص ٨٦ – ٨٧؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، باب خلق الجان وقصة الشيطان، موقع ويكي مصدر. https://ar.wikisource.org/wiki/

(٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، (أخبار الزمان)، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٦م، ج ١، ص٢٨ – ٣١.

أما في خلق الله تعالى لآدم فقد تعددت الروايات، ومن ذلك ما اتفقَ على روايته الطبريُّ والمقدسيُّ والمسعوديُّ وغيرهم بقولهم: إن الله أمرَ جبريلَ برفعِ تربةِ آدمَ مِنَ جميعِ أنحاءِ الأرض؛ لذلك جاء أبناؤه مختلفونَ في الألوانِ.

وفي رواية الكسائيِّ عن ابنِ عباس قال: «خلقَ اللهُ تعالى آدمَ على أقاليم الدنيا فرأسُه من تربةِ الكعبة، وصدرُه من تربةِ الدنيا، وبطنُه وظهرُه من تربةِ الهند، ويَداهُ من المشرقِ، ورِجلاهُ من تربةِ المغربِ».

وقيل في خلق آدم ما ذكره المسعودي أن الله خلق في الأرض ثماني وعشرين أمة على خلق مختلفة، وهي أنواع ذات أجنحة وكلامهم قرقعة، ومنها ما له أبدان كالأسود، ورؤوس كالطير، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوي، ومنهم ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلف وأرجل كثيرة، ومنها ما وجهه كالآدمي وظهره كالسلحفاة في رأسه قرن، وتناكحت هذه الأمم حتى صارت مائة وعشرين أمة[1].

وروَى وهبُ بن منبه: إن الله حين خلَقَ آدمَ جعل رأسَه من الأرض الأولى، وعنقَه من الثانيةِ، وصدرَه من الثالثة، ويَديه من الرابعة، وبطنَه وظهرَه من الخامسةِ، وفخذَيه ومذاكيرَه وعجزَه من السادسةِ، وساقيه وقدَميه من السابعة.

ويَروي العصامي بقوله: «ورُوي في القبضةِ التي منَ الطينِ التي خُلقَ منها آدمُ، أنَّ الله أمرَ جبريلَ أن ينزلَ إلى الأرضِ يبشرُها أن الله يخلقُ منها خلقًا يكونُ له صفوة يسبحونَه إلى يوم القيامة، ويجعلُ مستقرَّه ومستقرَّ ولدِه بين أطباقِها، يخلقُهم منها ويُعيدُهم إليها؛ ففعلَ ذلك جبريلُ فاهتزَّتْ وابتهجَتْ، وقامت تنتظرُ أمرَ الله. فلما أراد الله أن يتمَّ وعدَه، أرسلَ جبريلَ ليقبضَ منها كما أمره، فلما مدَّ يدَه إليها ارتعدَتْ واستعاذَتْ منه، وقالت: أسألكَ بعزةِ الله، فأرسلَ اللهُ إسرافيلَ...

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (المستطرف في كل فن مستظرف)، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٥٢٦.

فأرسلَ الله ميكائيلَ... فأرسلَ اللهُ عَزرائيل».

وقال وهبُ بن منبه: «أنه نودي بعد أربعينَ يومًا، يا ملكُ الموت ما الذي صنعتَ، فأخبرَه بما قالتِ الأرضُ، فقال: وعزَّتي وجلالي لأسلطنَّكَ على قبضِ أرواحِهم، فأعلِمْها أنكَ رادٌّ عليها جميعَ ما أخذتَه منها، فنزلَ عزرائيلُ إلى الأرضِ فقال: أيتُها الأرض لا تحزَني فإني رادٌّ عليكِ الذي أخذتُه منكِ بإذن الله، وجاعلُه في طباقِك كما أمرَني ربي وسمّاني ملكَ الموتِ».

توضح هذه الأمثلة كيف أن المفسرين والقصاصين مع بداية التدوين وبزوغ عصر الثقافة الإسلامية المكتوبة والمصنفة لم يجدوا غضاضة في الاقتباس من أساطير الأمم السابقة ومن الخيال المحض مع الميل إلى العجائب والغرائب التي تبهر العوام وخاصة في الموضوعات التي لا توجد فيها نصوص صريحة من القرآن والسنة.

قصة الخلق في المنظار الصوفي:

سوف نورد قصة الخلق من منظار الصوفية كما أوردها الإمام القطب ترجمان الواصلين ابن عطاء الله السكندري[1] في كتابه «التنوير في إسقاط التدبير»، الذي يوضح ابتداء أن مقامات اليقين تسعة وهي: التوبة، والزهد، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والمحبة، والرضا. ولا تكتمل هذه المقامات وتصح إلا بتدبير من الله واختياره، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

(١) الإمام العارف أحمد بن محمد بن عطاء السكندري، من الأقطاب الصوفية، عاش في الإسكندرية والقاهرة ويلقب بقطب العارفين، ولد عام (٦٥٨هـ – ١٢٦٠م) وتوفي عام (٧٠٩هـ – ١٣٠٩م) له العديد من المؤلفات وزعيم الطريقة الشاذلية. موقع معرفة.

وفي قصة آدم عليه السلام يرى المتصوفة أن ما حمله على الأكل من الشجرة كان بتدبيره هو من نفسه، وذلك لأن الشيطان وسوس له ولحواء: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فلما عزم آدم الأكل من الشجرة، وكان مراد الحق منه ذلك لينزله إلى الأرض وليستخلفه فيها، فعد ذلك هبوطًا في الصورة، ولكنه رقيًا في المعنى كما قال الشيخ أبو الحسن: «والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، وإنما أنزله ليكمله، فلم ينزل آدم عليه السلام راقيًا إلى الله تارة على معراج التقريب والتخصيص، وتارة على معراج الذلة والمسكنة، وهي في التخصيص آثم، ويجب على المسلم أن يعتقد أن النبي والرسول لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، وقال ابن عطية: إن الحق له التدبير والمشيئة، وكان قد سبق من تدبيره ومشيئته إنه لا بد أن تعمر الأرض ببني آدم، وكان تناول آدم للشجرة سببًا لنزوله إلى الأرض، ونزوله إلى الأرض سببًا لظهور مرتبة الخلافة التي منَّ الله عليه بها.

قال الشيخ أبو الحسن: والله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلقه لما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فمن حسن تدبير الله لآدم أكله الشجرة ونزوله إلى الأرض، وإكرام الله إياه بالخلافة والإمامة، لأن لأهل الخصوص مع الله حالًا ليست لسواهم، أعلم أن أكل آدم للشجرة لم يكن عنادًا ولا خلافًا، فإما أن يكون نسي الأمر من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، أو إن كان يتناول ذاكرًا للأمر فهو إنما تناوله لأنه قيل له: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فلحبه في الله وشغفه به أحب ما يؤديه إلى الخلود في جواره والبقاء عنده، أو ما يؤديه إلى الملكية (يصبح مثل الملائكة) التي هي أفضل أو التي هي في ظنه كذلك.

في القصة العديد من الفوائد منها أن آدم وحواء في الجنة عليهما السلام كان في الجنة متعرفًا إليهما بالرزق والعطاء والإحسان، فأراد الله من خفي لطفه في تدبيره أن يأكلا من الشجرة ليتعرف إليهما بالحلم والستر والمغفرة والتوبة والاجتباء به. وإن الله الحليم لم يعاجلهما بالعقوبة بل يمهل إلى العفو والإنعام. والله تعرف لهما بالستر، وذلك لما أكلا منها وبدت لهما سوءاتهما بزول ملابس الجنة سترهما بورقها ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فكان ذلك من وجود سترة.

ويصل ابن عطاء إلى أن الله سبحانه تعرف لآدم بالإيجاد فناداه يا قدير، ثم تعرف له بتخصيص الإرادة فناداه يا مريد، ثم تعرف له بحكمته لما نهاه عن أكل الشجرة فناداه يا حكيم، ثم قضي عليه بأكلها فناداه يا قاهر، ثم لم يعالجه بالعقوبة إذ أكلها فناداه يا حليم، ثم لم يفضحه في ذلك فناداه يا ستار، ثم تاب عليه بعد ذلك فناده يا تواب، ثم أشهده أن أكلة الشجرة لم يقطع عنه وده فناداه يا ودود، ثم أنزله إلى الأرض ويسر له أسباب المعيشة فناداه يا لطيف، ثم قواه على ما اقتضاه منه فناداه يا قوي، ثم أشهده سر النهي والأكل والنزول فناداه يا حكيم، ثم نصره على العدو المكايد فناداه يا نصير، ثم ساعده على أعباء تكليف العبودية فناداه يا ظهير، فما أنزله إلى الأرض إلا ليكمل له وجود التعريف، ويقيمه بوظائف التكليف فتكملت في آدم عليه السلام العبوديتان عبودية التعريف وعبودية التكليف، فعظمت منه الله عليه[1].

تجدر الإشارة إلى أن المنهج الصوفي قد ابتعد تمامًا عن الرواية التوراتية والتفسيرات ذات الطابع الإسرائيلي لقصة الخلق، ولم يذكر أي دور لحواء في التسبب في المعصية والخروج من الجنة، بل أرجع المعصية إلى المشيئة الإلهية

(١) ابن عطاء السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق: محمد عبد الرحمن الشاغول، (القاهرة: المكتبة الأزهرية، ٢٠٠٧م) ص٤٢ – ٤٧.

والتدبير الإلهي، وأوضح دور آدم عليه السلام استنادًا إلى القرآن الكريم وتفسير القصة وفقًا لمعطيات المنهج، وللدلالة على صفات الله وأسمائه الحسنى.

قصة الخلق في المذهب الشيعي:

تبدأ قصة الخلق في المنظور الشيعي من فهم خلق حواء، ومن ثم ذريتها، وقد سبق أن أشرنا إلى اعتقاد الشيعة بأن أمنا حواء قد خلقت من تراب، ويوردون حديث أبي جعفر حين أجاب على من سأله: من أي شيء خلقت حواء؟ فقال أخبرني أبي عن آبائه قال رسول الله: «إن الله تبارك وتعالى قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه، وكلتا يديه يمين، فخلق منها آدم، وفضلت فضلة من الطين، فخلق منها حواء»، وبالتالي يرفض الشيعة فكرة خلق حواء من ضلع آدم خشية الوقوع في عدد من المحاذير وهي[1]:

- لا يجوز بشرع الله أن ينكح الرجل امرأة تولدت من نفسه فهي جزء منه تمامًا مثل بناته، وعمل ضد الفطرة، ومستقبحًا عند الله بشكل قاطع لا يتبدل بتبدل المصالح الدنيوية والدينية.
- محذور أن ينسب العَجْزُ إلى الذات الإلهية في أن يخلق حواء مباشرة من التراب مثلما خلق آدم. فالفصل في الخلق بينهما لم يكن بدليل وإنما بترجيح، وهو ترجيح بلا مُرجح، وقبيح عقلاً ونقلاً.
- القول بنكاح آدم من نفسه والتلازم بين نكاح الإخوة والأخوات من ذريته أمر مستهجن، وأصبح ممسكًا للمجوس الذين يحللون نكاح المحارم بسبب هذه الهرطقات على نبي الله آدم وأمنا حواء.

نشير هنا إلى أن المجوس يجيزون زواج المحارم، وقد ورد أن ملك المجوس قد زنا بابنته، وقال إن الله تعالى لم يخلق أكرم من آدم وحواء، وقد زوج بنيه

(١) محمد جميل العاملي، أمنا حواء لم تخلق من ضلع آدم، موقع مركز العترة الطاهرة للدراسات والبحوث. https://www.aletra.org/subject.php?id=24 .

ببناته، وبناته ببنيه، ومن هنا قدم أصحاب المذهب الشيعي تصورًا لعملية الخلق أدخلوا فيه عنصر حوريات الجنة والجن.

وفي هذا فقد ورد بالرواية لديهم عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر الباقر أنه قال: «إن آدم ولد له أربعة ذكور، فأهبط الله إليهم أربعة من الحور العين، فزوج كل واحد منهم فتوالدوا، ثم إن الله رفعهن وزوج هؤلاء الأربعة أربعًا من الجن فصار النسل فيهم، فما كان من حلم فمن آدم عليه السلام، وما كان من جمال فمن الحور العين، وما كان من القبح وسوء الخلق فمن الجن»[١].

وقال اليعقوبي: «وقد روى بعضهم أن الله أنزل لهابيل حوراء من الجنة فزوجه بها، وأخرج لقابيل جنية فزوجه بها، فحسد قابيل أخاه على الحوراء، فقال لهما آدم قربا قربانًا، فقرب هابيل من تين زرعه، وقرب قابيل أفضل كبش في غنمه لله، فقبل الله قربان هابيل، ولم يقبل قربان قابيل، فازداد نفاسة وحسدًا، وزين له الشيطان قتل أخيه فشدخه بالحجارة حتى قتله»[٢].

وروى الصدوق في كتابه: «العلل» عن الإمام الصادق في حديث له ينكر فيه زواج الأخ بأخته، فيقول: «سبحان الله عن ذلك علوًا كبيرًا، إن الله جعل أصل صفوة خلقه وأحبائه وأنبيائه ورسله وحججه والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له القدرة ما يخلقهم من حلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر الطاهر الطيب؟ الله لم يجعل نسل الأنبياء والأئمة من حرام»[٣].

ويُروى عن أبي عبد الله حديث طويل عن تفاصيل تكاثر أبناء آدم نورده باختصار: «وهب الله له شيئًا واحدًا ليس معه ثانٍ واسمه شيت هبة الله، وهو أول وحي أوحي إليه من الآدميين في الأرض، ثم وهبه بعد شيت يافث ليس معه ثانٍ،

(١) العياشي، تفسير العياشي، مرجع سابق، ج١، ص٥٣.
(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (العراق: طبعة النجف، ١٣٥٨) ج١، ص٢.
(٣) موقع العقائد الإسلامية. https://research.rafed.net/

وأراد الله أن يبلغ النسل ما ترون، وأن يكون ما جرى به القلم من تحريم ما أحل الله من الأخوات على الإخوة، أنزل بعد العصر يوم الخميس حوراء من الجنة اسمها بركة، فأمر الله أن يزوجها من شيت فزوجها منه، ثم نزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة اسمها منزله، فأمر الله أن يزوجها يافث فزوجها منه، فولد لشيت غلام، وولد ليافث جارية، فأمر الله آدم أن يزوج بنت يافث من ابن شيت، ففعل ذلك فولد الصفوة من النبيين المرسلين من نسلهما، ومعاذ الله إن ذلك على ما قولوا من الإخوة والأخوات»[١].

ولم تسلم قصة الخلق في المذهب الشيعي من الخيال، حيث يروي الحويزي أن علي بن أبي طالب قال: «إن الله تعالى خلق نور محمد قبل أن يخلق السماوات والأرض والعرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار، فأكرمه بست كرامات: ألبسه قميص الرضا، وأرداه رداء الهيبة، وتوَّجه بتاج الهداية، وألبسه سراويل المعرفة، وجعل تكة المحبة يشد بها سراويله، وجعل نعله نعل الخوف، وناوله عصا المنزلة، وكان أصل ذلك القميص ستة أشياء: قامته من الياقوت، وكمَّاه من اللؤلؤ، ودخريصيه من البلور الأصفر، وإبطاه من الزبرجد، وجربانه من المرجان الأحمر، وجيبه من نور الرب جل جلاله، فقبل الله توبة آدم بذلك القميص، ورد به خاتم سليمان، وهذا هو قميص محمد[٢].

على أن الشيعية الإسماعيلية ينظرون إلى خلق آدم بصورة مختلفة حيث يؤمنون بوجوده روحًا من قبل «وإن آدم كان رأس هذا الكور وأول المطبوعات، وإنه كان قبله أكوارًا لا يمكن لأمثالنا الوقوف عليها إذ هي روحانية غير معلومة بالمشاهدة. آدم عند نهاية الكور الروحاني ظاهر بالكور الجسداني ذي الأقطار الستة والطول والعرض والعمق». وهو ما يعني أن خلق آدم عند الإسماعيلية لم يكن من العدم، وإنما تم إخراجه من حد الجهل الذي يمثله العلم الظاهر إلى حد

(١) محمد باقر المجلس، بحار الأنوار، (بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤١٤هـ) ج١١، ص٢٢٣.
(٢) الحويزي، تفسير نور الثقلين، ط٤، (قم: مؤسسة إسماعيليان، ١٤٢٢هـ) ج١، ص٦٨.

العلم الذي بمثله العلم الباطن[١].

ختامًا نقول مع د. هيكل إن الأمل في إصلاح الخطاب الديني يكون بالمنهج القرآني وهو كما يعرفه «أن يبقى الإنسان واقعيًا ويكدح إلى ربه من خلال تجاربه الاجتماعية من دون استغراف في استنكاه عوالم غيبية يعجز العقل عن استيعابها، فالعقيدة لا تثبت بأخبار أحاد وظنية الثبوت ولا بنصوص غير قطعية الدلالة.

أن يسلك الخطاب الديني مسلك القرآن في تناول تاريخ الرسل وأممهم مستبقيًا الاحتمالي على تعدده والمجمل على إجماله متجنبًا الخوض في تفاصيل سكت عنها الوحي»[٢].

حكاية هبوط آدم وحواء إلى الأرض:

أعطى العلماءُ الثلاثةُ الذين أشاروا إلى قصةِ هبوطِ حواءَ في جُدةَ نقلًا عن روايةِ وهبِ بن منبهٍ، وتكرارهم لها من دون تمحيص، شرعيةَ الإجماع والثبات التاريخي من دون أي دليل تاريخي منهجي. وسنُوردُ لأهمَّ ملامحِ هذه الأقوال للعلماءِ الثلاثة بحسبَ التسلسلِ التاريخي:

ابنُ قتيبةَ وكتابهُ (المعارف)[٣]:

يُوضِّحُ محقق الكتاب الدكتور ثروت عكاشة في مقدمته أنَّ ابنَ قتيبةَ قد وضعَ هذا الكتابَ على عجَل، لأنه وجدَ حاجةَ العصر الذي يعيشُ فيه إلى مثلِ هذا الكتابِ الجامع، وكان أكثرُ المآخذِ عليه اعتمادَه على مصدرَيْنِ وحيدَيْنِ في قصةِ

(١) جعفر ابن منصور، سرائر وأسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب، ط١، (بيروت، لبنان: دار الأندلس، ١٩٨٤م) ص٢٢ – ٢٤.

(٢) عبد الباسط هيكل، (المسكوت عنه)، مرجع سابق، صفحة ٢٨.

(٣) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، ط٤، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢م) ص١١٣، وانظر مقدمة الكتاب والتعقيب.

الخلق، أو مبتدأِ الخلقِ كما أسماها، حيث اعتمد على التوراة بنسختها العربية، مع عدم مناقشته للاختلاف الدائر بين ما جاء في التوراةِ وما جاءَ في القرآن، وتوسعه في نقلِ الإسرائيلياتِ بما فيها مِنْ تخليطٍ وكذبٍ، من دون تنقيح أو تعليق. وعليه فقد نقلَ ابنُ قتيبةَ عن التوراةِ ثماني عشرة روايةً ومنها رواية وهبُ بنُ منبه، الذي يُعد من روّادِ روايةِ الأساطير، وعلومِ أهلِ الكتاب كما قدَّمنا بالتفصيل. وكان أولَ من نَقَلَ نصَّ وهبِ بن منبه الذي يقول: «وكان مهبطُه من جنةِ عدنٍ في شرق أرضِ الهندِ، وأهبطَ الله عز وجل حواءَ بجُدةَ، والحيةَ بالبريةِ، وإبليسَ على ساحل الإبلّة»، وأسندَ هذه العبارةَ إلى وهبٍ صراحةً بعدَ أنْ ذكرَ قصةَ الخلقِ من التوراة، ثم أوردَ القصةَ كاملةً عن وهب[1].

كما أوردَ روايةَ ابنِ إسحاقَ الذي يذكر فيها أنَّ إهباطَ آدمَ وحواءَ كان على جبلٍ يُقَال له «واسمٌ» من أرضِ الهند، وهو جبلُ بني قرى الدهبج والمندل، وهي روايةٌ مناقضةٌ لرواية وهبِ بنِ منبه، ومع ذلك أوردَها بعدَ روايةِ وهب. وحتمًا يعود هذا التضارب في الرواية والنقل إلى استسهال النقل من الإسرائيليات من دونِ التمحيصِ والتدقيقِ.

الطبريُّ:

وهو أبو جعفر محمدُ بنُ جرير الطبري، مِنْ علماءِ الإسلامِ وإمامُ عصرهِ وفقيهُ زمانهِ في علوم القرآنِ والنحوِ والشعرِ واللغة، توفي عام ٣١٠ من الهجرة، وقد أثرى المكتبة بعديد من الكتب المهمة ومنها تفسيره الشهير، على أن ما يهمنا هنا هو تاريخه المسمى «تاريخ الرسل والملوك» والمعروف باسم «تاريخ الطبري».

واعتمد الطبري في تاريخه ذكر الحوادث بمرويات مسندة لصاحبها من دون أن يُبدي رأيًا، كما يصرح باسم الكتاب الذي ينقل عنه أحيانًا، وقد أخلى الطبري مسؤوليته في المقدمة حيث قال:

---

(١) ابن قتيبة، المرجع السابق، ص ١٥.

"وليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت إني راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها، والآثار التي أنا مسند روايتها من دون ما أدرك بحجج العقول، وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، فما يكن من خبر في كتابي هذا عن بعض الماضين ممن يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من بعض ناقليه إلينا، وأنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا".

وفي موضوعنا فقد تصدّى الطبري لقصة الخلق بأكثر من ٢٢٠ رواية، مع حرصه على الإسناد، وكان من أهم مصادره التي أسند لها الآتي[١]:

- المصدرُ الأولُ: الصحابيُّ عبدُ الله بن عباس؛ حيث روَى عنه ٨٢ روايةً، منها ١٤ رواية عن خلق آدم وحواء، و١٩ روايةً عن هبوط آدم وحواء مدعمةً بالأحاديثِ والآياتِ القرآنية.
- المصدرُ الثاني: كان عبدُ الله بنُ سلام، حيث اقتبسَ منه ستَّ روايات، أربع منها عن خلقِ السماوات والأرض، وروايتانِ عن وقتِ خلقِ آدمَ.
- المصدرُ الثالثُ: وهبُ بنُ منبه، حيث اقتبسَ منه ستَّ رواياتٍ، منها روايتانِ عن خلقِ العرشِ والكرسيِّ، وروايةٌ عن خلقِ السماواتِ والأرضِ، وروايةٌ عن خلقِ القلم.
- المصدرُ الرابعُ: عبدُ الله بن مسعود، حيث اقتبسَ منه ١٢ روايةً، أربعَ رواياتٍ منها عن خلقِ السماواتِ والأرض، وروايةً عن خلقِ الشمس، وروايتينِ عن خلقِ إبليسَ، وثلاثَ رواياتٍ عن خلقِ آدمَ، وثلاثَ رواياتٍ عن إخراجِ آدمَ من الجنة، وكان عبدُ الله بن مسعود يُعنَى كثيرًا بالإسناد والاستشهادِ بالقرآن. أورد الطبري عددًا من الروايات في الموضع الذي

(١) هبة خالد سليم، دراسة في ميثالوجيا الخلق لدى المؤرخين المسلمين حتى القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير (نابلس: جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٥م) ص١٦ – ٣٣.

أُهبِطَ آدمُ وحواءُ إليه، حيث أشار إلى هبوطِ آدمَ وحدَه في بلادِ الهند، وذكرَ أن حواءَ أُهبِطَتْ في جدةَ في ثلاثِ رواياتٍ على النحو التالي:

- **الرواية الأولى** : حدثني الحارثُ قال: حدثنا ابنُ سعد قال: حدثنا هشامُ بن محمد عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «أُهبِطَ آدمُ بالهندِ وحواءُ بجدةَ، فجاء في طلبِها حتى اجتَمعا، فازدلفَتْ إليه حواءُ، فلذلك سُمِّيَتْ مزدلفةً، وتعارفا بعرفاتٍ، فلذلك سُميت بعرفاتٍ، واجتمَعا بجمعٍ، فلذلك سُميتْ جمعًا»[١]. ومن المعروف أنَّ جميعَ الروايات عن أبي صالح عن ابن عباس هي رواياتٌ كاذبة، حيث ذكر أن الكلبِّي قال في مرضه: إن كلَّ ما حدثتُكم عن أبي صالح كذبٌ[٢]، ويضاف إليه ما رواه محمدٌ السدّي الصغيرُ عن ابنِ عباس، وبالتالي فالروايةَ تسقطُ لأن الراويَ معروفٌ عنه الكذبُ عن الصحابي[٣].
- **الروايةُ الثانية** : حدثنا ابنُ حميد قال: حدثَنا سلمةُ عن ابن إسحاقَ قال: «وأما أهلُ التوراة فإنهم قالوا: أُهبِطَ آدمُ بالهندِ على جبلٍ يُقَالُ له واسمٌ عندَ وادٍ يُقَال له بهيلٌ بينَ الدهنجِ والمندلِ، قالوا: وأهبطتْ حواءُ بجُدةَ من أرضِ مكةَ». وبالتالي فالطبري هنا ينسب القولَ إلى أهلِ التوراةِ من دون تحديد، واعتبرها روايةً يهوديةً.
- **الروايةُ الثالثةُ** : وقال آخرونَ من دون تحديد الراوي: «بل أُهبِطَ آدمُ بسرنديبَ على جبلٍ يُدعَى بوذ، وحواءُ بجُدةَ مِنْ أرض مكةَ، وإبليسُ بميسانَ، والحيةُ بأصبهان». وهذه الرواية من دونِ إسنادٍ ولا مرجعيةٍ ولا مصدرٍ، بل تكرارٌ للرواية الأولى بلفظٍ مختلفٍ.

---

(١) تاريخ الطبري، ج١، ص١٢٣.

(٢) أبو شهبه، مرجع سابق، ١٤٧.

(٣) لزيادة في التفصيل انظر: موقع الإسلام سؤال وجواب.

https//:islamqa.info/ar/answers/179020/

وختم رواياته بقوله: «هذا مما لا يوصلُ إلى علم يجيءُ مجيءَ الحجة، ولا يعلمُ بخبرٍ وردَ في ذلك، وأن ما وردَ في خبرِ هبوطِ آدمَ بأرضِ الهند فإن ذلك مما لا يدفعُ صحتَه علماءُ الإسلام وأهلُ التوراةِ والإنجيل، والحجةُ قد ثبتتْ بأخبارِ هؤلاء». أي: أن تواترَ أخبارِ أصحابِ الدياناتِ السماويةِ عن هبوطِ آدمَ في الهند يعتبر حجّةً، ولم يثبتْ شيءٌ عن إهباطِ حواءَ في جُدةَ، وهذا إنكارٌ لما أوردَه من ابنِ قتيبةَ عن وهب بن منبه[1].

والعجيب أن كثيرًا من المعاصرينَ يحتجونَ بأسطورةِ إهباطِ حواءَ في جُدةَ بالطبري، بالرغم من أنَّه أخلى مسؤوليتَه بأكثرَ من وسيلة، حيث يقوم منهجُه على ضبطِ الإسنادِ، وفي قصة إهباطِ حواءَ وآدمَ أقر إهباطَ آدمَ في الهندِ من خلال تواترِ أخبارِ علماءِ الديانات الثلاث، واكتفى بترديد القصةِ التي أوردَها ابنُ قتيبةَ نقلاً عن وهب.

ومما فاقم في انتشار هذا الإسناد أن بعضُ كُتَّاب الصحف ينسبونَ القصةَ إلى ابنِ عباس كأنها حقيقةٌ علمية، ويستبعدونَ ضوابط منهجَ الطبري، وافتراء أبي صالح على ابنِ عباس من دونِ تدقيق، والطريف أنَّ الطبريَّ قال: «إن مدفنَها في الغارِ بمكةَ معَ آدمَ»، كما سيرِدُ لاحقًا في الكتاب عن روايةٍ لعبدِ الله بنِ عباس أيضًا وبرواية أبي صالح ذاته.

المسعودي:

هو عليٌّ بنُ الحسين المتوفى عام ٣٤٦هـ، علاَّمةُ عصرِه، وله مؤلفاتٌ شاملةٌ في الدينِ والتاريخ والجغرافيا والفِرَقِ والعلومِ العامة والطبيعية، ومن أهمِّ كتبِه «مروجُ الذهب» الذي أوضحَ رغبتَه في السير على شاكلةِ العلماءِ والحكماءِ في التأليف، وله أيضًا عشراتُ الكتب فُقِدَ منها الكثيرُ، ويصفُه الغربيون بأنه (هيرودوت الشرق)، وأنه إمامُ المؤرِّخين.

(١) تاريخ الطبري، ج١، ص١٢١.

وقد تصدّى المسعودي لقصةِ الخلق، وأورد اثنتينِ وعشرينَ رواية، منها روايتانِ عن خلقِ العرش، وروايتانِ عن خلقِ السماوات والأرض، وروايةٌ عن خلقِ الجبال، وروايةٌ عن خلق الجانِ، وروايةٌ عن خلقِ إبليسَ، وروايةٌ عن امتناعِ الملائكةِ عن السجودِ لآدمَ، وروايةٌ عن خلقِ آدمَ، وروايةٌ عن طردِ إبليسَ من الجنةِ، وروايةٌ عن الأكلِ منَ الشجرةِ، وروايةٌ عن أيامِ الخلقِ، وروايةٌ عن مكانِ هبوطِ آدمَ وحواءَ والحيةِ وإبليسَ، وروايةٌ عن الثمارِ التي أُهبِطت من الجنة.

وقد جاءت بعضُ هذه الرواياتِ بالنقلِ الصريح من التوراة، على أن أكثر الروايات لم يُسنِدْها، واكتفَى بالقول: «ورأينا إيجازَ ما بسطناه، واختصارَ ما وسطناه»[١]، كما أن روايتَه عن الخلق كانتْ مرسلةً من دونِ إسناد. وفي ما يخصُّ إهباطَ آدمَ وحواءَ، فقد استخدمَ العبارةَ نفسَها التي أوجدَها وهبُ بن منبه، ونقلها قبلَه ابن قتيبةَ والطبري[٢].

وهكذا يتضح أنه وبنهاية القرن الرابع الهجري تشكلت في الثقافة الإسلامية عن طريق التكرار مرجعية ذهنية لقصة الخلق أساسها الاستعانة بنصوص دينية من مرحلة ما قبل الإسلام وبخاصة من اليهودية وبدرجة أقل من أساطير اليونان والسومريين، وأن هذه النصوص كانت المعين الذي نهل منه كبار المؤرخين وحتى المفسرين في تلك الحقبة التاريخية المؤسسة للثقافة الإسلامية.

كما يتبين من نصوص الكتب التاريخية التي تصدت لرواية قصة الخلق بأنها قد كتبت على عجل، وبعضها اعتذر أصحابها أن لا وقت لديهم للتدقيق، ومنهم من اعتذر بأنه يورد ما وصل إليه من دون أي مسؤولية. وهو ما أشار إليه الدكتور لانغ بقوله: «لقد كان الناس في العصور القديمة يؤلفون قصصهم طبقًا لنظرتهم الخاصة للأشياء وأسلوبهم في تفسير الأمور، وهذا وضع طبيعي لأنهم لم يكونوا يفكرون على أساس المبادئ التي يضعها الباحثون في العصر الحديث أمامهم عند

(١) المسعودي، مرجع سابق، ص ٤٤.
(٢) هبه سليم، مرجع سابق، ص٩٥.

تفسيرهم لهذه الأمور»[١].

وما يهمُّنا في هذا كله هو قصةُ إهباطِ حواءَ، التي لا يوجدُ نصٌّ قرآني ولا منَ السُّنةِ أيضًا يحدد موضعًا لذلك، وما رُويَ عن ابنِ عباس مدحوض لكذب راويه وهو أبو صالح، كما أن ابن عباس قد رافق صاحبَ الرواية الأصلي وهو وهبُ بن منبه، ولعله قد اختلطَ على الراوي، وعزاها لابن عباس بدل وهب.

المرحلة الرابعة: تحديد المكان وتأصيله في المخيال الشعبي:

بات من المتفق عليه أن الربط بين حواء ومدينة جدة كان نتاجًا لمزيج من الروايات التوراتية، التي ابتدأ تخلقها في التراث الإسلامي مع حلول عصر التدوين في القرن الثاني الهجري. ولتتضح الصورة أكثر يجب فهم ومعرفة الإطار التوراتي لقصة هبوط ثلاثي الخطيئة بحسب رأيهم من الجنة، وهي منشأ وابتداء تخلق الأسطورة.

إهباط إبليس وحواء والحية:

لم تدوّن البشريةُ تاريخها بوصفها حقيقة مُعاشة، وإنما خلطَتْ بين ما عاشَتْه وما تخيلَتْه واعتقدَتْه؛ لذا فإنَّ الميثولوجيا تجمعُ بينَ ما هو حكائي، وما هو قصَصي، وما هو واقعي، وما هو عياني.

كما لم يرد أي ذكر لهبوط حواءَ في موقع جدةَ في مختلف الأساطير السامية وغيرها، وخلت النصوص الدينية في الأديان السماوية (اليهودية والنصرانية والإسلام) من الربطِ بينَ حكاية هبوط حواءَ وموقع جُدةَ. علمًا بأن خاتمَ الرسلِ قد وُلِد وعاشَ وأُرسلَ في الحجاز، ولم يرد عنه أي نص في صحيح السنة يذكر ارتباط موقعِ جدة بحواءَ.

---

(١) سليمان مظهر، أساطير من الغرب، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠م) ص١٠.

إضافة إلى ذلك لم يذكر المؤرخون أي قول أو فعل قام به الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ومن معه من الصحابة والتابعين حال وصوله إلى جدة عام ست وعشرين للهجرة واستحمامه في بحرِ الأربعينَ القريب جدًا من حيث المسافة عن موقع المكان المزعوم لهبوط حواءَ، والذي تحوَّل لاحقًا إلى مكانِ قبرِها.

وكذلك الحال مع عبدِ الله بن عباس الذي نُسبت إليه كذبًا وبسند ضعيف كما ورد سابقًا روايات أولِ الخلقِ، لم ترد الإشارة عنه أنه زار موقع قبر حواء طوال مدة اعتكافه في المسجدِ الكبير بمدينة جدة الذي لا يبعد كثيرًا عن موقع المكان المزعوم للقبر والمقام لاحقًا[1]. مع الإشارة إلى أن الرواية المنسوبة عن ابن عباس والمتكررة في الكتب المشار إليها سابقًا تقول الآتي: «أُهبِطَ آدمُ بالهندِ وحواءُ بجُدةَ، فجاء في طلبِها حتى اجتمَعا في مزدلفةَ، فازدلفتْ إليه حواءُ؛ فلذلك سُميتْ مزدلفة»، ويُروى عنه أيضًا: «أُهبطَ آدمُ بسرنديبَ على جبل يُدعى بوذ، وحواءُ بجُدةَ من أرضِ مكةَ، وإبليسُ بميسانَ، والحيةُ بأصبهانَ، وقيلَ أُهبِطتِ الحيةُ بالبرية، وإبليسُ بساحلِ بحرِ الأبُلَّة».

جدير بالإشارة فإن هذا الثالوثُ المتداخِل (حواءُ، إبليسُ، الحيةُ) جزءٌ أصيلٌ في المعتقدِ والنصوصِ المقدسةِ لدى اليهود، حيثُ وردَ في الإصحاح الثالث من سفرِ التكوين:

> "وكانتِ الحيةُ أحيلَ جميعِ حيواناتِ البرية التي عمِلَها الربُّ الإلهُ * فقالت للمرأة: أحقًا قال الله لا تأكُلا من شجرِ الجنة؟ * فقالت المرأة للحية مِن ثمرِ الجنة نأكلُ * وأما ثمرُ الشجر الذي في وسطِ الجنة، فقال الله: لا تأكُلا منه ولا تَمسّاه لئلا تموتا. فقالتِ الحيةُ لن تموتا * بل الله عالمٌ أنه يومَ تأكلانِ منه تتفتحُ أعينُكما وتكونان كاللهِ عارفَيْن الخيرَ والشرَّ * فرأتِ

(١) الشافعي، السلاح والعدة، مرجع سابق، ص ٩٢.

المرأةُ أنَّ الشجرةَ جيدةٌ للأكل، وأنها بهجةٌ للعيون، وأنَّ الشجرةَ شهيةٌ للنظر فأخذَتْ من ثمرِها وأكلَتْ، وأعطَتْ رجلَها أيضًا معها فأكلَ".

وورد في الإصحاح الرابع من سفر الخروج: «حيث تتحولُ العصا إلى حيةٍ»، وأيضًا في الإصحاح الواحد والعشرين من سفرِ الإعداد: «حيث توصَفُ الحياتُ النارية التي أرسلَها الله لتقتلَ بعضَ بني إسرائيل».

كما أن الحيةُ كانت حاضرةٌ في الثقافاتِ المختلفة، فهي: «الحيوانُ ذو الرمزية الأكثرُ غِنًى بين كلِّ الحيوانات، فعلى سبيل المثالِ لا الحصرِ: هي رمزُ المعرفةِ والحكمةِ، ورمز الشر، ورمزُ الخصوبةِ والخلودِ، وهي رمزٌ جنائزيٌّ، ورمزٌ أسطوريٌّ، والحيةُ رمزٌ قمري، ورمز حارس، ورمزٌ جنسيٌّ، ورمزٌ مطبب شافٍ»[1].

وقد مثلت الحيةُ في الدين المسيحي أكثر من دلالة، فهي السيد المسيح، وتُمثِّل النقيضَ له أي إبليسَ؛ وبالتالي فهي جامعةُ التناقضات، ويتجسدُ فيها الحياةُ والموتُ كما في الأشكالِ الفنيةِ المسيحية؛ حيثُ تظهرُ الأفعى والصليبُ وحمامةُ القدس في رمزٍ واحد، أو أنَّ الأفعى مرفوعةٌ على الصليب رمزًا للسيد المسيح. على أن جانبَها الشرّيرَ هو الظاهر أكثرَ في الديانة المسيحية؛ حيث وردَ في الإنجيل: «وهو يسحقُّ رأسَكِ وأنتِ تسحقينَ عقِبهُ».

وكانت الأساطير السومرية قد أوجدَتْ رابطةً قويةً بين هذا الثالوثِ (المرأة – الحية – الشيطان) ثم انتقلَت الفكرة إلى التوراةِ ومنها إلى المسيحية وصولًا إلى كتبِ بعضِ المؤرِّخينَ الإسلاميينَ ابتداءً من القرنِ الثاني الهجري كما مر معنا سابقًا.

يشار إلى أنه لم يرد أي ذكر للحيةِ في القرآنِ الكريم والسُّنةِ المطهرة الصحيحةِ في إطار الحديث عن قصة الخطيئة والذنب المرتكب من آدم وزوجه، كما أن ذكرها الوحيد قد ورد لاحقًا كبيان إعجاز رباني مع نبي الله موسى عليه السلام

(١) إبراهيم محمود، لعبة الحية بين آدم وحواء: دراسة في الميثالوجيا، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٨م) ص٥٧.

وذلك في الآية الكريمة: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]. وارتبطت الحية بعد ذلك في الذهنية الإسلامية بالعذاب في عالم الآخرة، حيث وصفَها ابنُ الجوزي بأنها قد أُعِدَّتْ لِفَسَقة القراء، ففي جهنمَ وادٍ تتعوذُ منه جهنمُ، وفي الوادي جبٌّ يتعوذُ منه الوادي، وفي الجبِّ حيةٌ يتعوذُ منها الجبُّ[١].

ولهذا يمكن القول وبثبات إن الخلفيةُ التوراتية كانت واضحة في تأصيل قصة الحية ضمن إطار التراث الإسلامي، إذ كان وهب بن منبه المنشأ لحكاية الربط بين هبوط حواءَ ومدينةِ جُدةَ، وكان ابن قتيبة أولُ مَنْ أعاد هذه الفكرة ونسبها بوضوح إلى وهبٍ بعد أنِ استعرضَ الروايةَ التوراتيةَ كاملة، مع بيانه في كتابه «المعارف» إلى مرجعية الروايات الإسرائيلية للرواية[٢].

وقدم الطبريُّ روايةَ وهب بن منبه عن إهباطِ حواءَ في جُدةَ بثلاثِ طرق، اثنانِ من دون سندٍ، وثالثة أسندها إلى ابنِ عباس بسند أبي صالح الذي تبين لنا كذبه على ابنِ عباس، كما يقدم الطبريُّ نصًا آخرَ عن الحية؛ حيث يقولُ[٣]:

> "أخبرنا معمرُ بنُ مهرب يقول: سمعتُ وهبَ بن منبه يقول: لما أسكنَ الله تعالى آدمَ وزوجتَه الجنةَ، ونَهاهُ عن الشجرة، وكانت شجرةً غصونُها متشعبةٌ بعضُها في بعض، وكان لها ثمرٌ تأكلُه الملائكةُ لخلدهم، وهي الثمرةُ التي نهَى الله عنها آدمَ وزوجتَه. فلما أراد إبليسُ أن يستلزمَها دخلَ في جوفِ الحية، وكان للحية أربعُ قوائمَ، كأنها بختيةٌ مِنْ أحسن دابةٍ خلقَها الله تعالى، فلما دخلتِ الحيةُ الجنةَ خرجَ من جوفِها إبليسُ، فأخذَ من الشجرةِ التي نهَى الله عنها آدمَ وزوجتَه، فجاء بها إلى حواءَ فقال: انظري هذه الشجرةَ ما أطيبَ ريحَها وأطيبَ طعمَها وأحسنَ لونَها، فأخذتْ حواءُ فأكلتْ منها، ثم ذهبتْ بها إلى آدمَ فقالت: انظرْ إلى هذه الشجرةِ

(١) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، مرجع سابق، ص ٢٣٦.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص ٢٣٦.
(٣) تاريخ الطبري، ١/ ٧٢.

ما أطيبَ ريحهَا وأطيبَ طعمَها وأحسنَ لونَها... وقال: يا حواءُ أنتِ التي غررتِ عبدي، فإنكِ لا تحملينَ حملًا إلا حملتِه كُرهًا؛ فإذا أردتِ أن تضَعي ما في بطنكِ أشرفْتِ على الموتِ مرارًا. وقال للحية: أنتِ التي دخلَ الملعونُ في بطنِكِ، حتى غرَّ عبدي، ملعونةٌ أنتِ لعنةً حتى تتحولَ قوائمُكِ في بطنِك، ولا يكونُ لك رزقٌ إلا الترابَ، أنتِ عدوةُ بني آدم، وهم أعداؤكِ، حيث لقيتِ أحدًا منهم أخذت بعقبة، وحيثُ لقيكِ شدخَ رأسَكِ. قيل لوهب: وما كانتِ الملائكةُ تأكلُ، قال: يفعل الله ما يشاء".

جدير بالذكر فقد أثارتِ العبارةُ في آخر النص حول أكل الملائكة بعض المفسِّرين ومن أولئك السيوطي الذي أشار في الدر المنثور إلى أن هذه قصصُ بني إسرائيل، حملَها عنهم ابنُ عباس وغيرُه وفسَّروا بها القصصَ[١]؛ كما بيَّن الطبري أنَّ ما يرَويه ابنُ عباس وابنُ مسعود، إنما مرجعُه وهبُ بن منبه وغيرُه من مسلمي أهلِ الكتاب، وكانوا يشكّونَ في ما يروونَه لهم[٢]. وفي ذلك يرى إبراهيم محمود أنَّ: «الطبريُّ في كتاب التاريخ كما في التفسير لا يتنفسُ سوى التاريخِ التوراتي»[٣].

على أن الأمر لم يتوقف عند ذلك، بل تراه وعدد من المؤرخين المسلمين قد تبنوا نقل تشويه صورة المرأة في الرواية التوراتية إلى التراث المسلم، حيث يرد عن المفسرين المسلمين القول: «إنَّ أولَ مَنْ أكلَ من الشجرةِ حواءُ بإغواءِ إبليسَ إياها، وإنّ أولَ كلامِه معها؛ لأنها وسواسُ المخدة، وهي أولُ فتنةٍ دخلتْ على الرجالِ منَ النساء» و «إذا أقبلتِ المرأةُ جلسَ الشيطانُ على رأسِها فَزيَّنها لمن ينظرُ، فإذا أدبرَتْ جلس على عجزِها فَزيَّنها لمن ينظر»، وإنها «سهمٌ من سهامِ إبليسَ»[٤].

---

(١) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (بيروت: دار الفكر، ١٤٣٢م) ١/ ٥٣.

(٢) تفسير الطبري، ١/١٨٦-١٨٧.

(٣) محمود، لعبة الحية بين آدم وحواء، مرجع سابق، ص١٣٠ – ١٣٢.

(٤) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م) ١/٣٠٧.

من جانب آخر فقد روى بعض المفسرين حديثًا مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد فيه الرواية التوراتية ولكن بسند واهٍ يصل في ضعفه كما يقول أهل الجرح والتعديل إلى حد الوضع، حيث جاءَ في كتاب «الدر المنثور» للسيوطي قال: أخرجَ الديلميُّ بسندٍ واه؛ أي بسندِ ضعيف يصلُ إلى حدِّ الوضع، عن علي قال سألتُ النبي عن قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، فقال: «إن الله أهبطَ آدمَ بالهندِ وحواءَ بجُدةَ، وإبليسَ ببيسانَ، والحيةَ بأصبهانَ، وكانت للحيةِ قوائمُ البعير، ومكثَ آدمُ بالهندِ مائةَ سنةٍ باكيًا على خطيئته، حتى بعثَ اللهُ إليه جبريلَ وقال: يا آدمُ ألم أخلقْكَ بيدي؟ ألم أنفُخْ فيك مِنْ روحي؟ ألم أُسجِدْ لك ملائكتي؟ ألم أزوِّجْكَ حواءَ أمتي؟ قال: بلى، قال: فما هذا البكاءُ؟ قال: وما يمنعُني من البكاء وقد أُخرِجْتُ من جوارِ الرحمن. قال: فعليكَ بهذه الكلماتِ، فإنَّ اللهَ قابلَ توبتَك وغفرَ ذنبَك، قُلْ: اللهمَّ إني أسألك بحقِّ محمدٍ وآلِ محمدٍ، سبحانَك لا إله إلا أنت عملتُ سوءًا وظلمتُ نفسي فاغفِرْ لي إنك أنت الغفورُ الرحيم». وأورد أبو بكر الشبلي في القرن الرابع الهجري، وقد عُرف عنه تأثره بالروايةِ التوراتية، نصًا ذُكرت فيه مدينة جدة وارتباطها بحواء قال فيه[1]:

"أولُ الدّن دردي، هذا أبونا آدم باعَ ربَّه بكفٍّ من حنطة، فلما أكلَ من الشجرةِ المنهيِّ عنها ابتلاه الله بعشرةِ أشياء: الأولى: معاتبتُه إياها على ذلك، والثانية: الفضيحةُ، والثالثةُ: أوهنَ جلدَه وصيَّره مظلمًا، والرابعُ: أخرجَه من جواره. ونُودي أنه لا يَنبغي أن يُجاورَني مَن عصاني؛ فذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦]، يعني آدمَ وحواءَ وإبليسَ والحيةَ والطاووسَ، فهبط آدمُ بسرنديبَ من أرضِ الهند، وإبليسُ بالأبلةِ من أرضِ العراق وهي بالبصرة، وقيلَ مشان، والحيةُ بأصبهانَ،

(١) النيسابوري، عرائس المجالس، مرجع سابق، ص ٣١.

والطاووسُ بأرض بابل. والخامسُ: الفرقةُ؛ حيث فَرَّق بينَه وبينَ حواء مائة سنة، هذا بالهند، وهذه بجدة، السادسُ: العداوةُ والبغضاءُ، فالإنسانُ عدوُّ الحيةِ يشدخُ رأسها حيثُ يراها، والطاووسُ من عدوِّه، والحيةُ عدوتُه تلدغُه إن أمكنها، وإبليسُ عدو لهم جميعًا. وفيه إشارةٌ إلى أن الأحبابُ إذا اجتمعوا على معصيةٍ أعقبتْ معصيتهم عداوة، السابعُ: النداءُ عليهم باسم العصيان، الثامنُ: تسليطُ العدوِّ على أولاده، والتاسعُ: جعلُ الدنيا سجنًا له ولأولاده، والعاشرُ: التعبُ والشقاءُ".

وهكذا تواترتْ هذه الرواياتُ في الفضاء الإسلامي وانتشرت جغرافيًا وزمنيًا بشكل واضح، وقد حاول ابن كثير تنقيتها حيث عرف بالحرصِ في النقلِ من القرآنِ والسنةِ، وما ورد عن الخلفاءِ الراشدين وصحابة رسول الله، إضافة إلى الأخبارِ المقبولة لدى علماء المسلمين، وتعاملَ مع الإسرائيلياتِ بالكثير من الحذرِ، فنقلَ منها ما لا يخالفُ الكتابَ والسُنةَ، وفي إطارٍ حدَّده بالتحلية فقط. وأبان منهجه في قوله: «نورد ما نوردُه من الذي يسوقُه كثيرٌ من كبار الأئمة المتقدمين عنهم، ثم نتبعُ ذلك من الأحاديثِ بما يشهدُ له بالصحة أو يكذبُه، ويبقى الباقي مما لا يُصدَّق ولا يكذَّبُ»[1]، أي أن ابنَ كثير عندما لا يستطيع أن يرفعَ الأخبارَ إلى مرجعه الأساسي من قرآنٍ أو سُّنةٍ أو قول صحابي؛ فإنه يلجأُ إلى شرعيةٍ أخرى، وهي شرعيةُ الإجماعِ لدَى العلماءِ السابقينَ، أو مِنْ أقوالِ الأممِ السابقة التي لا تخالِفُ نصَّ القرآنِ والسُّنةِ مما لا يصدقُه ولا يكذبُه.

وفي موضوعنا فقد روَى ابنُ كثير روايتينِ عن هبوطِ حواءَ، وكلاهما نقلاً عن ابنِ أبي حاتم، حيث ذكر في الرواية الأولى عن ابنِ عمرَ أنه قال: «أُهبِطَ آدمُ بالصفا، وحواءُ بالمروة»، وذكر في الروايةُ الثانية عن الحسنِ أنه قال: «أُهبِطَ آدمُ في الهندِ، وحواءُ في جُدةَ، وإبليسُ بدستميسانَ من البصرة، وأُهبِطتِ الحيةُ

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١/ ٦.

بأصبهانَ»[١]، ولم يدعمِ ابنُ كثير روايةً عن الأخرى، أو يتبنَّى واحدةً ويتركُ الأخرى، أي أنه لم يورِدْ حقائقَ يعتدُّ بها، ولكنْ روايات.

والسؤالُ الذي يبرز بعد هذا التطواف هو: كيف نقرأ قصة الخلق ونفسرها مع هذا الكم الكبير من القصَص الخرافيةِ واللوحاتِ الذهنيةِ المرتكزة على الخيال لعمليةِ الخلق وتعقيداتِها؟ وأتصور أن الإنسان قد لجأ إلى حاسة الخيال في الذهنية البشرية لفهم الظاهرة وتفسيرها، ولا سيما مع عمق تأثيرها في الثقافة المجتمعية عبر العصور.

الخيال الذهني:

يساعدنا الخيال بمفاهميه الشاملة على فهم كلِّ هذا السردِ والمروياتِ عن قصةِ الخلقِ وآدمَ وحواءَ، وكلِّ هذه التفاصيلِ التي لم ترِدْ في النصوص المقدسةِ، سواء الكتابُ والسُّنةُ عندَ المسلمين، أو حتى كتب الشرائع السماويةِ الأخرى، وأيضًا الحدود الخارجية لهذه الروايات التي لا تتناقضُ مع ما جاء في الأديان.

ولفهمِ هذه الظاهرة يمكن الاستعانة بأدواتِ النقدِ الأدبي الحديثِ وفلسفة التاريخ، التي وصفت الخيال وفق تعريف العالم النفسي جاك لاكان بأنه: «مخزون من الصور والتمثلات والرموز والحكايات والأساطير، التي تشكلت تاريخيًا في الذاكرة الجماعية أو في الذهن، نتيجة لعملية التأويل التي تحاول بها جماعة ما، رسم واقعها الداخلي أو واقعها مع الآخر. بعبارة أخرى فإن الخيال هو فعل التأويل لما يعيشه الإنسان في علاقته بذاته أو لما يعيشه في علاقته مع الآخر»[٢].

كما ذكر ابن رشد في تعريفه للخيال حال شرحه لفكر أرسطو قوله: «إن المعاني الخيالية هي محركة العقل لا متحركة، فالخيالات هي ضروب من المحسوسات

(١) المرجع السابق. ج٢، ص٢٠٦ – ٢٠٧.

(٢) محمد عبد الله، المخيال وفكرة أنهم عرب، موقع الفلق.

https//:www.alfalq.com?/p6947=

عند غياب المحسوسات، إذن فالإيجاب والسلب في غير الخيال فالعقل يجرد التصور ويخلقه أي أنه يجعل الصور التي تتخيلها النفس معقولة. وهو بالتالي يجعل العقل والخيال صنوان لا يمكن الفصل بينهما ووجهان لعملة واحدة»[١].

وورد أن الخيال في الثقافة العربية الإسلامية هو: قوةٌ قلبيةٌ لها مجالُها الخاصُّ في إنتاج المعنى، ولها دورُها المعرفيُّ الأخلاقيُّ الذي تقومُ به. وعلى هذا يمكن القول بأن ظاهرة التخيل التاريخي The Historical Imagination المبثوثة في المرويات الإسلامية، التي تسرد قصة الخلق وغيرها، ليست في أساسها قائمة على الفرضية والقياس، بل على الأسطرة والخيال بمعناه الواسع.

فعلى سبيل المثال لا يمكن فهم النصِّ الذي يصفُ موقفَ آدمَ في الجنة، وخطابَه في الملائكة الذي أورده الكسائي، إلا في ضوءِ التخييلِ التاريخي، حيث يقولُ الكسائيُّ[٢]:

> "قال: (وعلم آدم الأسماء كلها)، حتى عرفَ اللغاتِ كلَّها حتى لغةَ الحيتانِ والضفادعِ وجميعِ ما في البر والبحر. وقال ابنُ عباس: لقد تكلَّمَ آدمَ بسبعمائة لغةٍ أفضلُها العربيةُ، ثم أُمِرَ الملائكةُ أن يحملوا آدمَ على أكتافهم وهم يقولون: قدوسٌ قدوسٌ لا نخرجُ عن طاعتِك يا رب، وقد اصطفتِ الملائكةُ حولَه... قال: فضربَتْ له في الصفيح الأعلى قباتٍ من الياقوتِ الأحمرِ والزبرجدِ الأخضر، فما مرَّ آدمُ في موقفِ الملائكةِ أو مقامِ النبيينِ إلا ذكرَه باسمِه وصاحبِه. فأمرَ الله بعدَ ذلك جبريلَ أن يناديَ في صفوفِ الملائكة ليجتمِعوا على آدمَ ليخطُبَ بهم، فنادى جبريلُ، فاجتمعَ أهل السماواتِ أجمعون، واصطفّوا عشرينَ ألفَ صف، كلُّ صفٍّ على زينة

(١) سمير أبو زينب، في المخيال والتاريخ، مجلة الكلمة.

http//:www.alkalimah.net/Articles?AuthorID2971=

(٢) البحراني، البرهان في تفسير القرآن، مرجع سابق، ٣/ ٣٤٥.

أخرى، وأُعطِيَ آدمُ من الصوتِ ما أبلغَهم، ووُضِعَ له منبرُ الكرامة له سبعُ مراقٍ. وعلى آدمَ يومئذٍ ثيابُ السندسِ الأخضر، وعلى رأسِه تاجٌ من الذهب مرصَّعٌ بالجواهر، له أربعةُ أركانٍ في كل ركنٍ منها درةٌ عظيمةٌ يغلب ضوؤها ضوءَ الشمسِ والقمرِ، وفي أصابعِه خواتيمُ الكرامةِ، وفي وسطِه منطقةُ الرضوانِ، ولها نورٌ يسطعُ في كل غرفةٍ من غرفِ الجنة، فوقفَ آدمُ على المنبر، وقد علَّمه الله الأسماءَ كلَّها، وأعطاه قضيبًا من نور... فقال: السلامُ عليكم يا ملائكةَ الرحمن، فأجابتِ الملائكةُ: وعليكم السلامُ يا صفوةَ الله وبديعَ فطرته، وأتاه النداءُ يا آدمُ لهذا خلقتُكَ، وهذا السلامُ منك تحيةٌ لك ولولدِك مِنْ بعدِك إلى يومِ القيامة... فجعلَ آدمُ يخبرُهم باسم كلِّ شيء خلقَه الله، خفيِّها وظاهرِها، وبرِّها وبحرِها حتى الذرةَ والبعوضةَ، ونزل آدمُ عن منبرِه، وقد زاد الله في حسنِه وجمالِه أضعافًا، فلما نزل قرَّبَ له قطفًا من عنب فأكلَه، فقال: الحمد لله، فقال الله: لهذا خلقتُكَ، فهو سنتُك وسُّنةُ أولادِك إلى آخرِ الدهر".

هذا التخييلُ يحيلُ المعنى إلى الرؤيةِ القلبية ليصبحَ قوةَ إدراك. أي أن الخيالَ: هو قوةٌ متجردةٌ كالصورة في المنام، ويستعملُ لتصويرِ كلِّ أمر متصور، وقوةٌ تحفظُ ما يدركُه الحسنُ المشتركُ كلما التفت إليه؛ ويذكرُ الغزالي أن الإدراكَ بالخيالِ درجاتٌ، فهو رتبةٌ وراءَ رتبةٍ أخرى أتمَّ منه في الوضوح والكشفِ، بل هي كالتكميلِ له، فنسمي هذا الاستكمالَ بالإضافةِ إلى الخيالِ رؤيةً وإبصارًا[1].

وقد اتصف العربُ بمهارتهم في صياغة الخيال التصوريِّ المبني على بعض المروياتِ، وشيءٍ من المحسوساتِ، التي يركَّبُ منها صورةٌ ليست بجديدة، بخلافِ الأجناسِ الأخرى التي سعَتْ إلى التخييلِ المجردِ، ولذلك اهتم العربُ بالناحيةِ الجماليةِ والأدبيةِ أكثرَ من اهتمامِهم بالوظيفةِ المرجعيةِ للمرويات. وقد ظهرَ هذا جليًا عندَ بدءِ عصرِ التدوين حال كتابتهم لأخبارَ الجاهلية، حيث اعتمدوا

(١) المخلبي، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

الصياغةُ النهائية على كثير منْ صنعةِ القصص[١].

تجدر الإشارة إلى أن هذه النصوصَ القائمة على المخيال الأسطوري قد اكتسبت مع الزمن صفةَ القداسةِ، التي يؤكد دوركايم على أنها: «لا تكونُ كامنةً في الأشياء نفسِها بقدر ما تضفي وتخلعُ عليها»[٢]. وعليه فالقداسةُ تأخذُ شكلينِ أو محورينِ: أحدُهما من الأعلى إلى الأسفل؛ حيثُ يخفي المقدَّسُ كتبَه ووصاياه ليهبَها دوامَ الحضور، والشكلُ الثاني صعودًا من الأدنى؛ حيثُ يحصلُ التقديسُ نتيجةَ ممارسةٍ داخلَ الثقافةِ، على ضروبٍ من الأفكارِ والأشخاصِ ليفكَّ روابطَها مع التاريخ؛ حتى تسكنَ خارجَه في سكونٍ وثباتٍ يستعصيانِ على أي تجاوزٍ أو انكسار[٣]. وبالتالي فالرواياتُ التي تبدأ بأخذ بعضِ الحقائق والأسطرةِ حولَها، تأخذُ مع الزمن صفةَ المقدَّسِ بحدِّ ذاتها، ولا يجرؤ أحدٌ من الاقترابِ منها وتفكيكِها؛ بل يخضعُ الجميعُ لسطوتِها من خلالِ التكرارِ، وتتحولُ من موضوعاتٍ للمعرفةِ والتأسيس، إلى مطلقاتٍ للاجترارِ والتقديسِ.

إن الخيالَ التاريخيَّ بما فيه من قصَصٍ وأساطيرَ، يبدأُ على مستوى الفردِ، كونُه انعكاسًا لما في النفسِ البشريةِ من دوافعَ ورغباتٍ، بعيدًا عن سلطةِ العقل الذي يقومُ بدور الكبتِ لها، وعلى مستوى الجماعاتِ تعكسُ اللاوعيَ الجمعيَّ الموروثَ معَ كلِّ الخصائصِ العرقية والثقافية، وهذا التفسير النفساني لها.

الخيالُ هو بنيةٌ بشريةٌ فاعلةٌ على مستوى الفرد، ومستوى الجماعة أيضًا، يرتكزُ على الصورِ والقيمِ وطبيعةِ لغة الجماعة، وما تحويه مِنْ رموزٍ وجمالياتٍ وشعرٍ وتشبيهات، وفي حالتِنا هذه نصوصٌ دينيةٌ تتميزُ بالعمقِ والإعجازِ اللغوي، وأفعالٍ وممارساتِ العبادةِ التي تتميزُ بالديناميكيةِ والتفاعلِ.

---

(١) العقيلي، ميثولوجيا الأيام، مرجع سابق، ص ٥٢ – ٥٣.

(2) Thomas O'Dea (The Sociology of Religion) Englewood Cliffs, New Jersey 1966. P. 20.

(٣) علي مبروك، ما وراء تأسيس الأصول، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م) ص٢٦.

وكما تقدَّم، فالخيالُ في الثقافةِ الإسلامية له دورُه الواضحُ في إنتاج المعنى، وليس مثلَ الثقافةِ الغربيةِ الآرية التي تستندُ إلى الخيالِ الجامحِ المغلوطِ لاعتماده على الخيالي، وقد أنتج الخيالُ والتخييلُ عمقَ هذه الثقافةِ، خاصةً لدى العوام الذينَ امتزجَ لديهم خطابُ التاريخِ والتراجم، معَ خطابِ التفسيرِ وقصَصِ الأنبياء، وأخذَتْ شكلَ الأساطيرِ الشفهية، وأصبحتْ جزءًا من وظيفةِ الوُعّاظِ والدُّعاةِ.

المرحلة الخامسةُ: تحولُّ المقام إلى قبر:

عرفت مدينة جدة وجودًا لمقام ذي بعد مقدس في موقع مقام حواء الحالي منذ ما قبل الإسلام، على أنه لم يُشرْ إليه ويُربطْ بأمنا حواءَ بأيِّ شكلٍ، وذكر المؤرخ المكي محمد طاهر كردي في كتابه النفيس «التاريخ القويم لمكةَ وبيتِ الله الحرام» بأنه: «لا يستبعدُ أن قبرَ حواءَ من الهياكلِ المقدسةِ في الجاهلية، فلما جاء الإسلامُ دالت دولةُ الوثنية، وهُدِمَت هياكلُها التي من ضمنها بالطبع هذا الهيكلُ، وبقيَ أثرُه في نفوس القوم، وأقاموا له قبةً لا ندري متى كان تشييدُها لتكون مزارًا للناس»[١]، ومن الثابتِ أن الفرسَ حال سكناهم بمدينة جُدةَ أخذوا في ترميم هذا المقامَ من دون ذكرِ حواءَ، باعتباره مقامًا مقدسًا.

وأولُ توثيقٍ مكتوبٍ يذكر اسم حواء مقرونًا بالمقام كان في القرن السادسِ الهجري، وذلك عندما زارَ الرحالة الأندلسي ابن جبير مدينة جُدةَ عام ٥٧٩هـ، حيث قال: «وبها موضعٌ فيه قبةٌ مشيدةٌ عتيقةٌ يُذكَرُ أنه كان منزلَ حواءَ أمِّ البشرِ صلى الله عليها عند توجهِها إلى مكةَ فبُني ذلك المبنى عليه تشهيدًا لبركتِه وفضلِه، والله أعلمُ بذلك»[٢].

(١) محمد الطاهر المكي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الحرام، (مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة، ١٤٢٠هـ)، ص٣٣٩.

(٢) أبو الحسين محمد جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق: معين الشريف، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠١٠م) ص٤٢.

ثم وبعد أكثرَ من مائة عام أشار القاسم بنُ يوسفَ السبتيُّ الذي زار جُدةَ في أواخر القرنِ السابعِ الهجري إلى الموقعِ بوصفه قبرًا لحواءَ، على أنه لم يستسغ ويتقبل الخبرَ، وفي ذلك كتبَ: «وعاينّاَ أيضًا بخارج جُدةَ قبةً مبنيةً زعمُوا أنها قبر أمِّ البشر حواءَ عليها السلام، وقد صُوِّرَ بداخلها قبرٌ، والناسُ يقصدونَ ذلك القبرَ للتبركِ بزيارته، ويرونَ أن الدعاءَ عندَه مستجابٌ، وأهلُ العلم يأبونَ أنَّ ذلك موضعُ قبرِها، ويقولونَ إنَّه موضعُ نزولِها من الجنة»[1]. أي أنه يقبل أن يكون المقام مكان هبوط حواء وليس موقعًا لقبرها.

ويمكن فهم كيفية تحوُّلِ هذا المقامِ المقدسِ إلى قبر، وضرب قبة عليه من خلالِ معرفةِ التغييراتِ الثقافيةِ والاجتماعيةِ العميقة التي عاشها العرب في الحقبة الإسلامية ومدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى. حيث شهد العرب منذ القرنِ الثاني إلى الرابعِ الهجري بروز ظاهرة التدوين المستند إلى أساطير حال توثيقِ حكاية عمليةِ الخلق، مع الاستعانة بالرواياتِ التوراتيةِ والزرادشتيةِ والسومريةِ والمصرية القديمة لشرح ذلك، وكان أن ظهرتْ مقولةُ إهباطِ حواءَ في جُدةَ، كما وثق ابنُ قتيبةَ ذلك في كتابه «المعارف» نقلاً عن روايات وهبِ بن منبه التوراتية وغيرِها من الروايات الأسطورية. ثم كان أن شهد العرب تغييرًا ثقافيًا جوهريًا مع ظهور الدولةِ الفاطميةِ، التي كان لها فكرٌ ومذهبٌ ومنهجٌ مختلفٌ تمامًا عن السائد، وهو ما يمكن استجلاؤه في الأسطر المقبلة.

الدولة الفاطمية ومشهد المقام:

ساهمت الدولة الفاطمية في إحداث حالة من التحول الثقافي والمذهبي في العالم الإسلامي، وتركت في المقابل أثرًا بالغًا في المجال الروحي والممارسات التعبدية وبخاصة في ما يتعلق بزيارة القبور وهيئاتها.

(١) القاسم بن يوسف السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥م) ص٢١٩.

وكانت الدولةُ الفاطميةُ قد توجهت إلى مصرَ، وذلك لأهميتِها الاقتصاديةِ والجغرافيةِ والإنسانيةِ، ولكونها مفتاحَ السيطرةِ على الشامِ والجزيرة العربية ولا سيما منطقة الحجاز التي مثلت هدفًا استراتيجيًا لهم[١]. ومع تحقق سيطرتها عمدت إلى بناء عاصمتها القائمة حتى اليوم وهي مدينة القاهرة عام ٣٥٨هـ على يد القائد الفاطمي جوهر الصقلي، كما بسطت يدها على بلاد الشام والجزيرة العربية لاحقًا، وساهمت في ازدهار الصناعة وتطوير العلوم والمعارف ببنائها للأزهر ولمكتبة دار الحكمة الشهيرة[٢].

وفيما نحن فيه من سياق فقد كان للدولةِ الفاطمية شغفٌ غريبٌ بالقبور والاهتمام برُفاتِ الموتى، حيث اصطحب المعزُّ لدين الله معه حال دخوله مدينة القاهرة توابيتَ فيها رُفاتُ أجداده الذين توفاهم الله في عاصمة الدولة بتونس وهم (القائم، والمنصور، والمهدى)، وبنى لهم تربة خاصة عرفت باسم (تربة الزعفران)، وهي مقبرةٌ ملحقةٌ بالقصر يتمُّ تطييبُها بالعودِ والمسكِ والعنبر، وتزيينُها بالجواهرِ والأحجارِ الكريمة، وتعليقُ قناديلَ من الذهب عليها، واتخذَها مدفنًا لأسرته، ولرفاتِ الأقدمينَ الذين أحضرَهم معه، ثم لاحقًا دُفِنَ فيها، واستمرتْ مدفنًا للأسرة الفاطميةِ حتى دُفِنَ فيها آخر خلفائهم وهو العاضد.

وبعد سقوط دولتهم تم نهب محتويات المقبرة ثم أصبحتْ خرابةً، وأثناءَ دولةِ المماليك وفي فترة حكم الظاهر برقوق، قرر أميرٌ يُدعى شمسَ الدين الخليلي بناءَ خانٍ تجاريٍّ كبيرٍ باسمه، ولم يجد مكانًا مناسبًا إلا فوق أرضِ هذه المقبرة، واحتاجَ إلى فتوى شرعيةٍ لإزالةِ رُفاتِ الموتى ونبشِ القبور وردمِها، ووجدَ ضالتَه في شيخٍ حنفيٍّ اسمُه شمسُ الدين القليجيُّ الذي أفتى بجواز إزاحةِ هذه القبورِ لأنها تعودُ إلى كفارٍ رافضة؛ فحضر العمالُ وأخرَجُوا رفاتِ خلفاءِ وأمراءِ الدولةِ

(١) أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٦م) ص٤٥.

(٢) انظر: وجيه الفريد، الدولة الفاطمية ما لها وما عليها، (القاهرة: نبتة للنشر، ٢٠١٧م)

الفاطمية رجالًا ونساءً، وحُمِلَت الرفاتُ على البِغال، ثم أُلقِيَتْ في مكان يُدعى كيمانُ البرقية، وتقومُ اليومَ مكانه حديقةُ الأزهر[١].

مشهد رؤيا:

وقد ابتدع الفاطميون على المستوى الشعبيِّ ما يُسمَّى بالمشهد الذي يعني المسجدَ المدفنيَّ، وهو المكان الذي خصص كمدفن للأشخاصِ الذين لهم مكانةٌ روحية كآلِ البيتِ، ليكونَ مزارًا يستهدفُه الناسُ بالزيارة. كما ابتدعَ الفاطميون شيئًا موازيًا يُسمَّى (مشهد رؤيا)، وهو مشهد افتراضي أو رمزي لأحد الأولياء أو الشخصيات الروحية البارزة ومن دون وجود جثمان حقيقي له، فيحمل الضريح اسمًا له أهمية روحية، ويكون منشأ ذلك في غالب الأحيان راجع إلى رؤيا منامية تطلب بناء ضريح ومقام ومسجد لأحد الصالحين في موقع محدد.

وعلى الرغم من أنَّ الفاطميين لم يكونوا من الناحيةِ التاريخيةِ أولَ مَنْ أوجدَ الأضرحةَ إلا أنهم أعطَوْها مكانًا مركزيًا في حياةِ الناس الدينية، وكانوا مؤسسين لما يعرف بالمشهدَ الافتراضي.

ويعد مقام رأس الحسين من أهم الأضرحةِ الرئيسةِ التي بُنيتْ في العصر الفاطمي، إضافة إلى ضريح السيدةِ نفيسةَ بنت الحسنِ بنِ زيد؛ وضريح السيدةِ عائشةَ بنت الإمامِ جعفر الصادق بن محمد باقر؛ على أن هناك مشاهد افتراضية ليس لأصحابها وجود في الموقع كمشهدِ السيدة سكينةَ وأختها السيدةِ فاطمةَ بنتي الحسينِ بن علي، ومشهد الإمامِ زينِ العابدين علي بن الحسين، ومشهد السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، وغيرها[٢].

---

(١) عبد المجيد عبد العزيز، خان الخليلي حكاية نبش قبور الخلفاء الفاطميين، موقع عرب لايت، ٢٠١٧م. https://www.arablite.com/2017/08/22/

(٢) ضياء العبيرة، الأضرحة في مصر خلال العصر الفاطمي، موقع كلية الآداب، جامعة بابل. http://www.uobabylon.edu.iq/UOBCOLEGES/lecture.aspx?fid=8&depid=1&lcid=78244

تأثير الفاطميين على الحجاز:

كانت مدينة جُدةَ في بؤرةِ الاهتمام الفاطمي باعتبارها الميناءَ الرئيسَ لمكة المكرمة، ولذلك فقد اهتموا بتقوية حامياتها، وبنوا حولها أول سور في القرنِ الرابع الهجري، كما يذكر الرحالةُ محمد المقدسي[١].

كما كان لسيطرتهم على الحجازِ أثر ثقافي كبير، ولا سيما أن المغلوبَ مولَعٌ بالاقتداءِ بالغالبِ في شعارِه وزيِّه ونحلتِه وسائرِ أحوالِه وعوائِده وفق ما يشير إليه ابن خلدون في مقدمته، ولذلك فقد عرف الحجاز في العهد الفاطمي عددًا من الاحتفالات منها: الاحتفال بأول العام الهجري، وأول شهر رمضان، وليلة الإسراء والمعراج، والجمع الثلاث الأخيرة من رمضان، وليلة الأول من رجب، وليلة الأول من شعبان، وليلة النصف من شعبان، وأيام ذكرى مولد النبي عليه الصلاة والسلام، ومولد السيدة فاطمة، ومولد السيدة خديجة، ومولد السيدة آمنة، ومولد الإمام علي بن أبي طالب، ومولد الحسن والحسين رضي الله عنهم جميعًا. وكان الحكام يتقدمون هذه الاحتفالات والموالد، التي تقرب من ٢٢ مولدًا واحتفالًا في السنة، واحتفظ بها المماليك من بعدهم، وأضافوا إليها احتفالات المحمل[٢].

أشير إلى أن مصر والحجاز لم يتشيّعا مذهبيًا من الناحية التاريخية، لكنَّ مظاهرَ الموالاة لآل البيت والتشيّع لهم قد تسربَتْ إلى النسيجِ الثقافيِّ والقيميِّ لهذه المجتمعات، ومن ذلك الاحتفاء بمقاماتهم وزيارتها.

تأثير المماليك على الحجاز:

مع ظهور دولة المماليك ازداد تأثر الحجاز بمصر، وبخاصة في موضوعِ مشاهد الرؤيا والأضرحةِ الافتراضية وذلك في منتصفِ القرنِ السابع الهجري

(١) فريال قطان، الحجاز في ظل الدولة الأيوبية والفاطمية بمصر، (جدة، ٢٠٠٣م) ص٧٣.

(٢) عبد العزيز أحمد البداح، حركة التصوف في الخليج العربي، ط١، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٣٦هـ) ص٦١٣ – ٦٢٢.

تقريبًا عام ٦٤٨هـ، حيث دفعوا خرافةَ التبركِ بالقبورِ إلى آفاقٍ عليا، وفي عهدهم تحوَّل المقامُ المقدَّسُ لمكان هبوط حواءَ في جُدةَ إلى قبر مقدس لها.

ويعد الرحالة والمؤرخ القاسم السبتي أولُ من وَثَّق تحول المقام إلى قبر لحواء، على أنه لم يتمكن من استساغة هذه الدعوةِ، بل وشكّكَ في كونه قبرًا في أساسه، وذلك في أواخرِ القرنِ السابعِ الهجريِّ، حيث قال: «وعاينا أيضًا بخارجِ هذه المدينة (جدة) قبةً مبنيةً زعموا أنَ بها قبرَ أمِّ البشر حواءَ - عليها السلام -، وقد صوَّر بداخلها صورَ قبرٍ، والناسُ يقصدونَ ذلك القبرَ للتبركِ بزيارته، ويرونَ أنَّ الدعاءَ عندَه مستجابٌ، وأهلُ العلم يأبَوْنَ أنَّ ذلك موضعُ قبرِها، ويقولون إنَّما هو موضعُ نزولِها من الجنة»[1].

وفي هذا السياق من المهم أن نفهم طبيعة الردةِ العلمية التي جسدَتها دولةُ المماليكِ، وانحرافُ الحركةِ الصوفية في ذلك العصرِ الذي كرس الخرافات والشعوذة، والأفكارِ الغريبة، واستنجد بالأمواتِ والأضرحةِ، فأصبحتْ هذه الأمورُ من حينه واقعًا ملموسًا أثَّر في طبائعِ الناس، وطريقةِ تفكيرِهم ومعتقداتِهم وسلوكِهم على مختلف طبقاتِ المجتمع، فكان أن تحكمت بهم الخرافةُ في ما يحبونَ وما يكرهونَ، وسيطرَتْ على كلِّ مناحي حياتهم.

وقد روَّج المماليكُ أن لتلك القبور القدرةَ الهائلةَ في قضاءِ الحاجاتِ، وصار لكل حاجة يوم معين تقضى فيها الحاجات بحجة أن روحَ صاحبِ القبر تُرَدُّ إليه لخدمةِ الناس، وتوسعوا في ذلك لتشمل البركة قبر ذي النون المصري، وقبر أبي الخير الأقطع، وقبر أبي الربيع، والقاضي بكار، وغيرهم.

على أنهم خصصوا أيامًا معلومة لزيارة الأضرحةَ الرئيسة فمثلًا يومَ الاثنين لزيارةِ ضريحِ الحسين، ويومَ الأربعاءِ لزيارة ضريح السيدةِ نفيسةَ. ويؤرِّخُ المقريزي قناعةَ أهلِ مصرَ في أنَّ الدعاءَ مجابٌ عندَ هذه الأضرحةِ. أما ابنُ جبير فقد وصَفَ

(١) السبتي، مستفاد الرحلة، مرجع سابق، ص٢١٩.

أفعالَ الناس عندَ ضريحِ الحسين بأنهم يتمسَّحونَ بالكسوةِ ويطوفونَ حاملينَ النذورَ، مثلما يَطوفُ الحجاجُ حولَ الكعبة، وكانوا بفعلِهم هذا يقضونَ حوائجَهم ويشفونَ مرضاهم. كما بثّ قادةُ الدراويش وأدعياءُ الصوفية بينَ الناس فكرةَ أن الأولياءَ لم يموتوا وهم داخلُ توابيتِهم، أو مقاماتِهم، أو أضرحتِهم، ومن الأدبِ الاعتقادُ عندَ زيارةِ الضريح أن الشيخَ غيرُ ميت، ولكنه في حياتِه البرزخيةِ لينالَ الزائرُ البركةَ. وفي ذلك يذكر الشعراني في الأنوار القدسية قائلًا: «إن غالبَ الأولياء لهم السراحُ والإطلاقُ في قبورهِم؛ فيذهبونَ ويجيئونَ، وكان على هذا القدمِ سيدي علي الخواصُ، كان إذا رأى إنسانًا عازمًا على الذهابِ إلى موضعِ كذا، أو في بعضِ الأوقاتِ، يقول له لا ترتاحُ له، فإنه ما هو هناك اليومَ، وقد زرتُ مرةً عمرَ بنَ الفارض فلم أجدْه في قبره؛ فجاء إليَّ بعدَ ذلك وقال: أعذُرْني فإني كنتُ في حاجة»[١].

وهكذا فقد ترسخَ الاعتقادُ في قدراتِ الأولياء والمشايخ، السويِّ منهم، أو المجذوبِ، الحيِّ أو الميتِ، وأنهم يقرِّبونَ إلى الله، وأصحابُ شفاعة، وقضاءِ الحوائج، وحمل المصريونَ تقديسًا للأولياءِ المتوفينَ أكثرَ من الأحياءِ، وانتشرَتْ ظاهرةُ بناء الأضرحةِ وعليها قُبّةٌ، وانتشرتْ عادةُ زيارةِ الأضرحةِ والطوافِ حولَها، وطلبِ البركةِ والرزقِ، وانتشر المريدونَ وأصحابِ صناديقِ النذورِ التي يدفعُها الزوارُ للدعاءِ وإجابةِ المطلوب[٢].

كما مشت الطبقةُ الحاكمةُ من الأمراءِ والسلاطينِ في نفس طريقِ الجهلاءِ في تقديسِ المجاذيبِ والأولياءِ، والبناءِ على قبورهم، والتماسِ البركةِ من هذه القبورِ واستصراخِهم، وكان لكلِّ سلطانٍ شيخٌ يعتقدُ فيه، فمثلًا كان الظاهرُ بيبرس يعتقد في الشيخ الخضر، والسلطانُ لاجين له اعتقادٌ في الشيخ محمد الغزي، والسلطانُ

(١) السيد صلاح الدبيكي، الخرافة والشعوذة في المجتمع المصري: عصر سلاطين المماليك، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠١٩م) ص١٢٢ – ١٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص١١٩ .

برقوق له اعتقادٌ في الشيخ هذل المنجكي... وهكذا. لأجل ذلك فقد سيطر على دولةِ المماليكِ الشغفُ بمعرفةِ الغيبِ والمستقبلِ بالتنجيم، وضروبِ الكهانةِ والشعوذةِ. وتُوثِّقُ كتبُ التاريخ أنَّ قراراتِ الدولة كانت تُتخَذُ بناءً على حركةِ النجومِ والكواكبِ، وتفسيرِ الظواهر الطبيعية من قِبَل المنجِّمينَ، وبصورةٍ خاصةٍ الظاهر بيبرس، الذي كان له كهانٌ معروفونَ لهذا الغرضِ. هذه الثقافةُ والمعتقداتُ التي سيطرتْ على مصرَ أثناءَ دولةِ المماليكِ ابتداءً من عام ٦٤٨هـ/ ٩٢٣م، قد تسربَتْ بدرجاتٍ مختلفةٍ إلى الحجازِ من خلالِ التفاعُلِ المستمِرِّ بين المجتمعين.

وقد وضعتْ دولةُ المماليك جُدةَ نصبَ عينيها؛ حيث اعتبرَتْها أثناءَ فترةِ الأشرف سيفِ الدين برسباي (تولى عام ٨٢٥هـ) في بؤرةِ استراتيجيتِها البحرية، وأعادَتْ توجيهَ حركةِ السفنِ في المنطقةِ لتصلَ إلى جُدةَ، وأُلغي التوقفُ الإجباريُّ في ميناءِ عدن، وبالتالي ازدهرَت حركةُ التجارة، وأصابَ أهل جُدةَ خيرٌ عميم، فكان ذلك مدعاة لبناء السور الرئيس حولَ المدينةِ على عهد السلطانِ قانصوه الغوري عام ٩١٧هـ خلال فترة ولاية الأمير حسين الكردي للمدينة.

وفي عهدهم أيضًا بدأ بناء القباب فوق القبور وذلك في عهد السلطان قلاوون الصالحي عام ٦٧٨هـ الذي بنى قبة فوقَ قبرِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جاءت مربعةً من أسفلها مثمنةً من أعلاها من الخشب، ثم جدَّدَها السلطانُ حسن بن محمد بن قلاوون، وحين حدثَ الحريق الكبير في عهدِ السلطانِ قاتيباي عام ٨٨٦هـ الذي أتى على المسجدِ النبوي والقبةِ، كان أن أُعيد بناؤُها بالآجُرِّ، وبارتفاعٍ كبير، واستُخدِمَتِ الحجارةُ السوداءُ، وموادُّ جصِّيةٌ، وموادُّ بناءٍ جُلِبتْ من مصرَ، وبهذا أصبحتِ القبابُ أحدَ مظاهرِ الإرثِ الثقافيِّ لدولةِ المماليك[1].

(١) علي حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، (جدة: شركة المدينة للطباعة والنشر، ١٩٩٦م) ص١٢٧ – ١٢٨.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل عرف الحجاز لاحقًا فكرة مشهد الضَّريح الافتراضي، الذي يتم تشييده من دون النظرِ إذا ما كان هناك شخصٌ مدفونٌ تحتَه أو لا، وهو معتمد في وجوده على حلمٍ ورؤيا يتلقاها مَنْ يَبني الضريحَ، وفي بعضِ الدول يُسمَّى (البيان) أي: أن المتوفَّى يزورُ الشخصَ (ويبين) له أينَ يبني الضريحَ كما في السودان.

وقد ورث المتصوفة هذه الفكرة من الدولةِ الفاطميةِ، اعتقادًا منهم بـ «أن الأرضَ لأجسامِ الأولياءِ كالماءِ للسمكِ»، أي يُدفَنُ في مكانٍ ويرحَلُ إلى مكانٍ آخر. وعلى ذلك فقد وجدت المئات من الأضرحةِ للأنبياء والأولياء، وأهلِ بيتِ رسول الله، التي لا يمكنُ حصرُها، كما يمكن أن يكون هناك أكثر من ضريح لنفسِ الشخصيةِ، فعلى سبيل المثال: يوجد لنبيّ الله يحيى ضريحهُ في المسجدِ الأمويِّ بدمشقَ، وله مقامٌ في حلب، وحجرةٌ تُسمَّى الحجرةَ النبوية، وله مقامٌ في صيدا بلبنان. كذلك الأمر مع نبيّ الله صالح الذي له قبرٌ في حضرموت، وقبرٌ في يافا في فلسطينَ، بينما عاشَ في الحجازِ. ونبيُّ الله يونس الذي له قبرٌ ببلدةِ حلحولَ بفلسطينَ، وآخر في نينوى بالعراق، والثالثُ غارٌ في نابلسَ. ونبيُّ الله هود الذي له قبرٌ في حضرموت، وقبرٌ آخر في دمشق مع أنه لم يحضُرْ إلى الشام[1].

وهكذا فقد تحول مقام هبوط حواء كما يُروى إلى مكان قبرها على عهد دولةِ المماليك، ولا سيما أن المستفيدين من ذلك قد استغلوا المفاهيمِ السائدة في حينه لتحويل المقامِ إلى قبرٍ وإضفاء كلِّ التقديس له حتى لو لم يكنْ هناكَ جُثمان؛ لأن الأضرحةَ تنشأ، وتحترمُ إذا كانت مشهدَ رؤيا أو ضريحًا افتراضيًا.

■■■

(١) خالد حامد، انتشار القبور والأضرحة، مجلة البيان، العدد ١٣٢، ديسمبر ١٩٩٨م.

http//:www.albayan.co.uk/article2.aspx?ID2900=

المرحلة السادسة: العثمانيون وتكريس الأسطورة:

كتبتِ الدولةُ العثمانية صفحةً جديدةً لهذا المقامِ، وتحوَّلَ عندَهم من قبرٍ مُختَلفٍ على وجوده، إلى قبر تتبنَّى السلطاتُ الرسميةُ رعايته باعتباره ضريحًا رسميًا لأمِّنا حواءَ وفق ما جاء في بعض وثائقِ الدولةِ على صعيد الأجهزةِ التشريعيةِ أو التنفيذيةِ، وأخذت سيداتِ الأسرةِ الحاكمةِ في التنافس على بناءِ السورِ حولَه، وتجديدِ الضريحِ وبنائه، وقيامِ أجهزةِ الدولة بذلك، بل وتوثيق كل ما يتعلق بالضريح في المحاكمِ والمجالسِ النيابيةِ كما سيأتي ذكرُه. وقد ساعدَتْ طبيعةُ هذه الدولة، وطريقةُ تعاملِها مع القبورِ والأضرحةِ في دعم هذا التوجُّهِ، ولذلك فقد شهدَ الضريحُ عصرَه الذهبيَّ مع الدولةِ العثمانية.

أشير إلى أن الوضعَ الثقافيَّ والدينيَّ كان ملتبسًا إلى حدٍّ كبيرٍ في الإمبراطوريةِ العثمانية؛ وبحكم أن الغزاة العثمانيين كانوا محاربين فقط، وليس لديهم أي بعد حضاري أو معرفي، فقد اقتبسوا ما كان سائدًا في المشرق العربي حال سيطرتهم عليه، ولا سيما رؤية المتصوفة ومصادر المعرفة الإسلامية التقليدية، لتصبح الدولة منجذبة بأكملها للمتصوفة ومسالكهم. ولذلك فقد اهتم السلاطين العثمانيون ببناء القباب على القبور في الحجاز وتزيينها وكسوتها وتحديد مكانها، ومن ذلك فقد قدم السلطان سليم الثالث المتوفى عام ١٢٢٢ هـ كسوة فخمة لسدنة تلك المقامات، وقام بترميم بعضها بمكة والمدينة، وكذلك السلطان محمود الثاني المتوفى عام ١٢٥٥ هـ الذي أمر بسرعة إصلاح وبناء قبة على قبر عبد الرحمن بن أبي بكر، وقبر عبد الله بن عمر، وقبر أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث في مكة المكرمة، وبناء قبة على مقام حواء في جدة، كما أمر بتجديد قبر عثمان بن عفان، وعقيل بن أبي طالب، وحليمة السعدية، وبناء قبة على قبر والد النبي عبد الله، ومالك بن أنس في المدينة المنورة.

وفي فترة السلطان عبد المجيد خان المتوفى عام ١٢٥٩هـ تم تزيين قبة قبر السيدة فاطمة الزهراء في المدينة المنورة، وجدد موضع ميلاد النبي في مكة

المكرمة، كما جددت قبة قبر أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث وكسى سدنة قبرها بمكة المكرمة؛ وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني وفي عام ١٣٠٠هـ تم الأمر ببناء قبة على قبر السيدة آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بلدة الأبواء حيث وفاتها، وقبة على قبر أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد في مكة المكرمة، كما أمر بتجديد الضريح الشريف وكسوه بالكسوة المرسلة والشمعدانات الفضية، وقام أيضًا بترميم قبة قبر عبد الله بن العباس، وقبة قبر محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنيفة في الطائف، وقام ببناء قبة على قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب في أحد بالمدينة المنورة، وترميم قبة قبر عبد الله بن عمر[١].

وهكذا يتبين أن الاهتمام بالقبور في الحجاز كان من أولى أولويات الدولة العثمانية وسلاطينها، بل صار أولوية ضمن الاهتمام الشعبي بعد ذلك، ولذلك فقد بات التشكيك في موضوع قبر حواء من الأمور المستبعدة، وهو ما يمكن استشرافه من حديث الرحالة أوليا جلبي الذي أوضح مدى إيمان المجتمع بحقيقة وجود قبر حواء بمدينة جدة، حيث كتب تحت عنوان «مزار حضرة آدم وحضرة أم بني آدم حواء المكرمة» قائلًا[٢]:

---

(١) محمد الأمين الكتبي، خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين، ترجمة: ماجدة مخلوف، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٤٢٦هـ) ص٤٨ – ٥٢.

(٢) أوليا جلبي، سياحتنامه قسم الأناضول سوريا والحجاز (١٦٧١ – ١٦٧٢)، (إسطنبول: المطبعة الحكومية، ١٩٣٥م) ج٩، ٧٩٤، ٧٩٥؛ ويعد أوليا جلبي من أهم الرحالة الأتراك، وقد أمضى أربعونَ عامًا في الترحالِ وتوثيق ما يكتب، ولذلك يُعدّ كتابه (سياحتنامه) المكون من عشرةِ أجزاء، من أهم الكتب التوثيقية، وقد خصصَ المجلدَ التاسعَ لرحلتِه إلى الحجاز والحج، أشير إلى أن أسلوبه في الكتابة قد جنح إلى رواية الأساطيرِ والأدبِ الشعبي، كما اعتمد على اللهجاتِ العامية والقصصِ المتداولةِ والفكاهةِ. وترجم رحلته للحجاز الدكتورُ الصنصافي أحمد المرسي، كما يوجد عددٌ من الطبعاتِ لكتاب (سياحتنامه)، والنصوصُ الموجودةُ هنا مترجمةٌ حرفيًا من الطبعةِ الموجودةِ في دار الوثائقِ العثمانية في إسطنبولَ التي طبعتها المطبعةِ الحكومية.

"بدأ الموطنُ الأصليُّ لذريةِ بَني آدمَ بالحملِ من هذا البطنِ الشريفِ المدفونِ هنا، والذي يقعُ تحتَ قبةٍ صغيرةٍ. وبما أن الضريحَ في هذه الصحراءِ الجرداءِ، فإنه ليس بذلك الرونقِ، لكنَّه لا يخلو من بعضِ النباتاتِ الخضراءِ عندَ رؤية القبةِ من الخارج. ومعَ أن هناك أقوالًا كثيرةً في حجم الضريح بينَ الرأسِ الشريفِ والقدمِ؛ لكنْ بأيِّ قياسٍ أردتَ أن تقيسَ الضريحَ فإنه يبلغُ سبعينَ خطوةً. وكانت المرحومةُ كايا خاتون، حرمُ ملك أحمد باشا، تريدُ بناء سبعِ قبابٍ على ضريح أمِّنا حواءَ على نفقتِها الخاصة، وخصصَتْ لذلك خمسينَ صرةً، وعزمتْ على ذلك بصفاءِ نيةٍ وجِدِّيةٍ، لكن وفاتَها وهي حاملٌ أثناءَ الوضعِ حالت دونَ تيسرِ هذا الخيرِ العميم. هناك مَنْ يقولُ إنّ قبرَها في سرنديلَ (سرنديبَ) بالهندِ، لكنه قولٌ ضعيف. هبطَ آدمُ في سرنديلَ فنبتَ الزنجبيلُ والفلفلُ والقرنفلُ من دموعِ عينيه. بعدَها وبواسطةِ طيرِ السنونو التقى آدمُ وحواءُ في جبلِ عرفات، وهناك تعارَفا على الفور، لذلك سُميَ بجبلِ عرفةَ. وأما أمُّنا حواءُ فقد هبطَتْ في جُدةَ، وسكنَ آدمُ وحواءُ حوالَيّ مكةَ مدةً من الزمنِ. ولأجلِ العبادةِ أنزلَ اللهُ لهما البيتَ المعمورَ من السماء إلى أديمِ الأرضِ بمكةَ حتى يتسنّى لهم الزيارةُ والطوافُ وأداءُ الشعائر هناك. ولأن مكةَ كانت أرضًا صخريةً، فقد أرسلَهما الله تعالى إلى الشامِ قريبًا من دمشقَ حيث سهلُ حورانَ ليتمكَّنا من الزراعة. وهناك بدأَ التناسلُ، لكنهما كانا يزورانِ مكةَ في كلِّ سنةٍ ليطوفوا بالبيت المعمور. وعلى قولِ المؤرِّخ ابنِ إسحاقَ فقد تُوفي آدمُ في جبلِ عرفاتٍ بعد أن عُمّرَ طويلًا، ودُفِنَ في حيٍّ يُسمَّى مطبخَ آدمَ. ولم يذهبْ إلى سرنديلَ البتةً. ويُقَالُ: إن أمنا حواءَ توفيتْ بعدَه بسنواتٍ، وقام هابيلُ وقابيلُ والنبيُّ شيث بدفنِها، ولا يعلمُ الغيبَ إلا الله. وفي روايةٍ أنه قبلَ حدوثِ الطوفان بسنةٍ قام النبيُّ نوحٌ عليه السلام باستخراج الجسدِ الشريفِ لآدمَ من جبلِ عرفاتٍ والجثةِ الشريفةِ لحواءَ من جُدةَ، وكان كلاهما مثلَ يوم دفنِهما طريًا نضرًا، ثم أعادَ دفنَهما

في القدسِ. والعهدةُ على الراوي. وحسبَ أقوالِ المؤرِّخين العالِمينَ فإنه وُلِدَ لحضرةِ آدمَ أربعونَ ألفًا من الأولادِ، في كلِّ مرةٍ توأمانِ: أحدُهما ذكرٌ، والآخرُ أنثى، وكان يُزوِّجُ أنثى كلِّ بطنٍ من ذكرِ البطنِ الآخر، وبسببِ هذا القانونِ قام قابيلُ بقتلِ هابيلَ، وابتدأ سيلانُ الدمِ على وجهِ الأرض، وبها كان قابيلُ أولَ من ابتدأَ بالمعصيةِ ومخالفةِ أمر الله. وقد مضَى على نزولِ آدمَ سبعةُ آلافٍ وثلاثينَ سنة رحمةُ الله عليهم أجمعينَ. ومَنْ زار أمّنا حواءَ مجددًا ويذهبُ إلى الجنوبِ من المزار، يمكنُه رؤيةَ مقاهٍ معمورةٍ على طرفيه".

المرحلة السابعة: مقام حواء عبر التاريخ:

كان ابتداء وجود هذا المقام المقدس خارج مدينة جدة قبل الإسلام، حيث جدده الفرس وأحسنوا عمارته باعتباره مقامًا مقدّسًا من دون أن يشار إلى أمنا حواء أو يتم ذكرها. وهو ما أشار إليه المؤرخ المكي محمد الطاهر الكردي من أن المقام كان من الهياكل المقدسة في الجاهلية، وبقي أثره في نفوس القوم[١].

ثم جاءت أول إشارة بعد الإسلام لتفيد بأن القبة هي منزل أمنا حواء قبل أن تتوجه إلى مكة لملاقاة سيدنا آدم عليه السلام، وذلك في القرن السادس الهجري وبخاصة في عام ٥٧٩هـ/ ١١٩٤م في ما كتبه أبو الحسن بن جبير الأندلسي[٢].

وفي القرن السابع الهجري وثق القاسم بن يوسف السبتي ما يتداوله سكان جدة من قولهم بأن تحت القبة يوجد قبر أمنا حواء، وكانت له شكوكه حول ذلك، وقول البعض أن الدعاء عند القبة من أماكن استجابة الدعوة[٣].

---

(١) محمد الطاهر المكي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الحرام، مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة مصر ١٤٢٠هـ، ص٣٣٩.

(٢) ابن جبير، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٣) السبتي، مستفاد الرحلة، مرجع سابق، ص ٢١٩.

ثم كان ربط اسم مدينة جدة بالمقام، لينطق الاسم بفتح الجيم ليأخذ معنى الجدة وهي أم الأب أو أم الأم، وبالتالي فقد سميت مدينة جدة بذلك لوجود أم البشر وجدتهم فيها. وكان ذلك ابتداءً من عمل ابن المجاور في القرن السابع الهجري الذي رسم في كتابه تاريخ المستبصر خريطة للقبر[١].

ثم تأكدت فكرة وجود القبر في العهد العثماني وهو ما يتبين من كتابة الرحالة أوليا جلبي عام ١٠٨٢هـ في كتابه (سياحتنامه). ومع تنامي هذه الفكرة ابتدأ الاهتمام بالمقام كمقبرة مقدسة، ليتم بناء جدار حول المقبرة والمقام، وكان السلطان العثماني سليمان الثاني في العام ١١٠٥هـ - ١١٠٧هـ أول من بنى المقام بشكله الكبير باعتباره مرقد أمنا حواء، وبنى الأسوار حول المقبرة، كما تبرعت والدته بدفع تكاليف بناء المقام والأسوار.

وفي عهد الدولة السعودية الأولى أرسل الإمام سعود بن عبد العزيز الشيخ حمد بن ناصر ليجتمع مع علماء جدة في مسجد عكاش عام ١٢٢٠هـ، ليخبرهم بعزم الدولة على هدم القباب على القبور، الذي حدث في شهر صفر من عام ١٢٢١هـ[٢].

لكن القباب والمقام لم يلبث أن أعيد بناءهم في فترة ولاية عثمان باشا القرملي والي الحجاز (١٢٥٧ – ١٢٦١هـ)[٣]. ثم أعيد بناء المقام والأسوار في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وتم ذلك بإشراف هندسي منظم، وبموافقة مجلس شورى الدولة عام ١٣٠٥هـ[٤].

---

(١) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، مرجع سابق، ص٦٥.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن البسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، ط٢، (الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م) ج٢، ص ١٢٦.

(٣) مغربي، أعلام الحجاز، مرجع سابق، ج٣، ص ١٣٨.

(٤) توجد في ملاحق الكتاب وثائق الأرشيف العثماني المتعلقة بالموضوع، ووثائق البناء وحساب الكميات والتكلفة.

توثيق أهم مراحل المقام على الأرض	
الجاهلية وما قبل الإسلام	هيكل مقدس اتخذه القوم مكان للعبادة وثقه محمد الطاهر المكي.
الرابع الهجري	الفرس أول من رمم المقام المقدس في جدة من دون الإشارة إلى أمنا حواء؛ لأنه مقام مقدس.
٥٧٩هـ	أبو الحسن بن جبير الأندلسي ووصف المقام بأنه قبة هي منزل حواء قبل أن تتوجه إلى مكة لمقابلة آدم.
القرن السابع	أبو القاسم يوسف السبتي بعد ابن جبير بنحو مائة عام، وأول من قرر أن هذا المقام قبر حواء، توفي عام ٧٣٠هـ.
القرن السابع	ابن المجاور في القرن السابع الهجري أكد أنه قبر حواء، ورسم خريطة للموقع في كتابة تاريخ المستبصر، وأول من فسر اسم جدة على أنها جدة البشر الشائع شعبيًا.
١١٠٥ - ١١٠٧هـ	السلطان سليمان الثاني أول من بنى الأسوار حول المقبرة، وبنى المقام بالشكل المعروف.
١٦٧١ - ١٦٧٢	أوليا جلبي بداية وقوف الرحالة وتثبت أن المقام لأمنا حواء في العصور الحديثة. بالهجري ١٠٨٢هـ.
١٢٢٠هـ	هدم المقام أثناء الدولة السعودية الأولى.
١٢٥٧هـ - ١٢٦١هـ	إعادة ترمم وبناء المقام بالجهود المحلية في فترة ولاية عثمان باشا قرملي والي الحجاز.
١٣٠٥هـ	السلطان عبد الحميد الثاني إعادة ترميم المقبرة والمقام.
١٩٢٦	هدم المقام وإبقاء المقبرة في العهد السعودي، ونهاية مرحلة زيارة الرحالة للموقع مع دخول الملك عبد العزيز جدة.

١٩٧٥	طمر بقايا القبر بالإسمنت بعد ممارسات لبعض الحجاج الإندونيسيين.
٢٠٢٠	إنشاء بوابة غربية جديدة تشمل البوابة التاريخية التي كانت تؤدي إلى المقام.

ومع دخول الملك عبد العزيز لمدينة جدة عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م تم هدم المقام مع الإبقاء على المقبرة، وتم ذلك بتأييد من علماء مصر، وأوقفت شعائر زيارة القبر وفق ما تم نشره في جريدة أم القرى. وفي عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م تم طمر بقايا القبر نفسه بالإسمنت من قبل السلطات الدينية بعد زيارة حجاج إندونيسيين للموقع. كما أنشأت المملكة العربية السعودية بوابة جديدة غرب المقبرة تشمل البوابة التاريخية التي كانت تؤدي إلى المقام بعد أن ظلت مغلقة عشرات السنين وذلك في هذا العام ٢٠٢٠م.

المرحلة الثامنة: عولمة الأسطورة:

منذُ أن استقرتِ الدولةُ العثمانيةُ في القرن السادسَ عشرَ الميلادي في الحجاز؛ أصبحَ المقامُ ضريحَ أمنا حواءَ قولًا واحدًا، وانتشرَ هذا اليقين من خلالِ الرحالةِ الذين زاروا الحجازَ مسلمين وغربيين، وحسب التسلسل التاريخي بعدَ زيارةِ أوليا جلبي، وهم على النحو التالي[1]:

- الرحالة عبد الله العياشي صاحبُ كتابِ: (ماء الموائد) الذي اعتبرَه الشيخ حمد الجاسر مِن أوفى رحلاتِ الحجِ، وقد تحفَّظَ على فكرة أنَّ المقامَ هو القبرُ الفعلي لأمنا حواء، وتحدَّثَ باستفاضةٍ عن جُدةَ، وتعمدهِ أن يصلَ لزيارةِ هذا المقام حيث قال:

(١) عدنان عبد البديع اليافي، جدة في صدر الإسلام، (جدة: دار كنوز المعرفة، ٢٠١٣م)، ص ٧٩ – ٩٠.

"وزُرْنا المحلَّ الذي يُقَالُ إن فيه قبرَ أمنا حواءَ في مقبرةٍ مُعلَّمٍ عليها بحجارةٍ سودٍ، وعندَ رأسِ القبر وعندَ رجليهِ وفي وسطهِ، وقد ذرَعَه بعضُ أصحابِنا فكان قريبًا من ثلاثمائة ذراع، والله أعلمُ بصحة ذلك".

- الرحالةُ الهندي مولانا رفيعُ الدين المراد أبادي صاحبُ كتاب: (الرحلةِ الهندية إلى الجزيرةِ العربية)، الذي دوّن فيه زيارتَه عام ١٧٨٩م حيث ذكر: «وفي خارج مدينةِ جُدةَ ناحيةَ الشمال يوجدُ قبرُ أمِّ البشرِ حواءَ؛ لذا سمَّاها العوامُّ جَدَةَ بفتح الجيم». وهو في هذا يؤكد ما قاله ابن المجاور في تاريخ المستبصر ويؤكد أسطورة الاسم وارتباطها بالمقام وأمنا حواء عليها السلام.

- الرحالةُ الفرنسي موريس تامزييه وكتابُه: (رحلةٌ في بلاد العرب)، وهو مِنْ أهمِّ كتبِ الرحلاتِ عن المنطقةِ وعن جُدةَ وعن الضريح، وقد زار جُدَّةَ عام ١٨٣٤م، ووصفَ المقبرةَ بقوله:

"لقد كانتِ القبورُ التي تضمُّ رفات بعضِ الشخصياتِ المهمةِ بمدينةِ جُدةَ في الطرفِ الشمالي الشرقي، وفيها بدا وكأنها الأم التي تتوسَّطُ بنيها، كان يقفُ ضريحٌ تم نحتُه بطريقةٍ جيدة، وتعلوه القبةُ، وكان هذا هو الضريح المشهور لأمنا حواءَ كما يطلقُ عليه العربُ». ويستطردُ تامزييه أنَّ حارسَ الضريح عندما اكتشفَ أنهم غيرُ مسلمين قال لهم: «إن أمَّنا حواءَ هي أمُّ البشر جميعًا، وأكملَ الحارسُ لقد تمَّتْ زيارةُ هذا الضريحِ في كل الأوقاتِ من قبلِ الرجال مِنْ شتّى الأممِ والأجناسِ".

- الرحالةُ البريطاني ريتشارد بيرتون في القرن التاسع عشر وكتابه «رحلةُ بيرتون إلى مصرَ والحجازَ»، وقدّم وصفًا مفصلًا للضريح، وكيفيةِ الوصولِ إليه خارجَ مدينةِ جُدةَ، وأن من شكلِه يتضحُ أنها دُفِنَتْ باعتبارها مسلمةً تواجهُ القبلةَ، وعند رأسِ الضريح وُجِدَ قبرانِ كما قيلَ للرحالةِ عثمان باشا وابنِه؛ لأنهما رمّما المقامَ. ويقدم بيرتون نبذةً عن الرحالةِ الذين ذكروا المقامَ، وأولُ

مَنْ ذكره هو ابنُ جُبير في القرن الثاني عشرَ الميلادي السادسِ الهجري، والذي ذكرَ أن الموقعَ هو منزلُها كما تقدم، وهو الرحالة الوحيد الذي أثبت وجود قبور لآخرين داخل المقام المقدس لحواء من ناحية الجنوب. ورسم بيرتون وصفًا تفصيليًا لهذا المقامِ معَ وصفٍ دقيقٍ بالأطوال، ويتردُ هذا الرسمُ كثيرًا في الكتب التي تُعنَى بتاريخ جُدةَ.

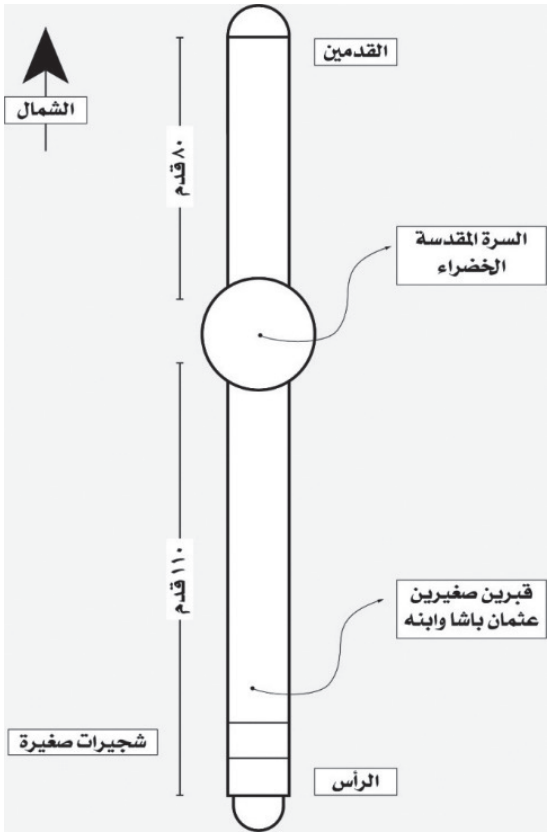

قبر حواء كما جاء في كتاب بيرتون عام ١٨٥٣ منقول في كتاب أنجلوبسك[1].

(1) Angelo Pesce, (Jiddah: Portrait of an Arabian City), Falcon Press 1976, P. 126/128.

- الرحالةُ الهولندي سنوك هورخرونيه في العام ١٨٨٥م الذي دوّن رحلته في كتابه: «صفحاتٌ من تاريخ مكة»، وقد أقام في جُدةَ وأسلمَ واختتنَ، وهو مستشرقٌ كان هدفُه أن يدرسَ الإسلامَ واللغةَ العربية في بلادِها، وأن يفهم كيف يؤثرُ الحجُّ على الحجاج الإندونيسيينَ، الذين يرجعونَ بعد الحج ثائرينَ على الاستعمار، ووثق أن الحجاجَ وبعدَ زيارتهم لقبر أمنا حواءَ الذي يبلغُ طولُه بضعَ ياردات يقومونَ باستئجارِ الجِمال التي تنقلُهم إلى مكةَ.
- الرحالةُ الروسي عبدُ العزيز دولتشين الذي زار جُدَةَ عام ١٨٩٨م، وقد ذكر المقام بقوله: «مدفنُ حواءَ كما سبقَ أنْ قلنا تحيطُ به مقبرةٌ دُفِنَ فيها القنصلُ الروسيُّ الأولُ في جُدةَ إبراهميوف الذي توفي بالكوليرا»، وذلك وفقًا لما جاء في كتاب ريزفان «الحجُّ قبلَ مائة سنة، الرحلةُ السريةُ للضابطِ الروسيِّ عبدِ العزيز دولتشين». وكما ذكرنا في مكان آخر في الكتاب فقد وصف الحاج عيشانف المرافق للعقيد الروسي قبر حواء بالتفصيل الهندسي، وإنه يوجد قرب مدخل الضريح خزان محفور في صخرة كبيرة يشبه الجرن وفي الخزان يصبّون الماء ويعتبرونه زمزم حواء. أما الملا ميرزا عظيم فقد وصف في مراجع نفس الكتاب زيارة مقام حواء بأنه الحج إلى ضريح صاحبة العظمة أمنا حواء[١].
- الرحالة محمد لبيب البتنوني المصريُّ الجنسيةِ الذي كتبَ «الرحلةَ الحجازيةَ»، وأفرد فيه فصلًا لجبانةِ جُدةَ وقبرِ حواءَ وذلك خلال رحلته عام ١٩٠٩م، وقد وصفَ القبرَ وموقعَه تفصيلًا حيث يقول:

> "رأسُ قبرٍ طويلٍ ضاربًا إلى الشمال بمسافة مائة وخمسين مترًا على ارتفاع متر، وفي عرضٍ نحو ثلاثةِ أمتار، وهو ما يسمونَه قبرَ أمنا حواءَ. وهو أشبهُ شيء بقناةٍ مسدودةٍ من طرفِها الجنوبي بثلاثةِ حوائطَ من مربعٍ ينقصُه

(١) عبد العزيز دولتشين، مرجع سابق صفحة ٣٣٦.

الحائطُ الشمالي الذي هو مِنْ جهةِ القبر، وهناك كثيرٌ من الشحاذينَ وخدامِ القبر، وفتحَ خادُم الضريحِ بابًا وقال: هذا مكانُ السرةِ الشريفةِ"[١].

ويَروي البتنوني أنَّ الشريفَ عون الرفيقَ وفي سبيل تثبيتِ حكمِه في الحجاز، استجابَ لنصيحةِ الشيخ أحمدَ بنِ عيسى وبدأ بهدمِ القبابِ على القبورِ والمزاراتِ، غير أن تدخَّلَ القناصل الأوربيين منع هدم المقام على قبرِ حواءَ باعتبارها أمًا للبشر جميعًا، فاستجاب لهم وذلك في عام ١٣٢٣هـ، وبعدَها بنحو عشرينَ عامًا، هدم الملكُ عبدُ العزيز قبةَ حواءَ العثمانيةَ. ويحمل البعضُ تدخُّلَ القناصل باعتباره دليلًا على صحة وجود قبر أم البشر، على أن ذلك غير صحيح. لأن تدخلَهم كان لأسباب سياسية، أو رغبة منهم في استمرار الجهل والبدع وإلهاء سكان الحجاز بهذه الخرافات[٢].

- عبد الغني شهبندر اللبناني، وكان الطبيبَ المرافقَ للحجاج اللبنانيينَ، وقد وصف جُدةَ عام ١٩٣٦م، كما قدَّم وصفًا مختصرًا لقبرِ السيدةِ حواء، وأكد أنه في الجهةِ الشرقيةِ من سور جدة، وأن طول القبرِ أربعون قدمًا بُنيتْ عليه عدةُ قبابٍ قديمًا.

وهكذا فقد باتت الحكاية مع مرور الزمن حقيقة عابرة للحدودِ والقارات، وصار الغالبية يكررون بأن المقام هو قبر أم البشر حواء، ولا سيما أن العثمانيين قد آمنوا بأن الضريحَ هو مدفنُ حواءَ، سواء أكان ضريحًا افتراضيًا (مشهد رؤيا)، أم ضريحًا حقيقيًا، وزاد من الإيمان بذلك ما كرّسه الرحالة المسلمون والأوروبيون[٣].

---

(١) البتنوني، محمد لبيب (الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر) القاهرة، ط٢، مكتبة الثقافية الدينية ١٤٢٧، ص ٧٨.

(٢) محمد يوسف طرابلسي، جدة حكاية مدينة، ط٢، (مكتبة كنوز المعرفة، جدة ٢٠٠٨م) ص٢٤.

(٣) سرد كامل وبالتفصيل لما كتبه الرحالة عن جدة عامة وعن قبر حواء خاصة موجود في كتاب: Angelo Pesce, (Jiddah: Portrait of an Arabian City), Falcon Press London, 1976.

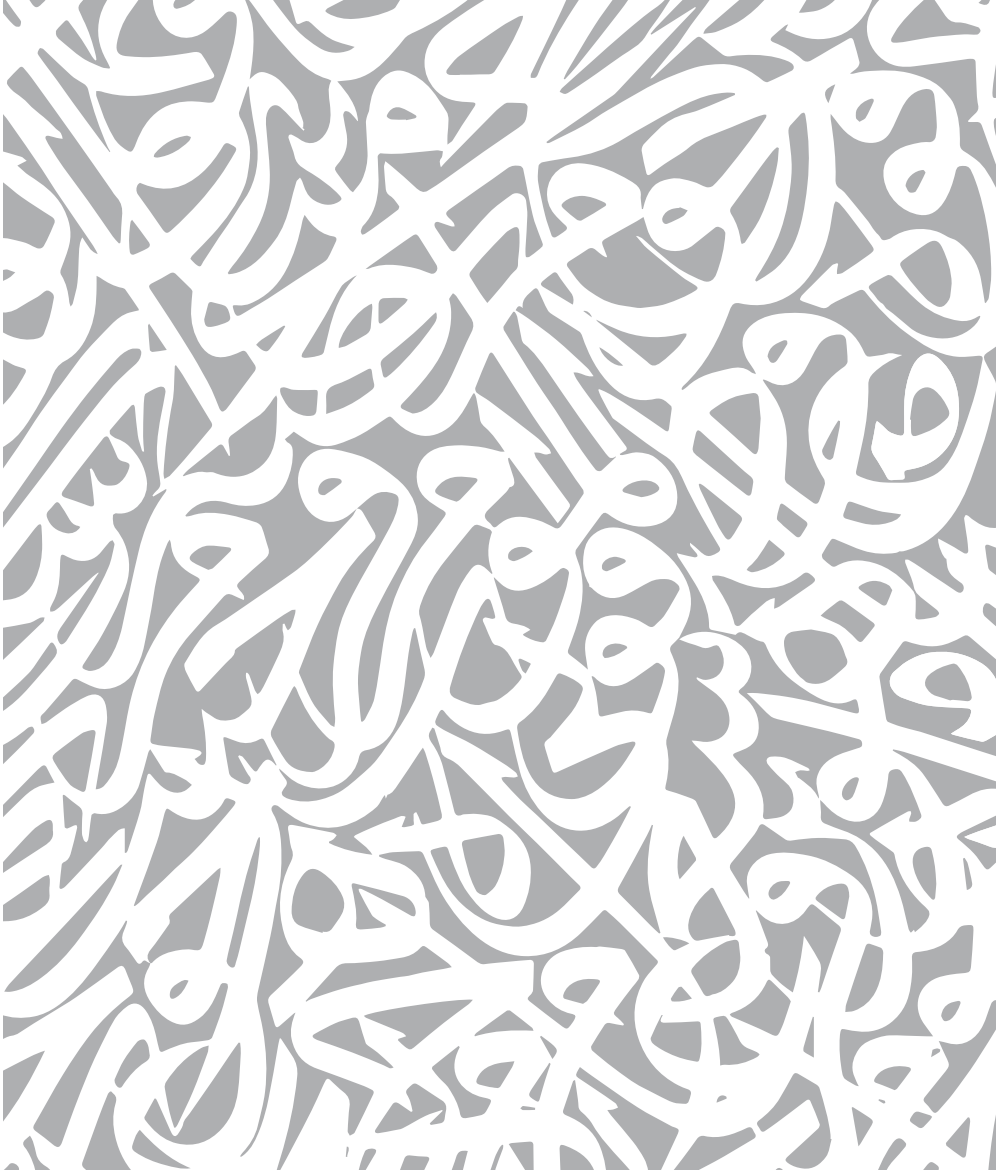

الباب الخامس

للعلم كلمة

مـا الفضل إلا لأهـل العلم إنهم
على الهدى لمن اسـتهدى أدلاء
وقيمـة المـرء مـا كان بحسـنه
والجاهلـون لأهل العلـم أعداء
فقـم بعلـم ولا تطلـب لـه بـدلًا
فالنـاس موتى وأهل العلم أحياء

الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه

■■■

"الإنسانُ يجبُ أنْ يتساءلَ وهذه بذرةُ العلمِ"

رالف إيمرسون

■■■

"إمبراطوريات المستقبل هي إمبراطوريات العقل"

ونستون تشرشل

إضاءة:

- تعاملت المجتمعات الإنسانية مع قصة الخلق من خلال الأساطير والمعتقدات الوضعية وتطورت المجتمعات عندما ظهرت فيها الأديان السماوية. ويدلي العلم في العصر الحديث بدلوه في فهم عملية الخلق وتطور المجتمعات.
- تُعد علوم ما قبل التاريخ من العلوم التي ألقت الضوء على بدايات المجتمعات الإنسانية وفي هذا الباب يوجد عرض لأهم تلك العصور وصفات كل عصر وخصائصه.
- وثّقت علوم الحفريات أشكال الحياة على الأرض منذ ملايين السنين وسنعرض لأهم الاكتشافات في هذا الشأن.
- ظهرت أبحاث الجينوم البشري وكانت قفزة نوعية في العلوم، مما أدى إلى ظهور ما يعرف باسم حواء الميتكوندرين وآدم الكروموزمات، وفي هذا الباب سنعرض لهما بشيء من التفصيل.

١

علوم الحفريات والإنسان

مدخل:

اصطدم العلم الحديث مع المراحل السابقة للحضارة الإنسانية في نظرته للكون والخلق، سواء أكان في مرحلة الأديان الوضعية، أم في مرحلة الأديان السماوية التي تمادت في الخوض في تفاصيل قصة الخلق، بعكس الإسلام الذي تنزّه عن الخوض في تفاصيل عملية الخلق مما جعل هذا الدين يتماهى مع العلم الحديث.

وفي هذا السياق يتحدثُ العالم النفسي فرويد عن جرح نرجسي فريد وهو (الجرح النرجسي الكوني)، الناتج عن الصدمة التي تعرضت لها كبرياء الإنسانية وعزة النفس الكونية من جراء العلم الحديث، ويتمثل الجرح الأول في ما أسماه بالجرح الكسمولوجي الذي أحدثته نظرية «كوبرنيكوس» عندما قلبت معادلة الجاذبية الكونية، وبدّلت قطب المركزية في النظام الفلكي، بإقراره أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس.

أما الجرح الثاني وهو الجرح البيولوجي فقد تمثل في نظرية النشوء والارتقاء، فالإنسان الذي طالما افتخر بأصله السماوي، أثبت العلم أن سلالته البيولوجية تنحدر منها السلالة الحيوانية.

وتمثل الجرح الثالث في الجرح السيكولوجي، إذ أثبت التحليل النفسي وجود اللاشعور، وتأثر قرارات الإنسان بالعمق اللاشعوري وليس بالعقل الذي يظن أنه هو محرك لهذه القرارات[١].

أشير في هذا الإطار إلى أنني سأعرض لأهم العلوم التي تعرضت لعملية خلق آدم وزوجه في العلم الحديث من دون التعرض للخلاف حول عملية الخلق، ومن دون تبنٍ أو رفض أو انحياز لأي من هذه النظريات والإثباتات العلمية أو مناهج البحث؛ فالهدف كامن في عرض ما وصل إليه العلم حول بدء الإنسان.

يذكر علماء الفيزياء والفضاء أن عمر الكونِ هو ١٣,٨ مليار سنة، وبدايةُ تخلق الكون ما يُعرَفُ بنظرية الانفجارِ الكبيرBig Bang Theory. وفيه ابتدأ الكونُ مِنْ نقطةٍ مفردةٍ شديدةِ الكَثافة، أخذَتْ تتضخَّمُ خلالَ ١٣,٨ مليار سنة، والطريقةُ الوحيدةُ لفهم ما حدَثَ هي مِنْ خلالِ النماذجِ والمعادلاتِ الرياضيةِ المعقدة، وصدَى هذا التمدُّدِ يمكنُ دراستُه في ظاهرةِ إشعاع الخلفيةِ الكونيةِ Cosmic Microwave Background.

وقامتْ وكالة الفضاء الأميركية «ناسا» بقياسِ زمنِ إشعاعِ الخلفيةِ الكونيةِ في عدة مهام في الفضاءِ الخارجي، ابتداء منَ التسعينياتِ الميلاديةِ في القرنِ الماضي[٢]. كما طوَّرَ العلماء التقويمَ الكوني لتبسيطِ وربطِ هذه التطورات Cosmic Calender.

واتفق العلماء على أن الأرض جزءٌ من الكونِ، إلا أن عمرَها مختلفٌ؛ حيث

---

(١) جورج طرابيشي، هرطقات عن الديموقراطية والعلمانية والحداثة، ط٣، (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١م) ص٩٣ – ٩٥؛ ويضيف طرابيشي جرحًا رابعًا هو الجرح الأنثروبولوجي للإنسان العربي المنبثق من التساؤل: لماذا تقدم الغرب؟ ولماذا تأخرنا نحن العرب المسلمين؟

(٢) موقع ناسا NASA بالعربي، ما هي نظرية الانفجار العظيم؟

https//:nasainarabic.net/education/articles/view/big-bang-theory

توافَقَ العلمُ على أنَّ عمرَ الأرض هو٤,٥ مليارات سنة تقريبًا، وهذا ما وصلَتْ إليه جمعيةُ المساحةِ الجيولوجية الأميركية، التي استخدمت لقياسِ ذلك الأجسام الصلبة في المجموعةِ الشمسية، وأحجارُ القمرِ لقياسِ الزمنِ عليها باعتبارِها وُجِدَتْ وقتَ وجودِ الأرض[١]. كما أقر العلماء بوجود الحياة على الأرض منذُ ما يُقَارب من ٣,٨ مليارات سنة، وأن أول ظهورٍ لأشكالِ الإنسان كانت منذ ٢,٥ مليون سنة، وهذا ما دفعَ إلى ظهورِ علومٍ متخصصةٍ لدراسةِ هذه الحِقَبِ السحيقة.

ما قبل التاريخ:

يُعتبر ظهورُ الكتابةِ في سومر ٣٢٠٠ قبلَ الميلاد نقطةَ الفصلِ في التاريخ الإنساني؛ لذا يعدُّ ما قبلَ الكتابةِ هي عصورُ ما قبلَ التاريخ، وهذه وفقًا لِما أوردَه خزعلُ الماجدي تُشكِّل ٩٨٪ من التاريخ الإنساني، وتشكلُ العصورُ التاريخيةُ ٢٪ من كلِّ مجرياتِ التاريخ[٢]. وتنقسم عصورُ ما قبلَ التاريخ إلى ستةِ عصورٍ أساسيةٍ وهي:

١. الأركيوليت (الحجريُّ العتيقُ).
٢. الباليوليت (الحجريُّ القديمُ، وينقسمُ إلى ثلاثةِ عصور: القديمِ، والأوسطِ، والأعلى).
٣. الميزوليت (الحجريُّ الوسيطُ).
٤. النيوليت (الحجريُّ الحديثُ).
٥. الكالكوليت (الحجريُّ النحاسيُّ).
٦. البروتولتريت (البروتوهستوري) الشبيهُ بالكتابي - انظر الجدول -.

---

(١) موقع هيئة المساحة الجيولوجية الأميركية: (Age Of The Earth), 1997 USGS.
(٢) خزعل الماجدي، حضارات ما قبل التاريخ، (رأس الخيمة: دار نون، ٢٠١٦م)، ص٢٨ – ٣٢.

أما العصورُ التاريخيةُ فتنقسمُ إلى أربعةِ عصورٍ رئيسةٍ وهي:

١ـ التاريخُ القديمُ (من عام ٣٠٠٠ ق م – ٤٧٦ ميلادي).

٢ـ التاريخُ الوسيطُ (من عام ٤٧٦م–١٤٥٣م) ويشملُ الدياناتِ التوحيديةَ الثلاثَ.

٣ـ التاريخُ الحديث (من عام ١٤٥٣م – ١٩٤٥م).

٤ـ التاريخُ المعاصر (من عام ١٩٤٥م – إلى الآن) أي منذ نهايةِ الحربِ العالميةِ الثانية إلى يومنا هذا.

علوم الحفريات:

داخل علومِ الحفرياتِ انبثقَ علمٌ متخصصٌ يُسمَّى Paleoanthropology وهو علمٌ متخصصٌ يُعنى بالتركيز على الحفرياتِ الخاصة بالإنسانِ القديم بغرض فهم التطوّر التشريحيِّ للإنسان من خلالِ إعادةِ بناء خطوطِ القرابةِ والنسبِ، باستخدام كلِّ المناهجِ المتاحَةِ بما في ذلك الدلائلُ البيولوجيةُ[١]، ويستندُ نظريًا إلى نظريةِ النشوء والارتقاءِ في الجنس البشري. ويتكون المصطلح من جزأين: Anthropology علم الإنسان، و Paleontology علم الأحياءِ القديمة، ويدرسُ العلمُ أيضًا مستحاثاتِ أسلافِ البشر كالأدواتِ والعظامِ المتحجرةِ والأحفورياتِ للوصولِ إلى النتائج[٢].

---

(١) ورد عن الإمام علي بن أبي طالب قوله: «خُلِقَ ألفُ آدمَ قبلَ آدمِكم، وألفُ عالَمٍ قبلَ عالمِكم هذا». انظر: دانيا سليمان، كتاب عجائبِ الأسرار للإمامِ عليِّ بنِ أبي طالب، (بيروت: منشورات مؤسسة الخراسان للمطبوعات، ٢٠٠٥م) ص١٣٤. أيضًا قول أبي العلاء المعري:

وما آدم في مذهب العقل واحدًا ولكنه عند القياس أوادم

(2) New World Encyclopedia.

ويمكنُ تلخيص أربع مراحل رئيسة لتطور الإنسان حسب هذا العلم، ونحن نوردها في خطوطها العامة من دون الاختلافات داخل كل مرحلة والتفاصيل:

المرحلة الأولى: أشباه البشر أسترالوبيثكس Australopithecus:

وهذه المرحلةُ تعودُ إلى قرابةِ أربعةِ ملايينَ سنة واستمرَّتْ لمدةِ مليونَيّ سنةٍ، وقد انقرضَتْ هذه السلالةُ وهيَ أشبهُ بالقردةِ، ولكنْ كانت تمشي منتصبةً، وأشهرُ واحدةٍ منها تُسمَّى لوسي التي تم اكتشافها عام ١٩٧٤م في إثيوبيا، وقد أُعدت حولها دراساتٌ شاملة.

وقد عاشت هذه المخلوقات على النباتاتِ والحبوبِ وأحيانًا الزواحفِ، وكانت تستخدمُ الأدواتِ. ويبلغ طولُ الذكر منها نحو ١٥١ سم، وطولُ الأنثى ١٠٥ سم، ووجَدُوا آثارًا لقرابةِ ثلاثمائة شخصٍ من هذه الفصيلة، ويعتقد أن جنسَ (هومو) انحدَرَ منهم، وآخرونَ يرفُضونَ ذلك[1].

المرحلة الثانية: الإنسان المنتصب Home Erectus:

وهو مِنْ أشباهِ البشرِ، عاشَ منذ قرابة ١,٨ مليون سنة، وأكثرُ الأحفوريات ترجعه إلى ما قبل ١,٤٣ مليون سنة، ويُعتقَدُ أنه هاجرَ مِنْ أفريقيا إلى آسيا مِنَ خلال بابِ المندبِ واليمنِ أو من سيناءَ على الساحل، ووجدت أكثرُ الأحفوريات الخاصة به في الصين وجاوا، وكانت لديه أدواتٌ للصيد والطهي، واستخدمَ النار للطهي.

يُعتقَدُ أنه يشبه إنسان اليوم ولكنه أصغرُ حجمًا، وتواصَلَ وجودُه إلى ما يُقَارب خمسينَ ألفَ سنةٍ مضَتْ في جزيرة جاوا؛ أي أنه عايَشَ فترةَ الإنسانِ الحديث، وكان يأكلُ اللحمَ والخضرواتِ والعسلَ. وهناك خلافٌ علميٌّ حولَ مَن

(1) (What Does it Mean to be Human?). The Smithsonian National Museum of Natural History.

اِنحدَرَ من سلالتِه، ويُعتقَدُ أنَّ أصلَه يعودُ إلى الإنسانِ العاملِ Homo Ergaster الذي عاشَ منذ ١,٦ مليون سنة[١].

المرحلةُ الثالثةُ: الإنسانُ البدائي نياندرتال Neanderthal:

وهو مِنْ جنسِ الهومو، وتوجَدُ آثارٌ له منذ ٣٤٠ ألفَ سنةٍ في منطقةِ أوروبا وآسيا، ويبلغُ حجمُ الذكر قرابة ١,٦ متر، والأنثى ١,٥ متر. وقد انقرض هذا الجنس منذ نحو ٣٠ ألفَ سنة، أي أنه عايَشَ فترةَ الإنسانِ الحديث، ولا يُعلَمُ بالتحديد لماذا انقرَضَ وفشِلَ استمرارُ نوعه، وتشير إحدى الفرَضِيات إلى أن عيونَه كانت كبيرةً، وبالتالي جزءٌ كبيرٌ من المخِّ كان مسخرًا لخدمةِ حاسةِ النظر على حسابِ الحواسِّ الأخرى. وكان يتغذّى بصورةٍ أساسيةٍ على النباتاتِ وأيضًا على الطرائدِ، ووُجِدَتْ أدلةٌ على مقدرتهِ على الكلامِ بشكلٍ بدائيٍّ، وتوجدُ حاليًا أبحاثٌ جادةٌ عن هذه المخلوقاتِ من خلالِ تحليلِ الجينوم لمكوناتِه وأسبابِ انقراضِه، والفروقِ الجينية بينَه وبينَ الإنسانِ الحديث[٢].

المرحلةُ الرابعةُ: الإنسانُ العاقلُ Homo Sapiens:

يُعتقد أن موطنَه الأصليَّ في أفريقيا، وعاش منذ نحو ٣٠٠ ألفَ سنةٍ، وهاجرَ إلى القاراتِ الأخرى، وهو الإنسانُ الذي يعمُرُ الأرضَ حاليًا. والإنسانُ العاقلُ يختلفُ عن سابقَيْه في أنَّ حجمَ المخِّ أكبرُ بكثير، ولديه قدراتٌ على العيش في جماعاتٍ منظمة، واعتناقِ الأديانِ والإيمانِ بالأساطير، والقدرةِ على التفكيرِ المركبِ والمعقَّدِ، وينتمي إلى فصيلةِ الرئيسات العليا، وتتحركُ مفاصلُه وأجزاءُ جسمِه، بالتناسُقِ التامِّ معَ الدماغ، بِشكلٍ يسمَحُ له بتوظيفِ قدراتِه العقليةِ والجسديةِ،

(1) Homo Erectus. Simithsonian, National Museum of Natural History.

(2) National Geographic (Why Am I Neanderthal).

لصنعِ الأدواتِ التي تساعدُه على البقاء[1]. وبحسب علماءِ الأنثروبولوجيا والعلومِ المساندةِ، فإنَّه النتيجةُ النهائيةُ لتطور الجنسِ البشريِّ، الذي مرَّ بالمراحلِ السابقِ ذكرُها، اعتمادًا على الإطار النظريِّ لعمليةِ النشوءِ والارتقاءِ.

وتقوم نظريةُ النشوءِ والارتقاءِ Evolution Theory التي وضعَها تشارلز داروين في منتصفِ القرنِ التاسعَ عشر على التفسير المادي لأصل الكائناتِ الحيةِ، بعيدًا عن التفسيرِ الدينيِّ، ولذلك نجده يقول بأنَّ كلَّ المخلوقاتِ قد بدأَتْ من خليةٍ أُحاديةٍ Monocell التي تكونَتْ بفعلِ امتزاجِ جزئياتٍ من البروتينِ معَ عواملِ البيئةِ منْ أمطارٍ ورياحٍ وحرارةٍ، وتكوَّنَ البروتينُ أيضًا من تجمعِ الأحماضِ الأمينية نتيجةَ اتحادِ عناصرِ الكربونِ والهيدروجينِ والأوكسجينِ والنيتروجينِ. ثم حدَثَ أنَّ انقسمت الخليةُ الأولى (الأميبا) إلى خليتينِ، ثُم إلى خلايا متعددةٍ، وظهرَتْ منها الأنواعُ المختلفةُ من الكائناتِ الحية، من الحشراتِ والحيواناتِ والطيورِ والثدييات، ومِنْ ضمنِها الإنسانُ الذي تطوَّرَ مِنْ هذه الفصيلةِ. مع الإيمان بأن التنوعَ في أشكالِ الحياة جاء نتاجًا للتعديلاتِ في المكوناتِ عن طريقِ الانتقاءِ الطبيعي، حيث تفضِّلُ بعضَ الصفاتِ على الأخرَى حسبَ طبيعةِ المحيط، ويحدُثُ نوعٌ من التوريثِ للصفاتِ ولكنْ معَ التعديلِ، ومِنْ هنا جاء اصطلاحُ أن البقاءَ للأصلحِ الذي يستطيعُ أن يتكيفَ مع محيطِه ويتكاثَرَ ويبقَى.

وقد عانت هذه النظريةُ منذُ البدايةِ ضعفًا في طريقةِ استخدامِ أدواتِ البحثِ العلمي، ويوجدُ فيها ما يُسمَّى بالحلقةِ المفقودةِ في التسلسلِ وتطورِ المخلوقات، وهو ما أوقع أتباعها في أخطاءٍ علميةٍ جسيمةٍ، كما اصطدمتِ النظريةُ معَ أصحابِ علومٍ أخرى، مثل الأحفوريينَ ورجالِ الدين وغيرِهم، لكنها ظلَّتْ تتعدَّلُ عبرَ السنينَ، ويتمُّ تحديثُها والحفاظُ عليها باعتبارِها إطارًا نظريًا، وليس نظريةً علميةً متفق عليها، على

(1) (What does it mean to be homo Sapiens?) Smithsonian, National Museum of History.

الرغمِ منْ أنَّ أنصارَها يدعمونَها بأحدثِ العلوم والاكتشافاتِ باستمرار[١].

وتوجدُ في تاريخ الفكرِ الإسلامي محاولاتٌ مشابهةٌ لفهمِ عمليةِ التطوُّرِ من خلالِ النشوءِ والارتقاءِ، قبلَ أنْ يصلَ داروينُ إلى نظريتِهِ، وقد جمعَ الباحثُ أحمدُ الدبش أمثلةً كثيرةً على ذلك منها قولُ الكتبيِّ يصِفُ طبائعَ القردة: «إنَّ هذا الحيوانَ عندَ المتكلِّمين في الطبائع مُرَكَّبٌ من إنسانٍ وبهيمةٍ، وهو من تدرُّج الطبيعةِ منَ البهيمةِ إلى الإنسانِ»، وأولُ مَنْ تكلَّم بأسلوبٍ علمي عن ذلك هم إخوانُ الصفا الذين أبانوا العمليةَ وتفاعلاتِها بالشرح المفصل، ويُسمّونَها حكمةً إلهيةً، بينَما داروينُ يسمّيها انتخابًا طبيعيًا.

والفكرةُ نفسُها عندَ ابن مسكويه الذي قال: «إنَّ النباتَ يترقّى ليصلَ إلى مرتبةِ الحيوان»، أما أحمدُ البلخي فيقول: «إنَّ الحيوانَ قد تولَّدَ من الرطوبةِ»، ويذكر العلّامةُ ابنُ خلدون: «إنَّ عالمَ التكوينِ ابتدأَ من المعادنِ، ثم النباتِ، ثم الحيوان، فآخرُ أفقِ المعادنِ متصلٌ بأولِ أفقِ النبات مثلُ الحشائش، وآخرُ أفقِ النباتِ مثلُ النخلِ متصلٌ بأولِ أفقِ الحيوان مثلُ الحلزون، وبعدَ أن اتَّسعَ عالَمُ الحيوانِ انتهَى في تدريجه التكوينيِّ إلى الإنسانِ»[٢].

ختامًا: علومُ الحفرياتِ والإنسانِ علومٌ متطورةٌ ومعقَّدةٌ، ولها أكثرُ مِنْ إطارٍ نظريٍّ تعملُ مِنْ خلاله، وتستلهمُ الموجوداتِ المحسوسةَ لبناءِ النظرياتِ والمفاهيم، وهذه العلومُ وَجَدَتْ في منطقةِ الشرقِ الأوسط ضالَّتهَا، باعتبارها مهدَ الحضارةِ الإنسانيةِ مثلَ العراقِ ومصرَ وسوريا الكبرى، ووجَدَتِ الكثيرَ من هذه الحفريات. وفي العقودِ الأخيرةِ انضمَّتِ المملكةُ العربيةُ السعوديةُ إلى الدولِ التي تُشجِّع هذه العلومَ، ودخلَتْ في شراكاتٍ علميةٍ معَ أهمِّ الجامعاتِ العالمية، ومِنْ أهمِّ الاكتشافاتِ التي وُجِدَتْ مؤخرًا:

---

(1) Live Science (What is Darwin's Theory of Evolution?).

(٢) أحمد الدبش، معذرة آدم لست أول البشر، (القاهرة: دار عشتار، ٢٠١٥م)، ص٥٨ – ٦٨.

سعدان الحجاز Saadanius Hijazensis:

وهو بقايا مخلوقٍ عاشَ منذ ٢٩ مليون سنة من القردةِ العليا في منطقةِ الجَموم قربَ مكة المكرمةِ، وكانت الأحفورةُ للجمجمةِ، وتم استخراجُها من الحجرِ الرمليِّ الداكنِ اللونِ، ويقدَّرُ عمرُها اعتمادًا على النظائرِ المشِعَّةِ المستخلصةِ من الصخورِ البركانيةِ لحرةِ العجيفاءِ، بالإضافةِ إلى الأحفورياتِ الأخرى. وقد ترتَّبت على هذا الاكتشافِ نتائجُ علمية كبيرة، وهو نتاجُ التعاونِ بين هيئةِ المساحةِ الجيولوجيةِ السعوديةِ وجامعةِ ميتشيغن، وحدَّدَ رئيسُ الهيئةِ الجيولوجيةِ أن هناك مؤشرات لوجودِ ديناصوراتٍ وسلاحفَ عملاقةٍ في الجزيرةِ العربية[١].

اكتشاف أحفورة في صحراء النفوذ لإصبع بشري Homo Sapiens:

يعودُ تأريخها من ٨٥ ألف إلى ٩٠ ألف سنة لإنسانٍ عاقل، وهذه كانتْ بدايةُ الحديثِ عن وجودِ استيطانٍ للبشرِ في الجزيرةِ العربية منذ أكثر من ١٢٠ ألفَ سنةٍ، كما اتفقَ علماءُ من اليابانِ والولاياتِ والمتحدةِ على وجودِ آثارٍ لعشرةِ آلاف بحيرةٍ وغاباتٍ وأنهارٍ وحشائشَ في مناطقِ شمالِ الجزيرة العربية، وتوجدُ أبحاثٌ يابانيةٌ مهمةٌ في هذا الشأن. كذلك مشروعٌ متكاملٌ لدى المملكةِ اسمُه: (مشروعُ الجزيرةِ العربيةِ الخضراء) تنفذُه الدولةُ بالشراكةِ معَ جامعةِ أوكسفورد وشركةِ أرامكو وجامعاتٍ سعوديةٍ لعملِ دراساتٍ أثريةٍ متعمِّقةٍ لمعرفةِ كيف عاشَ وهاجرَ الإنسانُ في هذا الجزءِ منَ العالم، ولمعرفة التغييراتِ المناخيةِ التي تعرضَتْ لها البلادُ، وانهيارِ الحضاراتِ التي عاشَتْ على ضفافِ الأنهر، والبحيراتِ التي تُشكِّل الصحارَى العربية[٢].

وأخذت الاكتشافاتَ الأثريةُ المهمةُ تتوالى في المملكة العربية السعودية، ولا سيما أنَّ الجزيرةَ العربيةَ كانت ممرًا للهجراتِ البشريةِ في مراحلِها الأولى، في

(١) جريدة الحياة، ١٧/ ٧/ ٢٠١٠م.

(٢) جريدة الوطن، ١٩/ ٥/ ٢٠١٨م.

الطريقِ منْ أفريقيا إلى القاراتِ الأخرى، مع الإشارة إلى أن بحر الخليج العربيّ لم يتكوّن إلا لاحقًا، وكانت هذه مناطقَ خضراءَ ومرتعًا للأساطير القديمة حولَ الإنسان. هذا بالإضافةِ إلى الاكتشافاتِ الأثريةِ عن العصرِ الإسلامي وأهميتِها للمسلمين كافَّةً.

ومؤخرًا اكتشفت البعثةُ السعوديةُ الفرنسيةُ للتنقيب مدينةَ (ثاج) الأثريةَ التي تعودُ إلى ثلاثةِ قرون قبلَ الميلاد، وكانت عاصمةَ مملكةِ الجرهاءِ الغنية، وكانت مركزًا تجاريًا وحضاريًا مهمًا[1].

(١) الشرق الأوسط ٢٩/ ٣/ ٢٠١٩م.

٢

الجينوم وحواء الميتكوندرين

الجينوم:

جاء حل شيفرة الجِينوم البشريِّ بعدَ إنشاءِ منظمةِ الجينوم البشريّ في الولاياتِ المتحدة عام ١٩٨٨م، وتضافرَتْ جهودُ وكالاتٍ فيدراليةٍ أميركية عديدةٍ معَ هذه المنظمة، ووصلت الأبحاثُ العلمية بين عامي ٢٠٠٣م و٢٠٠٧م إلى حلِّ شيفرةِ الجينومِ البشريِّ، إضافة إلى عديد من الاكتشافات العلمية الكبيرة في العلومِ المرتبطةِ بالإنسانِ وصحتهِ وتطوُّرهِ.

ويعرف الجينوم البشري بأنه كاملُ المادةِ الوراثية المكونة من الحِمضِ النَّوويِّ الديبي ناقص الأوكسجين، ويحتوي من عشرينَ إلى خمس وعشرينَ ألفَ جينٍ أو موروثاتٍ موجودةٍ في نواةِ الخلية، مرتبةً على شكلِ ثلاثةٍ وعشرينَ زوجًا من الصِّبغياتِ أو الكُروموزمات، ويوجدُ نوعانِ من الكروموسومات، الجسديةِ والجنسيةِ.

وقد تمثلت أهم الأهدافِ المباشرة المتحققة بهذا الاكتشاف في تحديدِ وتعريفِ متواليةِ القواعدِ الكيميائيةِ التي تُكَوِّنُ الـ DNA وعددُها ٣,٣ مليارات زوج. ولم تتوقف الأبحاثُ عند قيمة إيجادِ الشيفرة للجينوم البشريِّ، بل استمرَّتْ لتغطي مجالات متخصصة كمعرفةِ أسبابِ الأمراض وتشخيصِها،

وتصميمِ الأدويةِ، ووضعِ دفاعاتٍ للحروبِ الجرثومية والإشعاعاتِ والأمراضِ الوراثيةِ أو الأمراضِ الجينية.

وبخصوص دراسةِ السلالاتِ البشرية، فقد تمكَّنَ العلماءُ مِن معرفةِ الهجراتِ البشريةِ، والطفراتِ التي حصلَتْ في الجماعاتِ الإنسانية، وفَصْلِ سَلاسلِ الإناثِ عن سَلاسل الذكور، وحصلت في السنواتِ التالية اختراقاتٌ علميةٌ كبيرةٌ، ومنها أنَّ سلاسلَ الجيناتِ ذاتَ البعدِ الواحد تُشكِّلُ إنسانًا[1].

حواء الميتكوندرين:

ومعَ التطورِ في دراسةِ الجينوم، انبثقَتْ دراساتُ الميتكوندرين أو المتقدراتِ التي هي جزءٌ من الخليةِ نفسِها، وتقومُ بواسطةِ الإنزيماتِ الموجودةِ فيها بتفاعلاتٍ، لإنتاج الطاقةِ الحراريةِ من الطعام، وهي مسؤولةٌ عن توليدِ ٩٠٪ من الطاقةِ التي يحتاجُها الجسمُ للبقاءِ على قيدِ الحياة. وهي عبارةٌ عن عضياتٍ دقيقةٍ توجَدُ داخلَ ستوبلازما الخلايا وتأتي من الأم؛ لأنَّ الحيوانَ المنويَّ لا يحتَوي على متقدراتٍ، بل إنه توجَدُ به موروثة cps-٦ تُشفّر إنزيمًا معينًا يحطِّمُ الحمضَ النوويَّ لميتكوندريا الأبِ بعدَ إخصابِ البويضةِ مباشرةً، وإذا لم يحدُثْ ذلك يموتُ الجنين.

وتهتم هذه الأبحاث بدراسةِ السلالاتِ البشريةِ وعزلِ المتقدرات، وفي ذلك فقد توصَّلَ كل من Cann, Stoneking, Wilson في دراسةٍ شهيرة نُشرَتْ في مجلة Nature مطلعَ عام ١٩٨٧م إلى أن النساءِ الموجوداتِ في العالم اليومَ هنَّ مِن امرأةٍ واحدةٍ عاشَتْ في تشاد غربَ أفريقيا قرابة ٢٠٠ ألف سنة سابقة؛ لأنَّ المتقدراتِ تورَثُ من الأنثى للأنثى.

وقد ضَجَّ العالمُ مع هذا الإعلان الذي دشن حَواءَ الميتكوندريا؛ وحدثت معارضة كبيرة بسبب أن الخلايا نفسَها لا يمكنُ اقتفاءُ أثرِها إلّا إلى عشرينَ ألفَ سنةٍ فقط كما

(1) Encyclopidia Britannica.

قال المعارضون؛ لكن وبحكم أن المتقدراتِ لا تمسُّ وتنتقلُ من الأنثى للأنثى فيمكنُ العودةُ بالتاريخ إلى ٢٠٠ ألف سنة[١]. كما غلَّفَ الموضوعَ الكثيرُ من سوءِ الفهم، وتعرض لهجوم من أصحابِ العلوم الأخرى وبخاصةٍ الأحفوريونَ وغيرَهم.

وللإيضاح فليس معنى هذا الاكتشاف أنه لم توجَدْ أنثى قبلَ هذه، أو أنه في زمانِها لا توجَدُ أمٌّ غيرها على الإطلاق؛ ولكنَّ هذه الأنثى إحصائيًا هي التي استمرَّتْ سلالتُها، ومن خلالِ الهجرةِ هاجرَ بناتُها السبعةُ إلى أنحاءِ الأرض في فتراتٍ زمنية متباينة، وبناتُها مقصودٌ بها ذلك التسلسُل الجينيّ المعين وليس بنات فعليًا.

استمرتِ الأبحاثُ المناهضةُ لهذه الفرضيةِ وأيضًا المؤيِّدةُ لها، وخاصة أنَّ دراسةَ المتقدراتِ ودورَها في السلالاتِ البشرية، تساهمُ في حَلِّ وفهمِ أمراضٍ معقدةٍ موجودةٍ اليومَ مثلَ السرطان، وقد وَجدَتْ دعمًا مِنْ أصحابِ نظريةِ أنَّ الإنسانَ العاقلَ وُجِدَ في شرقِ أفريقيا بناءً على أدلةٍ أحفوريه، وأنَّ البشرَ الموجودينَ اليومَ انحدَرُوا من هناك، وإلى هذا اليومِ لا تزالُ الدراساتُ المؤيِّدةُ تظهر، ومنها دراسةٌ مهمةٌ قادَتَها جامعةُ رايس Rice عام ٢٠١٠م باستخدام عشرةِ نماذجَ من مكوناتٍ بشريةٍ، مع قائمةِ متغيراتٍ وفرضياتٍ معَ كلِّ نموذج، وأكدتِ الدراسة النظرية الأساسية بوجودِ حواءَ الميتاكوندرين قبلَ ٢٠٠ ألف عام في تشاد بأفريقيا، كما ذكرت اسم MRCA وهي أحدثُ جدودِ الأنثى الحديثة التي وُجِدَتْ أيضًا في شرقِ أفريقيا، وقد شارَكَ في هذه الدراسة عددٌ من الهيئاتِ مِنْ داخلِ وخارجِ الولايات المتحدة الأميركية[٢].

---

(1) a- Encyclopdia Britannica.

b- Gizmodo (How Mitochondrial Eve Connected All Humanity And Rewrote Human Evolution). April 13 – 2011.

iog.gizmodo.com

(2) Rice University (Mitochondrial Eve: Mother of All Humans Lived 200,000 Years Ago). Science Daily, Aug. 17, 2010.

جدير بالذكر فإن حالة العلمِ اليومَ تميلُ إلى القبولِ بفكرةِ حواءَ الميتكوندرين، وأنَّ الإناثَ في العالم انبثقْنَ من امرأةٍ واحدة، معَ إدخال عديد من التعديلات على الفكرةِ الأساسية. وتدعَمُ علومُ الحفرياتِ وعلومُ دراسةِ هجراتِ الإنسان هذه الفكرةَ. وكلَّما تقدمتِ الأبحاثُ الجينية تمكنَ العلماء من وضعِ المرأة الحديثة في ما يُسمَّى هابلوقروب، وتتبع طرقَ الهجرةِ الفرعية من أفريقيا.

أشير إلى أن الدراسة قد وجدت رواجًا في العالمِ العربيِّ ولا سيما أنها تجعلهم أصلاً للبشر، وكان الكاتب السياسي الساخر الفرنسي قد أشار إلى ذلك في معرض مهاجمته للزعماء العنصريين وأحزاب اليمين الذين يطالبون بطرد العرب من فرنسا، حيث كتب مقالاً في Le point (لوبوان) الأسبوعية بتاريخ ٢٠١٢/١/٢٧م، يذكر فيه أنه طبقًا لنتائج الدراسات العلمية فجميع الفرنسيين عربًا منتمون إلى حواءَ الميتكوندرين، وفي هذا جزءٌ من الصحةِ وجزءٌ من السخريةِ وعدمِ اكتمال المعلومات. حيث أخذت السلاسلُ البشريةُ للإناثِ حال هجرتها من أفريقيا مساراتٍ عديدةً؛ أحدُها كان مسار الجزيرة العربية، حيث توطَّنَتْ في شرقها بالقرب من عمان، ثم هاجرَتْ إلى أوروبا.

آدم الكروموزومات:

باستخدامِ علومِ الجينوم وتفرعاتِها توجدُ طريقةٌ أخرى لتتبعِ أحدثِ سلفٍ مشتركٍ للرجل، الذي تنحدرُ منه جميعُ كروموزومات Y، ويُسمَّى آدمُ تيمنًا بنبي الله آدم، ولم يتفقِ العلماءُ على أن آدمَ الكروموزومات عاشَ في نفسِ فترةِ حواءِ الميتكوندرية، بل بينهم آلافُ السنين، وإن كانت بعض الدراسات الحديثة ترجِّحُ فرضيةَ أنَّهم كانوا معاصرينَ لبعضٍ في أفريقيا.

وتنص الفكرةُ العلميةُ باختصار على أنَّ الرجلَ يحملُ كروموزومين X وY، أما المرأةُ فتحملُ اثنين من كروموزومات X، ولهذا فإنَّ الذي يحددُ جنسَ المولودِ هو كروموزومات الأب، وتقومُ الفكرةُ على تتبع كروموزوم Y مِنْ خلالِ نظريةِ

التطور الجيني لـ Y، وانتقالِه من الأبِ إلى الابن، ومِنْ خلالِ طفراتٍ جينيةٍ وتجميعِهم في مجموعاتٍ تُسمَّى بالهابلوغروب.

وبناءً عليه يمكنُ إعادةُ بناءِ تسلسلِ الحمضِ النوويِّ الصبغيِّ لسلفِنا المشتركِ (آدم Y) عن طريقِ عكسِ طفراتِ DNA لإعادةِ الكروموزوم إلى حالتِهِ الأصلية، ومعَ المقارناتِ معَ المخلوقاتِ الأخرى يُرجَّح أنه خرجَ من أفريقيا، ولكنْ هناك خلافٌ علميٌّ على الفترة التي عاشَ فيها البالغة من ١٢٠ ألف سنة إلى ١٥٦ ألفَ سنةٍ ماضية، في حين ترجع بعض الدراسات تواجده إلى ٢٠٠ ألف سنة سابقة[١].

ختامًا: لقد أدى التقدمُ العلميُّ الهائلُ في مجالِ الأبحاثِ الجينية، والقدرة على استِنْساخِ المخلوقاتِ من خليةٍ واحدةٍ، ونجاحِها في الحيواناتِ والنباتاتِ، إلى رفعِ الأصواتِ محذّرةً من العواقبِ الأخلاقيةِ الواضحةِ، التي قد تترتَّبُ على تركِ هذه الأبحاثِ من دون ضوابطَ قانونيةٍ وأخلاقيةٍ تضعُها المنظماتُ الدولية، وتشمَلُ دولَ العالمِ كافَّةً.

وفي هذا الإطار فللمملكةَ العربيةَ السعودية برنامجٌ وطنيٌّ لدراسةِ الجينات يُسمَّى: (مشروعَ الجينومِ السعوديِّ) الذي ابتدأ منذُ العامِ ٢٠١٣م، ومقرُّه في إدارةِ الأبحاثِ بمستشفى الملكِ فيصلِ التخَصُّصي بالرياض، وبتمويل من مدينةِ الملكِ عبدِ العزيز للعلوم والتقنية، ومِنْ أهمِّ أهدافِهِ تحديدُ الأسبابِ الجينية للأمراضِ الوراثيةِ المنتشرةِ في السعودية، وتطويرُ الاختباراتِ التشخيصية لتصبحَ سريعةً ودقيقةً وذاتَ كلفةٍ منخفضةٍ.

وقد حدد المشروع السعودي هدفه بمسارين رئيسين: أولهما: معرفةُ التسلسلِ القاعديِّ البشريِّ، والتسلسلِ الجينيِّ بطريقةٍ معينة، وثانيهما: توثيقُ الطفراتِ الوراثيةِ في كلِّ الجيناتِ المسببةِ للأمراضِ الوراثية[٢]. والهدفُ الأسمى هو رفعُ

(1) www.livescience.com/ Genetic "Adam and Eve" Uncard 01/08/2013

(٢) الشرق الأوسط ٢٥/ ١/ ٢٠١٤م.

جَوْدةِ الخدماتِ الصحيةِ والوقائية، وزيادُة فعاليةِ فحوصاتِ ما قبلَ الزواج. ويحتلُّ مشروعُ الجينومِ البشريِّ السعودي مكانةً واضحةً في رؤية ٢٠٣٠م لدى مدينةِ الملكِ عبدِ العزيز للعلوم والتقنية، والأساسُ الذي سيقومُ عليه طبُّ النانو في البلاد.

الصدام بين العلم وبعض الأديان:

اصطدمت النصوصُ المقدسةُ في الديانتينِ اليهوديةِ والنصرانيةِ، في قصةِ الخلقِ معَ العلمِ الحديث، على اعتبارِ أنَّ هذه النصوصَ قد حدَّدَتْ في سفرِ التكوينِ وسفرِ الأخبار عُمْرَ الكونِ باحتسابِ أعمارِ الأنبياءِ بعدَ آدم، وخلصُوا إلى نتيجة أنَّ عُمْرَ الكونِ من ستة إلى سبعةِ آلافٍ وخمسمائة عام.

ومع تزايد ضغط العلم في القرنِ التاسعَ عشرَ خرجَتْ نظرياتٌ تفسرُ هذا الخلافَ، ومنها نظريةُ الفجوة، ونظريةُ أنَّ أيامَ الخلقِ ترمزُ إلى حقبٍ زمنيةٍ، وغيرُها من المحاولاتِ والتفسيراتِ الرمزيةِ للنصوص[١].

وقد أوجدت الاكتشافاتُ الآثارية ومعرفة الأساطيرِ البابلية شكوكًا حولَ بعضِ النصوصِ المقدسةِ؛ حيثُ إنَّ التوراةَ أعيدَتْ كتابتها مِنْ قِبَلِ عَزْرا في فترة السَبْي البابِلي، بعدَ احتراقِ الكتبِ المقدسةِ في أورشليم، وتسُّربِ بعضٍ من الأساطيرِ البابليةِ إلى هذه النصوصِ، ومنها أسطورةُ الخلقِ (إينوما ايليش)، وأسطورةُ جلجامش، وأسطورةُ المرأةِ التي خُلقتْ من الضلع، وغيرُها التي تتَشابهُ في بعضِها إلى حدِّ التطابقِ معَ ما جاء في النص التوراتي.

وأدى هذا الصدامُ وممارساتُ الكنيسة منذُ بدايةِ القرنِ التاسعَ عشرَ الميلادي إلى إدخالِ تعديلاتٍ في البناء اللاهوتي لهذه الأديان. وظهر في القرنِ التاسعَ عشرَ ما يُسمَّى بـ «النسويةِ الإلحاديةِ» التي تدعو إلى المساواةِ بينَ الجنسينِ في الحقوقِ

(١) عمر الكون والأرض والكائنات والإنسان، موقع الكتاب المقدس.

https://drghaly.com/articles/display/12160

والواجباتِ وفق القوانين، والخروجِ من الأديانِ كلها لتحيزها ضدَّ النساء، واستطاعَتْ هذه النسوية تحقيقَ نجاحاتٍ تشريعيةً كبيرةً في الولاياتِ المتحدةِ والغربِ عمومًا، لصالحِ تملُّكِ النساءِ وإعطائهن حقوقِهن الاقتصاديةِ، وهي الأساسُ النظريُّ للحركةِ النسوية العالمية، حيث تُعد السيدتان روز إرنستين، وسوزان أنتوني من أشهر قادتها في الولايات المتحدة الأميركية[1].

كما ظهر ما يسمى باليهودية المعدلة وهي أحد المذاهب اليهودية التي تقول بالتركيز على الجوانب الأخلاقية في الدين وليس الشعائر، والاعتماد على المنطق والعلم، وليس النصوص التي أُنزلت على موسى، وتسمى اليهودية الليبرالية.

إضافة إلى ذلك فقد ساهمتْ أدواتُ النقدِ الأدبيِّ الحديثِ في تعميقِ الفجوةِ بينَ العصورِ الحديثة والنصوصِ المقدسةِ، للديانتينِ اليهوديةِ والنصرانيةِ منْ عدةِ جهاتٍ، حيث وعلى سبيل المثال قامت بإعادة توجيهِ فهمِ الأساطيرِ منّ خلالِ إعادةِ توصيفِ أسطورةِ ليلث زوجةِ آدمَ الأولى، الروحُ الشريرةُ التي رفضَتْ إطاعةَ آدمَ إلى أن تكونَ رمزًا للمرأةِ المستقلةِ صاحبةِ الرأي ونموذجًا للمرأةِ الحديثة.

كما أدى ظهورُ أساليب النقدِ الحديثة كالتفكيكية، وطريقتِها في فهم العلاقةِ بينَ النصِّ والمعنى وفق رؤية الفيلسوفُ جاك دريدا، إلى إحداث تطور في الأفكار المفسرة للنص الديني.

وفي الجانب الآخر فقد حافظ الإسلام على جوهر نصوصه المقدسة وموثوقيتها أمامَ التقدمِ العلميِّ؛ لأنها مِنْ كلام الخالق، والنبيُّ المعصومُ الذي لا ينطق عن الهوى. وتركزت الفكرةُ الأساسيةُ في الإسلام على ترسيخ مفهوم عقيدة التوحيدِ لله، ولم يغفل الإسلام أوامر التدبُّرِ والتعقُّلِ الوارد نصها في كتابه المحكم كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، أي أنَّ الله سيُرينا مِنْ

(1) Jewish Women's Archive.

خلالِ العلمِ منَ الدلائلِ في الكونِ وفي الأنفسِ البشريةِ ما يجعلُنا نجزمُ بوحدةِ الألوهية لله. ولفظُ «سنُريهم» فيه إشارةٌ إلى المستقبل، وتظلُّ تخاطبُ البشريةَ إلى يومِ القيامةِ حيثُ سيتكشفُ المزيدُ من الآياتِ والدلائلِ أمامَ العلم[١].

ولم يعدم أعداءُ الإسلام السبيل إلى القول بتناقضِ الإسلام والعلم، حيثُ نفذ بعضهم في هجومِهم مِنْ عدةِ منافذَ أهمها الإسرائيليات التي تسربت عبر طريقين، أخذ أحدهما مسار الروايات اليهوديةِ التي نُسبت كذبًا للرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم، وهي أشبه ما تكون بقنابلَ موقوتةٍ يمكن أن تنفجر تباعًا معَ مرورِ الزمن. ووصلَ الأمرُ إلى وجودِ منهجٍ للكذبِ المتعمَّد عن الرسولِ يبيح أصحابه مثل شيخِ الكراميةِ محمدُ بنُ كرام السجستاني، وضعَ الأحاديثِ عن لسان النبي للترغيبِ في الطاعةِ والترهيبِ من المعصية، كما توسَّعَ الوضّاعون إلى وضعِ أحاديثَ مكذوبة في الفضائل جملة كفضل مدينة أو شخص، على أن ذلك لم يخف على علماء الحديث الذين وضَعُوا الضوابطَ وقواعد الجرح والتعديل لتصفية الحديث النبوي الشريف[٢].

والمنفذُ الآخرُ للإسرائيليات كان مِنْ خلالِ اعتمادِ المفسِّرينَ والمؤرخين على التراثِ التوراتي بأشكالهِ ورواياتهِ كافة في تفسيرِ النصِّ القرآني، وذكرِ تفصيلاتِ قصةِ الخلقِ وآدمَ وحواءَ على وجه الخصوص، وقصَصِ الأنبياءِ التي تزخَرُ بها الكتبُ اليهوديةُ، ودعَمُوا هذه الرواياتِ بالأساطيرِ اليونانيةِ وغيرِها. ومعَ التواترِ أصبحَتْ هذه الأمورُ جزءًا من الذاتِ الثقافيِّة الإسلاميِّة بما في ذلك تفاصيلُ قصةِ حواءَ التوراتية. ولقد حذر الإمام الشافعي من التقليد لأنه سمة الجاهل، ويروى عن الشافعي «والأئمة الأربعة منعوا الناس من تقليدهم ولم يوجب الله على أحد تقليد أحد من الصحابة والتابعين؛ لأن التقليد صنيعة

(١) عمرو شريف، الوجود رسالة توحيد، ط٢، (القاهرة: نيوبوك للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م) ص ٩-١١.

(٢) موقع المكتبة الشاملة، (شرح نخبة الفكر). https://al-maktaba.org/book/31766

الجاهل»[١]، ويحذر الدكتور هيكل من أن التراث صار جزءًا من الدين، وقد تم إدماجه في هيكل المقدسي كمسوغ للاستعلاء به وتقديمه على الحاضر، فتعطل العقل ونشطت الذاكرة وخبا الفكر، وأصبح الخلاف بين المقدس والتراث سجالًا أكاديميًا، ويتمّ التمييز بينهما بشكل باهت[٢].

(١) صديق بن حسن القنوجي، (أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم)، تحقيق عبد القادر زكار، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٧٨، ج ٢، صفحة ٤٠٣.

(٢) عبد الباسط هيكل، المسكوت عنه، مرجع سابق، صفحة ٢٢.

٣

وجهة نظر حول المقام

منذ الأزل. . . العالم يوجد لكي يؤول إلى كتاب

الشاعر الفرنسي ستيفان ملارميه

وُجدت مدينة جدة منذ ألفينِ وخمسمائة عام إلى ثلاثةِ آلافِ عام تقريبًا، وموقعُها أقربُ إلى شمالِ شرقِ الموقعِ الحالي، ومنَ الثابتِ تاريخًا أن أيًّا مِنْ أنبياءِ الله لم يقفْ على الموقعِ، وبالتالي فلا توجد أي إشارة لنبي حول وجود أمنا حواءَ بجدة بأيِّ شكلٍ منَ الأشكالِ، كما لم يذكر أحد مِنْ شعراءِ العربِ ولا حكمائِهم ولا المؤرِّخينَ ذلك، ثم لا يوجَدُ للمقام والقبر أي أثر وشاهد توثيقي في فترة صدر الإسلام ولا سيما أن الخليفة عثمان بن عفان قد زار المدينة وسبح في شواطئها وبخاصة في ما يعرف ببحرِ الأربعينَ القريب جدًا من مكان المقام والقبر كما هو واقع حاليًا، ولذلك فالمنطق يقول أنه لو كان معروفًا في حينه لما وسع خليفة رسول الله ومن معه من صحابة رسول الله أن يهملوه بالزيارة والدعاء على أقل تقدير.

كما ورد أن عبد الله بن عباس كان يعتكفُ شتاءً في المسجدِ الكبيرِ بجدة، ولم يثبتْ عنه أنه زارَ المقام أو وقفَ عليه. وكذلك الحال مع الجغرافِيّين الذين لم يثبتْ عن أحدٍ منهم أنه وقفَ على المقام قبل ظهوره في فترات متأخرة.

واستمر الحال على ذلك حتى القرنِ السادسِ الهجريِّ الذي جاءَ فيه أولُ إشارةٍ للمقام عبر الرحالة ابنِ جُبير، حيث وصف مشاهدته لقبة قيل له بأنها لمنزلِ حواءَ قبلَ أن تصعَدَ إلى مكةَ. ثُم ما لبثت المعلومة أن توثقت وتعمقت في الذهن الإسلامية في المراحلِ التاريخيةِ التالية، وبات يطلق على المقام قبر حواء.

وقد أشرنا في مبسوط هذا الكتاب من قبل بأن عبارةَ إهباطِ حواءَ في جُدةَ ضمنَ الثالوثِ التوراتي (حواءَ، إبليسَ، الحيةِ) قد وردت عن محدِّثِ الأساطيرِ اليمنيِّ وعالمِ التوراةِ وهبِ بنِ منبهٍ، الذي كانَ ملازمًا لعبدِ الله بن عباس، وهو ما أثبتَه ابنُ قتيبةَ في كتابه «المعارف»، وأكده بعده بعشراتِ السنين الطبريّ في تاريخه عبر تقصيه لسلسلة الروايات الضعيفة المتصلة بأبي صالح الذي عُرِفَ بكذبِه وتزويرِه على ابنِ عباس. وقد نقل المؤرخون والمفسِّرون عن الطبريِّ، وامتلأ الفضاء الثقافيِّ الإسلاميِّ بروايةِ إهباطِ حواءَ في جُدةَ، وحتى الجغرافيين كالحمداني في القرنِ الرابعِ الهجريِّ نقَلَ عن الطبريِّ من دون أن يذهبَ إلى جُدةَ[1].

على أن القولَ بالطبيعةِ الأنثويةِ المقدسةِ لهذا المقام، يأتي في سياقٍ أوسعَ وأشملَ في الثقافةِ العربية، وفي ذلك فقد أشرنا في طيات ما سبق من هذا الكتاب إلى مدَى تقديسِ العربِ للأنثى، حتى إن بعضهم قد تسمى بها كقضاعة، ومرة، وعطية، ومدركة، وهوازن، وغيرها، وعمق اهتمامهم بأسماءِ ومكانةِ الآلهةِ والأصنامِ الأنثويةِ، وما تُمثِّلهُ من عقائدَ وأفكارٍ مركزيةٍ لدى العرب، مع اختلاف وجهات نظرهم باختلاف الزمن أيضًا.

حيث تحوّل كثير من المقامات الوثنية والمعابد قبل الإسلام إلى مقامات إسلامية بعد ذلك، ومن ذلك على سبيل المثال فقد أُقيمت في المغرب العربي مزارات على أنقاض المعابد الرومانية وادَّعت قدرتها على شفاء المرضى؛ لأن المعبد الأساسي كان لرب الصحة الإله أسكاليبيوس، وكانت تنسب له قدرات

(١) أوضحنا هذه المعلومات بتفصيل أكثر في أماكن أخرى من الكتاب.

مزعومة في شفاء المرضى. والشيء نفسه حصل في بلاد الشام والعراق حيث أقيمت مقامات إسلامية ومزارات على بقايا مواقع عشتار وتموز وغيرهم[١].

وفي حالة مقام حواء فقد قال بعضُ المؤرِّخين والرحالة بأنَّ الموقعَ كان مبنيًا من الهياكلِ المقدسةِ قبلَ الإسلام[٢] وأن قضاعةَ تعبدَتْ به، وفي هذه الحالةِ فإننا نقدمُ واحدًا من هذه الاحتمالات:

أولًا: قبل الإسلام:

- أنَّ الموقعَ كان معبدًا لإلهٍ قمري، من التي كان شائعٌ عبادتُها في الجزيرة العربية، خاصةً كوكبَ الزهرةِ بأسمائه المختلفة، معَ التركيزِ على الشكل اليمني للإله عثتر. المعبد الرئيس للآلهة (عثتر) في مدينة (تمنع) كحلان اليوم في وادي بيحان عاصمة دولة قتبان التي عاصرت حكومتي معين وسبأ. المعبد من الضخامة بمكان ويعتقد أنه بُني على فترات ومراحل تاريخية بدأت من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وجدت بعثة ويندل فيليبس أساسًا لأربعة أو خمسة صفوف من الأعمدة الهائلة، ويضم كل صف خمسة أعمدة، وكان المسافرون يحملقون إلى أعلى لمشاهدة المعبد، ويوصف بأنه منظر خلاب ورائع[٣]؛ لأنَّ اليمنيينَ كانوا حريصينَ على إنشاءِ المعابد، والمواقعِ لهذه الآلهة، لاستجلاب الخير والنماء، وكانوا يستخدمونَ طريق الساحل في تجارتهم من أيام المعينين، وقد يكون هذا المقام أحدهم .

(١) أحمد زين الدين، الحداثة ويقظة المقدس: أنماط وسلوكيات وأفكار، (بيروت: بيان للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م) ص٣٧.

(٢) محمد الطاهر المكي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الحرام، مرجع سابق، ص ٣٣٩.

(٣) برهان الدين دلو، (جزيرة العرب قبل الإسلام)، دار الفارابي بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧، صفحة ٤٢٢.

ووردَ عن الرسول ﷺ قولُه عن الزهرة ومعرفته بافتتان العرب بها: «طلعتِ الحمراءُ فلا مرحبًا ولا أهلاً»، كذلك قولُه: هذه التي فتنَتْ هاروتَ وماروتَ[١].

وكانت الزهرة أهم إله قمري عند الشعوب السامية كلها، وقد عبدت في جميع أنحاء الجزيرة العربية بأسماء وأشكال مختلفة، حيث عبدت جنوبًا باسم عثتر، وشمالاً في بلاد الشام والعراق بالأسماء المختلفة والمعابد العديدة، كما عبدت غربًا باسم العزى، وشرقًا باسم تاروت وهو الاسم الذي تسمّت به اليوم جزيرة تاروت المعروفة حاليًا في شرق المملكة العربية السعودية، وفيها تم بناء القلعة على أنقاض المعبد القديم، وفي الواقع أن اسم تاروت هو اسم للآلهة عينانا السومرية.

- أو أن تكونَ لإلهٍ قمريٍّ آخرَ وهو (أحوار)، وهو إلهٌ ثموديٌّ يشيرُ بشكلٍ خاصٍّ إلى الكوكبِ جوبيتر (المشتري)، ويوجَدُ لدى العربِ اسمُ عبدِ أحوار.

يذكر أن جدة قد عرفت بصنم شهير اسمه (سعد)، تذبحُ عنده العربُ وتُهرقُ الدماء، وجاء ذكرُه عند الكلبي بأن هُذيل وعكّ وغيرَهما قد عبدوه، وهو الذي تُسمَّى النجومُ العشرةُ باسمه، ومنها أربعةُ منازلَ للقمر وهي: سعدُ بلع، وسعدُ الأخية، وسعدُ السعود، وسعدُ الذابح. وهو ما أشار إليه الرحالة ريتشارد بيرتون حال زيارته للمقام ووصفه له بالتفصيل من الداخل والخارج، حيث قال: «إنه (أي المقام) ربما يكون النسخة الإسلامية أو الشعبية للصنم الذي عبده أهل جدة في الجاهلية»[٢].

تجدر الإشارة إلى أن اسم الصنم (سعد) قد ورد في كتابات النبط باسم (سعدو)، وورد في كتابات الصفويين أيضًا، مما يدل على أنه كان من الأصنام التي عبدتها تلك الأقوام، وللإله (سعد) علاقة بالإبل وتسهيل تجميعها مثل سهيل

---

(١) تفسير الطبري، ٣٤٣ – ٣٤٦.

(2) Angelo Pesce, (Jeddah, Portrait of An Arabian City), Faclon Press, 1976, London, P 47 – 48.

اليماني أي أنه إله فحليّ في طبيعته، ويمكن أن يتشكل صنمه على هيئة جمل، وقد جاء في الأثر أن الرسول قال لوفد قبيلة طي: «إني خير لكم من العزى ولاتها، ومن الجمل الأسود الذي تعبدون من دون الله»[١]. وفي الأدبِ الشعبي لأهالي جدة ورد أنه بعدَ ظهورِ الإسلام تم نقل عُبادُ صنم (سعد) إلى جزيرةٍ قُبالةَ جُدةَ، وتُسمَّى إلى اليوم جزيرةَ سعد.

ثانيًا: بعد الإسلام:

لعل من المرجح أن يكون مكان المقام بعد الإسلام موقعًا لمكان دفنِ قُطبٍ صوفيٍّ كبيرٍ، ومن الأرجح أنَّ المتصوفة قد استخدَمُوا اسمَ حواء للحفاظِ على المقامِ الصوفي، وقد تحوَّلتِ المقبرةُ في القرون اللاحقةِ إلى جبّانةِ دفنِ الرموزِ الصوفية، الذين يؤكدون بأن: «الأولياء عرائسُ الله». وقد وردَ عن الشيخِ الأكبرِ ابنِ عربي في القرنِ السادسِ الهجري، أنه أوصى بالبرِّ بآدمَ وحواءَ مثلَ برِّ الوالدَيْنِ، وأنه اعتمَرَ عن آدمَ، وشاهدَ الملائكةَ وآدمَ يرحبونَ به أثناءَ العمرة، وأوصى بزيارةِ قبرِ حواء باعتباره من برِّ الوالدَيْنِ[٢].

والواقع فإننا إذا انطلقنا من جوهر الدين الإسلامي، القائمِ على التوحيد الخالص، والمرتكز على العقلانية وإعمال التدبر، فلا بديلَ من رفضِ هذه الأسطورةِ القائلة بدفنِ حواءَ في جُدةَ، لمناقضةِ ذلك صحيحَ التاريخ والعلم، ولكونها رواياتٌ توراتيةَ منحولة في تكوينها تعزز عنصرية الخطيئة، وللأسف فقد اكتسبت الأسطورةُ الزخمَ، عندما دعمَتْها مصالحُ الدول الإقليمية المتتابعة، التي تريد السيطرةَ على الحجاز، وآخرُها الدولةُ العثمانيةُ، معَ مصالحِ فئةٍ ضيقةٍ من السكانِ المحليِّينَ، للحفاظِ على قُدسيةِ المقامِ الموجودِ لديهم.

---

(١) زكريا محمد، ذات النحيين، مرجع سابق، ص٩٦ – ٩٩.

(٢) أحمد بن محمد الحضراوي الشافعي، الجواهر المعدة في فضائل جدة، تحقيق: علي عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م) ص ٢٨.

ويمكن القول بأن ضريح أمِّنا حواءَ حالة أكثرُ تعقيدًا من الأضرحةِ الصوفيةِ الأخرى، لارتباطِه بالأساطيرِ، وأيضًا بالخرافاتِ المحلية؛ حيث يُروى أنه كان في حالةِ تأخُّرِ وصولِ المراكب من الهندِ، يأخذونَ رجلًا من البحريةِ، ويزفُّونَه من داخلِ البلد إلى الضريحِ بالطبولِ والرقصِ، وعندما يصلُ إلى الضريح يسقطُ مغشيًا عليه، وعندما يُفيقُ يخبرُهم بحالةِ المركبِ في البحر، وهل هو سالمٌ أم عاطبٌ، وعندما يظهرُ لاحقًا صدق قولِه تنهالُ عليه النذورُ والصدقاتُ وهكذا[١].

وواقع الحال تُسمَّى هذه الشعائرُ باسم (الهجاس) وهي نوع من الوسواس المرضي، تلعب الظروف الاجتماعية والثقافية وظروف الحياة دورًا كبيرًا في الإصابة به، ويصيب مختلف الطبقات الاجتماعية والثقافية، ولظروف الحياة دور كبير في الإصابة بهذا المرض النفسي، وعادة ما ينشأ بسبب صراعات لا شعورية فيُغمىَ فيها على الشخص، ويتمُّ علاجُه في الضريح أو أثناءَ ممارسةِ الشعائر. ويصفُها فرويد أنها شعائرٌ نفسية لا تُشِّكلُ جوهرًا ولا طبيعةً روحية، ولكنْ حركات لتفريغِ التوتراتِ النفسيةِ والوجدانيةِ[٢]. وللأسفِ يعتقدُ فيها الكثيرُ من الجهلاءِ وأنصافِ المتعلمين على طولِ العالمِ الإسلامي، وتحظَى دولةُ المغرب بأكبرِ عددٍ من هذه الأضرحة.

من الأفضلِ والأسلمِ عدمُ وصفِ هذه الخُزَعبلاتِ بالصوفيةِ، لأن هذا خطأ حتى وإن ادَّعَى المشعوذون انتماءهم للصوفية وهي منهم بَراء. ظاهرة المنتفعين بالأضرحةِ، موجودة في كل زمانٍ ومكانٍ، وهم يعتاشون على الجهلِ وحاجةِ الناس، ولكن الدين القويم بمذاهبه المختلفة منهم براء.

---

(١) عبد العزيز أبو زيد، الأسطورة في مدينة جدة، (جدة: مكتبة كنوز المعرفة، ٢٠١٦م) ص٣٥ – ٣٦، ويحوي الكتاب تفاصيل أخرى عن هذه الشعائر.

(٢) أمال السحمودي، ظاهرة زيارة أضرحة الأولياء بين الخرافة والواقع، موقع أنفاس نت.

https://anfasse.org/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9/7923-

هذه الأعمالُ هي ترجمةٌ حيةٌ للعقلِ الخرافيِّ الوهميِّ الذي واكبَ الفكرَ الإنسانيَّ، ويعيش جنبًا إلى جنب يُسايرُ الأنظمةَ السياسيةَ والثقافيةَ والاجتماعيةَ، وهو ما يُسمَّى التدينُ الشعبيُّ، أو التراثُ الدينيُّ الشعبيُّ، الذي يوازي الدينَ الصحيح؛ لأنه يتضمنُ أفكارًا وتصوراتٍ شعبية تعكسُ نظرةَ الفردِ للعالم.

■■■

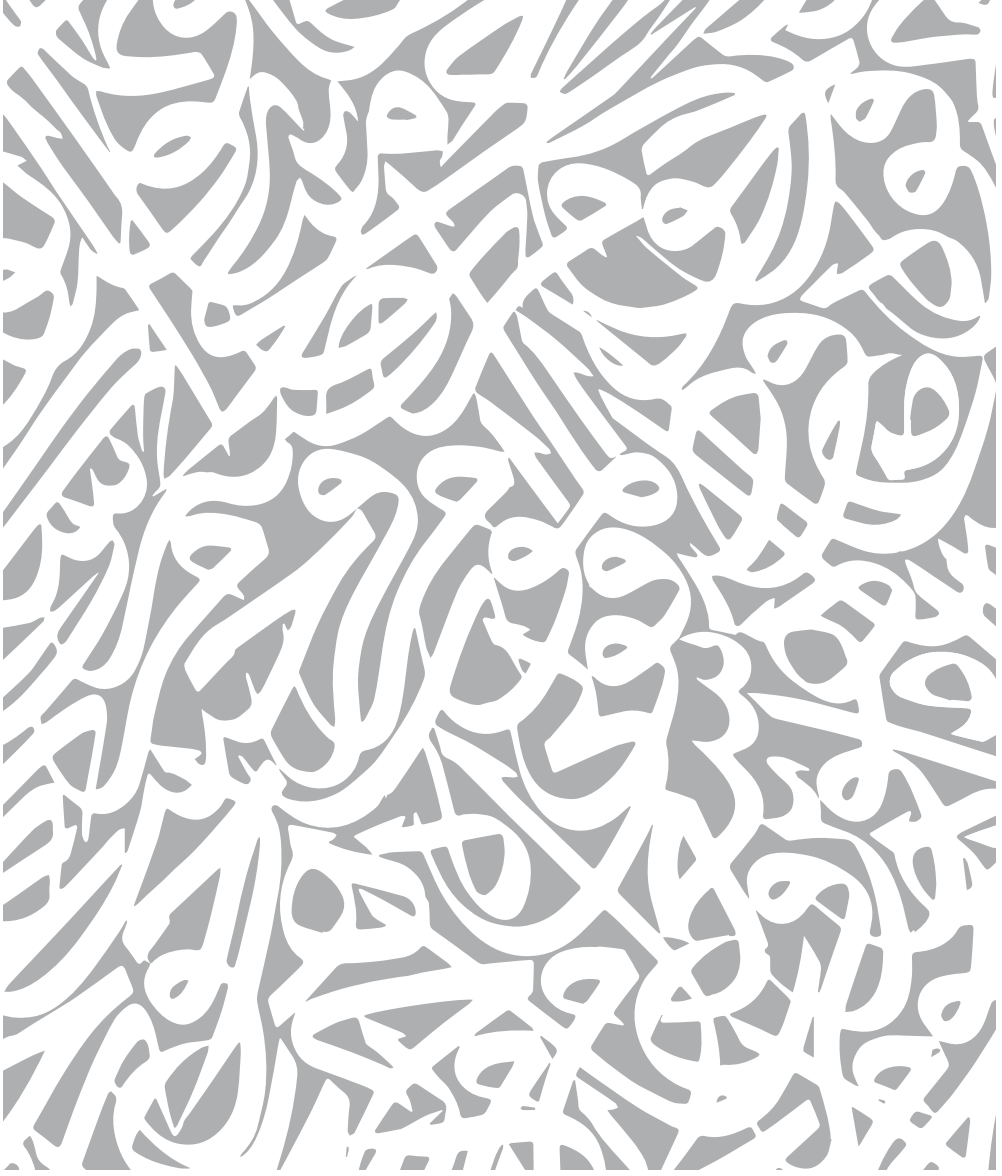

الخاتمة

"وأمانة العلم كما تعرف ثقيلة جدًا لا ينهض بها إلا الأقوياء، وقليل ما هم".

طه حسين

■■■

"الحاضر ليس هدفًا، فالماضي والحاضر مجرد وسائل، أما المستقبل فهو الهدف".

بليز باسكال

■■■

"ليتعظ الذين أصبحوا حربًا على أصحاب الرأي في عصرنا وضاقت صدورهم بكل جديد ولو كان صوابًا وليس لهم سند في ذلك إلا الصخب، ولم يجن المسلمون من صخبهم إلا ذلك الجمود الذي خيّمَ على الأفكار ووقف عقبة في سبيل الإصلاح فتقدمت الأمم وتأخرنا وضعف الوازع الديني وفشا الإلحاد".

الشيخ عبد المتعال الصعيدي

مجلة الرسالة العدد (٧٥١) ٣ أبريل ١٩٤٤

الخاتمة

وهكذا يمكن القول بأن الأساطير الإغريقية قد لعبت دورًا رئيسًا في الثقافة الكونية عبر العصور، ونهلت الإنسانية من معين هذه الأساطير بدرجات مختلفة في مراحل تطور المجتمعات البشرية، فشكلت الآلهة أمثال زيوس وابنه هرقل وأمه الكمين، ومكائد زوجة أبيه هيرا، وأسطورة أفروديت آلهة الجمال، والآلهة باندورا التي فتحت الصندوق الذهبي الذي يحوي شرور العالم وغيرهم من الآلهة والأبطال الذين ذكروا في ملاحم هوميرس الشهيرة «الألياذة والأوديسة» معينًا لمختلف الأفكار والتصورات الدينية، التي ساهمت في بلورة قصة الخلق وتطور الكون ومسيرة التاريخ انطلاقًا من تلك الملاحم، وكانت لدى الإغريق قناعة أنهم من نسل الآلهة والأساطير.

وقد تعاملت البشرية مع كل هذا بدرجات متفاوتة من الأهمية والتصديق، حتى جاء عصر النهضة في أوروبا، الذي استلهم الفنانون منه ومعهم رجال الدين التنويريون تلك الأساطير لتشكل إطارًا ذهنيًا لعصر الأحياء وبداية الحضارة الغربية كما نعرفها، التي أنتجت الإنسان التنويري وأسست للفكر الحر للفرد والمجتمع باعتبار الفرد هو المصدر الحي للحضارة. وعملت على إعادة بعث الاعتقاد الديني المبني على حب الحرية وإعلاء شأنها، وكان ذلك بداية للتطور الحضاري المتكامل الجوانب للحضارة الغربية التي نعرفها اليوم[1].

---

(١) حسين فوزي، تأملات في عصر الرينسانس، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م) ص ٦، ١٢٧.

أشير إلى أن الأساطير التي أفرزتها الثقافة الإسلامية لم تقدر أن تكون مصدر إلهام للأجيال اللاحقة، أو أن تلعبَ دورًا مشابهًا في إحداث نقلة نوعية في المجتمعات الإسلامية، وذلك لعدة اعتبارات أولها: أنها مأخوذة من الثقافة التوراتية بصورة أساسية، وثانيها: أنها نُقلت مشوهة منذ البداية، وثالثها: أنها اعتمدت منهج وضع الأحاديث والروايات على النبي وأصحابه لأهداف دينية وسياسية معادية للدعوة الإسلامية. وفي هذا روَى مسلمٌ بسنده عن مجاهدٍ قال: «جاء بشيرٌ العدويُّ إلى ابنِ عباسٍ فجعل يُحدثُ ويقول: قال رسولُ الله، فجعل ابنُ عباس لا يأذَنُ لحديثه ولا ينظرُ إليه فقالَ: يا ابنَ عباس، مالي لا أراكَ تسمعُ لحديثي؟ أحدثُكَ عن رسول الله ولا تسمَع؟ فقال ابنُ عباس: إنا كنا مرةً إذا سمعْنا رجلًا يقول: قال رسول الله ابتدرَتْه أبصارُنا، وأصغَينا إليه بآذاننا، فلما ركبَ الناسُ الصعبَ والذَّلُولَ لم نأخذْ من الناسِ إلا ما نعرِف».

وذكر الإمامُ الذهبيُّ في التذكرةِ عن خزيمةَ بنِ نصر قال: سمعتُ عليًا بصفينَ يقول: «قاتلَهم الله، أيَّ عصابةٍ بيضاءَ وسَّدوا، وأيَّ حديثٍ مِنْ رسولِ الله أفسدُوا»، وروَى مسلمٌ أيضًا: «أتى ابن عباس بكتابٍ فيه قضاءُ علي فمحاه إلّا قدرَ أي ذراع؛ لأنه كان درجًا مستطيلًا».

وينبهُ هذا الكتابُ الذي نبسطه بين يدي القارئ إلى أنه ليس من الحكمة ونحن في الألفيةِ الجديدةِ ومحاطينَ بالحداثةِ الكونيةِ وأساليبِها العلميةِ في البحثِ والتحليلِ، والتواصلِ وثورةِ المعلومات، والانفجارِ المعرفي، والفضاءِ السيبراني، أن نعتمدَ في تراثِنا الثقافيِّ الإسلامي على المقولاتِ الإسرائيلية، ونتنفسَ التراث التوراتيَّ في كتبِنا، بعيدًا عن صحيح ما جاء في القرآنِ والسُّنةِ المطهرة.

لقد استطاع المؤرخون منذ القرنِ الثاني الهجري حيث بدايةِ عصرِ التدوين، ومِنْ خلالِ النصوصِ التي قدموها لتفسيرِ التاريخِ وقصةِ الخلق، ومشاريعِهم الثقافيةِ الكبرى القائمةِ على التخييلِ والأسطرةِ، خلَق بيئةٍ ثقافيةٍ تستبدلُ نصوصًا مقدَّسةً بنصوصٍ موضوعة، وما استبدالُ سيرةِ زوجةِ آدمَ القرآنية بسيرةِ حواءَ

التوراتية اسمًا وأحداثًا إلا غيضٌ مِنْ فيضٍ.

ومِنْ أوائل مَنْ تنبَّه لذلك أبو بكر الرازي الذي قال: «إنما أهلُ الشرائع أخذوا الدينَ عن رؤسائِهم بالتقليد، ودفعوا النظرَ والبحثَ عن الأصولِ وسدَّدوا فيه ونهَوْا عنه، وروَوا عن رؤسائِهم أخبارًا، تُوجبُ عليهم ترك النظر ديانة، وتوجب الكفر على من خالف الأخبارَ التي روَوْها، إنْ سُئِلَ أهلُ الدعوى عن الدليلِ عن صحةِ دَعْواهم استَطاروا وغضِبوا، وأهدَرُوا دمَ مَنْ يطالبُهم بذلك، ونَهَوْا عن النظر، وحَرَّضُوا على قتلِ مخالفيهم، فمِنْ أجلِ ذلك اندفَنَ الحقُّ أشدَّ اندفانٍ وانكتم، وإنما أتَوا منْ هذا البابِ منْ طولِ الألفِ لمذهبِهم، ومَرِّ الأيامِ والعادةِ، واعتزازِهم بلِحَى التيوسِ المتصدِّرينَ في المجالسِ، يُمزِّقون حلوقَهم بالأكاذيبِ والخرافاتِ»[1].

هذه الثقافةُ القائمةُ على التكرارِ للنصوصِ المحرفةِ والبديلةِ، التي أصبحَتْ أصولًا وتكرسَتْ بين الضعفاءِ من الرجالِ والنساءِ والصبيانِ كما قال الرازي، أنتجَتْ ما أسماه الباحثُ صلاحَ بوسريف (الديناصورَ الإسلامي). وهو ديناصور بدلًا من أن يفكرَ في تحريكِ عقلِه وفكرِه، وفي قراءةِ النصِّ من خارجِ السياج المضروب عليه، يُفضِّلُ حبس نفسه في إطار من التخلفِ والتحجُّرِ والجهلِ بالنصوصِ الدينية الصحيحة، ومن دون أن يهتم بمعرفة أولياتِ القراءةِ وتحليلِ النص.

وعليه فإن استمرار التكرار والنقل من التراثِ التوراتي، قد أصبحَ غيرَ منطقيٍّ وغير مُجدٍ بعد سقوطِ صفةِ المقدسِ عن النصوصِ التوراتية أمامَ ضرباتِ العلم والتنوير. وفي هذا يقول خَزعَل الماجدي[2]:

> "غيرت الحفرياتُ الأركيولوجية تصوراتِنا عن تاريخِ العالم بأكملِه، فهي كونُها علمًا لا تدَّعي أنها تعرفُ كلَّ شيء، بل تقول إنّ ما اكتشفَتْه

(١) صلاح بوسريف، آلهة تنوب عن الله، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م) ص ٧٥.
(٢) خزعل الماجدي، أنبياء سومريون، كيف تحوَّل عشرة ملوك سومريين إلى عشرة أنبياء توراتيين، (الدار البيضاء: المركز الثقافي للكتاب، ٢٠١٨م) ص ١٥.

هو بهذا الحجم وهذه المواصفاتِ، ثم تصمتُ لنبنيَ معطياتٍ أساسُها العلمُ لا الخيالُ والأساطيرُ. لقد تعرَّفْنا في تاريخِ الأركيولوجيا كيفَ أنَّ كشوفاتِها هزَّتْ أركانَ الكتابِ المقدَّسِ في الغرب؛ حيث إن المصدرَ المقدَّسَ للكتبِ كانَ نصوصَ الماضي الدينية وغيرَ الدينية، ونصوصَ أديانِ الحضاراتِ التي سبقتِ التوحيدَ".

ويقول كوسيوفسكي[١]:

"معَ فكِّ رموزِ الكتابةِ المسماريةِ بدا واضحًا وجليًا أن العهدَ القديمَ الذي زعموا أنه أُوحيَ من الله يعودُ بأصولِه وجذورِه إلى تقاليدِ ما بينَ النهرينِ، وأن كثيرًا منَ التفاصيلِ الكثيرةِ المذكورةِ فيه، بل وحتى أساطيرَ كاملةٍ، مسروقةٌ بنسبة أو أخرى، من كنزِ الأساطيرِ والخرافاتِ السومرية الغني... استعملَ الكهنةُ الأساطيرَ الشعبية لما بينَ النهرينِ، وبلا أيِّ خجلٍ أو شعورٍ بالذنبِ أو بعذابِ الضمير - طبخُوا تلك المقتبساتِ وجهَّزوها لتخدمَ أهدافَهم الدينية".

والواقع فقبلَ إسقاطِ صفةِ المقدَّسِ عن نصوصِ العهدِ القديمِ بالاكتشافات الآثارية، كانت قد سقطَتْ تلك النصوصُ في عصرِ التنوير، على يد مارتن لوثر زعيم حركةِ الإصلاحِ الدينيِّ في أوروبا في القرن السادس عشر، وبعدَ ذلك منْ خلالِ حركةِ النقدِ التاريخي للنصوص ورائدُها رشار سيمون، التي خلصَتْ إلى إيجادِ صورةٍ مختلفةٍ تمامًا من حياةِ السيدِ المسيح، وتمييزِ الأساطيرِ من الحقائق[٢].

في الجانب الآخرِ من العالم (الشرقِ الأوسط) ومعَ الألفيةِ الجديدةِ، أُعيد

(١) هشام حتاتة، أساطير التوراة وأسطورة الإنجيل، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٨م) ص ٣٤.

(٢) هاشم صالح، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ ط٢، (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٠م) ص ١٥٩، ١٦٧.

بعثُ هذه الأساطيرِ اليهودية، عن ثالوثِ الشرِّ في الجنة (حواءَ، إبليسَ، الحيةِ) وهبوطهم إلى الأرض في أماكنَ متفرقةٍ، مِن خلال رواياتٍ إسرائيليةٍ مدسوسةٍ على بعض الصحابة تُوصَفُ بالإسرائيليات، والتركيزِ على حواءَ.

وقد أكدَ ذلك ابنُ كثير الذي وحال استعراضه لأماكنَ إهباطِ حواءَ قال: «ويرجعُ حاصلُ تلك الأخبارِ إلى الإسرائيليات»[١]، كما قال محمد رشيد رضا: «كلُّ ما وردَ في هبوطِ آدمَ وحواءَ من تعيينِ الأمكنة فهو منَ الإسرائيلياتِ الباطلةِ»[٢]، علمًا بأنه قد ثبت بأن الروايات المنسوبة لابنِ عباسٍ والحسنِ والضحاكِ، غيرُ صحيحة الأسانيد، مع نكارةٍ شديدةٍ في متونِها، ومخالفتِها لما هو ثابتٌ في الأحاديثِ الأخرى الصحيحة، وبعضُها صحيحةُ الأسانيدِ ولكنَّها منكرةُ المتن، وهذه الرواياتُ من الإسرائيليات[٣].

ومعَ التغيراتِ الاقتصاديةِ والسياسيةِ والاجتماعيةِ والسكانية التي تشهدُها جُدةَ وتأثيرات الحداثة والاندماج في الاقتصاد العالمي والثقافة الكونية سعى البعض إلى قيادة تيارٍ للانكفاء على الأشكال الثقافية الماضية للحفاظ على هوية المجتمع المحلي خوفًا من الذوبان في مواجهة أساليب الحداثة وأسئلتها وأدواتها وقدرتها على تشكيل العقول والحساسيات الجمالية والفنون والعلوم، وقد عبّر عن هذا أدونيس «إن بين العربي كجوهر نفسي والعربي كحياة يومية مسافة طويلة يملؤها الفراغ والتفتيت، العربي المعاصر يحيا في كيانين: ذاته المغرقة في القدم وحياته المتهالكة على أشكال المدينة الحديثة»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠٦ – ٢٠٧.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م) ١/ ٢٧٩.

(٣) ألطاف الرحمن، المسائل العقدية المتعلقة بآدم، مرجع سابق، ص٩٥٠.

(٤) سعيد، محمد أحمد (أدونيس) فاتحة لنهاية القرن العشرين، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٥.

وقد وجد هذا الفريق من الكتّاب ضالتهم في قصة حواء وارتباطها بجدة.

لذا بدأ البعضُ يقول: إنَّ أصلَ البشرِ من مدينة جُدةَ، وإن حواءَ مدفونةٌ هنا يقينًا، أو أنّها نزلَتْ وعاشَتْ هنا، ويركِّزونَ على وصفِ الضريح الذي بناه العثمانيونَ، ووصفِ الرحَّالةِ لهذا الضريح، ويتكلمونَ بمنطق الدوغمائيين عن حقيقةِ إهباطِ وحياة حواء، بل وموتِها ودفنِها في جُدةَ من دون دليل ملموس أو تسلسل منطقي لتاريخ الكون والمنطقة.

وقد تواصلتُ أثناءَ إعدادِ هذا الكتاب معَ العديدِ من الكليات المتخصصة، ومراكز الأبحاثِ حولَ العالم، للإجابة عن سؤالينِ باستخدام أكثرَ من لغة، وهي الإنجليزيةُ والفرنسيةُ والتركيةُ إضافةً إلى العربية، وتتمحور هذه الأسئلة حول ما يلي:

- هل يوجدُ دليلٌ علميٌّ أو نصٌّ مقدسٌ على وفاةِ حَواءَ في جُدةَ؟
- هل يوجدُ دليلٌ علميٌّ أو نصٌّ مقدسٌ على دفنِ حَواءَ في جُدةَ؟

كل الإجاباتُ التي حصلتُ عليها كانتْ بالنفي بصورةٍ مقتضَبةٍ من دون شروح، ثم لجأتُ إلى مكتبةِ الكونغرس، على اعتبار أنها تَحوي تراثَ البشرية مطبوعًا، وكانت الإجابةُ رقم ١٣٧٥٠٢٢١ في ٢٠١٨/٨/١٠ بالنفي، ولا يوجدُ أيُّ نصٍّ مقدسٍ ولا دليلٍ علميٍّ على وفاتِها أو دفنِها بجُدةَ.

ونضيفُ أنه لا توجدُ في التراثِ الإسلامي أيُّ أقوالٍ أو شواهدَ على دفنِ حواءَ بجُدةَ قبلَ القرنِ السابعِ الهجريِّ، عندَ زيارةِ القاسم السبتي، الذي ذَكَرَ أنَّ هنا قبرَها ولم يستسغْ ذلك، ورفضَ فكرةَ أنَّ هذا قبرُها في القرنِ السابعِ الهجري. أي: بعدَ أكثرَ من أربعةِ قرونٍ من ظهورِ الحركةِ الصوفية وانتشارِ مريديها.

وبعدَ الدولةِ الفاطمية ودولةِ المماليك في مصرَ، وتأثيرِها الثقافيِّ والدينيِّ على الحجاز بسنواتٍ طويلة، ظهرَتْ دعوى القبرِ والدفنِ في جُدةَ، ومِنْ نافلةِ القول إنَّ دَعوَى إهباطِها في جُدةَ التي وردَتْ في الإسرائيلياتِ لم تقلْ بدفنِها في

جُدةَ، ولكنَّ الأقوالَ عن أماكن دفنِها كانتْ مختلفةً ليس منها جُدةَ. أهمها أنها مدفونة قرب القدس في مقبرة كريات أربع.

هذا معتقدي في المقام ونقول مع الشيخ ابن عربي: «وما عليَّ إذا ما قُلتُ معتقدي، دع الجهول يظنُّ الحق عدوانًا».

لقد اكتسبت مدينةُ جُدةَ مكانةً مميزةً باعتبارِها أرضَ الرباطِ ودرعَ مكةَ من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى هي أرضُ التطهيرِ الروحي قبلَ الصعودِ إلى مكةَ. وقد أدركَ البرتغاليون هذه المكانةَ كما بيّنا سابقًا[١]. لذا عندَ الحديثِ عن جُدةَ يجبُ أخذُ هذه المكانة في الاعتبار، ومستقبلُ جُدةَ ليس في القبورِ، ولكن في الاقتصادِ والحداثةِ وبناءِ الأوطان على العلم، ومنها استغلالُ موقعِها الجغرافي الفريد. وما كان صحيحًا لموقعِها الجغرافي أيام السفن في القرنِ السادسَ عشرَ، هو صحيحٌ في عهد الطيرانِ والفضاءِ أيضًا؛ حيث أوصتْ بعثةٌ اقتصاديةٌ أرسلَتْها الحكومةُ الأميركيةُ في منتصفِ الستينياتِ الميلاديةِ ببناء أكبرِ مطارٍ في الشرقِ الأوسط، ليكونَ مطارًا محوريًا يخدمُ المنطقةَ كلَّها، على اعتبار أنَّ جُدةَ تقعُ بالقرب من الممراتِ الجويةِ الرئيسةِ في المنطقة وبوابةُ الحرمَينِ الشريفَيْن.

وتجددتْ نفسُ الدراساتِ عن المطارِ المحوري عندَ إعادةِ هيكلةِ قطاعِ الطيران المدني في السعودية عام ٢٠٠٥م، وتمَّت التوصيةُ بتوسعةِ المطار الحالي ليكونَ مطارًا محوريًا يطورُ البيئةَ الاقتصاديةَ الوطنيةَ. وللأسفِ فقد تعثَّر بناءُ هذا المطار المحوري، ودخلتْ دولٌ أخرى في المنافسة من دون أن يكون لموقعَها الجغرافي أي قيمة كما هو الحال مع موقع مدينة جدة[٢].

وعليه فإن مستقبل جُدةَ يكونُ بالبناءِ والاستفادةِ من برنامج التحديثِ، الذي

---

(١) بوشرب، الخليج العربي والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية، مرجع سابق. ص١٦٨.

(٢) محمد أنور مسلم نويلاتي، سيرة ومسيرة، ملامح من استراتيجية التحرر الاقتصادي لقطاع الطيران المدني السعودي، (القاهرة: دار الشمس، ٢٠١٨م)

بدأَ مع الخطةِ الخمسيةِ الأولى على عهدِ الملكِ فيصلِ بنِ عبدِ العزيز يرحمه الله عام ١٩٧٠م التي استهدفت بناء الدولة الحديثة وتأسيس تنمية مستدامة من أجلِ القضاءِ على الفقرِ والجهلِ والمرضِ وغيرِها من الآفاتِ التي كانت تفتكُ بالبلاد والعباد. ويستلزم نموها في الوقت الراهن القرار بإعادةِ تموضعها اقتصاديًا، للاستفادةِ من الاستثماراتِ الحكوميةِ الهائلة الناتجة عن تجارة الترانزيت، لكونها بوابة للتجارةِ مع أفريقيا، ومعبرًا لتقديم الخدماتِ المساندةِ كالخدماتِ المصرفيةِ والماليةِ والمعلوماتية.

كما أن ثروةَ جُدةَ الحقيقة كامنة في عمقِها الثقافيِّ والروحيِّ، وفي روح أبنائها أصحاب الروح الوثابةِ، والمبادراتِ الاقتصادية، وأعمالِ التطوع، والصورةِ المشرِّفة للشبابِ السعودي على مرِّ الأزمان، في خدمةِ الحجاجِ والزائرينَ، والترحيبِ بالغريبِ والمسافرِ، واستيعابِ الأفكارِ الجديدةِ، ودورِّهم في بناءِ المملكة العظيمة مدنيًا وعسكريًا.

نحتاجُ أن يركزَ أبناءُ جُدةَ مع إخوانهم في أرجاءِ الوطنِ، على المشاركةِ في علوم العصرِ، وتقنية النانو، والمساهمةِ في الثورة المعلوماتية، والعملِ في المستشفياتِ الحديثة ومراكزِ الأبحاث، وأنظمةِ تحليةِ مياهِ البحر والزراعةِ والصناعةِ، والاستخدامِ السلميِّ للطاقةِ النووية، وأن يكونوا أعضاءً فعّالينَ بالمساهمةِ في تطورِ البشرية، والاستعدادِ لمتطلباتِ الثورةِ الصناعية الرابعة، التي قوامُها الاقتصادُ الرقمي. إضافة إلى وضع استراتيجيةٍ واضحةٍ للواقع الذي سوفَ يفرضُه الذكاء الصناعي، على المجتمعاتِ والاقتصادِ الوطني والمحلي، حيث من المتفقِ عليه أنَّه في السنواتِ القليلةَ المقبلة سيتغيرُ شكلُ الأنظمةِ الاقتصادية في العالم الحديث، وسيلعبُ الذكاءُ الصناعيُّ دورًا محوريًا في اختفاءِ وظائفَ ونشاطاتٍ اقتصاديةٍ، وظهورِ أخرى تحتاجُ إلى تدريبٍ وتعليمٍ خلاقٍ وحديثٍ ومبتكَر.

كما نتطلعُ إلى ترسيخ المواطنةِ الرقميةِ بينَ الشبابِ والأطفالِ، من خلالِ العملِ الجادِّ على تطويرِ التعليمِ والتربيةِ، من مرحلةِ رياضِ الأطفال وحتى نهايةِ التعليم العام، بهدفِ إعدادِ المواطن الرقميِّ القادرِ على العملِ والابتكارِ والتجديدِ، في بيئةٍ رقمية آمنةٍ وفعَّالةٍ، ضمنَ مجتمعٍ مثقفٍ ومسؤولٍ، يتطلعُ للمستقبلِ ويتفاعلُ مع أدواته.

العالَمُ مقبلٌ على طفراتٍ نوعيةٍ في التقدمِ التقنيِّ والرقميِّ، بظهورِ الأجيالِ الجديدة من الشبكاتِ الرقمية، وما يُسمَّى إنترنت الأشباه، وزيادةِ تدخلِ الحاسباتِ الموجهة رقميًا في الأنشطةِ على حساب الإنسان. ولهذا نرجو أن تكونَ أجيالُنا الجديدةُ فاعلةً ومساهمةً، وتتبعُ صحيحَ الدين كما جاء في الكتاب والسُّنة، بعيدًا عن التراثِ المشبَعِ بالفكرِ التوراتي والخُزَعبلاتِ الإسرائيليةِ.

مع إيماننا بقيمة الأسطورة في نسج البعد الخيالي لدى أبنائنا وفق مقالة كارل غوستاف يونغ: «الأسطورةُ تنيرُ جوانبَ النفسِ الإنسانية، وإنَّ المجتمعَ الذي يفقدُ أساطيرَه، بدائيًا كان أم متحضرًا، يعاني كارثةً أخلاقيةً تعادلُ فقدانَ الإنسانِ لروحه»، ولكن من دون مغالاة، ومن غير أن يأخذ التعاملُ معها كأنَّها واقعٌ حقيقي، وذلك هو ما يُدمِّر المجتمعاتِ، ويفتحُ الطريقَ للمتربِّصينَ في إقليمٍ تقومُ فيه الدولُ وتتوسع وتنهار بناءً على الأساطيرِ وتفسير التاريخ القديم.

ومنذ القرن السادس الهجري أنارت أسطورة حواء جوانب النفس الإنسانية لأهل جدة ومصدر اعتزازهم وبهجة لهم، ومع العصور الحديثة وتهذيب الأسطورة بجهود المفكرين والباحثين فإن الوضع يتحول إلى ما يشبه لما حدث للإغريق عندما اكتشفوا أنهم ليسوا من نسل الآلهة كما تقول الأساطير؛ لذا تعدلت نظرتهم للأساطير لتصبح رمزًا للصراع بين الخير والشر، وكانت منطلقًا ومصدر إلهام لعصر النهضة الحديثة وبداية الحضارة الغربية.

كذلك ما حدث في اليابان التي كانت تعتبر الإمبراطور سليل الآلهة الشنتو، وأهم الآلهة (أماتيراسو) إله الشمس، وكان لا يظهر للناس ويستشهد الجنود باسمه، ولكن في لحظة الانكسار التاريخي افتدى الإمبراطور بلاده بنفسه وأساطير أسرته، وقبل التوقيع علنًا على وثيقة الاستسلام في نهاية الحرب العالمية الثانية، وقابل اليابانيون هذا الفداء بالتقدير للإمبراطور وأسرته، ودخلوا العصر الحديث من أوسع أبوابه بعد إعادة تفسير أساطيرهم.

المجتمعات العريقة لا تستطيع إلغاء أساطيرها؛ ولكن تعيد فهمهما وتفسيرها عندما تسطع شمس العلم، وتظهر الحقائق التاريخية والاكتشافات الأركيولوجية وتتخذها رافعة للانضمام إلى عصور العلم والحداثة وتبتعد عن الديموغاجية لإثبات أن الأساطير صحيحة.

ونحن في جدة نأمل أن نعيد تموضع الأسطورة في العقل الجمعي لتكون مصدر إلهام للانطلاق نحو المستقبل القائم على العلم وتجديد التراث والبعد عن الإسرائيليات والنهضة بناء على صحيح العقيدة والعلم الحديث.

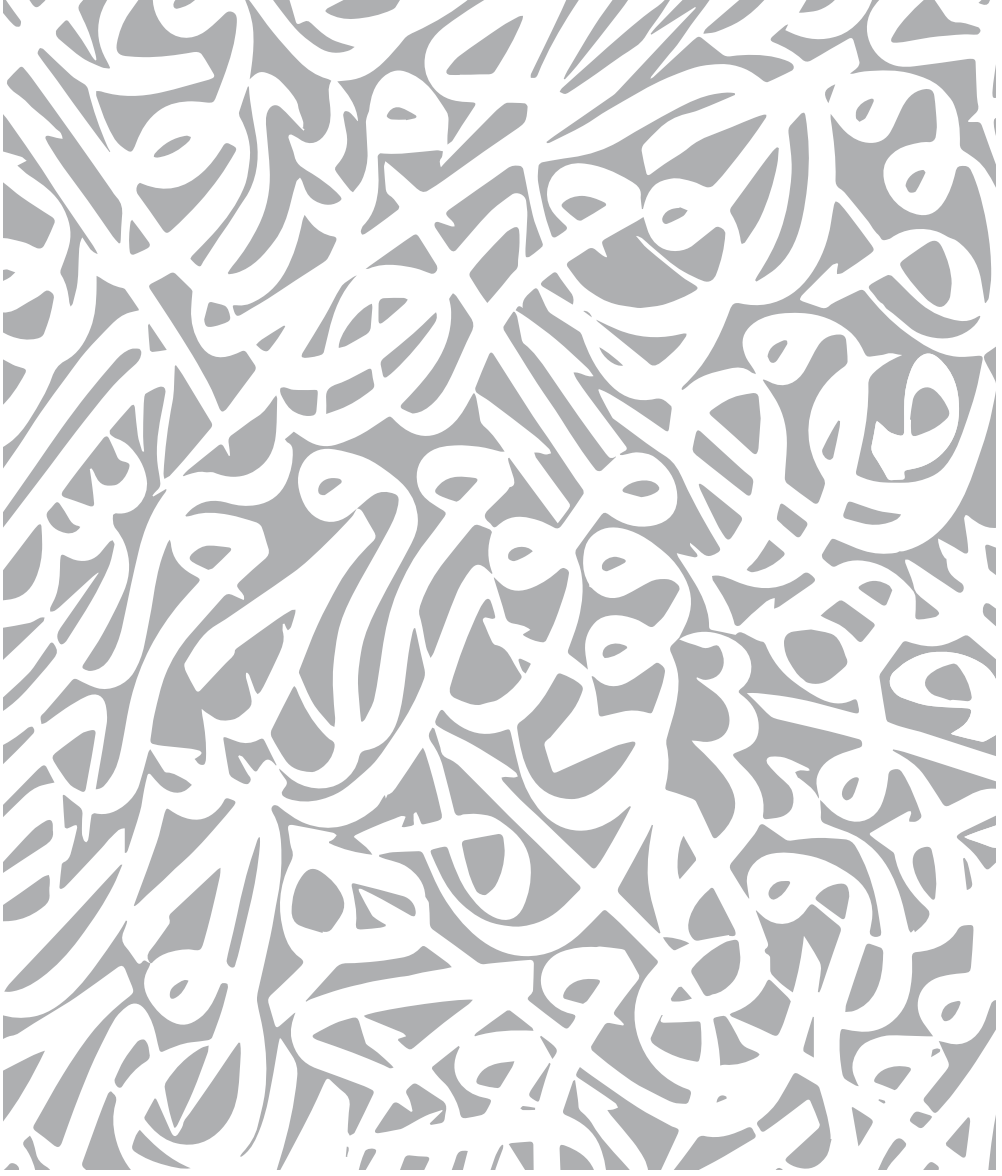

المراجع والمصادر

المراجع والمصادر

المراجع العربية:

١ـ أحمد قبش، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ط٣، (دمشق: دار الرشيد، ١٩٨٥م).

٢ـ إيجيرو ناكانو، الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية، ترجمة: سارة تاكاهاشي، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٩م).

٣ـ إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٨م).

٤ـ عبد الحق بن غالب بن عطية، (المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

٥ـ ابن منظور، لسان العرب، ط٣، (بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ).

٦ـ آنا ماري شمل، روحي أنثى، الأنوثة في الإسلام، ترجمة: لميس فايد، (القاهرة: الكتب خان، ٢٠١٦م).

٧ـ أبي إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ٢٠١٢م).

٨ـ ألطاف الرحمن بن ثناء الله، المسائل العقدية المتعلقة بآدم عليه السلام، ط١، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ٢٠١٠م).

٩ـ أميمة أبو بكر، قراءة نقدية في كتاب النسوية والدراسات الدينية، (القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة، ٢٠١١م).

١٠ـ أسمهان سعيد الجرو، الآثار والحضارة في التاريخ العربي القديم، (القاهرة: دار الكتاب الحديث، ٢٠١٨م).

١١ـ أبو المنذر بن هشام الكلبي، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط٤، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠م).

١٢ـ أبو الفرج بن الجوزي، تلبيس إبليس، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ٢٠٠١م).

١٣ـ تقي الدين أبو العباس ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، (دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٩٨٧م).

١٤ـ تقي الدين أبو العباس ابن تيمية، مجموعة فتاوى ابن تيمية، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥م).

١٥ـ إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية والإسلام، (القاهرة: مطبعة الاعتماد، ١٩٢٧م).

١٦ـ إبراهيم طالع الألمعي، التصوف في عسير والمخلاف السليماني، (دبي: مركز المسبار للدراسات والأبحاث، كتاب التصوف في السعودية والخليج، دبي ٢٠١٣م).

١٧ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط١، (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥م).

١٨ـ أحمد بوشرب، الخليج العربي والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية، (الرياض: كرسي الأمير سلمان بن عبد العزيز للدراسات التاريخية، ١٤٣٣هـ).

١٩ـ علي بن محمد ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٦م).

٢٠ـ ابن هشام، السيرة النبوية، (القاهرة: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥م)

٢١ـ إسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، (مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م).

٢٢ـ أمين الخولي، المجددون في الإسلام، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧م).

٢٣ ابن عطاء السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق: محمد عبد الرحمن الشاغول، (القاهرة: المكتبة الأزهرية، ٢٠٠٧م).

٢٤ إبراهيم محمود، لعبة الحية بين آدم وحواء: دراسة في الميثالوجيا، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٨م).

٢٥ أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٦م).

٢٦ أحمد الدبش، معذرة آدم لست أول البشر، (القاهرة: دار عشتار، ٢٠١٥م).

٢٧ أحمد زين الدين، الحداثة ويقظة المقدس: أنماط وسلوكيات وأفكار، (بيروت: بيان للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م).

٢٨ أحمد بن محمد الحضراوي الشافعي، الجواهر المعدة في فضائل جدة، تحقيق: علي عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م).

٢٩ أمين الخولي، المجددون في الإسلام، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧م).

٣٠ أحمد بهجت، بحار الحب عند الصوفية، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧م)

٣١ أحمد حسن العقبي، دراسة وثائقية جديدة لبعض جوانب أحداث فتنة جدة، (جدة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز).

٣٢ تهاني جميل الحربي، القنصليات الأجنبية في جدة: دراسة تاريخية وثائقية، (الرياض: مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، ٢٠١٩م)

٣٣ جورج طرابيشي، هرطقات عن الديموقراطية والعلمانية والحداثة، ط٣، (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١م).

٣٤ جار الله محمد بن فهد، حسن القرى في أودية أم القرى، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠١م).

٣٥ جمعية التجديد الثقافية والاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، (دمشق: دار كيوان للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م).

٣٦ جورج كدر، معجم آلهة العرب قبل الإسلام، ط٢، (لندن: دار الساقي، ٢٠١٣م).

٣٧ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، (جامعة بغداد، بغداد، ١٩٩٣م).

٣٨ جعفر ابن منصور، سرائر وأسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب، ط١، (بيروت، لبنان، دار الأندلس، ١٩٨٤م).

٣٩ حسني عايش، صورة المرأة ومكانتها في اليهودية والمسيحية والإسلام، (القاهرة: المحروسة للنشر، ٢٠١٨م).

٤٠ حسين بن محمد نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، (القاهرة: مكتبة خضير، ١٣٤٩هـ).

٤١ حسين فوزي، تأملات في عصر الرينسانس، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م).

٤٢ الحويزي، تفسير نور الثقلين، ط٤، (قم: مؤسسة إسماعيليان، ١٤٢٢هـ).

٤٣ خالدة عبد اللطيف ياسين، موقف الرسول من يهود الحجاز، رسالة ماجستير (نابلس: جامعة النجاح الوطنية).

٤٤ خزعل الماجدي، حضارات ما قبل التاريخ، (رأس الخيمة: دار نون، ٢٠١٦م).

٤٥ خزعل الماجدي، أنبياء سومريون، كيف تحوَّل عشرة ملوك سومريين إلى عشرة أنبياء توراتيين، (الدار البيضاء: المركز الثقافي للكتاب، ٢٠١٨م).

٤٦ خير الدين الزركلي، الأعلام، ط١٥، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م).

٤٧ روبرتسن فلهاوزن، محاضرات في ديانة الساميين، ترجمة: عبد الوهاب علوب، (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ١٩٧٤م).

٤٨ روبرتس سميث، محاضرات في ديانة الساميين، ترجمة: عبد الوهاب علوب، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧م).

٤٩ رحيم هادي الشمخي، مدرسة جنديسابور في الطب والترجمة وأثرها على العرب، (دمشق: أمل الجديدة للنشر، ٢٠١٥م).

٥٠ زكريا محمد، ذات النحيين، الأمثال الجاهلية بين الطقس والأسطورة، (الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١١م).

٥١ سعد عبود سحار، المعتقدات الميثودينية عند العرب قبل الإسلام، (دمشق: منشورات تموز، ٢٠١٦م).

٥٢ سعيد كفايتي، البحث عن عزرا كاتب التوراة، (بيروت: المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١٧م).

٥٣ سليمان مظهر، أساطير من الغرب، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠م).

٥٤ السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (بيروت: دار الفكر، ١٤٣٢هـ).

٥٥ السيوطي، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م).

٥٦ السيد صلاح الدبيكي، الخرافة والشعوذة في المجتمع المصري: عصر سلاطين المماليك، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠١٩م).

٥٧ شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م).

٥٨ صلاح بوسريف، آلهة تنوب عن الله، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م).

٥٩ طه حسين، في الشعر الجاهلي الكتاب والقضية، (القاهرة: رؤية للنشر، ٢٠٠٧م).

٦٠ عبد القدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط٤، (دار المنهل، جدة، ١٤٣٩هـ).

٦١ عبد الله زاهر الثقفي، العمارة بمدينة جدة في العصر العثماني، المجلد الأول، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ٢٠١٥م).

٦٢ عبد الله العروى، مفهوم التاريخ، (الدار البيضاء وبيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م).

٦٣ عبد القادر أحمد الشافعي، السلاح والعدة في فضائل بندر جدة، تحقيق: خضر بن سند، (الروضة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٨م).

٦٤ عبد العزيز دولنشين، الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولنشين إلى الحجاز ١٨٩٨ – ١٨٩٩م، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨م).

٦٥ عبد الباسط سيدا، من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري، ط١، (دمشق: دار الحصاد للنشر، ١٩٩٥م).

٦٦ عبد العزيز أحمد البداح، حركة التصوف في الخليج العربي، ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٣٦هـ)، رسالة جامعية.

٦٧ عبد الفتاح محمد أحمد، التصوف بين الغزالي وابن تيمية، (المنصورة: دار الوفاء، ٢٠٠٠م).

٦٨ علي المخلبي، آدم والتاريخ، (الرباط، بيروت، مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٨م) كتاب وليس موقع.

٦٩ عباس العقاد، عبقرية المسيح عليه السلام، (القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١٤م).

٧٠ أبو العلا عفيفي، التصوف، الثورة الروحية في الإسلام (القاهرة: آفاق للنشر، ٢٠١٨م).

٧١ عبد الوهاب عزام، التصوف وفريد الدين العطار، (القاهرة: مركز المحروسة، ٢٠١٧م).

٧٢ عمرو شريف، الوجود رسالة توحيد، ط٢، (القاهرة: نيوبوك للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م).

٧٣ عبد العزيز أبو زيد، الأسطورة في مدينة جدة، (جدة: مكتبة كنوز المعرفة، ٢٠١٦م).

٧٤ عبد الله بن عبد الرحمن البسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، ط٢، (الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م).

٧٥ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، ط٤، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢م).

٧٦ عبد الجواد ياسين، اللاهوت أنثروبولوجيا التوحيد الكتابي، (الرباط: مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٩م).

٧٧ عبد الله محمد العقيلي، ميثولوجيا الأيام: البُعد الأسطوري في الروايات الأدبية والتاريخية لأيام العرب الجاهلية، (بيروت: جداول للنشر، ٢٠١٨م).

٧٨ علي مبروك، ما وراء تأسيس الأصول، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م).
٧٩ عبد العزيز أحمد البداح، حركة التصوف في الخليج العربي، ط١، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٣٦هـ).
٨٠ علي حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، (جدة: شركة المدينة للطباعة والنشر، ١٩٩٦م).
٨١ عدنان عبد البديع اليافي، جدة في صدر الإسلام، (جدة: كنوز المعرفة، ٢٠١٣م).
٨٢ عمرو شريف، الوجود رسالة توحيد، ط٢، (القاهرة: نيوبوك، ٢٠١٥م)
٨٣ الغزالي حرب، استقلال المرأة في الإسلام، (القاهرة: دار العين، ٢٠١٧م).
٨٤ فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، (دمشق: دار علاء الدين، ٢٠١٢م).
٨٥ فضيلة سيساوي، محاولة لتحديد مفهوم المثقف، في المجلة الاجتماعية، (القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية، ٢٠١٠م).
٨٦ الفيض الكيشاني، التفسير الصافي، (منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٢م).
٨٧ فتنت مسيكة بر، حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٩٩٦م).
٨٨ فراس السواح، لغز عشتار: الألوهيةُ المؤنثة وأصلُ الدين والأسطورة، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢م).
٨٩ أبو الفتح يوسف الشيباني ابن المجاور، تاريخ المستبصر، تحقيق: ممدوح حسن، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٦م).
٩٠ فريال قطان، الحجاز في ظل الدولة الأيوبية والفاطمية بمصر، (جدة، ٢٠٠٣م).
٩١ القاسم بن يوسف السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥م).
٩٢ محمد الطاهر المكي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الحرام، (مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة، ١٤٢٠هـ).

٩٣ـ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تذكرة الحفاظ، (جامعة البويرة، تصوير دار الكتب العلمية).

٩٤ـ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، (دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م).

٩٥ـ محمد علي مغربي، أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة، ج٢، (جدة، ١٩٨٠م).

٩٦ـ محمد علي الجفري، عمر عبد ربه حياة وسيرة، (جدة: مطابع سحر، ١٤٣٨هـ) .

٩٧ـ محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلبي، ط٢، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م).

٩٨ـ محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها، ط٢، (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٥م).

٩٩ـ محمود محمد شاكر، أباطيل وأسحار، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٥م).

١٠٠ـ محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، ط١، (دار هجر للطباعة والنشر، ٢٠٠١م).

١٠١ـ محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، (مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٢م).

١٠٢ـ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، (الرياض: دار السلام، ١٤١٩هـ).

١٠٣ـ محمد مسعود العياشي، تفسير العياشي، (المكتبة العلمية الإسلامية، بيروت).

١٠٤ـ مارلين ستون، يوم كان الرب أنثى، ترجمة: حنا عبود، (الأهالي للطبع والنشر، دمشق، سوريا، ١٩٧٨م).

١٠٥ـ محمود سليم الحوت، طريق الميثالوجيا عند العرب، (بيروت: دار النهار، ١٩٧٩م).

١٠٦ـ محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٩م).

١٠٧ـ المفضل الضبي، المفضليات، ط١، (بيروت: شركة دار الأرقم بن الأرقم، ١٩٩٨م).
١٠٨ـ محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، (القاهرة: آفاق للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م).
١٠٩ـ أبو الوليد محمد الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، (بيروت: دار الأندلس للنشر، ٢٠١٠م).
١١٠ـ المطهر بن طاهر المقدس، البدء والتاريخ، (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٥م).
١١١ـ محمد مصطفى حلمي، ابن الفارض والحب الإلهي، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م).
١١٢ـ محيي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق: عثمان يحيى، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م).
١١٣ـ محمد حسن العجيمي، خبايا الزوايا، تدقيق: أحمد السايح وتوفيق وهبة، ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٣٠هـ).
١١٤ـ مصطفى حسن البدوي، الإمام الحداد، مجدد القرن الثاني عشر الهجري، (بيروت: دار الحاوي، ٢٠٠١م).
١١٥ـ محمد فوزي حلوة، جغرافية المدن، (الرياض: أجنادين للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م).
١١٦ـ محمد عبد المنعم الحمير، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م).
١١٧ـ محمد باقر المجلس، بحار الأنوار، (بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤١٤هـ).
١١٨ـ محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (القاهرة: مكتبة السنة، ٢٠٠٥م).
١١٩ـ محمد خليفة حسن، الشرق الأدنى القديم وحضارته، رؤية عربية، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٧م).
١٢٠ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام، تدقيق: عمر تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م).

١٢١ـ محمد سعيد، أنبياء البدو: الحراك الثقافي والسياسي في المجتمع العربي قبل الإسلام، (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٨م).

١٢٢ـ المسعودي، مروج الذهب، تحقيق: كمال مرعي، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٨م).

١٢٣ـ مقبول موسى العلوي، فتنة جدة، (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠١٠م).

١٢٤ـ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م).

١٢٥ـ أبو الحسين محمد جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق: معين الشريف، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠١٠م).

١٢٦ـ محمد الأمين الكتبي، خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين، ترجمة: ماجدة مخلوف، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٤٢٦هـ).

١٢٧ـ محمد يوسف طرابلسي، جدة حكاية مدينة، ط٢، (جدة: كنوز المعرفة، ٢٠٠٨م).

١٢٨ـ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م).

١٢٩ـ محمد أنور مسلم نويلاتي، سيرة ومسيرة، ملامح من استراتيجية التحرر الاقتصادي لقطاع الطيران المدني السعودي، (القاهرة: دار الشمس، ٢٠١٨م).

١٣٠ـ ناجية الوريمي، التسامح في الثقافة العربية، مجلد١، (بيروت: مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ٢٠١٨م).

١٣١ـ نادية زياد سلمان، تجليات عشتار في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، (نابلس: جامعة النجاح الأهلية، ٢٠١٥م).

١٣٢ـ ناصر الحزيمي، أيام مع جهيمان: كنت مع الجماعة السلفية المحتسبة، ط٢، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١١م).

١٣٣ـ نسيب وهيبة الخازن، من الساميين إلى العرب، (بيروت: دار ومكتبة الحياة، ١٩٦٢م).

١٣٤ـ هاشم البحراني، تفسير البرهان، ط٢، (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ٢٠٠٦م).

١٣٥ـ هاري سانت جونز فيلبي، أيام عربية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢م).
١٣٦ـ هنري بولاد، الإنسان والكون والتطور بين العلم والدين، (بيروت: دار المشرق، ٢٠٠٨م).
١٣٧ـ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب، تحقيق: كمال مرعي، (بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م).
١٣٨ـ هبة خالد سليم، دراسة في ميثالوجيا الخلق لدى المؤرخين المسلمين حتى القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير (نابلس: جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٥م).
١٣٩ـ هشام حتاتة، أساطير التوراة وأسطورة الإنجيل، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٨م).
١٤٠ـ هاشم صالح، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ ط٢، (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٠م).
١٤١ـ وهب بن منبه، كتاب التيجان لملوك حمير، (صنعاء: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ١٩٧٩م).
١٤٢ـ الوزير البطليوسي، شرح ديوان رئيس الشعراء، (بيروت: دار الكتب العلمية).
١٤٣ـ ويليام أوكسنولد، الحجاز تحت الحكم العثماني، ترجمة: عبد الرحمن العرابي، (جدة: مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، ٢٠١٦م).
١٤٤ـ وجيه الفريد، الدولة الفاطمية ما لها وما عليها، (القاهرة: نبتة للنشر، ٢٠١٧م).
١٤٥ـ يحيي حقي، كناسة الدكان، مراجعة: فؤاد دوارة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م).
١٤٦ـ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (العراق: طبعة النجف، ؟؟؟؟؟).
١٤٧ـ ؟؟؟؟؟، أسطورة العصور، (باريس: دار نشر مكتبة أولاندورف، ؟؟؟؟؟).
١٤٨ـ الحسين بن محمد الورثلاني، الرحلة الورثلانية في القرن الثاني عشر الهجري، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨م).
١٤٩ـ رانيا سليمان، عجائبِ الأسرار للإمامِ عليٍّ بنِ أبي طالب، (بيروت: منشورات مؤسسة الخراسان للمطبوعات، ٢٠٠٥م).

المراجع الإنجليزية:

1. Ashki.M.S.[Islamic Approaches And Principles of Dialogue] Sterling VA: Salam Institute For Peace And Justice, 2006.
2. Ameen Rihani (Around The Coasts of Arabia) London 1930.
3. American Heritage Dictionary.
4. Angelo Pesce, (Jiddah Portrait of An Arabian City), Falcon Press 1976.
5. Angelo Pesce, (Jeddah, Portrait of An Arabian City), Faclon Press, 1976, London,
6. Cambridge English Dictionary
7. Campbell (The Masks Of God: Oriental Mythology) Penguin Random House, New York, 1976.
8. Don Stewart. Did Adam and Eve Die Where They Ate The Forbidden Fruit? Blue Letter Bible.
9. (Encyclopedia of Creation) Leeming David, and Leeming Margaret 1994.Britannia Encyclopedia.
10. (Eve: Midrash and Aggadah) Jewish Encyclopedia.
11. Ellwood, Robert (The Encyclopedia of World Religions) New York, 2007.
12. Gizmodo (How Mitochondrial Eve Connected All Humanity And Rewrote Human Evolution).
13. Homo Erectus. Simithsonian, National Museum of Natural History.
14. Joseph Nye "Soft Power: The Means of Success in World Politics", Public Affairs, 2004, New York.
15. Jewish Women's Archive: https://jwa.org.

16 Judith Plaskow, (The Feminist Revolution), Jewish Women's Archive.

17 Jewish Encyclopedia, Jews and Judaism – Wikipedia.

18 Live Science (What is Darwin's Theory of Evolution).

19 National Geographic (Why Am I Neanderthal).

20 New World Encyclopedia.

21 Pirani, ALix (The Absent Mother: Restoring The Goddess of Judaism and Christianity (Mandala Books)), HarperCollins Publishers, 1991.

22 Paula Hyman, Dalia Ofer (Jewish Women: A Comprehensive Historical Encyclopedia), 2007 Jewish Publ. Society.

23 Pirani Alix Ed (The Absent Mother, Restoring The Goddess of Judaism and Christianity), Mandala Book 1991

24 Rice University (Mitochondrial Eve: Mother of All Humans Lived 200,000 Years Ago). Science Daily, Aug. 17, 2010.

25 Sirdar, Ikbal Ali Shah (Westward to Mecca), London 1928,

26 T.I. Bradley (The Lamp) Vol xxviii, Whitefriars, London, 1885.

27 (The Infinite Chain: Torah, Mesorah and Man) Nathan Cardozo, Philipp Feldheim 1989.

28 Thomas O'Dea (The Sociology of Religion) Englewood Cliffs, New Jersey 1966.

29 Ulrike Freitag (A History of Jeddah: the Gate of Mecca in The Nineteenth and Twentieth Centuries) Cambridge University Press, U.K 2020,

30 www.kaiciid.org.

31 Witcombe, Christopher (Women in The Stone Age) The Venus Of Willendorf. March 13, 2008.

32 (What Does it mean to be Human?). The Smithsonian National museum of Natural History.

33 (What does it mean to be homo Sapiens?). The Smithsonian National Museum of History.

الصحف والمواقع الإلكترونية:

١ـ أحمد الظرافي، أبعاد الغزو البرتغالي لجدة، مجلة البيان، عدد ٣٧٠، في ١٨/ ٢/ ٢٠١٨.

٢ـ أحمد نزيه، حكايات في الجاهلية في القرن ٢١، موقع بوابة أخبار اليوم. https://akhbarelyom.com

٣ـ أمال السحمودي، ظاهرة زيارة أضرحة الأولياء بين الخرافة والواقع، موقع أنفاس نت. https://anfasse.org

٤ـ التصوف وعلماء الأزهر بين التأييد والتنوير، موقع وموسوعة الصوفي ٢٠٢٠م. https://alsufi.net/

٥ـ جريدة أم القرى، عدد ٧٣ في ١٦/ ١٢/ ١٣٤٤هـ.

٦ـ جريدة الحياة، ١٧/ ٧/ ٢٠١٠م.

٧ـ جريدة الشرق الأوسط، أهداف مؤتمر (التحرر من أخطاء التراث)، (الرباط: ٢٦ فبراير ٢٠١٩م).

٨ـ جريدة الشرق الأوسط ٢٩/ ٣/ ٢٠١٩م.

٩ـ جريدة الشرق الأوسط ٢٥/ ١/ ٢٠١٤م.

١٠ـ جريدة الوطن، ١٩/ ٥/ ٢٠١٨م.

١١ـ جريدة الأهرام القاهرية، عدد ٢، يناير ١٩٠٢م.

١٢ـ خالد حامد، انتشار القبور والأضرحة، مجلة البيان، عدد ١٣٢، في ديسمبر ١٩٩٨، http://www.albayan.co.uk/article2.aspx?ID=2900

١٣ـ دراسة شاملة عن ظاهرة عبادة الشيطان في المجتمع المعاصر، شبكة ومنتديات قدماء.

https://www.qudamaa.com/vb/node/37328/page2

١٤ـ سمير أبو زينب، في المخيال والتاريخ، مجلة الكلمة،

http://www.alkalimah.net/Articles?AuthorID=2971

١٥ـ شبكة نسمة الإخبارية ٢٠١٧/١٠/١٥.

١٦ـ شبكة وموسوعة الصوفي. https://alsufi.net/

١٧ـ صوت الحجاز، ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣.

١٨ـ ضياء العبيرة، الأضرحة في مصر خلال العصر الفاطمي، جامعة بابل،

http://www.uobabylon.edu.iq/UOBCOLEGES/lecture.aspx?-fid=8&depid=1&lcid=78244

١٩ـ عبد المجيد عبد العزيز، خان الخليلي حكاية نبش قبور الخلفاء الفاطميين، موقع عرب لايت، ٢٠١٧م،

https://www.arablite.com/2017/08/22/

٢٠ـ محمد عبد الرحمن صادق، شبكة الألوكة في ٢٠١٨/١٢/٢٨.

٢١ـ محمد الأزرق، هل خانت أمنا حواء زوجها؟ وهل الخيانةُ ميراثُ النساء فيها؟ جريدة هسبريس الإلكترونية المغربية، زاوية كتاب وآراء

https://www.hespress.com/writers/273670.html

٢٢ـ موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، موقع الدرر السنية:

https://dorar.net/mazahib.

٢٣ـ موقع الإسلام سؤال وجواب

https://islamqa.info/ar/answers/145623/

٢٤ـ موقع جامع السنة وشروحها
http://hadithportal.com/index.php?show=hadith&h_id=5305&uid=0&sharh=10000&book=31&bab_id=1287

٢٥ـ موقع الدرر السنية الموسوعة الحديثية.
https://www.dorar.net/hadith/sharh/25566

٢٦ـ مجموع الفتاوى (١٥/١٥٣).
http://islamport.com/d/3/tym/1/40/368.html

٢٧ـ حسن سعيد، ابن عباس مدرسته ومنهجه في التفسير، موقع الصراط نهج السعادة والتقدم
http://www.al-serat.com/content.php?article=704&part=maintable

٢٨ـ موقع الإسلام، سؤال وجواب
https://islamqa.info/ar/answers/228565/

٢٩ـ محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (القاهرة: مكتبة السنة، ٢٠٠٥م)

٣٠ـ موقع الإسلام، سؤال وجواب.
https://islamqa.info/ar/answers/218080/

٣١ـ موقع ويكي مصدر، https://ar.wikisource.org/wiki/

٣٢ـ محمد جميل العاملي، أمنا حواء لم تخلق من ضلع آدم، موقع مركز العترة الطاهرة للدراسات والبحوث.
https://www.aletra.org/subject.php?id=24

٣٣ـ موقع العقائد الإسلامية، https://research.rafed.net/

٣٤ موقع الإسلام سؤال وجواب،
https://islamqa.info/ar/answers/179020/

٣٥ محمد عبد الله، المخيال وفكرة أنهم عرب،
https://www.alfalq.com/?p=6947

٣٦ موقع ناسا NASA بالعربي، ما هي نظرية الانفجار العظيم؟
https://nasainarabic.net/education/articles/view/big-bang-theory

٣٧ موقع هيئة المساحة الجيولوجية الأميركية (Age Of The Earth)، USGS ١٩٩٧.

٣٨ عمر الكون والأرض والكائنات والإنسان، موقع الكتاب المقدس،
https://drghaly.com/articles/display/12160

٣٩ موقع المكتبة الشاملة، (شرح نخبة الفكر).
https://al-maktaba.org/book/31766

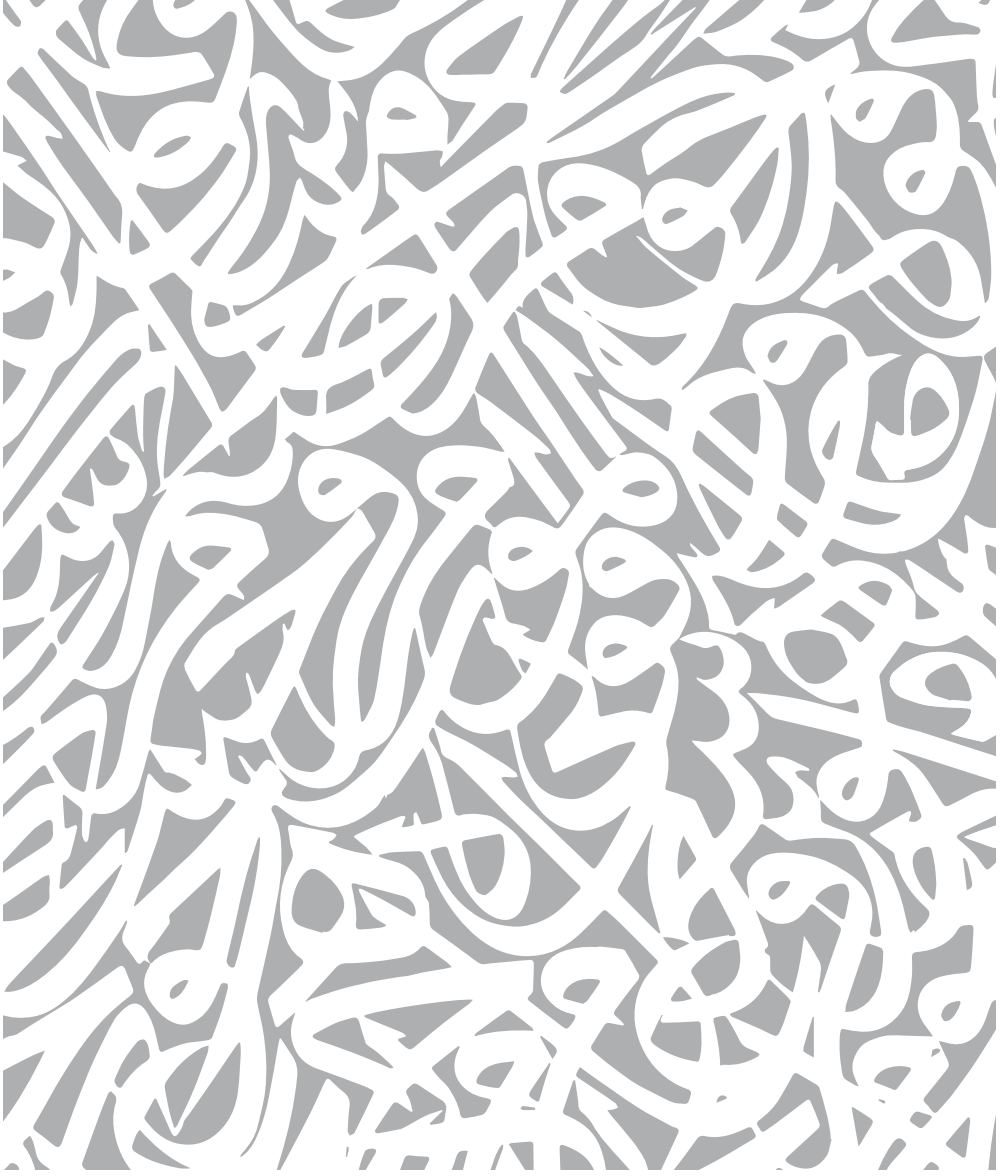

الملاحق

صور الوثائق حول البناء في المرحلتين

يوثق للمرحلة الأولى من البناء عثمان آغا ١١٠٥- ١١٠٧هـ.

"ما فيه من الكشف والمساحة والتحري.

جرى بمعرفة أضعفِ العباد، الفقيرِ إليه عز شأنه، السيدِ يونسَ عفا الله عنه المولى.

خلافة في محكمة ميناء جُدةَ المحروسةِ. (ختم).

قد صدر الفرمانُ الشريف، من طرف صاحبةِ العفة والعصمةِ والعظمةِ والشوكة والسعادة والمَبرّات والآثار العلية، والدةِ حضرة ظلِّ الله في الأرض وسلطانِ العالم، إلى الوالي والمحافظِ الحالي لميناء جدة، الوزيرِ المحترم صاحبِ الدولة والعناية، الحاج أحمد باشا، كي يُبَاشرَ بنفسه السعيَ والهمة، لأجل تجديد وإعمارِ وترميم وإتمام المرقد الشريف، لسيدتِنا أم البشر، وشفيعتِنا يومَ القيامة جدتِنا الأولى، حضرةِ أمنا حواء – نفعنا الله بها –.

فقد طال الخرابُ الجدرانَ الأربعة، التي تُسور المرقدَ المذكور مع مرور الزمن، وكانت تحفظُه من الجهات الأربع من الحيوانات والدواب أن يدخلوه.

ولمعرفة متانةِ وأبعادِ وقياساتِ ومصاريفِ تلك المنشآت، يجب على حضرة الوزير المذكور، إصدارُ القرار لإجراء الكشف والمسح حسب الأصول، من قبلِ الحاج يوسف آغا، وكيلِ شريفِ مكةَ المكرمةِ الحالي سعادةِ الشريف مسعود، في ميناء جُدةَ بالإضافة إلى إبراهيم شامي، ووكيل القلعة يوسف آغا والمهندسين والمعماريين والصناع.

وذلك بالذهاب بأنفسهم إلى المرقد المبارك، لمعاينة متانةِ بنائه على أرض الواقع، وعليهم بعدَها حسابُ مساحةِ ومصاريفِ الجدران الأربعة المذكورة كلٌّ على حِدةٍ.

وبذلك يكون طولُ الجدار الجديدِ الواقع في جهة الشرق مائةً وثلاثاً

وسبعين ذراعًا، وارتفاعُه ثلاثةُ أذرع، وعرضُه ذراعٌ واحد. ويكونُ طولُ الجدار المبني على الجدار القديم في جهة الشمال مائةً وثمانٍ وستينَ ذراعًا، وارتفاعُه ذراع واحد، وعرضُه ذراع واحد أيضًا.

ويكون طولُ الجدار الجديد المبني أيضًا على الجدار القديم في جهة الغرب مئتين وثمانيةَ عشرَ ذراعًا، وارتفاعُه ذراع واحد، وعرضُه ذراع واحد. ويكون طولُ الجدار الجديد المبنيِّ أيضًا على الجدار القديم في جهة الجنوب مائةً وتسعةً وثمانينَ ذراعًا، وارتفاعُه ذراع واحد، وعرضُه ذراع واحد. ويبلغ مجموعُ أبعادِ الجدار الجديد ألفًا وثمانمائة واثنين وأربعين ذراعًا مربعة.

وتقدر تكلفةُ الحجر والطين والجص وأجرة العمال بقرشين لكل ذراع. وبهذا يكون المجموعُ ثلاثةَ آلاف وستمائة وأربعةً وثمانين قرشًا. وتقدر تكلفةُ البناء من هذا المبلغ، ما عدا ثلاثةَ آلاف وستمائة قرش. وتقدر تكلفةُ البناء من هذا المبلغ، ما عدا المخصصةَ لأجل قبةِ الضريح الشريف وبناءِ جدرانِه وشاهدتي القبر من جانب الرأسِ والقدمِ الشريفة وأجرةِ العمال، بمائة وستين قرشًا.

وحيث إن لكل جدار من الجدران الأربعة بابًا ولوحَ خشب ورزةً وأجرةَ نجار، فتقدر كلفتُها بمائة وستين قرشًا لكل بند، أي ما مجموعه مئتان وأربعون قرشًا زيادةً على الحساب السابق.

ويبلغ مجموعُ حساب التكلفة لبناء الجدران الأربعة والقبةِ الشريفة والرأسِ والرجل الشريفَيْنِ والأبوابِ والحجارةِ والأخشاب والطين والجص، وأجرةِ العمال وغيرها من مصاريفَ، أربعةَ آلاف وأربعةً وثمانين قرشًا.

وتقديرُ وحسابُ تكلفة عملية البناء هذه، تمَّ بواسطة البنائينَ والمهندسينَ

وغيرِهم من العارفينَ، وقد اتفقوا وأكدوا عليه موقِّعين حسبَ الطلب، وذلك بتاريخ الخامس والعشرينَ من شهر شوالٍ المكرم سنةَ ألفٍ ومائة وتسع وأربعين.

الشهود :

فخرُ الكاتب الثاني إبراهيم أفندي بن عبد الوهاب، الكاتبُ عبد الرزاق جلبي بن عبد الوهاب، فخرُ الأغواث كجك محمد آغا، فخرُ السادات والتجار السيد محمد خليل، الحاج يوسفُ آغا وكيلُ القلعة، كاتبُ ميناء جدة أبو بكر أفندي التابعُ للمرحوم عثمان أفندي، كاتبُ محكمة جُدةَ شيخ عثمان أفندي، السيد زينُ العابدين إستانبولي.

المرحلة التنفيذية يوثق ١٢٠٥- ١٢٠٧هـ

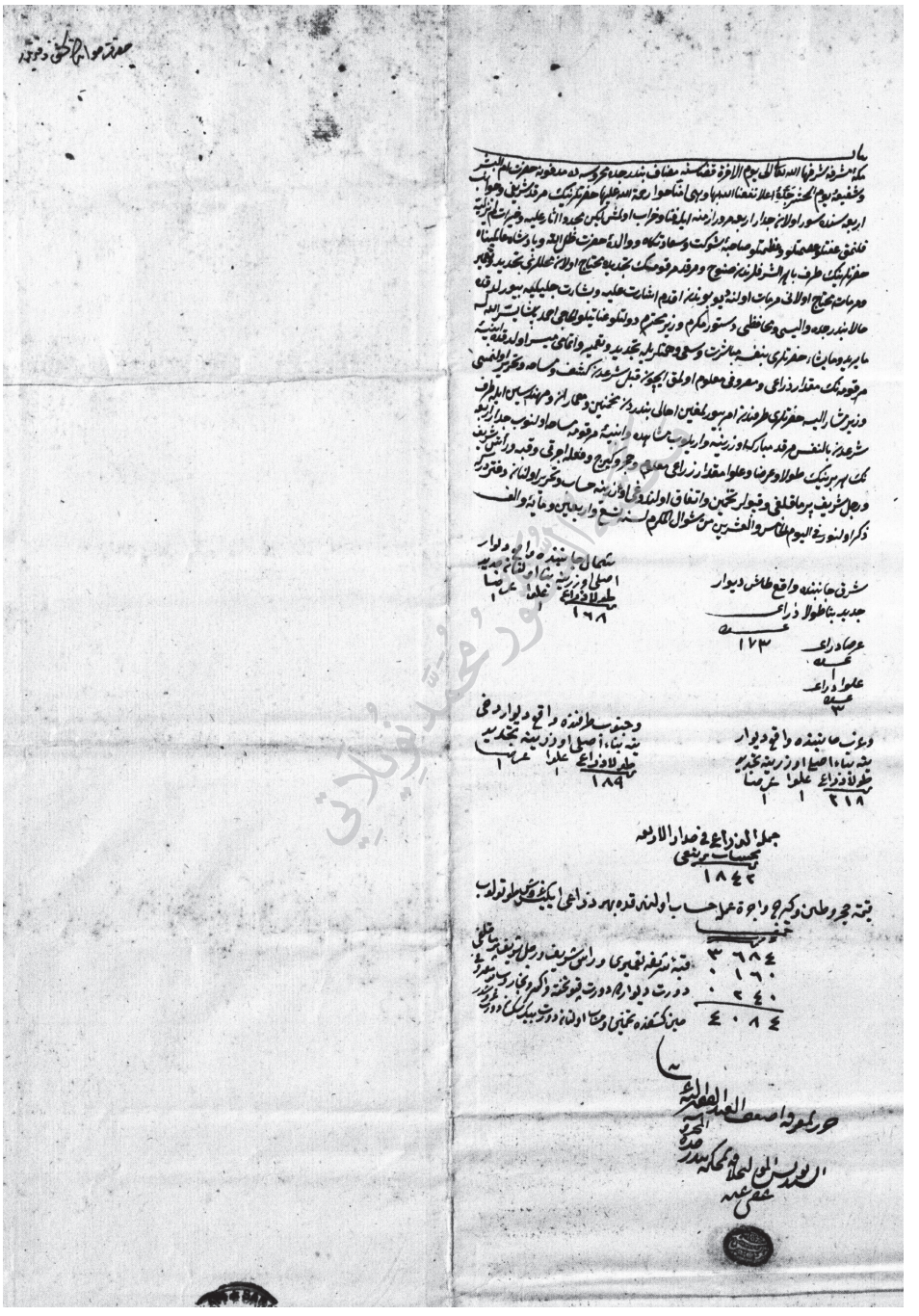

بيان

بسبب الحال الذي تعرضتْ له الجدرانُ الأربعة، المحيطةُ بالجهاتِ الأربع للضريح الشريف لحضرة أمِّ البشر، وشفيعةِ يوم المحشر، جدتِنا ذات المقام العالي - نفعنا الله بها - حضرةِ أمنا حَواءَ - رحمها الله - المدفونةِ في ميناء جُدةَ المحروسةِ، التابعةِ لقضاء مكةَ المكرمةِ - شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة.

وإذا تعرضتْ للخراب والاندثار على مر الدهور، جاءت البشارةُ من والي ميناءِ جُدةَ وحامي الدستور المكرم، الوزيرِ المحترم عنايةِ دولةِ الحاج أحمد باشا - يسر الله له ما يريد وما يشاء - بتفضل حضرة صاحبةِ العصمة والعفةِ والشوكة والسعادة، والدةِ جناب السلطان ظلِّ الله في الأرض، وملكِ العالم بإصدار الأوامر المنيفة، لإرسال المصاريف التي يحتاجها المقامُ الشريف، لأجل التجديد والترميم.

وقام حضرةُ الوزيرِ المذكور بالمبادرة بنفسه بداعي الهمة، إلى تيسير أعمالِ التجديد والترميم، وذلك بأن أصدرَ الأوامرَ لإجراء كشفٍ ومسحٍ وتدوينٍ، للقياسات والتكاليفِ المترتبة على ذلك، من قبل لجنةٍ شرعية، فقامت مجموعةٌ من أهالي الميناء، برفقة مهندسين وبنّائين بما سبق. حيث أجرَوا الكشفَ على موقع المقام المبارك بالحضور إليه، وذلك بتكليفٍ من اللجنة الشرعية.

وكان أنهم عملوا قياساتٍ تقديريةً لمساحة المنشآت كلًا على حِدَةٍ، بما يشملُ معرفةَ طولِ وارتفاعِ وعرض الجدران الأربعة مقدرًا بالذراع، بالإضافة إلى كمية الحجرِ والجِصِّ وأجورِ العمال، وأيضًا حسابَ ترميمِ القبة وبناءِ السياج المحيط بالرأس الشريف، والقدمينِ الشريفتين مع الأبواب. وبعد أن اتفقوا على تلك التقديرات، قاموا بحسابها وتدوينها كما هو مذكورٌ في دفتر الكشف. وذلك في الخامس والعشرينَ من شهر شوالٍ سنةَ ألفٍ ومائة وتسعٍ وأربعينَ.

الجدار الحجري الموجود جهة الشرق :

الجدارُ الجديدُ: طولُه ١٧٣ ذراعًا، عرضُه ١ ذراع، ارتفاعُه ٣ أذرع.

الجدار الموجود جهة الشمال :

جدارٌ جديدٌ: سيُبنَى على الجدارِ الأصل، طولُه ١٦٨ ذراعًا، ارتفاعُه ١، عرضُه ١.

الجدار الموجود جهة الغرب :

أيضًا جدارٌ جديدٌ سيبنَى على الجدارِ الأصلي، طولُه ٢١٨ ذراعًا، عرضُه ١، ارتفاعُه ١.

الجدار الموجود جهة الجنوب :

أيضًا جدارٌ جديدٌ سيُبنَى على الجدار الأصلي، طولُه ١٨٩ ذراعًا، ارتفاعُه ١، عرضُه ١.

مجموعُ قياساتِ الجدرانِ الأربعة بالحساب التربيعيِّ، ١٨٤٢ ذراعًا مربعًا.

بعدَ حسابِ مصاريفِ الحجر والطين والجِصِّ مع أجرة العمال، تم تقديرُ الكلفة بقرشَيْنِ اثنينِ لكل ذراع.

المجموع هو:

٣٦٨٤

١٦٠	ترميمُ القبة الشريفة مع سياجِ الرأس الشريف والقدمينِ الشريفينِ
٢٤٠	أربعةُ جدران مع أخشاب وحدائدَ أربعةِ أبواب وأجرةِ النجار وباقي المصاريف
٤٠٨٤	نتج عن تقدير حساب التكاليف أربعة آلاف وأربعة وثمانين قرشًا

تمت كتابةُ الكشف بعلم العبدِ الفقير إليه تعالى، السيدِ يونسَ المولى خلافة بمحكمة ميناء جُدةَ المحروسةِ عفا الله عنه.

(الختم).

الوثائقُ التاليةُ توضحُ نفسَها عن بناء السورِ والضريح، واللغةِ التي يتحدثونَ بها عن الضريح وعن أمنا حواء، وذلك في المرحلةِ الثانيةِ بعد مئتي سنة من المرحلة الأولى:

الوثائق عن البناء:

الوثيقة رقم (١) :

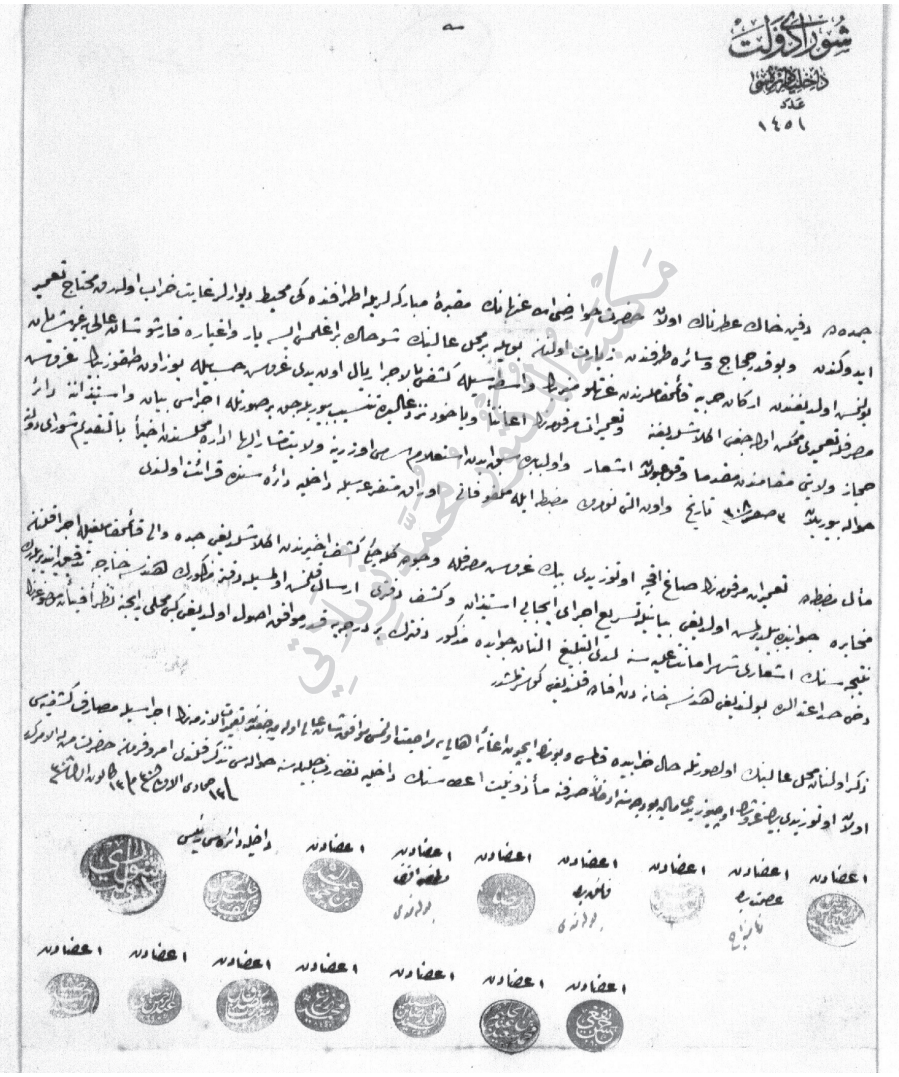

«مجلس شورى الدولة
إدارة الداخلية
رقم ١٤٥١

تمّت قراءةُ المضبطةِ المؤرخةِ في ٣ صفر ١٣٠٨ ذات الرقم ستةَ عشرَ، والمحولةِ إلى مجلسِ شورى الدولةِ في إدارة الداخلية. وجاء فيها أنه بسبب زيارةِ الكثيرِ من الحجاجِ وغيرِهم إلى المقامِ الشريفِ لحضرةِ أمنا حواءَ رضي الله عنها المدفونةِ بالتربةِ المعطرةِ في جُدةَ، تعرضتِ الجدرانُ المحيطةُ بهذا المقامِ المنيفِ للخراب، ووصلَ إلى حالةٍ سيئةٍ لا تسرُّ العدوَّ ولا الصديقَ، ولا تليقُ بمكانتهِ العالية.

لذا وجدْنا أنها بحاجةٍ إلى الترميم. وعلمْنا عن طريقِ منير بك، قائمقام أركانِ وزارةِ الحربية، بإمكانيةِ ترميمِها حيث قدَّرَ الكشفُ أنَّ أجرةَ ترميمِ وإصلاحِ المقام هي واحد ريال وسبعَ عشرةَ قرشًا، أي ما يقابلُ مائة وتسعةَ عشرَ ألف قرش.

وبذلك تمَّ رفعُ الأمرِ إلى مقامِ ولايةِ الحجاز بموجبِ الاستفسارِ الصادرِ من المقام السامي، لأخذِ الموافقةِ، والتي قام مجلسُ إدارةِ الولايةِ بتقديمِها إلى مجلس الشورى.

وجاء في المضبطةِ أنه تمتِ الموافقةُ على دفع مبلغِ ٣٧ ألف قرش من النقودِ الكاملةِ، كمصاريفَ لترميمِ المقامِ بحسبِ الكشفِ الأخير، كما تبيَّنَ من جوابِ القائمقام ووالي جُدةَ. وأن الأمرَ جاء بالاستعجالِ في أخذِ الرخصةِ، وإرسالِ سجلِّ الكشفِ لتدقيقِ الهندسةِ الخارجية، ورفعِ النتيجةِ حسبَ الأصولِ من مديريةِ الهندسة.

حسبَ ما ذكر من بقاءِ حالِ المقام المتهدم بتلك الصورة، ومراجعةِ

الأهالي لطلبِ الترميمِ، تمتِ الموافقةُ الساميةُ على ترميمِ المقامِ، مع إجراءِ كشفٍ بالمصاريف البالغةِ سبعةً وثلاثينَ ألفَ قرش، منها ثلاثمائة وسبعةٌ داخلةٌ في ميزانيةِ المالية، والتي حُوِّلتْ إلى وزارةِ الداخلية للموافقة على منحها. والأمرِ لحضرةِ مَنْ له الأمرُ.

في ١٣ جمادى الأول سنة ١٣٠٦هـ الموافقِ لـ ١٣ كانون الأول سنة ١٣٠٦ (رومي)

أختامُ أعضاءِ مجلسِ شورى الدولة ومديرِ إدارةِ الداخلية».

الوثيقة رقم (٢) :

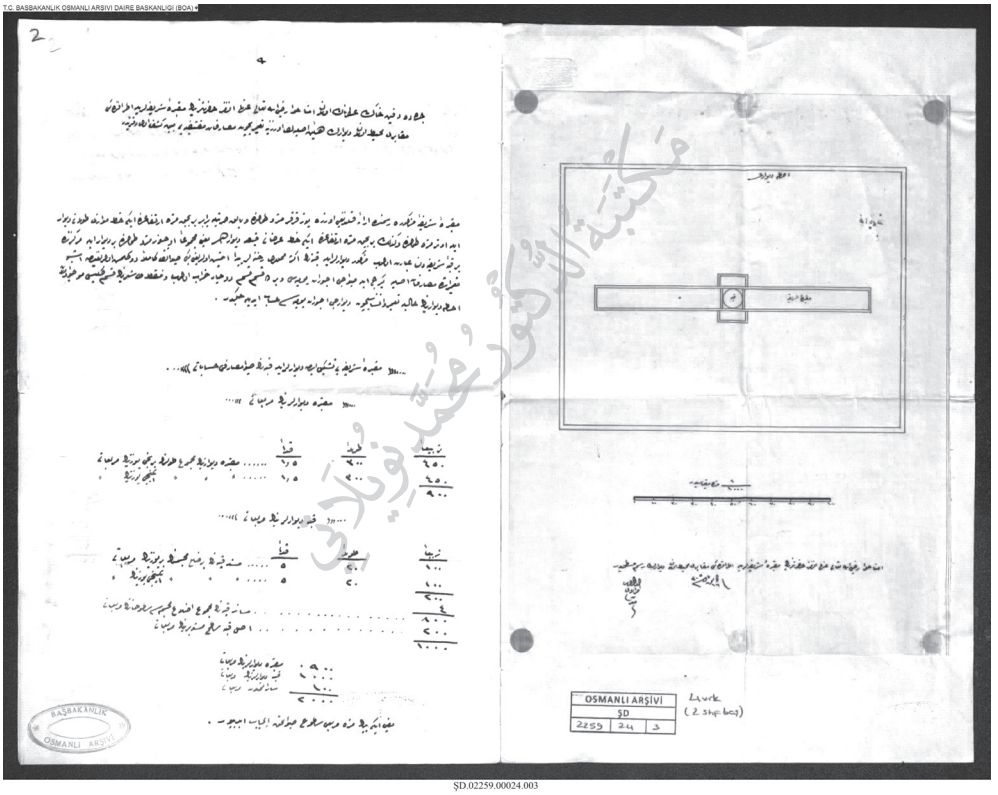

ŞD.02259.00024.003

(رسم مسطح لجدران ضريح أمنا حواء رضي الله تعالى عنها مع المقابر المحيطة بها)

١٦ كانون الثاني ١٣٠٥

(توقيع) الميرالاي مصطفى

سجلُّ الكشوفاتِ لبيانِ مصاريفِ البناء على الشكل الأصلي للجدار، المحيطِ بالضريح الشريفِ لأمنا حواءَ المباركةِ رضي الله عنها، والمقابرِ المجاورةِ لها والمدفونةِ في أرض جُدةَ العطِرة.

بعدَ الاطلاعِ على مخططِ المقامِ الشريفِ تبينَ أن ثمةَ جِدارينِ متوازيينِ

بطول مائةٍ وأربعينَ مترًا لكل منهما، حيث يبلغُ ارتفاعُهما مع أسطحِها المسنمة (المدببة) مترًا ونصفَ المتر، وأن طولَ الجدارينِ العرضانيين القصيرينِ هو عشرة أمتار لكل منهما، وارتفاعُهما مترٌ ونصفُ المتر. أي أنَّ مجموعَ الأطوالِ يبلغ ثلاثمائة متر وفي مركزه قبةٌ شريفة. ولأن الجدرانَ والقبةَ في غالبها كانت مليئةً بالثقوب، لذلك سقطَتْ طبقاتُها الطينيةُ عنها بشكل كامل.

وهكذا فمصاريفُ عملياتِ البناءِ، تكونُ في الجصِّ وأجورِ الطيّانين اليوميةِ معَ هدمِ وإزالةِ أجزائها واحدةً بعدَ الأخرى. فقط ستبقى الأحجارُ التي في الجدرانِ لاستعمالها في البناء والترميمِ، وسيتمُّ حسابُ أجورِ معمارِ الجدارِ اليومية.

حساب تكاليف تطيين جدران المقام والقبة الشريف

- **تربيع جدران الضريح :**

مربع	الطول	الارتفاع	
٤٥٠	٣٠٠	١,٥	مجموع المتر المربع للوجه الأول من تطيين الجدران
٤٥٠	٣٠٠	١,٥	مجموع المتر المربع للوجه الثاني من تطيين الجدران
٩٠٠			

- **تربيع جدران المقام :**

مربع	الطول	الارتفاع	
١٠٠	٢٠	٥	مجموع المتر المربع للوجه الأول من تطيين سطح مسند واحد من أضلاع القبة
١٠٠	٢٠	٥	مجموع المتر المربع للوجه الثاني من تطيين سطح مسند واحد من أضلاع القبة
٢٠٠			

٤	
٨٠٠	مجموع المتر المربع لمجموع أسطح أضلاع مساند القبة
٢٠٠	مجموع المتر المربع للسطح المستدير من القبة
١٠٠٠	

٩٠٠	متر مربع جدران المقام
١٠٠٠	متر مربع جدران القبة
١٠٠	متر مربع أماكن أخرى
٢٠٠٠	

أي يلزم أن يكون مجموع الأسطح المطينة ألفي متر مربع.

صور الوثائق حول الصوفية في جدة (بما في ذلك أوراق الموسوعة الإسلامية التركية)

الوثيقة رقم (١) :

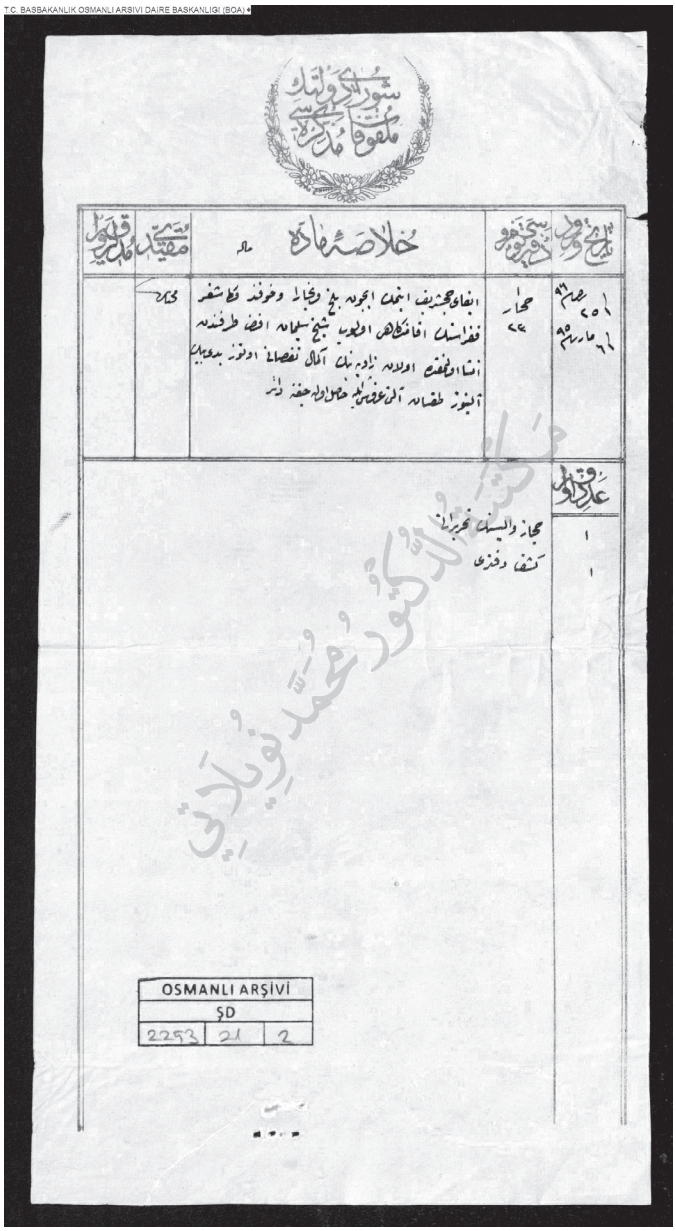

وثيقة موجهةٌ إلى مجلسِ شورى الدولةِ العثمانيةِ من الشيخ سليمان أفندي؛ لاعتمادِ مبلغِ سبعةٍ وثلاثينَ ألفًا وستمائة وستة وعشرينَ قرشًا، لسدِّ النقص في تمويل عملياتِ توسعةِ وترميمِ بناء الزاويةِ والتكيةِ المخصصةِ لاستقبال المقيمينَ في جُدةَ، ولفقراءَ ودراويشِ بلخ وبُخارى وسمرقندَ وكاشغرَ في ٢٥ ربيعٍ الأول ١٢٩٦هـ.

الوثيقة رقم (٢) :

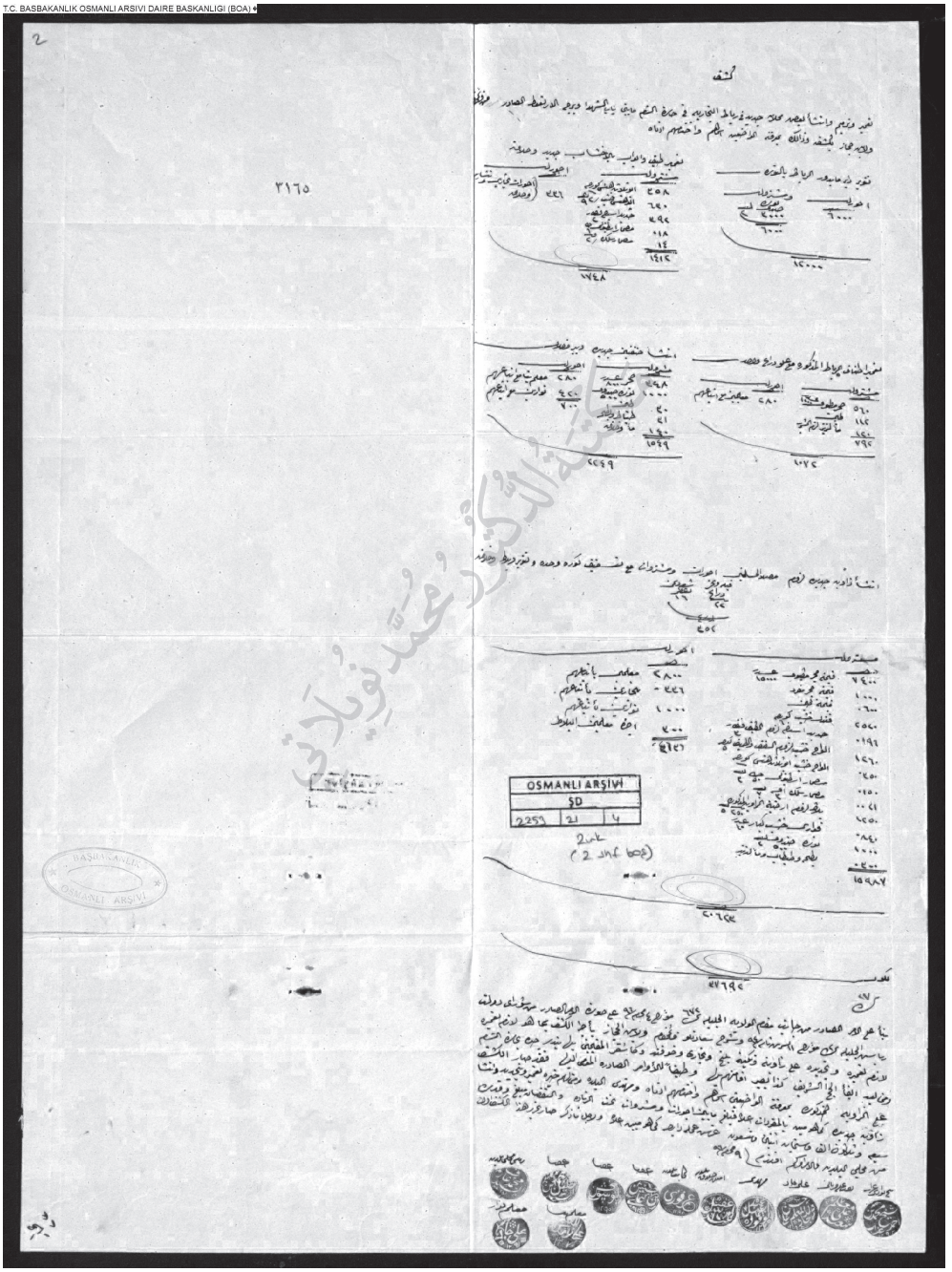
T.C. BASBAKANLIK OSMANLI ARSIVI DAIRE BASKANLIGI (BOA)
OSMANLI ARŞİVİ
SD
2259 21 4
BASBAKANLIK OSMANLI ARŞİVİ

وثيقة توضحُ تفاصيلَ التكاليف، ووردَ فيها: بناءً على الأمرِ الصادرِ من جانبِ مقامِ الولاية الجليلة رقم ٦٧٢ في ٤/ ١/ ١٢٩٦هـ على صورةِ الأمرِ الصادرِ من رئاسةِ مجلس شورى الدولة رقم ٢ المؤرَّخَةِ في ١١/ تشرين الثاني/ ١٢٩٤ رومية، شرعَ صاحبُ السعادة قائمقام ولايةِ الحجاز بإجراءِ الكشف بما هو لازمٌ تعميرُه وتجديدُه على زاويةِ وتكيةِ بلخ وبُخارى وخوقندَ وكاشغرَ، والمقيمينَ بها بندر جُدةَ بحارة الشام، ومن بعد إيفاءِ الحج الشريف كذا تصيرُ إقامتُهم بها.

ووفقًا للأوامر الصادرةِ المومئ إليها، فقد صار الكشفُ على الزاوية المذكورة بمعرفةِ الواضعين أسماءهم وأختامَهم أدناه بهذه البلدة، ومَنْ لهم خبرةُ تعميرٍ وتجديدٍ وإنشاءِ زاويةٍ جديدة، كما هو مبينٌ في القراراتِ أعلاه. فبلغَ بينَ أجوراتٍ ومشترواتٍ بحسب الزيادةِ والنقصانِ مبلغًا قدرُه سبعةٌ وثلاثون ألفًا وستمائةٍ واثنانِ وتسعين قرشًا عملة دايرة كما هو مبين، ولأجل ذلك صار تحريرُ هذا الكشف أصولًا من مجلس البلدية، والأمرُ أمرُكم أفندينا ٩ محرم ١٢٩٦. أسماءُ وأختامُ رئيس مجلس المدينة وأعضائِها والبنائين. (مرفق صورة الوثيقتين).

الوثيقة رقم (٣) :

وثيقة باللغة العربية وفيها يَسترحِمُ أهالي جُدةَ من أميرِ مكةَ أن يرفعَ الأمرَ إلى الأستانةِ للنظر في ترميمِ الزوايا إلى جانب المساجدِ والجوامعِ في مدينةِ جُدةَ، ويشتكونَ من عدمِ اهتمامِ القائمينَ على أمور الأوقافِ بها، وجاء فيها: المعروضُ لمقامِكم الرفيعِ أنَّ حالةَ المساجدِ والزوايا وما يتبعُها من الأوقافِ في منتهى الحطة، وأن إدارة الأوقاف لم يهمَّها تعميرُها أو على الأقل ترميمُها، وأصبحتْ تلك المساجدُ التي يُذكر فيها اسمُ الله مأوىً للحشراتِ والقاذوراتِ والذبابِ، ومفقودٌ فيها الماءُ والنورُ والفرشُ إلى آخره. (مرفق صورة الوثيقة).

الوثيقة رقم (٤) :

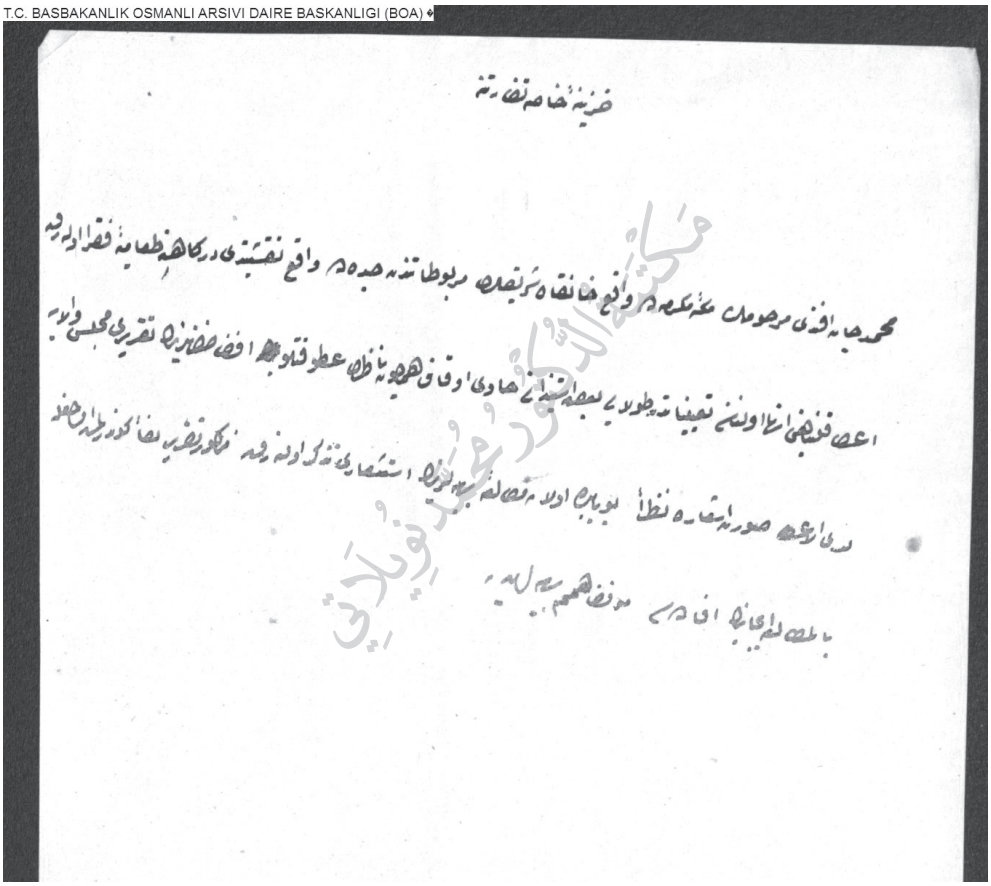
T.C. BASBAKANLIK OSMANLI ARSIVI DAIRE BASKANLIGI (BOA)

إلى وزارةِ الخزينةِ الخاصةِ: نرجو اطلاعَ هممِكم الساميةِ والإيفاءَ بالرد على العريضةِ وصورةِ التقرير المرفقِ به، والتي تحوي الطلباتِ الخاصةَ بعطوفةِ وزيرِ الوقفِ السلطاني، والمرسلةِ إلى المجلس الأعلى، والتي تدور حولَ تخصيص مقدارٍ من المؤونة والزاد لفقراءِ التكيةِ النقشبنديةِ في جُدةَ والمرتبطةِ بالخانقاه الشريفةِ للمرحوم محمد جان في مكةَ التاسع من ربيع الأول ١٢٧٠ هجرية.

الوثيقة رقم (٥) :

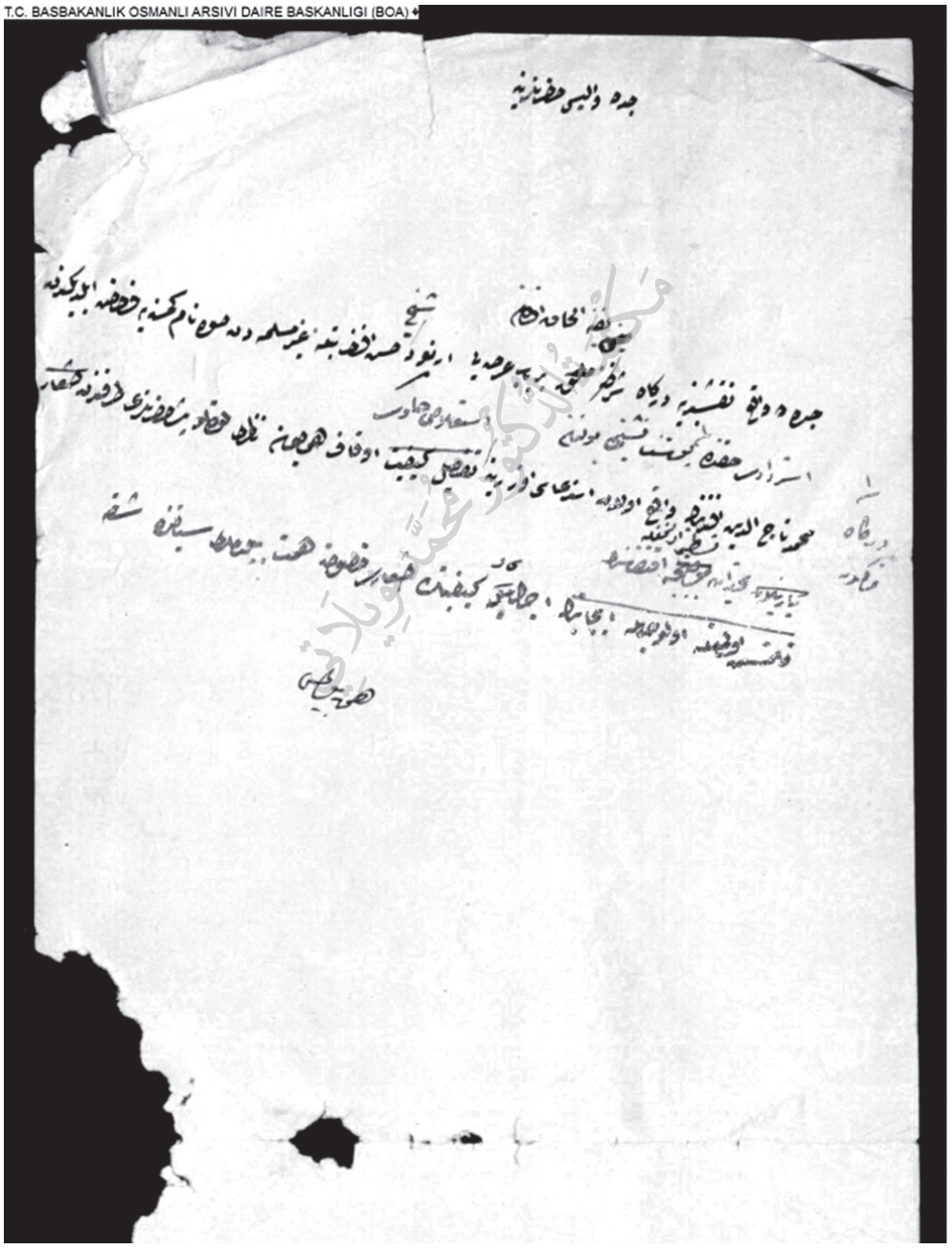

في الدفاعِ عن أملاكِ التكايا؛ اعتمادًا على ما سطَّره شيخُ التكية النقشبندية محمد تاجُ الدين أفندي بالاستعلام عن تفاصيلِ الأوقافِ الهمايونية، وتحديدِ الأطراف بغيةَ استردادِ الأرضِ ذاتِ الباب الواحد، الملحَقَة بالتكيةِ النقشبنديةِ في جُدةَ، حيثُ إنَّ المدعو الشيخَ أرناؤوط حسن أفندي، كان قد باعَها لشخص غيرِ مسلم يُدعى صوه، وقد جاء إشعارٌ محررٌ بذلك من طرفِ معالي وزيرِ الأوقاف السلطانية، فيُرجى همتُكم في العمل على ذلك حسبَ المقتضىَ، التاسع والعشرون من ذي القعدة ١٢٧٤هـ.

المساعداتُ الماليةُ الموجهةُ إلى مشايخ الطرق الصوفية في الحجازِ عمومًا وجُدةَ، أو مساعدتُهم للانتقال للعيشِ في الحجازِ كثيرةٌ، نوردُ منها على سبيل المثالِ للدلالةِ على أهميةِ هذه الفرقِ لدى الدولةِ العثمانية والدورِ المأمولِ منها.

الوثيقة رقم (٦) :

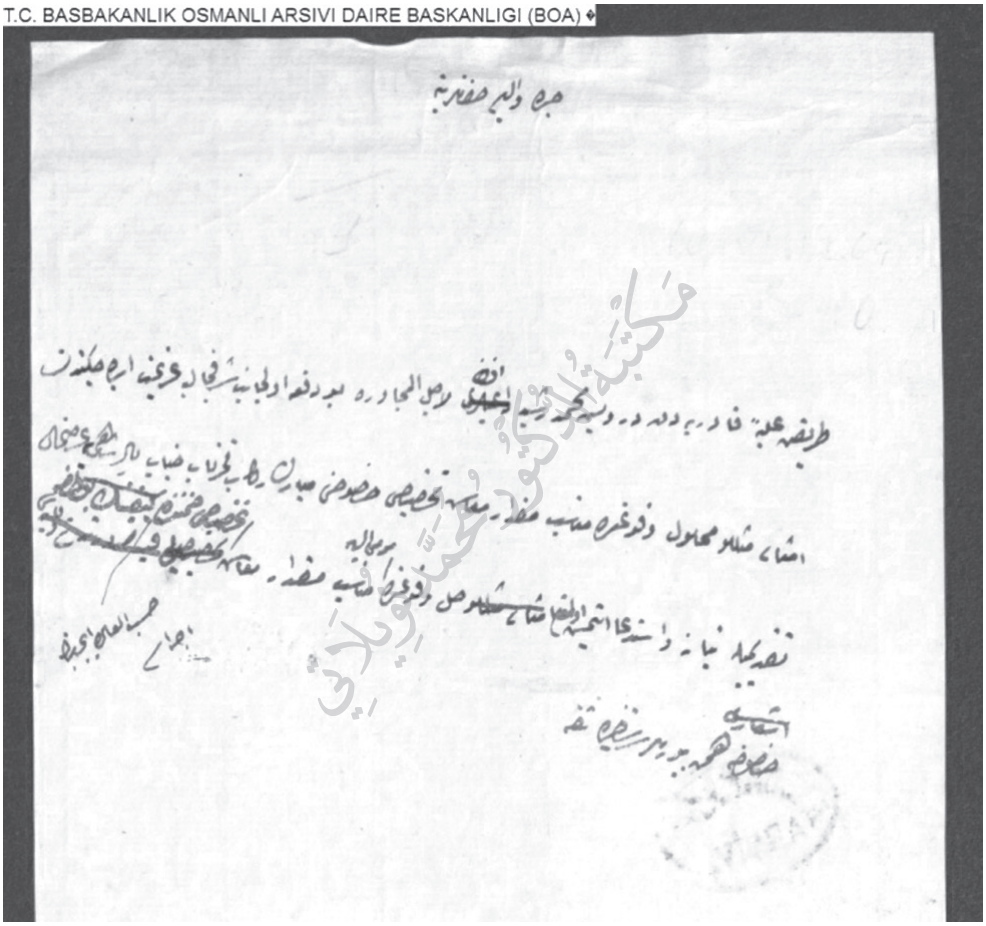

تزجية من السلطان إلى والي جُدةَ أنَّ الدرويشَ المنتسبَ للطريقةِ العليةِ القادريةِ محمد رشيد أفندي، قد عقَد العزمَ على القدومِ إلى الحرم النبويِّ بنيةِ الاستقرارِ والمجاورةِ، نرجو هممَكم العاليةَ في تخصيص معاشٍ شهريٍّ كما لأمثالِه من المجاورينَ، كما جرتِ العادةُ بذلك ١٢/ جمادي الثاني/ ١٢٦٤هـ.

الوثيقة رقم (٧) :

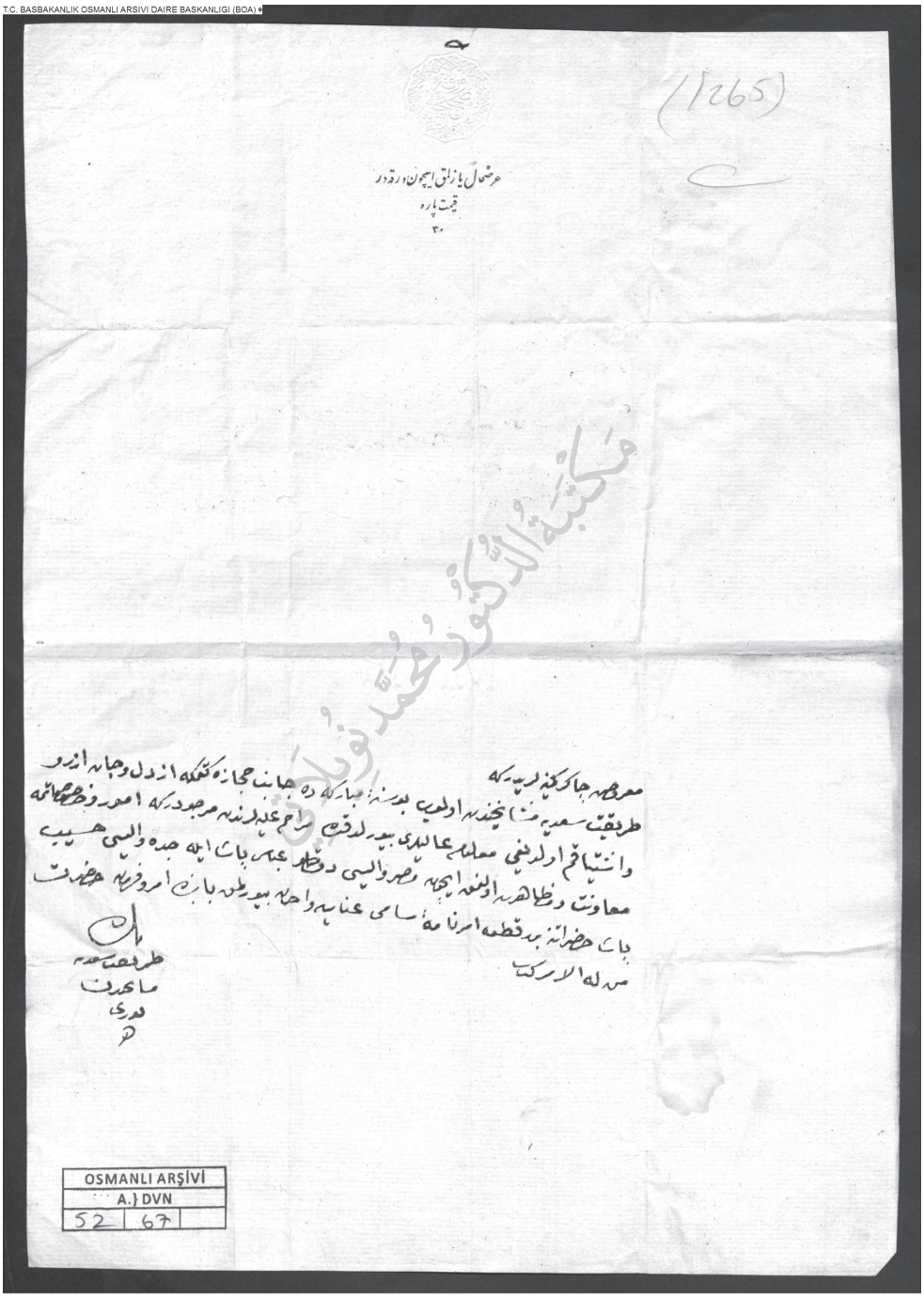
T.C. BASBAKANLIK OSMANLI ARSIVI DAIRE BASKANLIGI (BOA)

(1265)

عرضحال بازاق ایچون ورقه در
قیمت پاره
٣٠

معروضه چاکرکنه‌لریدرکه
طریقت سعیه‌منی اخذیله اولباب بوسنه‌ده جانب حجازه کتمکه ازدل وجانه اندرو
وانشاءالله اولدقنی معلوم عالیلری بیوردقده راجع عبدلرینه مرجودرکه امور وخدماتنه
معاونت وظاهره اولنه ایچون وصه والیسی دوستلو عبدیاپاشایه جده والیسی حسیب
پاشا حضرتلرینه بردقطعه امرنامه سامی عنایه واصله بیوردقلرندن امروزیه حضرت
پاشا حضرتلرینه
عرض له الارکت

طریقت سعیه
ما بحدث
لدی
ح

OSMANLI ARŞİVİ
A.} DVN
52 | 67

ورقة لكتابةِ عرضِ الحال ثمنُها ٣٠ بارة.

معروضُ خادمِكم أننا مِنْ مشايخِ الطريقةِ السعديةِ الذي استبدَّ به الشوقُ لزيارة منطقةِ الحجاز، أستعطِفُ جنابَكم العالي من أجل إعطائي خطابًا إلى حسيب باشا والي جُدةَ، وآخرَ إلى عباس باشا والي مصرَ، وفيه توجيهٌ من عنايتِكم الساميةِ وإحسانِكم الصميم بِمدِّ يدِ العونِ والمساعدةِ لي في سفري، والنظرِ في أحوالي، والأمرِ في ذلك لحضرة من له الأمر. عبدكم نوري من مشايخ الطريقة السعدية ٢٩/ ذي الحجة/ ١٢٦٥هـ.

الوثيقة رقم (٨) :

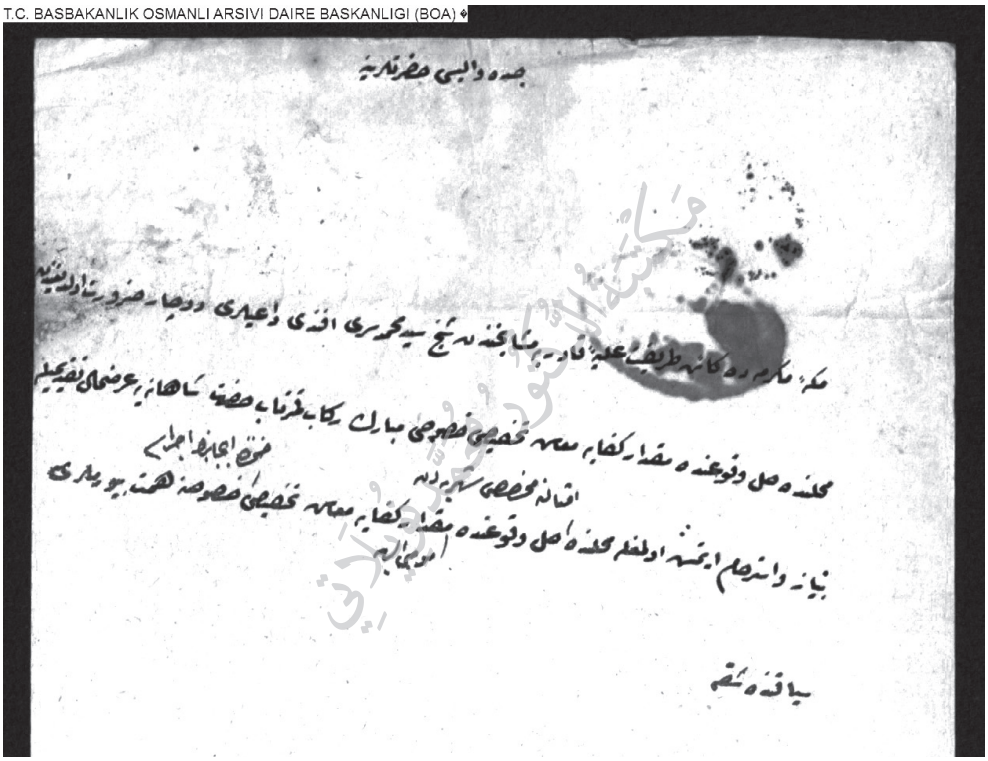

إلى حضرةِ والي جُدةَ. مذكرةٌ للتوجُّهِ بتخصيصِ معاشٍ شهريٍّ كافٍ للسيد محمد سري أفندي مِن مشايخِ الطريقةِ العليةِ القادريةِ الساكنِ في الحجاز؛ بسبب حالِ المسكنةِ والفاقةِ التي وقعَ فيها، نأملُ هممَكم في القيام بالإجراءاتِ لتقديمِ معاشٍ شهريٍّ لأمثالِ المذكور مِنْ تاريخِ انقطاعِ جرايتِه. في ١٠/ صفر/ ١٢٦٦هـ.

الوثيقة رقم (٩) :

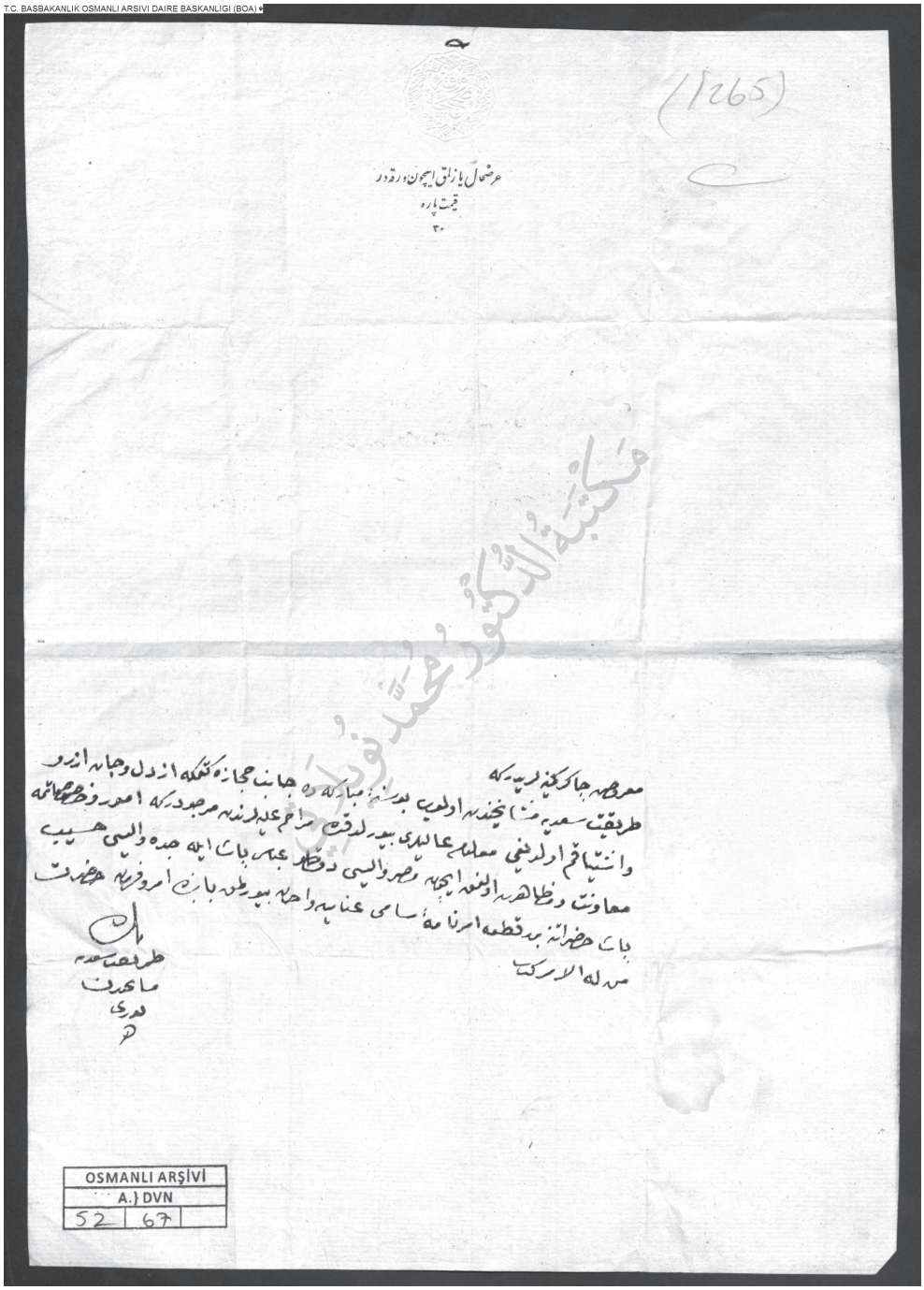

ورقةٌ لكتابةِ عروضِ الحالِ ثمنُها ثلاثون بارة.

معروضُ خادمِكم أنَّ عبدَكم العتيقَ والداعيَ لكم باستمرارٍ مِنْ خلفاءِ الطريقةِ النقشبنديةِ العلية قد عزمَ على الانتقالِ إلى المدينةِ المنورةِ نوَّرَها الله بنوره إلى يوم الدين، على سبيلِ المجاورَة معَ ثلاثةٍ مِنْ أولادي، بالإضافة إلى ولدٍ روحيٍّ واحدٍ، ليكونَ مجموعُ العازمينَ على المجاورة خمسةَ أشخاص، من بينها الداعي لكم؛ فإنْ تكرمتُم بالعطفِ علينا من فضلِ إحسانِكم بخطابٍ من مقامِكم السامي إلى فخامةِ الباشا والي مصرَ، كي يلبيَ داعيَ الهمةِ بتخصيصِ حجرةٍ معيشةٍ وتكاليفِ مؤونةٍ في تلك البقعةِ المباركة لدى وصولِنا إلى الحجازِ من الإسكندرية، والأمرُ لحضرةِ مَنْ له الأمرُ. في ١٢ – ذو القعدة/ ١٢٧٦ عبدُكم قارئ المثنوي علي خواجه الساكنُ في محلةِ عشق باشا في الفاتح.

صور المقام في مراحل تاريخية مختلفة:

La cuve de pierre, longue de 80 mètres, dite le « tombeau d'Eve », qui a donné son nom à Djeddah.

في مطلع القرن العشرين، الناحية الجنوبية للمقام

الزوار عند المقام

قبة المقام محاطة بشواهد قبور كبار الصوفية

صورة القبة من الأرشيف العثماني

قبر أمنا حواء من الداخل. تُنشر بإذن خاص من أرشيف مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني جامعة أوكسفورد مجموعة نورمان مايرز. أخذت في مطلع القرن العشرين

قبر أمنا حواء في جدة قبل هدمه

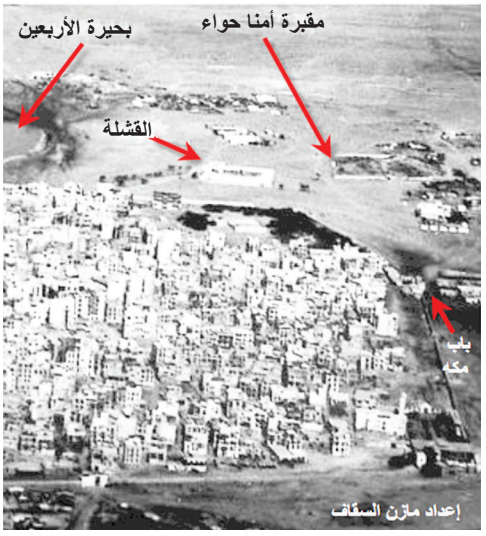

مقام حواء خارج العمران

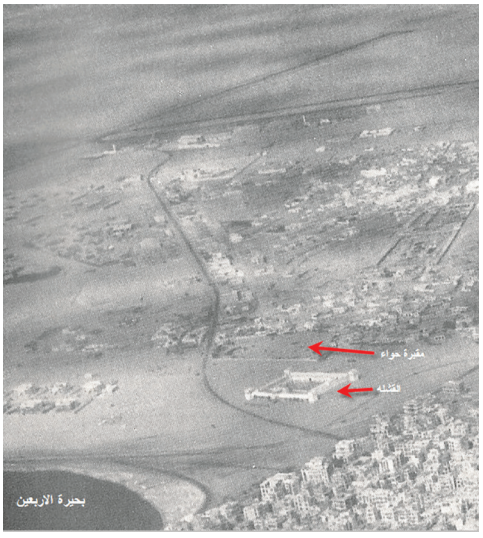

مقبرة حواء في الصحراء

يعكس المقام الذي بُني مطلع القرن الثاني عشر على قبر الخليفة عثمان بن عفان في البقيع الشغف العثماني بالمقامات على القبور، والطراز العمراني

المصدر: مصور في الحج... رحلات محمد أفندي السعودي
هيئة أبو ظبي للسياحه والآثار، أبو ظبي ٢٠١١، صفحة ١٥٢.

الشكل النهائي للبوابة الغربية في ٢٠٢٠م

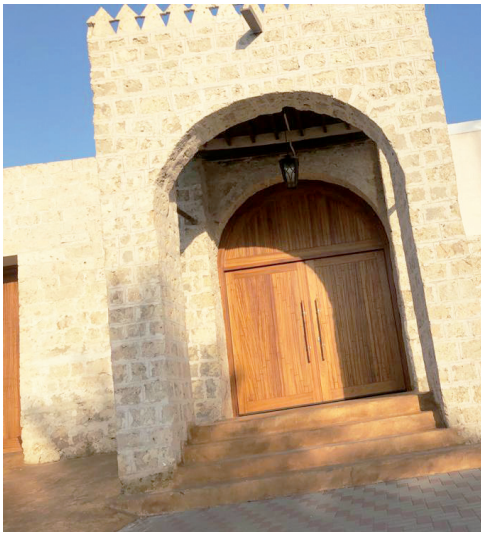

البوابة الحديثة للمقبرة بُنيت على بقايا المبنى العثماني

البوابة الغربية للمقبرة والتي تؤدي إلى المقام في صورتها العثمانية

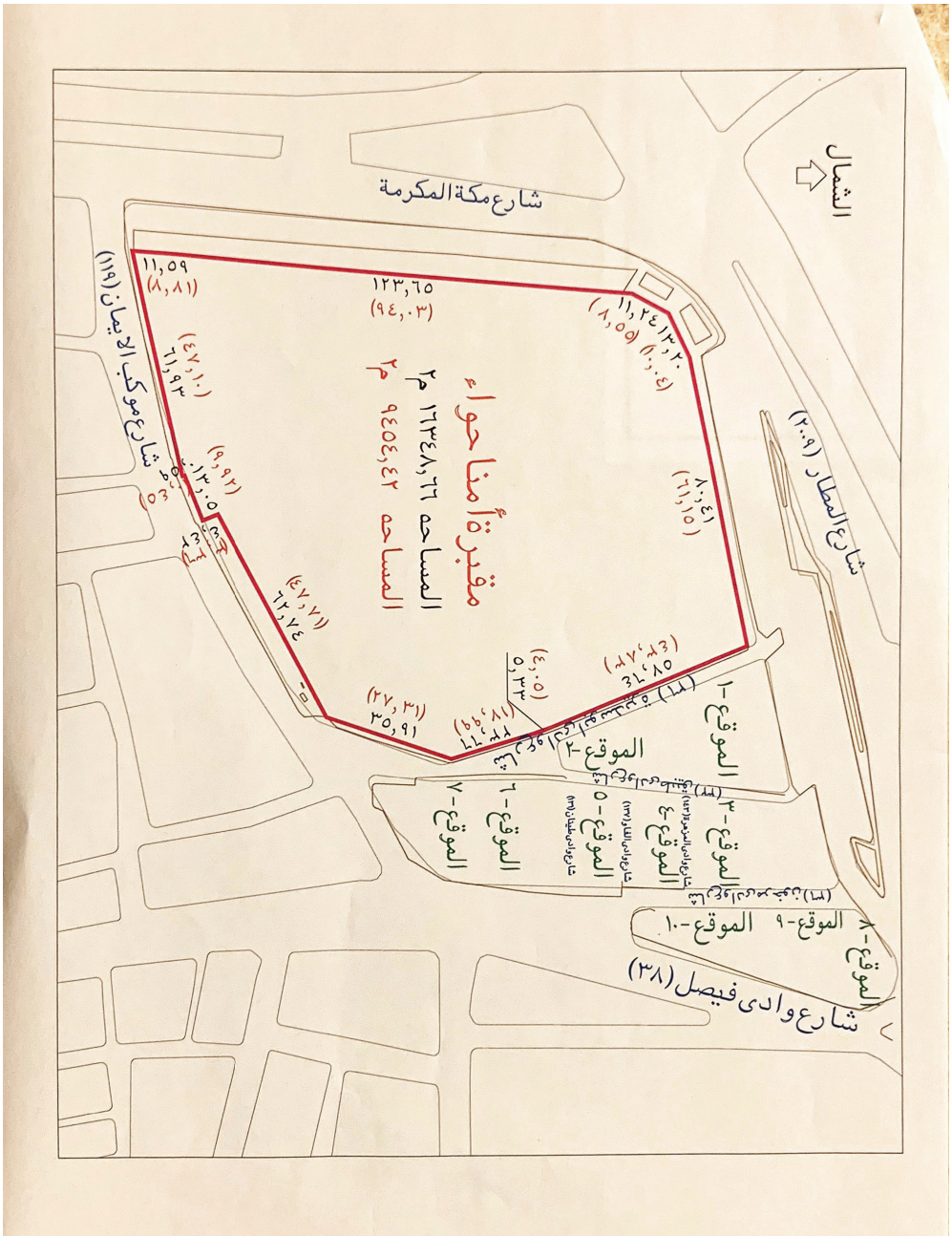

تنزيل المساحة العثمانية على مساحة المقبرة الحالية الخط الأحمر

المساحة العثمانية

رفع مساحي معتمد للمقبرة من أمانة مدينة جدة

خريطة توضح مقبرة أمنا حواء عام ٢٠٠٠م

خريطة توضح مقبرة أمنا حواء عام ٢٠١٩م

منظر من الدور العلوي للمنزل الذي نشأ فيه الكاتب، وكانت المقبرة في ذلك الوقت صحراوية في أجزاء كبيرة منها

صورة لمقبرة الأسد من الداخل ويلاحظ مدى تشابه القبور مع قبور أمنا حواء حسب مواصفات الأمانة

ممر الجنائز من المسجد في عمق العمارية إلى البوابة الجنوبية...
الشارع إلى الشمال هو ملعب الكرة

الشارع بين سور المقبرة والمنزل الذي نشأ فيه الكاتب
ويظهر جانب من البيت

المؤلف في سطور

- مواليد جدة عام ١٩٥٥م.
- تلقى تعليمه الأساسي في المدارس الحكومية.
- حصل على البكالوريوس من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ١٩٧٦م.
- عمل في القطاع الخاص، ثم امتهن الصحافة في جريدة المدينة ١٩٧٨ - ١٩٧٩م.
- ابتعثته رئاسة الطيران المدني إلى الولايات المتحدة، وحصل على شهادة الماجستير من جامعة وبستر ١٩٨١م، ثم الدكتوراه من جامعة لي هاي ١٩٨٦م.
- حصل على العديد من الشهادات المتخصصة من عدد من الجامعات، منها ستانفرد وشيكاغو وكولومبيا وديوك وبرونيل، ومدرسة لندن لإدارة الأعمال، وجامعة تاليس الفرنسية، وعدد من مراكز التدريب العالمية.
- أشرف على تدريب وتأهيل وإجازة الآلاف من الشباب السعودي في مجال الطيران المدني على مر السنين من مواقع مختلفة.
- مؤسس وأول رئيس للأكاديمية السعودية للطيران المدني.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات المتخصصة.
- عضو في لجان مناقشات لدرجات علمية.
- عمل قرابة ثلاثة عقود في مناصب قيادية في الطيران المدني.
- بعد التقاعد من الوظيفة الحكومية له نشاط ثقافي ومحاضرات تهتم بتجديد التراث الإسلامي، وله مكتب استشارات اقتصادية.
- نُشر له العديد من الأعمال، منها كتابه «سيرة ومسيرة... ملامح من استراتيجية التحرر الاقتصادي لقطاع الطيران المدني السعودي... ونظرة نحو المستقبل» القاهرة ـ دار الشمس ٢٠١٨م، و«أسطورة جدة (أمنا حواء بين الأساطير والأديان والعلم)» القاهرة - دار رؤية ٢٠٢٠م.
- متزوج وله اثنين من الأبناء واثنتين من البنات.